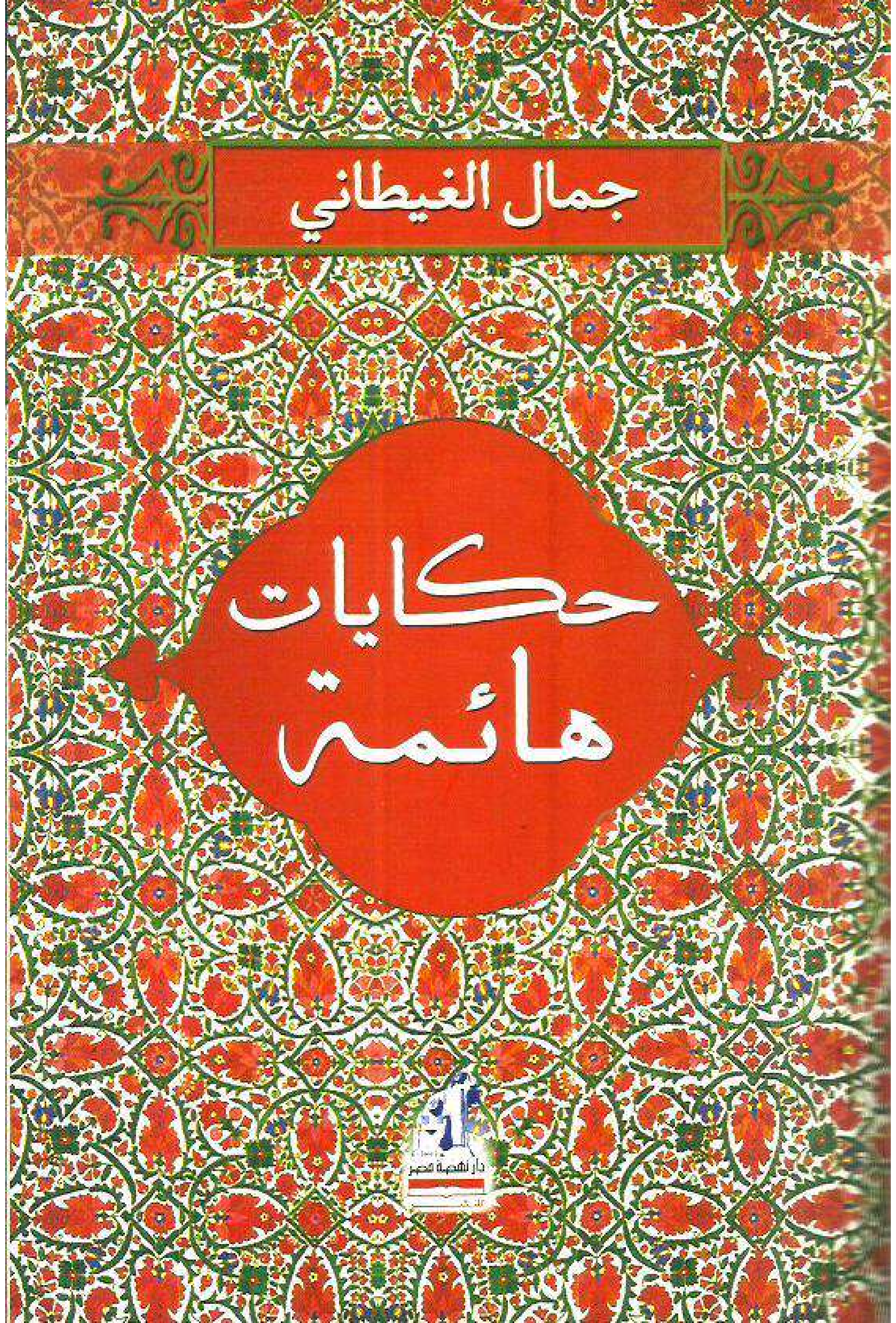

جمال الغيطاني
حكايات
هائمة
دار نهضة مصر

جمـال الغيـطـانـي

# حكايات هائمة









العنوان:

# حكايات هائمة

تأليف:

## جمال الغيطاني

إشراف عام:

**داليا محمد إبراهيم**






أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

الترقيم الدولي: 7-5257-14-977-978
رقم الإيداع: 27340 / 2014
الطبعة الأولى: مارس 2015

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة




حكايات
هائمة


MOHAMED KHATAB


MOHAMED KHATAB


MOHAMED KHATAB


محمد خطاب




هـذه حكايـات هائمـة فـي الذاكرة، بعضهـا ربما تكون له أصـول في الواقع إلا أنـه يصعب تحديدها، وبعضها توهم محـض، المصادر المذكـورة لا أصول لها، ربمـا فُقدت إلى الأبـد، وربما لا توجد إلا في مخيلتي.


MOHAMED KHATAB




# حكايات سديمية


MOHAMED KHATAB




# رحلـــة

بعد سـفر طويل اسـتغرق شـهورًا، اجتـاز خلاله طالـب العلم اليافـع براري وهضابًـا وممـرات صخريـة وأنهارًا وعـدة بحور، مكـث في فنادق وقياسر شـتى، ودور لإقامـة الغربـاء، وحل ضيفًا على من لا يعرفهم، بعـد أن يعلم القوم وجهته يفسحون له، يضيفون إليه، يبدون التعاطف مع الذي بدأ من أقصى المغرِب قاصدًا تلـك الجزيرة النائية في أقصى المـشرق، لم يخترها الحكيم عبثًا للإقامة النهائية، يؤكد كل مـن لـه إلمام بالفلك أن أول شروق للشـمس يكون عندهـا، صخورها أول ما تلامسه الأشعة الوافدة والضوء المسافر عبر ثماني دقائق بمقياس ينسب إلى سرعته، ثـم يبـدأ الانتقـال من موضع إلى موضع، مـن بحر إلى بحيرة، من سـهل إلى جبل، مـن بـرد إلى حر، إلى اعتدال، لم يتوقف عند المشـاق المتوقعـة، وكلما ضاق به الحال اسـتعاد اللقاء المتوقع فيبدأ من داخله استنفار فيستأنف، إلى أن حلت اللحظة التي رسـا فيها عند شاطئ تلك الجزيرة التي تتدرج أرضها في الارتفاع المغطى بأشـجار كثيفة، ما تعجب له أن كل من التقاه بدا وكأنه متوقع لوصوله، ولم يكن استفساره عن مكان إقامة الحكيم، المعمر، الذي ذاع صيته يقابل إلا بصادق المعاونة، والنطق بها يدل لا أكثر.

أخـيرًا... مثل بـين يدي الرجل الذي بـدا نحيلًا حتى ليـكاد يمكنه الرؤية من خلالـه، بـدا المكان بسـيطًا، يسـيرًا، لا امتداد له، كـوخ أو بيت صغـير من جذوع

النخيل المنتشر في الجزيرة، غير أن ما لفت نظره أربعة كتب إلى يمين الرجل الذي ذاع صيت علمه وحكمته حتى قيل إنه ينطق بالخلاصة.

بقدر انبهاره بمثوله أخيرًا بين يديه، بقدر ما دهش لقلة ما رآه من مجلدات وتقشف في المكان، فقط أربعة كتب؟ أين الخزانة العامرة التي تخيلها؟ أين الصومعة المدججة بالمخطوط والمطبوع؟ لم يستطع إلا أن ينطق بما لحظه، مع أنه ليس من اللائق إبداء الملاحظة في الحضرة، ولكنه هنا، بعد هذا التنقل الطويل لا يستطيع إلا النطق بما يجول عنده.

«لا أرى إلا أربعة مجلدات، أين الكتب التي تستمد منها حكمتك وعلمك؟».

بدأ الحكيم هينًا، حنونًا، كثير العطف، عندما قال:

«لماذا تسأل، ولا أرى معك إلا أربعة كتب أيضًا؟!».

قال المسافر الذي وصل أخيرًا:

«لكنني في رحلة..

جاوبه الحكيم بهدوء وديع، باسمًا:

«أنا أيضًا في رحلة..



# بســـتــان

جـاء في مخطوط نـادر لمؤلف مجهول: إنه في عام ستمائة وثلاثين هجرية، وصل إلى مصر شخص مغربي دخل القاهرة من باب زويلة قبل الغسق، كان له يد طائلة في علـم السـيمياء، أقنع واحدًا من كبـار صناع البُلغ المذهبة بشراء بسـتان يمتد في الصحـراء، لا يطالـه أحـد ولا يقربه إنسـان أو حيوان أو هوام، يحوي أشـجارًا لا مثيل لها، وفواكه غريبة المذاق لا تنبت إلا فيه، فيه سـواقٍ تدور بغير ثيران أو بغال تأتي بماء زلال فيه شفاء من كل علة، ورجال يكدون أربعًا وعشرين ساعة، لرعاية النبات والتنسيق، لا ينطقون ولا يُسمع لأحدهم شكوى، قبل تمام الشروق خرجوا من بـاب الفتوح قاصدين صحراء الريدانية، المغربي وصانع البُلغ المعروف بالحاج ظريف وثلاثة من معارفه جاءوا كشهود، بعد حوالي ساعتين اجتازوا خلالها رمالًا ممتـدة وكثبانًا باقية، أشـار المغـربي أن يقفوا، ولّى الوجه تجاه الـشرق، تبعوه، أطالوا التحديق، شيئًا فشيئًا بدا ظهور الأشجار والنخيل وأغصان النبات، وكلها أحوال لم يعرفهـا أحـد في بر مصر ولا البلدان المجاورة، تجولـوا في الممرات المؤدية، عبروا الجسور الموصلة، وقرب الظهر جلسوا تحت مجموعة من أشجار النارنج، لا يُعرف مثلهـا في الوادي، إذ إنـه لا ينبت إلا في جزء صغير من سـاحل عُمان، بلدة مرتفعة اسمها صلالة، وفي بلاد ما وراء الشرق، لابد من اجتياز المحيط إليها، أبدى المعلم

ظريف الرغبة، وتم الاتفاق، اشترى البستان بألف دينار، أشهد الشهود، وعادوا إلى المدينة لتسجيل البيع والشراء عند القاضي، مضى المغربي إلى حال سبيله.

صباح اليوم التالي خرج الرجل قاصدًا البستان، وصل إلى ما خيل إليه أنه المكان، غير أنه لم ير إلا الرمال، صار إلى كل اتجاه، التقى ببعض عربان أكدوا أنهم لم يسمعوا عن وجود بستان، هذا محال، حصل له ماخوليا، لزم الصحراء بحثًا عن البستان ولم يره أحد في محل تجارته أو إقامته.

# الاسم الأعظم

لم يشـتهر حاله لأنه يعرف علوم القوم فحسـب، إنما لأمرين آخرين ألم بهما كل قـاصٍ ودانٍ، الأول أنه الوحيد الذي ما زال حيًّا يسـعى، يمكنـه قراءة قلم الطير، أي تلك الكلمات الغامضة، المسـتعصية، المسـتغلقة على الأفهـام والأذهان، أطلق عليها العرب الذين نزلوا صعيد مصر ذلك الاسـم لتكرار ظهور الطيور بمختلف أنواعها بين علامات أخرى فيها مفردات من الحياة اليومية المسـتمرة، مثل الثعبان والعين البشرية واليد والعصا والنحلة.

كيف أتقن ذو النون قلم الطير؟

هنـا تتعدد الروايات، فمنها القائل بلقاء جرى لـه أثناء عزلته في البرية مع أحد الكهـان القدامـى الذيـن اعتزلوا قرب عين مـاء نحيلة في الصحـراء التالية لأخميم جهة الشرق، حيث توجد مسـارب وخيران وأودية مفضية إلى البحر الذي تشرق الشـمس مـن ضفته الأخرى، في الديـار كما يقول العارفون بحـران، الأول شرقي تطلع منه الشـمس، والثاني غـربي ترحل فيه عند تمام اليوم، يبـزغ القرص من الماء وينزل إلى الماء مثل كل شيء يدب فيه نفس ويكون منه سعي، أصله الماء.

لـولا الماء لما عاش هـؤلاء الكهان القدامـى الذين توارثوا مكانهـم هذا أبًا عن جد ومعه العلم القديم، ليس كله، إنما ما يمكن به فهم المدونات، هكذا بقوا جيلًا بعـد جيـل في الصحـراء العميقـة، لا يعرف أحـد ولا يلم مخلوق بكيفية تناسـلهم

واستمرارهم إلى أن انتهى الأمر إليه، ربما يوجد غيره في مكان ما قريب من النهر أو في البرية، لكنه الوحيد المعروف في وقته.

أيًّا كانت الروايات المتناقلة فمعرفته بهذا القلم الغامض، المحير، الذي غابت مفاتيحه، وتوارت السبل المؤدية إلى فهمه وإتقانه، يقين لا شك فيه حتى إن البعض قصده من أماكن شتى للاطلاع على بعض ما يعرف لكنه لم يفض إلا بقدر، وبعد تأكيدات يقينية لا حصر لها، يمكن الإحاطة ببعضها، مما اشتهر عنه وبلغ الأقاصي معرفته بالأسماء، هؤلاء الكهان الذين اتصل بهم وأخذ عنهم أحفاد من سموا الأشياء بأسمائها، لنا أن نتخيل هذا الوجود بلا أسماء، كعالم بلا ألوان، يستوي فيه الشيء بالشيء فلا يكون وجود، ولا تكون صيرورة كل الأسماء معلنة، متاحة، متداولة، يختلف نطقها من قوم إلى قوم، لكن الجوهر واحد. إنه المميز المحدد، كل الأسماء معروفة عدا واحد فقط، إنه الاسم الأعظم، اسم الله الأعظم، أسماؤه الشائعة معروفة، جلية، تسعة وتسعون، لكن الاسم الأعظم خفي، متوار، لا يعرفه إلا إنسان واحد في كل زمان بعينه، كثيرة تلك الإشارات التي تجعل البعض على يقين من إحاطة ذي النون به، عديد أولئك الذين قصدوه من مسافات قَصِيَّة وقريبة، ينتظرون فراغه من عمله الذي يتقنه ويقتات منه، نسج الحرير طبقًا للأصول العتيقة، هذا حرير ذاع صيته وبلغ الضفاف الأخرى من البحار القصية والدانية، كان يتعهده بدءًا من كمونه في أوراق شجر التوت الأبيض والتي يطعمها للديدان المعنية، ثم يتابع الأطوار حتى الحصول على خيوط الحرير الذي لا مثيل له إلا في أقصى الدنيا من ناحية الشرق، لكن يظل لحرير أخميم خصوصيته وفرادته.

يحفظ ذو النون الأشكال المتوارثة، الخوض في معانيها يقتضي التفصيل الدقيق، والإحاطة بأمور ضاع معظمها وتلاشى، لكن ثمة معان كامنة، فتلك المربعات المتداخلة مع المستطيلات، والمثلثات، المشمولة بالدوائر لها معان، كذلك الألوان، لها دلالات، ومنها تمييز.

كان القـوم يجيئـون إلى أخميـم قاصديـن ذا النـون لمسـائل، لكن بمجـرد وقوع أبصـارهم عليه أثناء عمله، يداه تمسـكان بطرفي الخيوط وقدماه تضغطان دواسات النول المتصلة بطبقات السـدى، تتعلق أبصارهم بحركته المنتظمة، الرتيبة، الدقيقة، شـيئا فشـيئًا ينتبهون إلى وضعيته، جلسـته، انحناءتـه، نظره المسـدد إلى نقطة يخيل للرائـين في البدايـة أنهـا إلى الخيوط، لكنهم يكتشـفون بعد لحيظـات أنها راحلة إلى حيث لا يمكن التعيين، يدركهم صمت ويأخذهم ورع ممتزج برهبة، تمضي الساعة في إثـر السـاعة وهم شـاخصون، هو لا يـكل ولا يتوقف، بل إنه يبـدو لا نهائيًّا في حركته.

لم يكـن أحـد أيًّـا كان يجرؤ على النطـق في حضرة انهماكه، دفعـه للخيط من حد إلى حد، تحريكه مشـط النول ليكبس الخيـوط، لتتحول الأنفاس إلى قماش حريري تضاهـي رهافته الأفكار العابرة والأحلام التي لا تعمر إلا وقت وقوعها، كثيرًا ما ردد أصداء الأنفاس في المسـافات الفاصلة بين السدى واللحمة سواء كان النسيج من قطن أو حرير أو صوف.

صلته واسـتغراقه بنسـج الخيط بعد الخيط ذاعت وشـاعت، وصار له في ذلك مسـائل، شـأن مسـائله في الأبواب الأخرى، عندما جاء الأمير قمري سـاعيًا إليه سـيرًا على الأقـدام من منطلقه في حاضرة البـلاد ومركزها، لزم بابـه أربعين يومًا؛ إذ كان مشـغولًا بنسـج قطعـة من حريـر وزخرفتها برسـوم رآها في المنـام، أيقظته ألوانهـا وتداخـل خطوطهـا. ورغم نـوء الوسـن، لم يفعل كما جرى منـه قبل ذلك خاصـة أن الليلة شـتوية، باردة، والـدفء مغرٍ بمواصلة النوم، يحـدث هذا كثيرًا، أن يسـتيقظ أثنـاء الحلم أو بعـد الفراغ منه بتأثـير منه وبه، يبـدو كل شيء واضحًا ناصعًـا، فيظـن أن ذلك لن يبيد أبدًا، في الصباح يدون ما رأى، يغمض عينيه، لكنه في اللحيظـات الأولى مـن اليقظة يجتهد لتذكر ما مرَّ به، ولكـن عبثًا، هذا حال عام يعرفـه الكثـيرون، لكن الأمـر اختلـف في تلك الليلـة، رأى الزخـارف التي طال

انتظاره لرؤيتها، لرصدها، لتدوين تفاصيلها، لم يكن في حاجة إلى رسم ما رأى، أو تدوين الألوان، الخطوط المتداخلة، المكونة لما رأى، كذلك درجات الألوان، أدرك من منامه أن شرط تجسدها في تدفقها من مخيلته إلى الخيوط مباشرة، إلى النسيج، مكونات الصباغة لديه، عند الحاجة يبدأ، المقادير كأن مجهولًا أعدها له، ما عليه إلا التذويب والتقليب، ثم غمر الخيوط وتجفيفها، هكذا ظهرت درجات لم يعرفها من قبل، لم تدون على جدران ولا في منمنمات أو مداخل مخطوطات، أحمر غير مطروق، وأصفر مجهول، وأزرق وافد، أما الأخضر فلا نهائي، أغرب ما عاينه أن الأبيض يوحي بالأسود، والأسود يُبدي الأبيض.

لم يكن بحاجة إلى أن يفهم، أو يدرك، فالهاتف الخفي تكفل وأوفى، شرط التمام ألا يتوقف أبدًا، أن يشرع ولا يكف، هكذا أقدم، بدأ، تعاقب عليه الشروق المهيب والمغيب الغامض، الغسق والليل وما وسق، لكنه لم يهن ولم يكف عن النسيج بلا كلل، بلا ملل، بلا وهن رغم أنه لم يتناول إلا رشفات ماء شحيحة من وعاء لم يملأه، إنما كان يحتفظ بمستوى معين من الماء لا يزيد ولا ينقص.

قال القوم للأمير المرشح للولاية بعد أبيه إنه لن يخرج من الخلوة قبل إتمام النقوش، لو فارق النسج مرة واحدة فلن تكتمل، يبدو أنهم ملمون بالحال عبر لحظات منقضية، سوابق مولية، أمضى الأمير قمري أربعين يومًا يجاهد الوسن حتى لا يغفو، لم يشترط أحد عليه شيئًا محددًا، لم ينبئه أحد بضرورة يقظة موازية، لكنه الخجل، هل يغفو وذو النون لا يتوقف عن النسج، عن العمل، منذ أن بدأ وظهره منحنٍ على النول، قدماه تحركان الدواسات التي تشد السدى، ترفع الخيوط وتخفضها لتفسح الفراغ الكافي، المحقق لتلقيح اللحْمة.

عندما فرغ ذو النون من النسيج بعد أن صف الخطوط المعاكسة، الحافظة، حتى لا تنسل الخيوط من بعضها، تراجع متأملًا نتاج ما فعل، احترم جميع الشاخصين

المحيطـين به صمته، فلم ينطقوا إلا عندما فـارق مكانه من النول، المقعد جزء منه، يتوحد الصانع بالآلة تمامًا، عند جلوسه واندماجه يبدو أنه جزء منها.

إنها اللحظة المناسبة لكي يتقدم منه الأمير قمري، نال الجهد منه، نحل، لكنه لم يهن، كان قادرًا على النطق بوضوح وسلاسـة، قال إنه جاء مشـيًا مسيرة أحد عشر يومًا، هكذا أخبره شيوخ الوقت، حددوا المدة. إنها عين الفترة التي تستغرقها نقطة الماء في تدفقها المعتاد من أخميم إلى حاضرة البلاد في الشمال.

أصغى إليه ذو النون هادئًا، متقبلًا، مؤمنًا، قال الأمير إنه يطلب الخلوة، عندما تطلع ذو النون إلى ملتمسي البركة والفرج كان ذلك يعني بالنسبة إليهم الانصراف، ابتعـدوا، عندمـا صـار كل منهما إلى الآخر، صرح الأمير بما سـعى من أجله، إنه لا يطلب تعلم قلم الطير، ولا إتقان فنون تخليق الألوان وتحديد درجاتها، ولا طرائق النسـيج المختلفة، إنه يسـعى إلى معرفة الاسـم الأعظم، الاسـم الأعظم ذاته، إنه مقبل على تولي المسـئولية والإمسـاك بمقاليد الأمور إلى حد لا يعلمه إلا الله، هكذا شاءت الأقدار، فإذا علم ما لم يعلمه غيره أمكنه السداد ويسر التدبير.

أشـار ذو النـون إليه بالكف، ربـما ليجنبه حرج التبرير والـشرح بما لا يتفق مع أبناء الملوك وربما لرفضه الإطالة بعد فهمه الحال.

«غدًا قبل شروق الشمس.. أراك هنا..

في اللحظـة المحددة، قبـل بزوغ طرف الدائـرة الكونية من الـشرق مثل الأمير قمري بين يديه، قدم إليه طبقًا فوق طبق.

«ستأخذ هذا، شرط أن تمسكه بيديك طوال الطريق، وأثناء عبورك النهر، هناك في الغرب، عند الدير الأبيض، قف تحت سوره ونادِ الأب بنيامين، سيخرج إليك، سلمه الطبق المغطى بطبق..

لم يبد الأمير قمري دهشة، ربما حاشها عن الظهور، لقد طلب ما لم يجرؤ أحد على النطق به، طلبه ببساطة وتلقائية، لم يشرح ولم يمهد، إذن عليه أن يتقبل كل ما يطلب منه، وأن يؤدي تمامًا ما يؤمر به مهما بدت الغرابة أو خرج عن المألوف، فما يسعى إليه أيضًا عين الندرة.

مشى صوب ضفة النيل، خلال تلك المسافة، ما بين بربا أخميم الشهيرة حيث يقيم ذو النون، ومرسى المراكب، خيل للأمير أن كل من يتطلع إليه يبدي الدهشة وربما السخرية، أهالي الناحية لا يعرفونه وهو حريص على ألا يتعرف إليه أحد، مع كل خطوة تنمو داخله حيرة، تتصاعد، ماذا يمكن أن يحويه هذا الطبق؟ ما علاقة الطبق بالاسم الأعظم؟ ولماذا يقصد الأنبا بنيامين القبطي؟ لماذا بدا وكأن الأب بنيامين يعرف بوصوله، بل وبندائه، توقف، تلفت حوله، لم يحذره من كشف الطبق، لو أنه نهاه لما فكر قط، لكن غرابة الطلب تدفعه إلى تلبية فضوله.

عندما أيقن بخلوته، لا أحد يراه توقف، استند إلى جذع نخلة، أمسك زفيره، كشف الطبق، لم يصدق ما يراه، هل يسخر منه؟ هل يهزأ به؟ أو أنه قصد تلقينه درسًا لتجرئه، لكنه كان من الممكن أن يلومه بتصرف مغاير لا ينال منه، لم يتم طريقه، إنما انثنى، مع كل خطوة يتصاعد غضبه، في نفس المكان، وعلى ذات الهيئة، رأى ذا النون، لم يفارق مكانه، وكأنه يتوقعه، قال غاضبًا، حنقًا:

«فأر ميت في طبق أحمله فوقه طبق...!! ماذا تعني؟ ولماذا تسخر مني؟».

ظل أبو الفيض متطلعًا إليه، استمر:

«هل تريد من الناس تناقل الحكاية، أهكذا يعامل الحكماء أبناء الملوك؟».

بعد أن أصغى هادئًا. قال:

«يا بني لم تطق صبرًا على معرفة ما يحويه طبق، فكيف لك أن تصبر على ما يعنيه الاسم الأعظم؟!».

# مصارعة

عندما علم صاحب وحاكم الأرضين، السفلى والعليا، أن ابنه البكر دخل طور الرجولة سُر وابتهج وقرر أن يدفع به ليتعلم فنون القتال، بدأ كالعادة بالمصارعة.

نزل إلى الحلبة بصحبته وفي مواجهة كبير المعلمين، بدا جسورًا، فياضًا بالطاقة غير المروضة، العفية، المقبلة، لكنه كان راغبًا أن يتعلم لذلك أبدى الطاعة وأصغى، أما المعلم فحرص على احتواء الاندفاعة الطبيعية وتأطيرها بالحكمة، إن تلقين الابن البكر لسيد الأرضين ليس بالأمر السهل، لكن ما يجعله دانيًا، ممكنًا القواعد المعمول بها، فمن واجباته -وليس من حقه فقط- أن يزجر وأن يقوِّم وأن يُعاقب، إنه ينفذ التلقين الذي تلقاه وأتقنه عندما التحق بالخدمة وارتقى بها وفيها.

قال للأمير إنه سيسلك معه طريقًا جديدًا، مؤديًا، سيعلمه ست عشرة حيلة، لن يقف أمامه بعدها مقاتل من أي جنس، بإتقانه تلك الست عشرة يتم المرحلة ولا خشية عليه بعد ذلك إنما يُخشى منه.

امتثل الابن تمامًا، أبدى طاعة ورغبة وفاضت جرأته في الحلبة، شيئًا فشيئًا انتظم اندفاعه، وتمحورت طاقته حول فنون لم يدخر المعلم جهدًا لنقلها إليه، وعندما حانت اللحظة المواتية طلب المعلم اللقاء فاستجاب سيد الأرضين، أصغى راضيًا، مبتهجًا إلى ما أفضى به كبير المعلمين لفنون المصارعة.

أقيم الحفل الفاصل بين إتمام تعلم المصارعة، وقبل بدء مرحلة تالية يتقن خلالها التدرب على الأسلحة المختلفة، في هذا الحفل تمثل رموز المملكة كلها، كذلك ممثلو شعوب البر والبحر، ويُهدَى إلى كبير المعلمين هبة ثمينة يسلمها إليه الأمير بحضرة والده كبداية وإشارة إلى بدء ممارسة المهام كلها.

صال وجال في الحلبة التي انتظمت حولها ترتيبات الحفل من مظلات ومقاعد وستور، ستة عشر مصارعًا من أجناس شتى، لكل منهم أسلوبه وميراثه وحيله، صرعهم واحدًا بعد الآخر، بدا متقنًا للأمر كله، وعندما انتهى بدا كأنه يستعد لبداية أو كأنه عائد من منتجع التأمل، اتجه راسخ الخطى إلى حيث يجلس والده مرتديًا الرموز كلها والشارات الدالة، طبقًا للترتيب يجب على الابن أن ينحني عند وصوله إلى الأب، ثم يتجه لينحني أمام معلمه وعندئذ تصدح الموسيقى، لكن الأمير فاجأ القوم كلهم بما فيهم سيد الأرضين نفسه، إذ إنه اتجه إلى المعلم مفرود القامة وعندما وصل إليه لم ينحن، إنما أبدى علامة الرغبة في المنازلة، تطلع إليه المعلم حائرًا، لم يصله نبأ من أخبار أسلافه عن لحظة تشبه تلك واقعة غير مسبوقة، غير مدونة في السجلات، لذلك تطلع إلى سيد الأرضين راجيًا أن يلقى منه الجواب، لكن لم يلح له شيء، لم تبد بادرة، لذلك لم يكن بوسعه إلا أن يلبي، فمن يقف أمامه الآن ليس التلميذ الذي يُلقن ويصوَّب، إنما الأمير الذي يحل مكان سيد الأرضين بعد غيابه المؤقت أو الأبدي، إنما هذا أمر.

اتجها إلى الحلبة، تبع الابن، ولأن الواقعة غير مسبوقة، لم يكن متأكدًا إن كان هذا الترتيب مطابقًا أم لا؟ ما من مرجعية أو قياس، من سيسأله، سيقول له مبررًا إن الأمير نفسه سبقه، كان واسع الخطى، متوثبًا، واثقًا، مزهوًّا بما هو كائن وما سيكون، ما بين مكان جلوسه الذي فارقه وما بين الحلبة حاول أن يتماسك، أن يفرغ لما هو آت بعد لحظات، أما دهشته وحيرته فليؤجلها إلى ما بعد انقضاء الوقت.

تواجهـا، لم يكـن كبير المعلمين خلـوًا من الخبرة التي تمكنه مـن فهم وإدراك ما هـو عليـه، ما يقف أمامه الآن، بدا الابن مسـتنفرًا إلى أقصى حد، وهنا أدرك المعلم أنه لن يقبل على مصارعة ينبغي فيها أن يتراجع إرضاء لابن سيد الأرضين، ولكنه مطالب بالذود عن حياته، هذا ما أستشفه من الهيئة والحضور الذي يواجهه.

صيحـة واحدة أطلقها الجمـع، ولم يعرف المحيطون هل صرخ سـيد الأرضين أم لا؟

هل شب عن مقعده أم لا؟ ذلك أن كافة العيون كانت متطلعة إلى الحلبة حيث المواجهة الفريدة، غير المسبوقة.

كل الشـاخصين لم يسـتوعبوا ما جرى، فيما بعد استعاده كل منهم برواية مختلفة وسرد مغايـر صاغته الذاكرة الفردية، أما المؤرخ الرسـمي للأرضين فكتب يقول: إن الابن الوارث تطلع من رقدته فوق الأرض إلى كبير المعلمين الذي وقف مشرفًا عليه كأنه لم يمسه أو يقترب منه، بدت السقطة وكأنها عثرة، سأل:

-لكنك لم تطلعني على حيلتك تلك.

قال معلمه وهو ينحني مادًا يده إليه ليعينه على الوقوف:

-كان لابد من إخفائها عنك، تحسبا لتلك اللحظة!

# مغربي أخميم

يذكر الرحالة الطنجي ابن بطوطة أنه رأى عند نزوله أخميم بربا ضخمة، فيها معابد، وتماثيل، ومبان شاهقة، من يقرأ وصفه، لما عاينه سيثق أنها أكبر من بربا الأقصر، لكن من يزور المكان سيصدم، لن يجد أثرًا مما عاينه الرحالة ودوَّنه، اختفى هذا كله، في السنوات الأخيرة اكتشفوا تمثال ميريت آمون الذي ظل راقدًا على وجهه تحت التراب حوالي أربعة آلاف عام إلى أن استقام فبهت الذين شاهدوا أروع قوام أنثوي وأجمل أرداف تكاد لتمامها تثير الفتنة حتى يومنا هذا، كما تم اكتشاف قدم لتمثال ضخم لرمسيس الثاني، قُدر وزنه بألف طن، يرقد تحت جبانة المسلمين، استخراجه يحتاج إلى جهد ومال وإخلاص، شُغل كثيرون وأنا منهم بما جرى للبربا، ترددت كثيرًا على المدينة التي همت بخفائها وما تحويه، حاولت الإصغاء إلى ما يقوله المعمرون والذين توارثوا التفاصيل، توقفت طويلًا عندما قصه عليَّ راهب قديم مقيم في الدير الأبيض، قال إن مغربيًّا وفد منذ ألف طلعة شمس، أقام في المدينة التي اعتادت مجيء أمثاله عبر الصحراء قاصدين مكة، تمامًا مثل ابن بطوطة، تقول المدونات القبطية إنه بعد أيام ثلاثة خرج حاملًا عصًا، لا هي بالقصيرة أو الطويلة، راح يشير بها إلى التماثيل والأعمدة والجدران والصروح والبوابات الحقيقية والوهمية، كلما اتجهت العصا صوب موجود ما يختفي، يتقلقل أولًا وينفصل عن الأرض، يصعد حيث يغيب في الفراغ، قبل شروق الشمس

الواضـح الجـلي لم يتبق شيء، البريا كلها عالقة الآن في موضع ما، نقطة ما، هناك في هـذا الفضـاء، هل تظهر في توقيت بعينه، هل تنتقـل إلى مكان ما؟ هل يرتبط الأمر بتعاويـذ خفية، بظواهـر طبيعية، بفعل بشري لم يفصح عنـه المغربي الذي غاب إلى يومنا هذا وأخذ سره معه؟ قال الراهب: ليس لنا إلا السؤال..

# وليف

ما زال القوم في البلد يذكرون الجدة عائشة، ترملت في العشرين، أنجبت ولدًا وبنتًا، محمد وبخيتة، أوقفت حياتها عليهما، رفضت رجالًا تقدموا إليها، كانت ماتزال صبية جميلة، فارهة القوام، من يراها على البعد يعرفها، رغم الملابس السوداء التي لا تبرز أي تفاصيل، الشُّقة تشبه خيمة تحيط الجسد تخفي ملامحه، غير أن مشيتها مما لا تتشابه مع أخرى، فريدة الخطو، سعت إلى الأسواق لاستئناف تجارة رَجُلها الغارب، باعت واشترت، تناقشت وتجادلت ولم يستطع أحد أن ينال منها ولا من سيرتها، غير أن سيرتها ذاعت لتآلفها مع الهوام، حدث أن لمحت شقيقة المرحوم ثعبانًا يزحف وراء الفرن متجهًا إلى الغرفة الشتوية، سارعت تبحث عن عصا، صارخة، مولولة، لم تكن تدري ما يجب فعله، أمسك بها خوف، في اللحظة التي همت، رفعت العصا ارتفع صوت الجدة محذرة، أمسكت بها، أشارت إلى الثعبان الذي توقف ليرتفع نصفه الأمامي بعد استشعاره الخطر، قالت إن قتله خطأ لأنه سيخلق عداوة لن تنتهي،مهما أخفينا أثره سيجيء وليفه -ذكرًا أو أنثى- وسيحاول إلحاق الضرر، قالت بحزم: «إوعي.. إوعي».

على مهل اقتربت، انحنت، بدأت تتمتم، صوتها خافت، لا يمكن تمييز ما تقول، بعد لحظات بدأ الوضع يتغير، أصبح الثعبان ملاصقًا للأرض، عاد إلى زحفه الهادئ متبعًا أصبع الجدة التي اتجهت إلى الطابق الثاني حيث صومعة القمح

وأخرى يحفظ فيها الدوم، وثالثة للبلح، ورابعة أقل حجمًا خالية، بعد أيام ثلاثة، تقسم شقيقة المرحوم أن ثعبانين متماثلين طولًا ولونًا، يتبعهما ثلاثة أصغر، ظهروا عند قدمي الجدة، تحركوا في أماكنهم، بالضبط في اتجاهها، تقدم أحد الاثنين، لمسها بلسانه المشقوق، بالضبط عند أصبع قدمها اليمنى، لم تتراجع مبتعدة إنما مالت حتى كادت تلامس رأسه وقالت أشياء..

# حديقة السماء

أمـر الخليفة المسـتوثق بالله وزيره المُعضّد أن ينشـئ له حديقة في السـماء، أمهله أربعين يومًا فإذا لم ينجز فليتأهب لعقاب لم يسمع ولم يقرأ مثيلًا له، انصرف المعضد مضطربًا، راح وجـاء وقصد الجهات الأصلية والفرعية في وقت واحد، عندما بدأ يتوازن نسبيًّا بحيث يعرف ما وراءه وأمامه، استدعى المعلمين المتخصصين الملمين المقيمـين في الديـار من كافة الأجناس، غـير أنهم أبدوا عجزًا وأكدوا اسـتحالة، لم يسمعوا شيئًا كهذا مع أن أحدهم -وكان فارسي المنشأ، قاهري الإقامة- مدَّ حديقة في البحـر المالح، غاطسـة، عُدت من العجائـب، في اليوم التاسـع والثلاثين ركب بغلته وحيدًا، صعد إلى المقطم، قصد ديرًا صغيرًا مطلًّا على الهوْ، سـمع عن راهب مسن أُختلف في أمره، غير أن الموثوق بهم أكدوا ونصحوا، عند لقائه بدا جِلْدًا على عظـم، حدق طويلًا بعـد إصغائه إلى الخلاصة، طلب منه أن يقـف عند الحافة، أن يتطلـع قبل الغروب، أن يحدق طويلًا، يدقق، سـيراها أينـما اتجه بصره إلى الأعالي، حـار أمـره، وقف عند الحافة حتى بدأ تعدد الألوان قبل المغيب، ما بين حمرة شـفق ونتـف غمام أبيض ومسـاحات زرقاء وشـمس تميل إلى صفـرة، لم يشرب ولم يبتلع لقمة زاد منذ مجيئه. لكن في لحظة معينة اتسعت حدقتاه غير مصدق، لم يخب سعيه، لم يفشـل دأبه، نزل حاثًّـا بغلته حتى كادت تتعثر مرتين، قبـل انتصاف الليل الذي يبـدأ فيه اليوم الأربعون مثل أمام الخليفة المسـتوثق، بـاس الأرض وعندما اعتدل قال إن الحديقة جاهزة في السـماء لاسـتقباله والتجول فيها بالنظـر للتملي من كافة

فرائدهـا وغرائبها، قال إن للحديقة شرطًا واحدًا، إذ لا تفتح أبوابها إلا من العصر إلى المغـرب، ويكون البدء في زيارتها من الخلاء، فلا يليق بالخلاء إلا الخلاء. وقف الخليفة ما بعد عصر اليوم التالي، تطلع وبعد لحيظات التفت إلى وزيره غاضبًا، هل يسـخر منه، غـير أن المُعضّد طلب التـأني وطول الإصغاء بالبـصر وراح يصف ما يبدو شيئًا فشيئًا من زهور الضوء وأشجار الظلال وفروع الصدى، في لحظة بعينها بدا المسـتوثق منفرج الأسـارير، طيب الملامـح، ركع المُعضّد في مواجهة الشـمس الغاربـة مؤكـدًا: هذه الحديقة لك وحدك يا مولاي، لـن يراها غيرك، ولن يتجول بين رياضها سواك، ولن تذكر منسوبة إلا إليك..

# اللا اسم

قبل ذلك كان كل شيء مثل أي شيء، دام ذلك قدرًا غير معلوم ربما يقدر بملايين السنين أو بضع معدودات، فلم يكن الزمن معروفًا، لا شروق ولا غروب، لا دورة للفلك، تتحرك المخلوقات بالدوافع الأولية، يأكلون ولا يعرفون ما الأكل؟ لم يكن للطعام وجود ولا للمذاقات الفوارق وجود، استمر العماء حتى بدأت الهمهمة، وجرى تعيين موجودات كبرى بتسميتها، سماء، أرض، بحر، حَرٌّ، برد، هواء، نسيم، ألم، راحة، مَيْل، كُره... إلى ما يصعب إحصاؤه الآن، لكن مع تعدد التمييز، وضبط النطق المنطوق وسريان النظام أو لنقل بدقة: بداياته. حلَّ وقت يصعب تعيينه، اجتمع بعض من المتأملين الصامتين والذين عُرفوا فيما بعد بالكهنة، اجتمعوا على بدء تسمية الموجودات، بدءوا بالظاهر، البادي منها، ربما جرى ذلك قرب الموضع المعروف الآن بأبيدوس، لماذا؟ ليس بوسعنا إلا التخمين، المؤكد أن المعرفة والتعرف على كنه الأشياء وثيق العُرى بالمعتقد، بالعقيدة التي تفسر ما غمض وتنسب الأمور إلى أسباب، حتى الآن يرتبط العلم بالدين ومما لاحظته وعاينته أن مقار الدرس والبحث والفحص تقارب عمران المعابد، إن في المعابد العتيقة أو الأزهر والزيتونة والقرويين وحتى الجامعات الأحدث مثل السوربون وأكسفورد وموسكو وبكين، دائمًا ثمة قبة والقبة مجسم للكون، لما يحدده الأفق الدائري. لأسباب ما نجهلها كما يخفى علينا كثير، ارتكزت المعرفة إلى أبيدوس. تدرج المعبد في الظهور، تمامًا مثل النهر الذي كان يطل عليه مباشرة،

غير أنه ابتعد شرقًا كما هو حاله الآن، عند الحد بين الأخضر والأصفر، بين السعي والسكون، بين الحياة والعدم، اجتمع القوم. كم أمضوا؟ لا أحد يعرف، كم قضوا؟ ما من إنسان يعلم، لم يصلنا تدوين، لم يصلنا نص يخبر أو ينبئ أو يشير. ما أمكننا استنتاجه أو الوقوف على حدوده عبر نصوص متأخرة نجدها مبثوثة فيما عُرِف بمتون الحماية التي توفر الأمان للراحلين إلى المجهول، نعرف أنهم وضعوا الأسماء للظاهر من الموجودات، ثم المتخيل منها وأخيرًا المعاني، وما يزال ذلك مستمرًّا ما تردد نفس واستمر بحث وسعي، ما نعرفه واضحًا جليًّا أن المجتمعين في أبيدوس كلما وضعوا اسمًا ظهر متعلقه، فإذا قالوا على سبيل المثال «لبن» بدا من الضروع وفي الأواني، الأسماء أولًا، كلها موجودة، ما جرى إظهارها بعد أن كانت مخفاة، بعد أن بلغوا مدى وبذلوا جهدًا، لم يتم الأمر بين يوم وليلة أو سنة بعد سنة، بل استغرق آمادًا، تسلم خلالها جيل إثر آخر ما أسفر البحث عنه، أودعه كل للآخر في موضع ما، حيز ما لا يعرفه أحد حتى يومنا هذا، لمعات من الوقائع المتناثرة في المتون تقول بمضمونها إن أحدهم طرح استفسارًا على كبير الكهنة: بماذا تُسمي الأسماء، بعد ثلاثة أحوال -الحول مقياس قديم للوقت لا نعلم على وجه الدقة مقداره أو قدر قياسه- نطق بالجواب: اللا اسم.

ما من إيضاح نعرفه ولو بالإشارة وحتى الآن يُقال عند البعض في أقصى الشرق أو المعمور إن اللا اسم يعني كافة الأسماء، ويؤمن آخرون بأن من يُلِمُّ به يمكنه التحكم في الأسماء كافة، ما ظهر منها وما استتر وما لم يوجد بعد، ويُعرف عند القوم بالاسم الأعظم..





حكايات الكتب



# كِتاب الكُتب

يذكـر المؤرخ تقي الدين بن أحمد المقريزي في خططه أن الهرم الأكبر كان مغطى بطبقة من الحجر الجيري عليه كتابة بقلم الطير -الهيلوغريفية- مُذَهَّبة فإذا أشرقت الشـمس تبرق الحروف حتى لتُرى من مسـافة قَصِية قيل إنها تبلغ مسيرة يوم، وفي مصادر أخرى يومين، وخلال النهار يتنوع اللمعان ما بين حدة وخفوت، حتى إذا تعامدت الشمس فوق ذروة الهرم عند منتصف النهار تخفُت الحروف تمامًا حتى إنها لا تبين، غير أن الوهج يستأنف حدته عند الغروب حتى ليفوق لمعته عند الشروق ثم يمضي إلى خفوت كأنه لم يكن، لا يبدو ليلًا، حتى في ليالي اكتمال القمر.

شغلني ذلك، هذا يعني بقاء الكتاب لآلاف السنين ولم تختف إلا منذ ستة قرون تقريبًا، متى وكيف جرى ذلك؟ لا أحد يعرف، تخلو حوليات المؤرخين وأوصاف الرحالـة من أي ذكر، كان لكل هرم كسـاء، ما زال جزء منه يغطي قمة الأوسـط، رماديته تميل إلى حُمرة، أجزاء ما تزال تغطي بعض المساحات السفلى من الأكبر.

يعني هذا أن البناء كتاب، هل هذا يمثل الغرض الأساسي من بنائه؟

ربما.. لا شيء يقيني، خاصة مع اختفاء الكتابة.

ترى، أي نصوص تلك؟ أي معان كامنة؟

شُغلت بالأمر حتى إنني كنت أحلم بتلك المسألة، ماذا كان يمكن أن نلم به لو بقيت؟ أي معرفة كانت ستضاف إلى معارفنا؟ أي كتاب هذا شغل تلك المساحة

الهائلة، لا يمكن القراءة إلا عن بُعد، لو اقتربت لا يمكن الإلمام إلا بكلمات محدودة أو سطر، عند زيارتي للهضبة لاحظت استحالة رؤيته كاملًا عن قرب، البُعد شرط الإحاطة، لعله الوحيد منذ أن عُرفت الكتابة، الذي يُقرأ عن بُعد حروفٌ تستجيب للشـمس، تبلغ بأشعتها، في أي ظروف جُرِّد الهرم من كلماته؟ عندما ولجت هرمي «أوناس» و «تي» في سـقارة توقفت شاخصًا إلى الجدران التي حُفرت عليها المتون، لم أعـرف في حـدود ما طالعتـه نصوصًا تجسـد معنـى الكتابة مثل تلـك الجدران، صفحات من حجر، هل كانت الواجهات الخارجية تشـبه الداخلية؟ شـيئًا فشـيئًا يعمق تعلقي بما عاينه المقريزي، أحاول ابتعاث لحظة شروق الشمس، ضوء ما قبل ظهور القرص، بدء لمعة الحروف، تتوالى الأسئلة.

كيف تبدو؟

متى يبلغ توهج الأصفر الذهبي مداه؟

مـاذا تقـول الحروف؟ مـاذا تبوح به؟ أي معـانٍ تتنقل بها عـبر العصور وتوالي الأزمنة؟

هـل تنبـئ بوقائع، بأسـماء ملوك جـاءوا وعبروا؟ هـل تسـتعيد وقائع حروب خاضوها؟

أغمـض عيني، عندئذ أرى الوهج كما يبدو لحظتي الشروق والغروب، تدرجه نحـو الألـق، غيابه المتمهـل، إسراعه وإبطـاؤه، أفاجـأ، بمعارف تسـتقر عندي لم أطالعها في كل ما عرفته من نصوص.

أمـضي إلى الطـرق المـارة قرب الهـرم، يأخذني الشُّـغل به عن كافـة ما عرفت، الحروف، الحروف.

أهي نصوص تراتيل؟

أوشـك على الإصغاء إلى الموسـيقى المصاحبة، أنغام لم تعبر روحي قط، منبعثة من آلات لا بالوترية ولا الهوائية غير أنها ليست غريبة عني، ليست قصية، أعرفها ولا ألم بها، كأني أتلقاها أول مرة غير أنها دانية، أطرب من لا شيء، وأنتشي بالعدم، فقط لمجرد أنها نقشت يومًا ودامت عصورًا.

لا لا لا لا. إنهـا نصـوص الحكمـة القصيـة، معـان ضامرة، أبيـة تُيسر لي فألم بها استعصى فضه عـلى غيري، ما حيَّر الأقوام بدري، يـسري إليَّ من كتاب الكتب الغائب ما يثري كل سعي، أعرف من اللا شيء كل شيء..

# كُتب مالم يُكتب

روى الشيخ عبد العزيز دفين تونس لبعض مريديه وطُلابه ما مضمونه أن الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي لم يدون حرفًا منذ بدء ترحاله عندما خرج من مُرسية بالأندلس إلى المشرق حتى قضى في دمشق، كُل ما يتداوله الناس حتى الآن أُملي عليه، عند سفره من القاهرة إلى الحجاز عن طريق ميناء عيذاب المطل على البحر الأحمر، صاح به هاتف خفي لا يُدرك في جهة، أمره أن يقيم قرب الحد الفاصل بين البر والبحر، أن يمتثل لما سيجيئه، قعد الرجل في صحن مسجد صغير وسكن، أوراقه بين يديه، بيضاء، ناصعة خالية من كل علامة، السطور تتوالى لم تترك من البياض إلا هامشين، تمتلئ الورقة فتحل غيرها، أما المعاني فتأتيه ولا تخرج منه في عين اللحظة، هكذا اكتمل «فصوص الحكم». أما الفتوحات فيذكر الشيخ نفسه أنه أُملي عليه أثناء طوافه بالكعبة، أيضًا أنه تلقى من عين الصوت كتابًا آخر تقرأ سطوره من الجهتين فيتوصل إلى نفس المعنى، وتقرأ صفحاته من الآخر إلى الأول فلا يجد من يقرأ مشقة في الاستيعاب، غير أن الخفي أمره ألا يُظهره إلى الناس، فما ورد فيه لن يستوعبه إلا نفر محدود ممن وهبوا الأفهام والقدرات، طُلب منه أن يبثه في كتابه الأشمل الأضخم «الفتوحات»، لم يكن بوسع الشيخ الأكبر إلا الامتثال، هكذا بث الكتاب المحجوب في ثنايا الكتاب، لذلك وجب على من يقرأ أن يعي أن «الفتوحات» ليس إلا غطاء للنص الخفي، هذا يقتضي مجاهدة وعمق استيعاب وتبحرًا محمودًا، لكن الغريب أن بعض العارفين ومنهم الشيخ صدر

الديـن القونوي، والشـيخ الحكيم نزيل مدينة خراسـان المكنـى بالميرداماد، وأيضًا الشـيخ المحيط مولانا جلال الدين أنهم اطلعوا على تصانيف لسـيدي محيي الدين أملاها الصوت الخفي الآتي من اللا جهة بعد غياب الشـيخ وسـفره النهائي الذي لا رجعـة منه، وما تـزال النصوص ترد والرسـائل تصل، لذلـك يتعجب كثيرون حتـى عتاة المتخصصين وكبار المحققين من غزارة ما كتبه الشـيخ الأكبر ولكثرة ما يُكتشـف من تصانيفه حتى قال بعضهم، لـو وُزعت صفحات كُتبه على أيام عمره لزادت على المقادير، كيف سطر هذا العلم الغزير في العمر القصير؟!

يتساءلون وهم لا يعلمون..

# أبستاق

جاء في المصادر العتيقة أن الوالي منجهوري الغافقي والي عشق آباد أرسل نائبه إلى جـزر البليـار للحصول على أصول كتاب الأبسـتاق، الجامـع لحكم الأقدمين، رفـع أصبعًـا محذرًا، إمـا العودة بالمطلـوب أو البقاء في بـلاد الله بعيدًا عـن الديار، بعد سـبع سـنوات عاد ومعه نسـخة عتيقة، بالضبط ما أراده الوالي، أمضى المترجم الوحيد الذي يتقن اللغة الأصلية أربع سنوات لنقل النصوص إلى اللغة التركمانية، وفي قـول آخـر خمسـة أعوام، عندما توجه إلى المقر لتسـليم ما فرغ منـه بعد أن بذل جهدًا شـهد عليه الكافة، غير أنه وصل في لحظة غير مناسـبة، كان الأطباء يحيطون بمنجهوري بعد علة مفاجئة ألمت به أفقدته الحركة والنطق، لم يستمر أمره طويلًا، أسـلم الـروح فجرًا، غـير أن المترجـم أدى الأمانة إلى أمـين الخزانة، بقـي النصّان خمسـة وسـبعين عامًـا، الكتاب والترجمة، يبـدو أن الحفيد الـذي جلس على كرسي الولايـة قـرأ أو سـمع أو نمى إلى علمـه ما جرى، المؤكـد أنه أصدر أمـرًا بإحضار الأبسـتاق الأصلي وترجمته، عندما عثر عليهما أمـين الخزانة أوجس خيفة، إذ وجد المخطـوط المترجـم متهرئًـا في بدايتـه عـدة أوراق لا يعرف أحد عددهـا على وجه الدقة، تلاشـت، تذرت بمجرد تعريضها للضوء والهـواء، غير أن بقية الصفحات بقيت متماسـكة، خشي العاقبـة فطلب مهلة للبحث، أيام اقتربت من شـهر عكف خلالهـا عـلى نسـخ صفحات بعد أن عثـر على ورق مشـابه وحبر مماثـل، بالطبع لم يكن يعرف ما اختفى، قرأ صفحات من المخطوط، لأنه عاش سنوات عديدة أمينًا وقيمًا على الخزانة يقرأ ما يصونه من البلى، أتقن الأسـاليب وحفظ النصوص شعرية

كانـت أو نثريـة، ديوانية أو أدبية، بل إنه قرأ بلغات عدة لكـن ليس منها ما خُط به الأبستاق في أصله، تلك لُغيَّة نادرة، بعيد أهلها، وبعد رحيل المترجم لم يعد أحد في عشـق آباد أو غيرها يعرف عنها شـيئًا، بعد أن أتم تسديد الناقص سلم الكتاب إلى الوالي ومعه الأصل. وحتى يريح ضميره أشـار إلى سـوء حالة الورق المكتوبة عليه الترجمـة، عندئذ كلف الوالي خطاطًا ذاع صيته، تولى منذ وقت كتابة الرسـائل التي تخرج إلى الأمصار المجاورة والممالك النائية، قبل أن يبدأ قرأ، ويبدو أن ما قرأه قلقل مضمونـه وتناقض مـع ما درج عليه ومـا انتقل إليه من أجـداده الأقدمين وأقاربه المحيطـين فحذف وبـدل بعد تأكده أن الوالي لم يقرأ بعد خشـية تذري الورق، بعد اطلاعه طرأ عليه تغير وظهر تبدل، لزم مقره وقلل من لُقيا الناس وأطال الصمت حتى خشي عليه أهل بيته، أمر بحفظ الأصل والترجمة في الخزانة الخاصة، بقيا مائة عـام، حـدث بعدها أن اجتاحت جحافـل الخان التتري تركمانيا كلها، واسـتباحوا عشـق آباد التي اشـتهرت بحدائقها وجـداول مياهها ومرصدهـا الذي يرقب منه الحكماء هسـيس النجوم، كذلك جمال نسـائها ورقتهن وإتقانهن فنون الدنيا، نُهبت خزانـة الكتـب، أُلقيـت آلاف المجلـدات في النهـر، لا أحد يعـرف كيف وصلت النسخة الأصلية إلى شيخ أوزبكي كان عنده علم، وقع في الأسر خلال غزو الخان الأعظم سهوب آسيا الوسطى، احتفظ به لإتقانه ما لا يعرفه التتر، الترجمة اختفت تمامًا، ولكن الأصل آل إلى الأوزبكي، ويبدو أنه أدرك بشـكل ما قيمته ونفاسـته، أتى به إلى الخان الذي تطلع طويلًا إليه، ثم نظر آمرًا:

«ترجمه حتى يقرءوه لي فنعرف ما به...

لم يكن الأوزبكي يعرف كلمة واحدة من تلك اللغة التي لم ير حروفها ورسومها من قبل، خشي الاعتذار، أوامر الخان واجبة، لا جدل ولا نقاش، خلا بنفسـه، ثم عكف على وضع كتاب بنفس عدد الصفحات وربما الكلمات، سـماه «الأبسـتاق» وهذا ما عُرف به النص الذي نتداوله حتى الآن.

# كتاب الحدائق

أخيرًا وصل بمفرده إلى مقصده عند ناصية الشارعين، الطريق الممتد من الشمال إلى الجنوب، من أول المدينة إلى حدودها المطلة على المحيط، الشارع العرضي، هنا تقع المكتبة القديمة التي قرأ عنها كثيرًا وسمع عنها طويلًا، لا تعرض إلا القديم، ما طبع من قبل نصف قرن على الأقل، الكتب النادرة في الطابق الثالث والأخير، ما إن وصله بالمصعد العتيق حتى احتواه لون بُني مترب، كل الموجودات منه لكن ما يتنوع درجاته، مجلدات في المدخل، الطَبعات الأولى منذ القرن السادس عشر حتى التاسع عشر، الكتاب المقدس، الكوميديا الإلهية، يلمح موبي ديك، إذن... تلك الطبعة التي لم توزع إلا نسخًا محدودة، الأرفف مثقلة، في المنتصف بائع أسمر، أصلع، منظاره الطبي فضي الإطار، دائري، أمامه منضدة فوقها مجلدان كبيران غير متساويين، اقترب، كأن قوة خفية تسيره، قال الرجل محافظًا على انحنائه مستمرًّا في الكتابة: إنه كتاب الحدائق.

إذن، ها هو في مواجهة ما سمع عنه، ما جاء من أجله، لم يستطع التوصل إلى تاريخ الطبع بالضبط، لكنه قرأ عند المدخل الرئيسي ما يجب أن يتبع، متاح له تقليب الصفحات لمدة عشر دقائق، كل الكتب يمكن تناولها، الذهاب بها إلى أي منضدة أو مقعد فيما عدا عناوين محدودة، أولها كتاب الحدائق، الاطلاع من وضع الثبات، واقفًا، ما إن قلب الغلاف، وطالعه العنوان إلا ويبدأ الفراغ يتبدل، كذا الهواء، وهبت نسمات لم يدر مصدرها، ورفرف في الفضاء طائر مهاجر يحاول البقاء في

وضعـه معلقًا، الهدوء صارم، يكتشـف له سـائر ما تحويه حدائـق يارو المصرية، لا يدخلهـا إلا المبرأون، هدوء ممتد، وأرض ليس فيها أعداء وماء وفير، أما المتنزهون والعاملون المقيمون فجاءوا من الحياة الدنيا، تقليب الصفحات أدى به إلى حدائق بابل وممرات القسـطنطينية التـي تتبع تدرجات الجبال، ونمنمـة الحدائق الداخلية في زومـان الوصل بالأندلس، والانتظام الملوكي في فرسـاي والتويلري والانطلاق لمحـاكاة الطبيعة في سـهول الإسـكندرية القديمة، غير أن ما لم يسـتطع أن يغادره، صفحة المدينة المقدسـة في إحدى مدن الصين، كل ما يمكن أن تسـفر عنه الطبيعة متجسـد وماثـل، الصخور تتبـادل الانزيـاح نحو النبـات، يلتفان حتـى ليصعب التفرقة بينهما، تبدو كأنها من أصداف البحر، غير أنه ينتبه إلى ما لم يطلع عليه، ما لم يعرفـه أثناء تقليبه الحدائق الأخرى، تبـدو الحديقة أمامه صغيرة حجمًا، يقطعها في خطوتـين أو ثلاث، لكنه يفاجأ بامتداد يظهـر بغتة، يتوالى ميلاد الصخور والنبات الغريب والزهور الدقيقة وعيدان البامبو، يتكرر ذلك إلى غير مدى، يحاول العودة إلى وقفته، إلى صالة عرض العتيق لا غير، إلى مواجهة الأصلع، الأسمر، إلى تقليب الصفحـات بالعكس، لكنها تأبى، فقط اتجاه واحد، ما لا يقدر على تفسـيره يدفعه عبر الأغصان والصخور التي تتوالد بلا نهاية..

# كتاب اللا كتب

يروي المسبحي في تاريخه المفقود أن الخليفة الآمر كان محبًّا للتخليق، أي إيجاد شيء من لا شيء، مطيلًا للتفكُّر، كثير التحديق في دروب السماء ليلًا، عنده هوى بالحيل الهندسية، بعد سرحة من سرحاته عاد إلى قصره، لم ينتظر حتى صباح اليوم التالي، أرسل في طلب كبير المخططين والمهندسين، كان نوبي الأصل يتقن فنون الأقدمين ويستخرج ما لم يُعرف من قبل، غير أن الخليفة طلب منه ما لم يسمع به أحد من قبل، أن يوجد كتابًا يمكن قراءته عند بداية الرغبة وتقليب صفحاته في أي موضع وأي وقت، لا يُرى من الآخرين لكن يمثل أمام صاحبه لا غير، لا مستقر له، غير أنه يشغل الحيز إذا رُغب، يستوعب ما لم يُستوعب، فيه كل الكتب وليس ملموسًا، لا يوجد، حار النوبي وطلب المهلة، الخليفة لم يحددها بالضبط، إنما أشار إلى لحظة يكتمل فيها هذا، دانية لا ريب فيها، يتمناها، سيبهر الخلق بها يتجسد لهم ويتم، لكن مثل كل شيء، يصبح كتاب اللا كتب، كتاب ما لا يوجد، ما لا يُرى، ما لا يُقرأ، فيه كل المتون ولا يوجد، بعد حين يصير شيئًا عاديًّا، مألوفًا.

حار النوبي، بدأ خلوة قلّب خلالها الأمور كلها، استدعى أقرب مساعديه، اطلع كل منهم على جزء مما يريد إتمامه، حاول الإلمام بكل ما تيسر وما عسر الحصول عليه حتى إنه أرسل قصادًا إلى الصين ليعرف ما يمكن وما لا يمكن من أهل الورق، كذلك حاول الإحاطة بعلم الحروف في شتى اللغات، لكنه لم يصل

إلى شيء ولم يستطع حتى تحديد المطلوب منه، كتاب اللا كتاب، خشي على نفسه، صحيح أن الآمر لم يستعجله، لم ينهره، لم يبد له الجفوة، لكن الاستفسار في نظراته وإيماءاته، جمع النوبي أوراقًا ولفافات وعبر الدرب الغربي بدأ طريقه إلى منبته أقصى الجنوب، غابت أخباره تمامًا، وجاء خليفة بعد الآخر، وتبدل الحكام والعصور غير أن البحث والمحاولة لم يكُفَّا، حتى استطاع بيل جيتس التوصل إلى كتاب اللا كتب، إلى الآيباد بعد أكثر من ألف سنة.

# كتاب الفتح

أفتح الكتاب، أفتح الكتاب..

عبـارة تسـتقر في ذاكرة الأجيـال المتعاقبة في قرى ومدن الصعيـد، خاصة تلك الواقعـة عند الغرب، المولية مصائرها إلى جهة مغيب الشـمس، يطلقها رجل جاء مـن المغـرب الأقصى قاصدًا مكة سـيرًا على قدميه يحمل بعضهم نسـخة من كتاب بعد تلاوة معينة لا يعرفها إلا صاحبه تتكشـف المصائر الآتية، المغاربة مشـهورون بإمكانيـة الاطـلاع على الغيـب، يأمن الناس لهـم لطيبة قلوبهـم والتزامهم، وكف أيديهـم عن حاجة الخلق، عكس الغجر الذين يصغون إلى همس الرياح المحبوسـة في الـودع، لكنهم يسرقـون الكحل من العين، صباح أحد الأيـام ظهر مغربي قادم مـن الصحـراء، تمامًـا كما جاء قبلـه كثيرون وجـدوا الـمقصد في ثـواب يجيء بعد المشـقة، الوصول إلى مكة مشـيًا، مثله كالذين سـبقوه عبر مئات السـنين، لا يحمل إلا زمزميـة الماء، وكيسًـا مـن جلد يحوي كتابًـا دائمًا، إما دلائل الخـيرات، أو ذلك الذي يحوي المصائر، يفتحه لراغبي المعرفة مقابل رغيف من خبيز اليوم أو بيضة أو حفنة قمح أو ثمرة دوم..يعني ما تيسر، لسـبب مـا، ربما الفضول رغب ابن الحاج غنيم السهلي في الاطلاع على المسطور في صفحات الكتاب، الابن يدرس في مصر، لا أحـد يعـرف أي فرع وأي علم، لكنه يحظى بوضعية لذلك، إذا حضر مجلسًـا أو ظهر في المسـجد يصافحه من هو أكبر منه سنًّا، يقفون له، إنه من أهل العلم، شغله الأمر، لم يسـأل أحد، لو أنه أقدم لحذروه من ذلك، من المتوارث المتعارف عليه أن

هـؤلاء القادمين من جهة مغيب الشـمس لهم حرمة لا يمسـهم أحد، بل إن القوم يتنافسـون لإكرامهم والتبرك بهم، ربما لغيابه شـهورًا عديدة وإقامته زمن الإجازة فقـط، ليس ملمًّا بما يصعـب الإقدام عليه، والأماكن التي يستحسـن تجنبها إن ليلًا أو نهـارًا، والحيوانـات التي ينبغي ألا يلحق بهـا أذى، في اللحظة المواتية عند توجه المغـربي إلى مسـجد الناحيـة دخل الشـاب إلى المضيفة، انتزع الكتـاب من الكيس، أسرع الخطى إلى البئر المهجورة، فيما بعد دهش القوم، لم يحدث أن سـمعوا بمغربي يفارق كتابه، لكن يبدو أن الرجل حسن النية، هكذا قدروا...

رغم أن ما أقدم عليه غير مألوف، يعد خرقًا لما استقرت عليه الأحوال في القرية، فإنـه دُهش ثـم حار حتى أدركـه بهت عندما أتـم تقليب وتفحص سـبع ورقات، مـا مـن حرف، ما من شـكل، فقـط لون مسـطح لا غامق فيه ولا فاتـح رغم يقينه بحـال ما تبقى لكنه واصل، غير أنه مع بلوغـه الرابعة عشرة بدأ يدرك أمرًا أرجفه وصمصم يقينه، لم يعد يدرك أشـياء عديدة جاء بها ومعها، كان يسيرًا استدعاؤها، تقل سرعتـه، يتباطأ، يثقل، الضوء يهن، موجودات تتوارى مندثرة مع كل صفحة تطوى، مع بلوغه آخر صفحة صار مثلها كالأولى، محوًا من كافة شيء..

# أعجمي

حكى ابن إياس في بدائع الزهور أن رجلًا أعجميًّا جاء دمشـق في زمن الناصر صـلاح الدين، عرض عليـه أن يريه أعجوبة في صنعة الشـعبذة، فأذن له في ذلك، فنصـب خيمـة في الميـدان، وأخرج من كمّه كبّـة خيط، وربط ذلـك الخيط في يده، حذف كبّة الخيط تلك في الهواء ثم تعلق بها وصعد حتى غاب عن الأبصار.

ثم بعد سـاعة سقطت بين الناس إحدى رجليه، وصارت تزحف على الأرض حتـى دخلت الخيمة، ثم سـقطت رجله الأخرى، وصـارت تزحف حتى دخلت الخيمة، ثم سقطت إحدى يديه ودخلت الخيمة، ثم سقطت اليد الأخرى ودخلت الخيمة، ولم تزل أعضاؤه تتسـاقط عضوًا عضوًا حتى سـقط الرأس، وصار يزحف عـلى الأرض حتـى دخـل الخيمة، ثم بعد سـاعة خرج الرجل وهو سـوي كما كان يمشي على قدميه، فقبل الأرض بين يدي الملك الناصر، ثم إن الرجل دخل الخيمة قدّام الناس، فقال رفيقه للحاضرين: «ادخلوا إلى الخيمة وفتشوها» فدخلوا الخيمة وفتشـوها، فلـم يجدوا فيها أحـدًا، ثم فكوها ونصبوها في مـكان آخر، فخرج منها الرجل وهو يمشي على قدميه، فتعجب الناس.

وكان حاضرًا عند الملك الناصر شخص من الأمراء، يقال له: سنقر الأخلاطي، فلما رأى ذلك، حنق وجرد سـيفه، وضرب عنق المشـعبذ وقال: «مثل هذا لا يؤمن أن يكون جاسوسًا من عند أحد من الفرنج..

ثـم إن الأمـير سـنقر أراد أن يـضرب عنـق رفيقـه، فاسـتجار بالملـك الناصر، وزعم أنه لا يعرف شـيئًا مما كان يعمله رفيقـه، فمنع الملك الناصر الأمير من قتله، وقـال للرجل: «اخرج من الشـام ولا تقـم بها فإنهم يقتلونـك»، عندئذ أخرج من جيبـه خيطًا ورمـاه إلى أعلى، بسرعة تعلق به وراح يصعـد إلى أعلى حتى غاب عن الأنظار.. انتهى ذلك.

# كتب

بعد تقاعده لزم مكتبته التي أمضى عمره في تكوينها، يرجع الأمر إلى سنوات النشأة الأولى عندما بدأ يكتشف روعة القراءة، وإطلاقها المخيال، لأنه اعتمد في البداية على الاستعارة بعُسْر الأحوال وصعوبة الظروف تاق إلى الاقتناء عندما أصبحت لديه القدرة، ليس مهمًّا قراءة الكتاب، المهم أن يكون في متناوله، إذا خطر له، أو احتاجه، من كل بلد زاره، عاد بالكتب، اللغات التي يجهلها اقتنى مجلدات الفن الحاوية للمنمنمات والتصاوير من كل مذهب ومنزع، يمضي النهار والليل بين الأرفف المثقلة والمجلدات المرصوصة فوق الأرض، إلى جوار الفراش، أشفق عليه الأبناء، يبدو أنهم خشوا الساعات الطويلة التي يمضيها في التصفح، الاطلاع، الاستغراق، إبداء انفعالات غير مألوفة، خاصة عند قراءته الأشعار، أو ما يبديه من تحركات في اللا اتجاه عند الإصغاء إلى الموسيقى، تلك الألحان التي رسا عندها ما بين شرقي وغربي، كلاسيك وموسيقى غجر بلا مأوى، خلال الأيام الطويلة عاد إلى كتب اقتناها بداية عمره، قبل سنوات قرأ بعضًا مما وقع اختياره عليه، استغرقته النصوص، غير أنه عندما وصل إلى الصفحة الأخيرة فوجئ بتوقيعه، من عاداته أنه يكتب اليوم والشهر والمكان الذي ينتهي فيه من قراءة المتن، كيف نسي كتبًا تعلق بها يومًا؟ حيره ذلك، ازدادت حيرته عندما شرع في استعادة نصوص احتواها من قبله، غير أنه مع المُضي يكتشف أمورًا لم ينتبه إليها في المرات الأولى، ما تجاور عنده من خلال التجوال والتقليب والتصفح والتفكر

والتأمل أضاء له ما لم يبصره في المطالعات الأولى، شيئًا فشيئًا أدرك أنه بحاجة إلى قراءة كافة ما اطلع عليه، ما ارتبط به، ما وثّق به العلاقة، سواء كان رواية، أو ديوان شعر، أو بحثًا علميًا أو فلسفيًا أو أوصاف رحالة ومُحي هذا كله، كأنه لم يطالعه، لم يفن الليالي في أضواء مختلفة، مغايرة لبعضها، بعضها واهن جدًا، هذا ما سحب قوة إبصاره شيئًا فشيئًا، كأن هذا كله لم يكن، كافة ما قرأه دخل دائرة المحو، لابد أن يستعيده، لكن متى، كيف؟ أين يلاقي سبعة وستين عامًا أخرى؟ كان من المستحيل استعادة ما عرفه، الحل الوحيد أن يتدثر بالمجلدات، أن يرقد بينها وتحتها وفوقها، يصير إليها وتصير إليه..

# لا كليلة.. لا دمنة

عرفت الكتاب صبيًّا في طبعة أصدرتها وزارة المعارف العمومية خلال الأربعينيات، وجدتها في مكتبة مدرسة الحسين الإعدادية التي كان اسمها محمد على قبل الثورة المباركة وتقع عند ناصية حارة الوطاويط التي كانت مسقوفة بالحصير، وعندما تزايدت الوطاويط وعطلت مرور الخلق أزيل السقف وكان فريدًا لم أعرف مثيلًا له في موضع آخر، شغلت بقصص الحيوان، لم أتوقف عند المقدمة أو ابن المقفع الذي زعم ترجمتها من اللغة الفهلوية إلى العربية، لسبب ما تكون عندي في مخيلتي صورة للملك دبشليم، نحيل، طويل، يرتدي عباءة من وبر الجمل بني فاتح، فوق رأسه طربوش مستطيل، أراه من جانبه كما اعتدته دائمًا، أمامه فراغ من المفترض أنه يحوي بيدبا الفيلسوف، غير أنني لم أره قط بالمخيلة، لم أتوقف للمحاولة، بعد إمعاني في القراءة، وإصغائي إلى حديث أحد شيوخي الأجلاء في مقتبل سعيي بمفردي، الشيخ أمين الخولي، وقد التقيت به في مكتب متواضع بعمارة مطلة على شارع الجمهورية الذي كان اسمه شارع إبراهيم باشا ومن قبل نوبار باشا كما ذكره نجيب محفوظ في «بين القصرين» عندما وصف المظاهرة التي توفي بها فهمي الابن الأكبر للسيد أحمد عبدالجواد، مات برصاص الإنجليز، ثم أُطلق اسم نوبار باشا على شارع قرب مشهد السيدة زينب، أول من لفت نظري إلى وضع ابن المقفع وصلته بالكتاب ذلك الشيخ الأجل، تساءل عن سبب قتل الخليفة له بهذه الطريقة البشعة، تقطيع رجليه وذراعيه، ثم حرقه وتذرية رماده

فوق نهر دجلة، عدت إلى البيت وابن المقفع يطل عليّ من جهاتي، أصبح له سَـمْت وملامح، بدأت البحث عن الكتاب، وجدته في طبعة أنيقة، مجلدة، رسومها رائعة أصدرتها دار المعارف بمناسـبة مرور عدة عقود على تأسيسها، تمليت وتمهلت، إلا أننـي لم أجد الإجابة كما أشـار الشـيخ في ثنايـا الكتاب، غير أن الشـك وقع عندي عندما لاحظت تعدد المراحل التي مرّ بها الكتاب، ولنبدأ الخطى معكوسـة لما ورد في النص العربي، الكتاب وُضع في الهند، مَنْ كتبه؟ لا توجد إشارة محددة لشخص بعينـه، إنـما ذِكْر لفلاسـفة الهند، من هم؟ علـم بوجود الكتاب أنـوشروان كسرى ملك الفرس، طلب من برْزويه بن آذر هربد، رأس أطباء فارس، ولنلاحظ هنا أن الطبيب في ذلك الوقت كان يشـتغل بالحكمة، ومازال القوم في ريف مصر وأحياء المـدن الشـعبية يسـمون الطبيـب بالحكيم «أنـا ذاهـب إلى الحكيم..»، «أنـا أحتاج الحكيم..»، «جاءني الحكيم للكشـف عليَّ..»، هـذا قديم في مصر، العلم والحكمة جـاءا مـن المعبد، تأثر العالم بذلك فأصبح معمار الجامعـات العريقة قريبًا من عمارة دور العبادة خاصة القبة، ذكرت من قبل دهشتي عندما دخلت جامعة عين شمس فلقيتهـا بـدون قبة! إذن كان برزويه حكيمًا أي طبيبًا، بدأ يخالط الهنود ويتقن لغتهم ويسائل عن أخبار ملوكهم وأحداث تاريخهم، خالطهم وجرى بينه وبينهـم تفاعل وانصهار حتى اتخذ له صاحبًا اسـمه «أزويه» بعض النسخ ذكرت اسمه ومعظمها لم يورده، بعد حين أدرك الهندي مقصود الفارسي خاصة بعد أن قال له: يا أخي ما أريد أن أكتمك من أمري شـيئًا فوق ما قد كتمتك، فاعلم أني لأمر قد جئت، وهو غير ما ترى يظهرُ مني، هنا قال الهندي: إني وإن كُنت لم أبدأك، ولم أخبرك بما جئت لـه، وإياه طلبـت، وأنك تكتم أمرًا تطلبه وأنت تُظهر غـيره فإنه لم يكن يخفى عليَّ، صمـت قليلًا ثـم صرح أكثر: أنت قدمت بلادنا لتسـلبنا علومنـا الرفيعة وكنوزنا النفيسـة، فتذهب بها إلى بـلادك لتُسرَّ بها ملكك، كان قدومـك بالمكر ومصادقتك بالخديعـة، لكـن لما رأيتُ صبرك، وطول مواظبتك عـلى طلب حاجتك، وتحفّظَك

من أن تسقط في الكلام بشيء نستدل به على سريرة أمرك، ازددت رغبة في عقلك، وأحببت إخاءك، ولا أعلمُ أني رأيت أوْزن منك عقلًا، ولا أحسن أدبًا، ولا أصبر على طلب حاجة، ولا أكتم للسـتر منك، ولا أحسـن خُلقًا، ولا سيما في بلاد غربة، ومملكة غير مملكتك، وعند قومٍ لم تكن تعرف سُننهم ولا أمرهم، ثم قال له الهندي: تحصيل العلم أشبه بكشـف السر، حفـظ الأسرار وكتمانُها شـبّهه العلماء بغلاف القـارورة المغطـى عليها، تراها واحدة فإذا نزع الغطاء فجرمـان اثنان، فإذا فُرِّغت ممـا فيها فهي ثلاثة «مشـهورة قد عُلِم بهـا، ورأسُ الأدب حِفظ السرّ، لأن السرّ إذا تكلم به لسـانان صار إلى ثلاثة، وإذا صار إلى ثلاثة شـاع في الناس، وإنك تسـألني حاجة أتخوّف أن تذيع أو يفطن بها حاسد فيكون ذلك فيه هلاكي واستئصالي، قال الهنـدي إنه سـيوفر له ما طلـب لثقته فيه وتقديره بذل الجُهـد، هكذا وفر له حاجته من الكتب ومنها كليلة ودمنة، هكذا بدأ برزويه اطلاعه ومحاولته فهم ما يقرأ حتى نحُل بدنه، وأنفق لياليه، فلما فرغ من الفهم والنسـخ أرسل إلى كِسرى ملكه يعلمه بتـمام المهمة وجاهزية الحضور، فأجابه بالرمز أن يُقبل، هكذا فارق صاحبه وغادر بـلاد الهنـد عائدًا إلى فارس، اسـتقبله كسرى في محفل، دعا رجـال العلم والأدب، وأمـر بُزرجمهـر أن يقرأ عليهم، فلما سـمعوا ما فيه من العلـم والأعاجيب المحكية على ألسـنة الحيوانات والطيور تعجبوا منه وشـكروا الله على ما أنعم عليهم به من الأدب والمعرفة على يد برزويه وأحسـنوا الثناء عليه، ثم أمر بُزرجمهر بترجمة الكتـاب إلى الفهلوية ومنها يزعم ابن المقفع أنه ترجمه إلى العربية.

ربما يسألني بعض من يطالع روايتي هذه، لماذا أوردت لفظ «يزعم»، أقول لأني لسـت واثقًا من صحة الرواية التي وردت في مقدمة الكتاب لأن مؤلفها وساردها ابـن المقفع الذي لم يوضح ولم يذكر مصدرًا محـددًا، كما أنه لم يصحب «برْزويه» إلى الهنـد، كيف عرف مـا دار بينهما، هل ثمة احتمال اختلاقـه القصة كلها، فلم يحدث أن كسرى علم بوجود كتاب هندي، بالتالي لم يأمر «برزويه» بالسفر لطلبه والعودة

بـه، بعد مطالعتي السـابعة للكتـاب صرت أكثر ميلًا إلى عدم وجـود أصل هندي لكليلـة ودمنـة، خاصـة بعد أن أمعنـت طويلًا فيما ذكـره ابن المقفـع أن الترجمة إلى الفهلويـة من اللغة الهنديـة إلى الفهلوية، أي هندية؟ لا يوجد تحديد، أخبرني واحد من شـيوخي الذين أخـذت عنهم مباشرة، أعني محمد عـودة، عاش في الهند، خبر أهلهـا، أخذته حضارتها وهام بهـا، وكان يتحدث بانبهار عن نهرو وغاندي وفنانة لم يغب اسمها عن أفقي اسمها فيجايا لاكشيما، قال العم عودة كما اعتدت مخاطبته إن أهـل الهنـد يتكلمون أكثر من سـتمائة لغـة، وإن رئيس وزراء الهند إذا سـافر إلى إقليـم مـا فلابد أنه يصحـب معه مترجمًا وأحيانًـا أكثر، اسـتدعيت ذلك إلى وعيي عندمـا قرأت لابن المقفع أنه ترجـم عن الفهلوية التي تمت عن الهندية، أي لغة من لغـات الهند؟ لا أحد يعـرف، حتى حاجي خليفة صاحب كتاب «كشـف الظنون عن أسـامي الكتب والفنون» لم يشر إلى الهندية من قريب أوبعيد، ثم رسـخ الشك عندما أتيح لي الاطلاع على مقدمة سلفسـتر دي ساسي المستعرب الفرنسي الشهير أول من نشر وطبع «كليلة ودمنة» وكان ذلك في باريز كما اعتاد كتاب القرن التاسع عشر أن يطلقوا عليها، قال ما نصه منسوبًا إلى ابن المقفع:

«بعد أن اطلعت على كليلة ودمنة، ألحقت به بابًا بالعربية..

ماذا يعني ذلك؟

هـل ما نقرؤه اليـوم النص الهندي مترجمًا، أم أنه الباب الذي وضعه ابن المقفع، أي أن ما وصلنا تأليفه وليس تفسيره أي ترجمته، يؤكد دي ساسي في طبعة باريز عام سـتة عشر وثمانمائة وألف أنه حصل على النسـخة الأقدم من حلب الشهباء وقارن بينها وبين نسـخ أخـرى، أجرى تصحيحًـا لعبارات وتنقيحًا لجمل، إذن النسـخة ملفقة، ولهذا لم يثق فيها المستشرقون أمثال فولكنر وجويدي وزتنبرج واتفق معهم الأب لويس شـيخو الذي طبع الكتاب في بيروت نقلًا عن طبعة دي سـاسي الذي اعتمد على نسخة حديثة نسبيًّا من القرن السابع عشر، غير أن الألماني نلدكه أكد أنه

عثر على نسخة من القرن الخامس عشر، غير أنه لم يحدد موضع نسخها أو منشأها، في كل الأحوال يعتبر صدور الكتاب في باريز أول ظهور علني للكتاب وكل ما طُبع فيما تلا ذلك اعتمدها، أما الدكتور عزام فيقول إن النسخة التي اعتمدها في الطبعة المصرية تعود إلى القرن الثامن الهجري ويؤكد أنها الأقدم على الإطلاق، فإذا كان ابن المقفع قد عاش في القرن الثاني الهجري فأين كان الكتاب خلال ستمائة عام، خاصة أن الكتاب لم يُعرف في المصادر القديمة إلا كعنوان يمكن أن يكون لما نعرفه ويحتمل ألا يكون فالإشارات دائمًا إلى كتب الهند، ذكر ابن النديم في كتاب الفهرست -القرن الرابع الهجري- بعضًا من عناوينها وأشار إلى كليلة ودمنة كموضوع لحكاية وليس مؤلفًا مستقلًّا بذاته، أما ابن خلكان فيقول في «وفيات الأعيان»: إنه لا وجود للكتاب في أدب الهند أو فارس، ويؤكد ذلك ابن شاكر الكتبي في «فوات الوفيات» ويجيء بعده ابن تغري بردي في «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» ليقطع بذلك ويؤكد تحايل ابن المقفع للتعبير عن رؤى تتصل بالحكم وجور الخليفة، خشي من التصريح بها فأتى بها على ألسنة الحيوانات منسوبة إلى كسرى ودبشليم وبيدبا الفيلسوف، وليس هذا كله إلا توهمًا واستتارًا، رغم ذلك وشى به بعض الكتاب عند الخليفة فلا يكشف غرض الأديب إلا أديب مثله، هكذا انتهى تلك النهاية البشعة، الأب لويس شيخو أكد أن الأصل له جذور وبذور في كتاب «بينج تنترا»، غير أنني لم أجد شيئًا من هذا عندما قرأت ترجمته إلى العربية في السبعينيات بمقدمة من الدكتور عبد الحميد يونس، لا مجال للتشابه، ولا حتى التأثير والتأثر لا في البنية الكلية أو في التفاصيل، وهذا ما انتهى إليه المستعرب أجنايوس البورديني، صرت إلى يقين مماثل بعد إمعاني قراءة الكتاب واعتمادي على فهمي للأساليب وجرس الألفاظ، هذا كتاب موضوع بالكامل، لا أصل له في أي لغة، نشأ عندي سؤال: في أي زمان إذن؟ هل نسبته إلى ابن المقفع حقيقة أم انتحال؟ بل إنني صرت أشك في وجود ابن المقفع نفسه، خاصة

عندما زرت حلب الشهباء في تسعينيات القرن الماضي وأقمت في فندق زميريا بالمنطقة المسيحية، وجاءني الأب عازر السرياني، وجرت بيننا محاورة، وفجأة قال إنه قرأ ما دونته حول كليلة ودمنة، وإن كل ما ساورني له أساس، فعندما كان طريق الحرير في أوجه، وفد على حلب شيخ ينتمي إلى الطريقة النقشبندية، نزل في التكية الأولوجية، أحبه الخلق وتبركوا به، كان يتأهب للسفر صباح اليوم التالي إلى قونية لكنه لم يستيقظ وغفا إلى الأبد تاركًا بعض مخطوطات نادرة، آلت إلى أسرة حلبية تعرف عليها المستعرب سلفستر دي ساسي واشترى منها ما تركه الشيخ النقشبندي الذي قدم من سمرقند، وكان بينهم كتاب كليلة ودمنة بالضبط كما نعرفه الآن، لكن.. من كتبه؟ من صاغه؟ من نسّبه إلى الأسماء التي ارتبطت به؟ لا علم لأحد بذلك..

# كتاب الخاص

جاء في لحظ الألحاظ:

جثـا الحكيم على ركبتيه، قال مخاطبًا الملـك: ابقني يبقيك الله ولا تقتلني يقتلك الله، فلـما تحقـق الحكيـم أن الملك قاتله لا محالة قال له أيها الملـك إن كان ولا بد من قتـلي فأمهلنـي أن أنـزل إلى داري وأوصي أهـلي وجـيراني يدفنوننـي وأبرئ نفسي وأهَـبُ كتـب الطـب وعندي كتـاب خاص الخـاص أهديه لـك هديـة تدّخره في خزائنـك. فقـال الملك للحكيم: وما في ذلك الكتاب؟ قال فيه شيء لا يحصى وأقلّ ما فيه من الأسرار أنك إذا قطعت رأسي وفتحت ثلاث ورقات وتقرأ ثلاثة أسطر من الصفحة التي على يسـارك فإن الرأس يكلمك ويجاوبك بجميع ما سـألته عنه، فتعجـب الملـك غاية العجـب واهتز من الطـرب وقال له أيّها الحكيـم: إذا قطعت رأسك تُكلمني، قال نعم أيها الملك فقال الملك هذا أمر عجيب ثم إن الملك أرسله في الترسيم فنزل الحكيم إلى داره وقضى أشغاله في ذلك اليوم وفي اليوم الثاني طلع الحكيـم إلى الديوان وطلعت الأمراء والوزراء والحجاب والنواب وأرباب الدولة جميعًـا وصار الديوان كزهر البسـتان وإذا الحكيم طلـع للديوان ووقف قدام الملك في الترسـيم ومعه كتاب عتيق ومُكْحلة فيهـا ذرور، جلس، قال إيتوني بطبق فأتوه بطبق وكبّ فيه الذرور وفرشـه، وقال أيهـا الملك خذ هذا الكتاب ولا تفتحه حتى تقطع رأسي فإذا قطعته فاجعله في ذلك الطبق وَأْمُرْ بكبسـه على ذلك الذرور؛ فإذا فعلـت ذلـك فإن دمه ينقطع، ثم افتـح الباب ثم إن الملك أمر بـضرب رقبته فأخذ

الكتاب منه وقام السيّاف فطاح الرأس في وسط الطبق وكبسه على الذرور فانقطع دمه ففتح الحكيم عينيه وقال افتح الكتاب أيها الملك ففتحه فوجده ملصوقًا فحطّ أصبعه في فمه وعمل ريقه وفتح أول ورقة والثانية والثالثة والورق ما ينفتح إلا بجهد ففتح الملك ست أوراق ونظر فيها فلم يجد كتابة فقال أيها الحكيم ما فيه شيء مكتوب فقال الحكيم افتح زيادة على ذلك ففتح ثلاثة فما كان إلا قليل من الزمان إلا والدواء حاق فيه لوقته وساعته؛ فإن الكتاب كان مشبعًا بالسم فعند ذلك تزعزع الملك ومال..

# ما لم يرد في كتب

وقع بصري أول مرة على الشيخ الأجل صالح الجعفري وأنا ابن تسع سنوات، اعتاد الوالد -رحمه الله- صحبتنا، أنا وأخي الأصغر مني إسماعيل إلى المساجد وأضرحة الأولياء والصالحين، خاصة مشهد سيدنا وحبيبنا الإمام الحسين عليه السلام والأزهر الذي اعتاد سماع درس العصر فيه، يحضر الحلقة التي تنتظم حول الشيخ صالح الجعفري، كان مهيبًا، قوي الحضور، أسمر كأهل أسوان، له هيبة وتكوين، يجلس إلى عمود، فوق كرسي بدون مسند، الحلقة تضم طلبة الأزهر من المجاورين نزلاء الرواق وغيرهم، من حق أي إنسان حضور الدرس، توجيه السؤال، هذا نظام معمول به من قديم، كنت أقعد إلى يمين أبي وشقيقي إلى يساره، مع تقدمي في الطريق صرت أحضر بمفردي، لم يحدث أن خاطبته قط، كنت مستمعًا، متلقيًا عنه، رأيته مرات يسعى في الأسواق القريبة، يقضي حاجته بنفسه، ومرات أخرى في الترام رقم تسعة عشر الواصل بين ميدان العتبة والأزهر، وقد بَطُلَ في نهاية الستينيات، أقام الشيخ في رواق الصعايدة، ينام على الحصير ويأكل خبز الجراية، وهو الإنسان الوحيد الذي عاينت انتقاله من إنسان إلى وليّ بعد غيابه، وله الآن ضريح مهيب أقامه الخلفاء المخلصون يضم مشفى وملجأ لليتامى ومقار لإغاثة المهضومين، شقيقي الأصغر علي لاذ به بعد طول معاناة مع الوهن والسقم حتى صار من ثوابت الحضرة التي تقام كل خميس ولها ترتيب معلوم إلى أن قُضي، يعلق بي الشيخ بعد صلاة جمعة، كان خارجًا من الباب

الرئيسي عند مدخل الباطنية، صافحه أبي وسـأله: إلى أين؟ قال إنه متجه إلى البقال ليتحدث إلى الأهل من الهاتف، عندئذ قال الوالد، أعلم بوجود هاتف في الرواق، قال الشـيخ: هذا للشغل أما مكالمتي فتخصني، عاينت ذلك، مرات أخرى فيها تلا ذلك عندما عرفت طريقي إليه بمفردي، سأل طلابه أن يكتب كُل منهم في كراس مـا لم يرد في كتاب، حار أمري، ماذا يقصد؟ أمهل الجميع شـهرًا، في الموعد المحدد عـدت ومعـي كراس خالٍ تمامًا، لم أكتب بصفحاته اسـمي حتـى، كنت أتلقى عنه ولا أشـارك بالاستفسـار، أصغي وأصغي ولا أطرح ما يعن لي من سـؤال، أحيانًا أدون جملـة تلفـت ذائقتـي، أو شرحًا فريدًا لبيت من الشـعر أو حديثًـا لم يصادفني في الكتـب، في ذلك العـصر تجمع نفر من كل صوب، فيهـم الصعيدي والبحري، المغربي والمشرقي، المـالاوي والإندونيسي، الصيني والتركي والأعجمي، الكردي والعربي، راح كل منهم يذكر ما دوّنه مما لم يرد في كتب، طال البسط والإصغاء من فضيلته إلا أن بادرة رضا لم تلح، قبل رفع صلاة المغرب اتجه إليَّ، خاطبني:

«وأنت.. ماذا عندك؟».

فوجئـت حتـى ارتـج عليَّ، فلـم يسـبق لي أن توجهـت إليـه أو عنه، أشـار إلى الكراس، رفعته، قلبت صفحاته الخالية من كل خط أو حرف، أشـار إليَّ، تقدمت خجلًا متعثرًا في نفسي، تناول الكراس، رفعه بيده قائلًا للكافة:

«هنا.. ما لم يرد في كتب..

# كُتب الوصول

بعد أن استقر الأمر لمكتبة الإسكندرية، أصبحت أشهر مكتبات العالم القديم وتحقق الغرض منها، تجميع علوم المصريين الأقدمين من سائر المعابد ونقلها إلى الضفة الأخرى من البحر، إلى بلاد اليونان، أمر بطليموس التاسع ألا يُسمح بدخول أي مركب صَغر حجمه أو كبر إلى ميناء الإسكندرية إلا إذا نزل ربانه وسلم كتابًا إلى رجل المكتبة الذي خُصص له قارب صار معروفًا لكل الربابنة، مزود بما يمكنه من الصعود خاوي اليدين والنزول ممسكًا بالمخطوط أو اللفافة أو الأوراق المضمومة، لم يضع بطليموس شروطًا لما يجب أن يكون عليه الكتاب، لا حجمه ولا نوعه، أو مضمونه، المهم كتاب، أي لغة، يمكن أكثر، هكذا حوت المكتبة ما حوت، في صبيحة صافية البحر والفضاء ظهر مركب من طراز غير معهود، أشرعته صغيرة، هرمية الشكل وليست مستطيلة أو مربعة كما هو معهود، عندما طلع رجل المكتبة لم يجد كتابًا في انتظاره، كان التفاهم ممكنًا بقدر لأن الربان يعرف لغة شعوب البحر التي يتقنها رجل المكتبة، عندما طالبه بكتاب، قال إنه يجهل ذلك لأنها المرة الأولى التي يبحر فيها إلى تلك الشواطئ، إنه قادم من أرض لم يبلغها أحد، هناك عند الطرف الآخر من المحيط الأعظم، لم يبلغهم ذلك، لكن ما دام الأمر كذلك فسوف يهدي ملك الديار كتابًا ليس مثله مثل، أتى بلفافة من ورق يشبه أوراق الشجر المعمر، اعتاد رجل المكتبة ألا يستفسر، ألا يفحص، كثير من الكتب التي تسلمها لم يعرف مضمونها، نهاية اليوم مضى إلى القيّم، حافظ المحتوى، يوزع ما

يـرد على المواضـع المحددة، طبقًـا للمضـمون أو اللغة، عندما فـرد اللفافة لم يطالعه حرف، دهش، فردها حتى الحافة، حدق وأمعن، وفي لحظة بعينها بدأ وجهه يكفهر كبدايـة النـوة عند أفق البحر، القيم من حكماء معبـد أبيدوس، عالم بما كان وبعض مما سيكون، فجأة قلع غطاء رأسه، لطم خديه وانفرط حضوره مبديًا ندمه، موغلًا في الاعتراف بذنبه، ليته لم يفض اللفافة الخالية، ليته لم يفض الصفحات التي لم تعد ناصعة كما جاءت، كافة المعارف المتوارثة والمحفوظة انتقلت إلى هناك عبر اللفافة، عبر اللفافة كان ذلك كذلك، بداية أفول المكتبة.

# كَـونٌ

لسمرقند عندي رعدة وهزة، غابت عني التفاصيل عدا صور متفرقة ستبلى إن عاجلًا أو آجلًا، لون الخزف الأزرق وكتابة بيضاء تتخلله، صروح خاوية، مساجد عظمى بلا شعائر، أجزاء من سور، حديقة أشرفت عليها في الصباح، عندما تطلعت من نافذة الفندق الذي وصلنا إليه ليلًا فقابل بصري شجر التيوليب، لم أره إلا في المنمنمات التي تزين الكتب، طريق يحفه صفان من أشجار باسقات كغصن المحبوبة التي لخطوها عندي رَجْع ورعدة حتى زمني هذا رغم فوات السنين وضعف الهمة وبعد الشقة، آه من نسيم سمرقند آه، لها من الألوان السماوي ومن العطور الند والعود ومن الطيور الكناريا ومن الأنغام مقام نهاوند، ومن الظهور كل طلع نضيد، عند جزء من السور تأهبنا لدخول المرصد، بجواري سي الطاهر صاحبي الأديب الجزائري، لحيظات جلل أتبسبس لاستعادتها وأشف، من رغب في الاستزادة فعليه برسالتي في الصبابة والوجد، لعلي أبلغ الأسباب.

دخلت أمامي ساحة مرصد أولغ بك، ضمَّنا حيز محدود فأتيح لي تنسم شذاها ومقاربة شفقها وبلّل روحي نداها، وقف المرافق الأوزبكي يتحدث عن المرصد، متى وكيف أُنشئ، بمبادرة من أولوج بك، كان مُهابًا في قومه، لم يشغله موقعه عن متابعة الفلك، كنت مشغولًا باستقصاء أصدائها ومقاربة مدارها، غير أنه عندما تحدث عما توصل إليه أولوج بك التفت وانتبهت والله لم أحد عنها ولم أضل، إنما صرت أبصر بها وأسمع، لي بالنجوم تعلق وبالكواكب شغل، قال المرافق إنه أمضى

سنوات طويلة يتبع ويرقب ويرصد الأفلاك، أدرك بعد طول فحص وتدوين أن النجوم والشهب والنيازك والكويكبات الهائمة والمجرات ما هي إلا حروف لكلمات مبهمة، أدرك منها القليل ولم يتوصل إلى معرفة الكثير، ليست السماء إلا كتاب الكون ما خفي منه وما ظهر، استعدت رحلة بعيدة إلى سقارة، كنت في المرحلة الإعدادية، مازلت أذكر سقف مقبرة، أسود غميقًا، تتخلله نجوم ذهبية، قال الدليل يومها إن القوم نظروا إلى السماء باعتبارها صفحة في كتاب الكون، ما النجوم والأفلاك إلا حروف فيه، لكن.. ماذا تقول؟ حاولت جاهدًا الوصول إلى ذلك السقف، لم أوفق رغم السماح لي بدخول أي مقبرة أو هرم، متاح أو غير متاح، هل وصل إلى أولوج بك نبأ من مصر القديمة؟ هل فك سر الحرف؟ إذن ماذا تكون هي؟

يا نسيم سمرقند لا تغرب عني، من تلك اللحظة أتزود وأتجدد، من هي بوقفتها، بِطَلَّتِهَا، بالتفاتتها، أقول ولا أخفي، إنها مفتتح ذلك الكتاب القديم، الباقي، ألف البداية، ياء المختتم، إنها الفحوى والمضمون الذي لا يبين، فهل وعيت وأدركت؟

# كتب وافدة

دخلت الحبس الانفرادي في نهاية أكتوبر عام ستة وستين وتسعمائة وألف، كان ذلك في معتقل القلعة الذي يتوصل به من الساحة الواقعة أمام المتحف الحربي، وصلت إليه ليلًا في عربة ترحيلات من معتقل مزرعة طرة، لمحت في الطريق خطابًا مع الضابط المسئول عن الحراسة، قرأت اسمي الثلاثي مقرونًا به توصيفي -شيوعي- وجملة توصي بالانتباه تحت الحراسة المشددة، كنت أتأمل كل ما يمكنني رؤيته، ما نما إليّ عن المعتقل الذي يتبع المباحث العامة مباشرة من وسائل تعذيب جعلني غير مستوثق من خروجي حيًّا، عندما دخلت من البوابة الأثرية، لاحظت أن الحراس والسجانين يرتدون الملابس المدنية، الضابط أو جندي الشرطة مرتديًا الملابس الرسمية لا يثير خشيتي، أما ذلك الذي يحمل رتبة ويؤدي مهمة مرتديًا ملابس مدنية لا تفصح عن هويته فمصدر للحذر والخطر، لاحظت أن الشخص الذي قابلناه في مكتب لا نوافذ له لم يسجل اسمي في دفتر فتأكد لي ما علمته، لا تدوين لأسماء الداخلين حتى إذا قُتل أحدهم في التعذيب يسدد أمام خانته «هارب»، يعتبر هاربًا أثناء الترحيل وبذلك لا يلحق أحد الجلادين ضُرّ ويظل في مأمن، وهذا من الفظائع، جرى التنبيه عليّ بنسيان اسمي عند عتبة السجن، ليس لي إلا رقم الزنزانة، صحبني المخبر بعد أن أسدل على عيني طاقية المحكوم عليهم بالإعدام، نزلت درجات، دُفعت إلى المشي خطوات، كشف بصري، أقف عند عتبة زنزانة، بابان، الأول من قضبان حديدية، يليه خشبي مصمت به دائرة

مغطاة، يمكن تحريك القرص الحاجب من الخارج، يتطلع من بالخارج إلى الداخل ولا يستطيع ذلك المحبوس، قال الحارس:

«اسمك منذ هذه اللحظة أربعة وثلاثون..

استعدت ما أعرفه عن منزلة الاسم عند المصريين، الاسم من مكونات الوجود الخمسة، هو أولًا، يليه الكا أي الروح ثم البا الأقرب إلى معنى النفس ويسميه أهل الريف «الطبع» وعندما يموت الإنسان يتطلع إليه أهل المعرفة والحدس، يقول أحدهم: «لا تدفنوه فالطبع لم يخرج منه بعد..»، رابعًا الجسد، خامسًا الظل، بمنع اسمي عني يحاولون إفقادي بعضًا من وجودي، عندما خطوت إلى داخل الفراغ المؤطر بجدران مرتفعة، خلو من أي شيء، عدا رف صغير داخل فجوة في الجدار، تابع الحارس قائلًا إن الذهاب إلى الدورة يكون مرتين لا غير في اليوم، السادسة صباحًا والسادسة مساء، ممنوع الكلام مع أي معتقل آخر عبر الزنزانة، لا صوت، لا حس، الوجبات ثلاث، لم أستفسر، جرى عندي خاطر ساخر، استعدت التعليمات التي يلقيها موظفو الفنادق على النزلاء، محاولة تعريف كل منهم على محتويات الغرفة، مواعيد الإفطار وغير ذلك، إيقاع كلماته مشابه رغم أنها أوامر، كنت معنيًّا بالتعرف على هذا الحيز الذي لا أعرف ما سيجري لي فيه، حتى الآن رغم مرور ما يقارب نصف قرن أستعيد جيدًا لحظة دخولي ولحظة خروجي عائدًا إلى طرة ولحظات دخول الحارس فجرًا ودلقه جردل ماء في برد قارس على أرضية الزنزانة حتى لا يمكنني الرقاد، ولحظة اقتحام ضابط ممسك بعصا أخضر العينين، عنده ميوعة، عرفت فيما بعد أنه معروف بقسوته وضرب المعتقلين على أعضائهم الدقيقة، ولحظات استدعائي إلى التحقيق أي التعذيب الذي قام به الرائد منير وقد ذكرت وقائعه في كتاب التجليات، البدايات لا تنسى، كذا النهايات والفواصل، ما عدا ذلك وقت مدغم، متشابه، يقاوم هُلاميته كُلّ بطريقته، كل شيء ممنوع، لا يترك شيء قط يمكن اللهو به أو تحريكه، كان العشاء نصف رغيف أفرنجي

«فينو» وقطعة جبن نستو وسبع حبات زيتون أسود، الوجبات تجيء من متعهد، لا مكان في السجن لفرن أو مطبخ أو مائدة، عرفت فيه لحم الضأن المجمد الذي يحوي زفارة ما، بدأ استيراده من الخارج في هذا العام وكانت أمي رغم شح أحوالنا ترفضه وتعتبره نذير شؤم وإملاق رغم تأكيد جارتنا أم وفاء أنه مذبوح على الشريعة الإسلامية وجرى التكبير عليه ثلاث مرات، في الصباح عند تسليم الإفطار، نصف رغيف به مس من فول، قبل أن أتناوله يطلب المخبر تسليم بذور الزيتون كل يوم، سواء هو أو غيره يقول نفس الجملة ويبدو أنها تعليمات، «إوعى تقول لي إنك بلعت واحدة..

يعدهم أولًا، سبعة يعني سبعة، حبات الزيتون يمكن رصها، اللعب بها مثل السيجة أو تخيلها كشطرنج، أما الطعام فعلمت فيما بعد أنه مدروس، يسكت الجوع بقدر لكنه لا يفي باحتياجات الإنسان، من هنا كان مصدر الدوار والإحساس بالهزال الدائم، إنه طعام وليس بطعام، يتداغم الوقت في الحبس الانفرادي، الحركة محدودة، الزنزانة طولها خطوتان ونصف الخطوة، ما من وسيلة إلا الإمعان داخل الذات وتوقع الاستدعاء، كنت أحاول استدعاء اليوم الموازي، الآن يقوم قطار الثامنة صباحًا، الآن يخرج أبي إلى شغله، إلى صلاة المغرب، العشاء، الجمعة، مع تشابه الأيام لافتقاد الحركة، عندما ينحصر المكان يتضاءل الزمان أيضًا، غير أن ثقله يتزايد، حتى أخفف منه بدأت أستدعي بعضًا مما كان، فترات بعينها، حقب أتمنى استعادتها وأخرى أخشى تذكرها، إلى أن وقفت على مصدر خوائي وسبب تقلقلي، افتقادي الكتب، منذ بدء سعيي وتعرفي إليها لم أنقطع عنها قط، حميمية لم تواتني تجاه أي خَلْق أو كينونة، حتى إن الكتاب الذي أتعلق به أضعه إلى جواري عند إغفائي حتى لا ينأى عني، فترة حبسي واعتقالي وتقطيع الصلات بيني وبين كل ما يخرج عني هي الأصعب، في المزرعة كنا معًا، الكتب ممنوعة عدا القرآن الكريم والكتاب المقدس، لكن في القلعة غير مسموح حتى بالقرآن، ما

مـن كتاب أو كتابة، حصار مطبق وترسـيخ تام لقطيعة صـماء، في المزرعة كنت مع صحبـي، كل منهـم كتاب حي بما يذكره أو يقصه أو يسـتدعيه، لكن في الانفرادي يبـاب، انتظار الجلد والكي والتغطيـس في البول والضرب المدمي، في أي لحظة قد يحدث الاستدعاء، يبدأ تهيئة المخلوق من الزنزانة بصفعه وركله ودفعه للاصطدام بالجـدران معصـوب العينين حتى يمثل أمـام ضابط التحقيـق ولي في ذلك أحوال ولغـيري أكثر، ربـما أذكرها في موضع آخـر غير أنني لن أسـتدعي في هذه الحكاية إلا مـا يخـص الكتب، لما طال افتقـادي للكتب عامة وحسرتي على ما اسـتولى عليه الضابـط المكلف باعتقـالي، كان فظًّا صلد القلـب متعمدًا للتخريـب، يأخذ جزءًا مـن تاريخ الجـبرتي ويترك البقية ولما أبديت اعتراضي فهـذا كتاب تراثي قال بدون النظـر إليَّ، ربما يحـوي تعليقات ذات مغـزى، لم يكن يُمكننـي رده أو منعه، اعتقل كتبـي معـي، حوى ما اسـتولى عليه نفائس اقتنيتها بشـق الأنفـس، وكافة صوري وصـور أسرتي فلا توجد لي لقطة قبل عام سـتة وسـتين، كذا أبي وأمي، وأشـقائي وأصحـابي، صـادر جزءًا من ذاكرتي، وكل ما لديَّ مـن ورق أبيض ولذلك خلفية طويلة آمل أن أكون وضحتها في كتاب التجليات، ذات ضحى ورد عليَّ خاطر أن أسـتدعي كتابًـا أتأمله، أقلب صفحاته، أسـترجع ما حوى بالصمـت أو النطق أو كليهما معًا، ولأن الحديث المســموع كان ممنوعًا البتة لذا جرى نطقي بالهمس، أول مـا وفد على ذاكرتي «بدائع الزهور في وقائـع الدهور» لابن إياس الحنفي المصري، قـرأت طبعاتـه، الأولى من بولاق في القرن التاسـع عشر، والثانيـة مصورة عنها في كتاب الشعب الذي قدمه منجمًا، على أجزاء عديدة للتيسير على الراغبين أما الأتم الأكمل فطبعة محمد مصطفى وباول كاله، أصدرتها جمعية المسـتشرقين الألمان، ولم تكن في ذلك الحين قد استكملت بعد، ولي مع محمد مصطفى سعي وصلة، فيما تلا ذلك من سـنوات رتبت إصدار ذلك التحقيـق في مصر، لكن تلك حكاية أخرى، وفـد على الكتـاب بأجزائه الأخيرة بـدءًا من عـصر قايتباي وحتى انتهـاء التاريخ

فجأة عام تسعمائة وستة وعشرين، بالأخص وقائع الغزو العثماني لمصر، تفد على صفحات كاملة كما عرفتها حتى العلامات أراها واضحة، جلية، عندما تكتمل الرؤية أغمض عينيَّ، أضبط حالي مستمتعًا بالوحدة، بالانفراد حتى لأسخر من الذين خططوا هنا أو من تعلموا منهم هناك، متذكرًا قول روائي شهير لعله ألبير كامو، قال إنه لا حدود لقدرة الإنسان على التكيف، حتى ليمكنه العيش في لحاء شجرة، قول مستحسن المعنى وسلبي من ناحية، لهذا شرح يطول لعلي مفصح عنه يومًا، أحيانًا أجد الصفحات بيضاء، خلوًا من أي حرف، بيضاء كضمير المولود توًّا، عندئذ أستعير حال أعرفه، ذلك أنني فطرت على عشق السماع، اجتهدت ثم خلصت إلى إسلامي القياد إلى ما ترغبه روحي، أحفظ الألحان، أتقنها، أحيانًا تغيب الكلمات عني، عندئذ أكمل الناقص من محتواي ومكنوني، أبدل، أقدم، أؤخر، هذا ما صار لي مع الكتب الوافدة من ذاكرتي، القادمة مني والذاهبة إليَّ، أصير المنبع والمصب، يتداخل هذا بذاك فيتسع الكتاب لما لم يوجد فيه، يصير قابلًا كل خاطرة أو إضافة وهذا من غريب ما عرفته، وفد عليَّ وألح «تفسير الأحلام» لفرويد، حاولت إبقاءه بعيدًا لضخامته وصعوبته، غير أنه أتاني جليًّا، ناصعًا، لم يكلفني مشقة إلا في مواضع قليلة حتى إنني رأيت باب تكوين الحلم بالضبط كما عرفته، ثم أدركت أنه على قدر المشقة يكون وضوح الوفادة، كل ما بذلت الجهد من أجله جاءني بيسر، عرفت فرويد بترجمة مصطفى صفوان في دار الكتب، باب الخلق، ما أجلَّها وأروعها هيبة، كنت أتوق إلى مدخلها الرحب كأني ماض إلى محل بهجة وموضع ورع، تقت إلى اقتنائه، لم يكن بمكنتي شراؤه لقلة مصروفي فعكفت على نقله، نسخته كاملًا حتى الهوامش الألمانية، رسمتها لجهلي بها، بعد حوالي ثلاثين عامًا التقيت المترجم في باريس وعندما رويت له ما جرى قال بدهشة: أنت تعبت أكثر مني فيه، ليس تفسير الأحلام فقط، كل ما تقت إلى اقتنائه ولم أتمكن لوهن الإمكانية أو لندرة النص، كل ما كتبته وفد عليَّ هينًا، متاحًا، حتى أنني لأقلبه

كأنه بين يديَّ، ومن ذلك «القصة السيكولوجية» لـ ليون أيدل، و«المغني» للقاضي عبد الجبار بأجزائه التسعة المتاحة، و«الشفاء» لابن سينا، خاصة الجزء المسمى «السماع الطبيعي» ويتطرق فيه إلى موضوع الزمن شاغلي الأكبر، أما «الإشارات الإلهية» للتوحيدي فرتلته ترتيلًا، وغير ذلك كثير، صار في حبسي الانفرادي مكتبة لا تدرك ولا يمكن أن يراها إلاي، لكن الأغرب وفادة من عرفت من روايات أحببتها وأضعها في متناولي حتى يومي هذا، من ذلك كابتن أخاب، كنت أراه حتى يتداخل معي فأقوم في الزنزانة لأمشي مثله وبي عرج، أو أقف متطلعًا عند أعلى الصاري باحثًا في المحيط عن حوت أبيض أسعى إلى الثأر منه، موبي ديك هرمان ميلفل أقنومي، أما راسكو لنيكوف فجاءني متهاديًا، يرتدي المعطف الذي أخفى البلطة تحته، يمضي عبر شوارع وجسور بطرسبورج، أغمض عينيَّ أتبعه مقتفيًا أثره، أتمعن فيه حتى أصير هو ويمضي إليَّ، أما جان فالجان، أول من قابلت من شخوص عالمي الأثير فأتخذ أحيانًا وضعه عند المتاريس أثناء اشتعال الثورة، أما تشوخوف فلم أستدع نصًّا منفصلًا عنه، إنما يجيء أولًا برقته ونظرته السارحة، أطلب منه أن يحكي لي كما يطلب الطفل من أبيه حكاية، والله كدت أسمع صوته، يتحرك لسانه بالروسية ويصلني بالعربية في معزلي القسري فما أعجب..

# كتابة

أبيدوس

موضعها الذي كان قبل عدة آلاف من السنين، ما بين موقع المعبد الحالي الذي وصل إلينا سالمًا تقريبًا بمعجزة رغم غزوات ودوام احتلال واعتناق أحفاد لأديان وافدة ونسيانهم ما قدسه الأجداد، وما بين ما يُعرف الآن بشونة الزبيب، في ذلك الزمن البعيد كانت الرموز منطوقة لا غير، متوارثة، إلا أن أشياء بدأت تتراكم، تنتقل شفاهة من جيل إلى آخر، إلى أن جاء كاهن متقن لسائر ما عُرف حتى ذلك الحين من علوم وأحجية لا يعرفها إلا الخاصة، بعد طول تأمل في سحيق النجوم، وذلك الغبار الممتد كممر هناك في الأعالي، بعد تتبع لأطوار البذرة التي لا يمكن أن تثمر وتينع إلا إذا طمرت ودُفنت في التربة، أيورق الإنسان الذي يغيب إلى الأبد؟ أسئلة كثيرة طُرحت على المجمع المقدس الذي رأسه تحوت حاوي ما توصل إليه الأقدمون، الذين عُرف منهم وما لم يُعرف، ما حصلوه وما لم يُحصل، بعد خلوة طالت أربعين سنة، خرج فجرًا ونجم الشمال لم يتوار بعد، قصد الموضع الذي دفن فيه رأس أوزير بعد أن مزق شقيقه ست رمز الشر جسده إلى اثنتين وأربعين قطعة ونثرها على الامتداد حتى سعت الوفية الجميلة النقية الطاهرة، تذرف دمع الفقد والحزن على حبيبها وأنيسها الذي أنجبت منه بعد قتله عندما عثرت على عضوه، هكذا حملت بحورس وهي تدمع، من قَطْرها يجيء الفيضان، بعد عثورها على آخر قطعة اكتمل حضور كيميت أي الأرض السوداء، الخصبة،

مصدر الزرع والضرع والوفادة والسعي والمآب، المبدأ والمعاد، هكذا بدأ حضور مصر في المكان والزمان، وحّدها أوزير بجسده وفي هذا شرح يطول يخرج بنا عن السياق إذا أمعنا فيه، الموضح الأقدس حيث دفنت الوفية الرءوم الرأس، دائمًا نرى أوزير ملفوفًا بالأبيض، لا نرى وجوده، إنها أبديته، مومياؤه، تقف وراءه إذا كان جالسًا أو واقفًا، إيزيس، تلمس كتفه بحنو وترهاف، هي الحامية، هي الحارسة، الوفية، إذا ظهر بمفرده يكون لونه مزيجًا من أخضر مشوب بزرقة، خصب ونماء، أما ست فلونه أحمر على حافة الأصفر، جدب وعدم مثل الصحراء الممتدة جنبًا إلى جنب مع الزرع والبذور وسريان الماء السلسال، جبت العالم شرقًا وغربًا فلم أعرف بلدًا يتجاور فيه الكينونة والعدم مثل مصر، يمكن لإنسان أو حيوان أو طائر أن يضع قدمًا في الوجود وأخرى في العدم، في ذلك الحين كانت الألوان بديلًا للرموز، ظل ذلك ساريًا، ممتدًّا، حتى بعد ما توصل إليه تحوت في موضع أبيدوس بعد تدبير وإمعان قرب موضع الرأس المقدس لأوزير الخير، وقد عشت قدرًا غير هين من عمري بجوار مرقد رأس الحسين الشريف، ما لفت انتباهي الاحتفاء بالرأس لكليهما وهما شهيدان، افتديا الآخرين بوجودهما فما أقرب وما أتم المعنى! كلما نزلت ما يُعرف الآن بالعرابة المدفونة، طفت بالمعبد فجرًا وظهرًا ومغيبًا، كلما خرجت من قاعة الأسلاف حيث ستة وسبعون خرطوشًا لكل من توالوا وتعاقبوا عدا المارقين، من حادوا عن الصراط وخلخلوا البنية، حتشبسوت مغتصبة الحكم الحق من شقيقها، وأخناتون المهرطق الذي خرج من معتقد الأجداد وهو مُليم، وابنه الصبي توت عنخ آمون، كلما خرجت إلى «الأوزيريون»، قاصدًا الممر المرسوم على جداره الأيمن بالنسبة للداخل كرة تامة الاستدارة لونها أحمر طوبي، تحيط بها يدان تلامسانها لا غير، لا يبدو إلا اليدان حتى الكوعين، ما خلا ذلك خارج البصر، تضيق عنه المساحة، أعرف الرمز، يتصدر قاعة التابوت في مقبرة رمسيس السادس، أتأمله قليلًا وكثيرًا، محاطًا بالكتابة التي ما كان ممكنًا ظهورها بدون تحوت، الذي

قُدس فيها بعد وصار اســمه توت ولعلنا نتذكر الشــهر المعروف في التقويم القبطي الذي يتبعه كل من يعمل بالفلاحة في بر مصر المقدس، تقول المتون إن تحوت خرج من المجمع قاصدًا القصر الملكي، التعليمات جلية، مســموح له بالدخول على سـيد الأرضين -القبلي والبحري- حتى لو كان نائمًا يوقظه، غير أنه كان مستيقظًا وكأنه توقع مجيء سيد الكهنة وخازن الحكمة، أدى السلام وأقبل، وضع اللفائف، راح يبسـطها واحدة بعد أخرى متدفقًا في الشرح وتفسير أول أبجدية يعرفها الإنـسان، قـال إنه يقدم إلى حارس كيميت، المؤتمن، الصـادق، القوي، عمارة المعاني وحافظة الوجـود، غير أن الملك لم يبد مـا توقعه تحوت الحكيم، ليس هذا وضعه عندما قدم إليـه الشـطرنج الذي اخترعه، ليسـت تلك ملامحه التـي عرفها يوم قـدم إليه لعبة الضامّـة التي توصَّل إليها وتشـبه الشـطرنج، أو عندما قدم أصول البناء، أسـاس الهندسـة، مال الملك إلى الأمام، بدت على ملامحه غضون وأوشك على إبداء أسى، توجس تحوت، ماذا فعل حتى يجيء رد الفعل هكذا؟ قال موضحًا:

«لن يكون نسيان بعد اليوم..

هز المتقن، الأمين على الضعفاء، حافظ الحدود..

«بـل إنه النسـيان عينه، لـن يبذل القوم جهـدًا للتذكر، بدون كتابـة كان أفقهم أوسـع ومدارهم أرحب، لكنك بهذه الحروف حددت سعيهم، ما قدمته لي وصفة للتذكر وليس عونًا للذاكرة، سيتبعون الرموز وليس الأصل..

بُهـت تحوت حتى اغـبرت ملامحه وظهر عليـه كمد وعندما هـمَّ بطي اللفائف أشار إليه سيد الأرضين أن يكف..

«لم تظهـر الحـروف لتختفي، إنها لتبقى، ظهورها لن يعقبه طي وما سـيكون... سيكون...

# كتاب البحر

عائـد من جزيرة شـدوان ليـلًا إلى الغردقـة، مركب صيد، ريِّسـه صعيدي من قفط، جاء ليقيم مع أبيه الذي سعى إلى الرزق، أتقن الإبحار حتى صاروا يقولون إذا ذُكر اسمه «البحر الأحمر لعبته..

كان يحفظ مسـتويات الأعماق، مواقـع الجزر، أنواع الكائنات البحرية، يقسـم إن الشعاب المرجانية تفرز منيًّا كالرجال تلقح به الماء والفضاء، علماء متخصصـون يجيئون إليه من كل فج، يستقصون ويستعلمون، يأخذون عنه ويدونون، عندما بدأ هجوم العدو الإسرائيلي على الجزيرة المرابط فوقها سرية صاعقة، قاتلت بشراسـة، أرهفت البلاد كلها سـمعها لما يُتلى من بيانـات، كان فيها ما لم يعتده القوم، ذُكرت الخسـائر بدقة، تجاوز الشهداء السـبعين، احتلال العدو الجزيرة لساعات، وصلت إلى الغردقـة مـن القاهرة، كنت يافعًا، جلدًا، أهدئ النفس بالتواجد في قلب الخطر مـن خلال عمـلي كصحفـي، قصدت الجزيـرة مع ضابـط بحـري، والعقيد محمد مازن السـوهاجي كان قائدًا لمكتب مخابرات البحر الأحمر وثلاثة صيادين يعملون على المركب، نشـطوا خـلال المعركة، نقلوا سـلاحًا وذخيرة ومـددًا، يقول الريِّس إنـه يمكنـه الإبحار عبر طرق لا يمكـن حتى للأقمار الصناعيـة أن ترصده عبرها، يشـير إلى الماء الممتد، يقول هذا الاسـتواء فيه دروب وممرات ومنعرجات، لا تظهر إلا لمـن يعرفهـا ويتقن التعامل معها، عندما وصلنا الجزيـرة صلدة الصخور، كلها مرجانيـة يسـتحيل الحفـر فيها، لذلك بقيت أجسـاد أربعة وعشرين شـهيدًا بدون

دفـن، العدو قام بتلغيمها، غُطيـت بالبطاطين، لم أر إلا وجهًا واحدًا لمجند، خريج المعهـد الأزهـري بنجع حمـادي، دونت اسـمه واحتفظت به، وبعـد حوالي نصف قـرن تطالعنـي ملامحـه التي لم تكن قـد توارت بعـد، كان موجودًا وغـير موجود، أرى الفنـار عنـد الطـرف الجنوبي، عنده جـرت واقعة ذكرتها فيما دونت، شـدوان مـن الأماكـن القليلة في الدنيا التي تركت عندي أثرًا، الليل اقترب، نشـط الطيران المعـادي مـع آخر ضوء، يجـب الانتظار حتى ما بعـد المغيب، بـدأت العودة، ظهر السـلاح المخبـأ، ربـما نتعرض لهجـوم، تنقلت مـن أعلى نقطـة، كابينـة المراقبة إلى المقدمـة، العقيد مازن حدثني بأشـياء مازلت أذكرها، بعد انتهاء الحرب استشـهد في حادث مروحية ذاع أمره، قضى فيه وزير الدفاع أحمد بدوي وثلاثة عشر ضابطًا لقـوا جميعًـا آجالهم، منهم مـازن الذي أقمت في مقره، مكان مـا لا يمكنني تحديده الآن، موقعـه في ذاكـرتي، غير أن ما أذكره هذا العـدد الهائل من النجوم وغمام مجرة درب التبانة، والشـهب المنفلتـة، وأصداء النجوم في الماء الـذي راح ريِّس المركب النحيـل، ممصـوص الوجنتين، عمامته عاليـة، كان يطيل النظر إلى المـاء على جانبي المركب، مرة من يسـار، أخرى من يمين، تعجبت، ظننته سيظل متطلعًا إلى الأمام، وَضْع كل الربابنة، سألته، لماذ ينظر إلى الماء؟ التفت إليَّ لحيظة وعاد إلى وضعه، قال إنه يقرأ كتاب البحر ليدله على الطريق غير المطروق الذي يسلكه، ثم قال إن البحر كتـاب غويـط، غويط، لا يقرؤه إلا من يعرف أحاجيـه وأسراره، فيه كل ما تتخيل حتى ما يتعلق بالسماء..

## بالكتب

يصعب، بل يشق عليَّ حصر ما قرأته من كتب، غير أنه من السهل تعيين ما حيرني، إنه كتاب الحيوان لأبي عثمان عَمْرو بن بحر الجاحظ «150-250 هـ» ترى ماذا قصد به؟ لماذا يبدأ بمعنى الكتب، علاقته بها، جماليات الخط، بل إنه يقول ما نصه:

«أعلم أنَّ العاقل إن لم يكن بالمتتبِّع، فكثيرًا ما يعتريه ما يعتريه من ولده، أن يَحْسُن في عينه منه المقبَّحُ في عين غيره، فليعلم أن اللفظ أقرب نسبًا منه مِن ابنه، وحركته أمسُّ به رَحِمًا من ولده، لأنَّ حركته شيءٌ أحدثه من نفسه وبذاتِه، ومِن عين جوهره فَصَلت، ومِن نفسِه كانت، وإنما الولد كالْمخطَة يتمخَّطها، والنُّخامة يقذِفها، ولا سواءٌ إخراجُك مِن جزئك شيئًا لم يكن منك، وإظهارُك حركة لم تكن حتَّى كانت منك، ولذلك تجد فتنة الرجل بِشِعْرِه، وفتنته بكلامه وكتبِه فوق فتنتِه بجميع نِعمته».

أفهم ما قاله وأقدره، ليس في هذه السطور فقط، إنما في صفحات وشذرات أخرى بثها في موسوعته التي طبعت في ثمانية مجلدات بما يتجاوز مجموعه ثلاثة آلاف صفحة وخمسمائة، محفوظ أقدم مخطوطاتها في مكتبة لامبروزو، حققه عبد السلام هارون، غير أنني أتساءل دائمًا، ما علاقة ذلك بالحيوان؟ ما الصلة بين أدق ما كتبه أديب بالعربية عن أسرار الإبداع والصلة بالحرف واللفظ والتكوين والكتابة؟ ما الصلة بين البلاغة والحيوان؟ لماذ يتضمن حديثًا عن الإنسان وأحواله

وطبائعـه أكثر مما قصده موضوع الحيوان، ما حـيرني ما ذكره عن الكتابة والكتب، طالعـت عجائـب في كتب من عاصروه عـن صلته بالكتب، احتفاظـه من العنوان الواحد بعدة نسـخ، عشـقه لنصوص بعينها حتى إنه يضعها بجواره على الفراش، لا يطيـق بُعـده عما قرأ وأعجبه، بل إنه كان يقضي أوقاتًا طويلة، أيامًا ولياليَ متوالية لا يقيم أوده إلا باليسير من الخبز والغموس البسيط، بل يؤكد مخطوط لمؤرخ يمني محفـوظ بمكتبة بودليـان أنه كان يجد متعة في صحبة الكتاب أعمق وألذ من صحبة الأنثـى الجميلـة المعطاءة، أفهم ذلك وأدركه، لكنني لم أسـتوعب حتى الآن الصلة بين عنوان الكتاب وما تضمنه، عندي مثل ذلك، وقديمًا قال فؤاد التهامي صاحبي لمخـرج سـينمائي بدأ يعد شريطًا سـينمائيًّا عني، قال فؤاد له ناصحًـا ومقترحًا: ابدأ بجمال يجلس في قاعة تتكـدس فيها الكتب، لقطة من أعلى تظهـره وكأنه مجلد من المجلـدات، أحيانًا أرهق فأتمدد على أرضية المكتبة، أتطلع إلى الأرفف التي تتراص فوقها الكتب، بعضها بارز لحجمه، منذ سـنوات وقع زلزال مركزه جنوب جزيرة كريت، سـقطت الكتب الزائدة عن المسـاحة المتاحة فوق الأرض، لو أنني رقدت ذلك اليوم للقيت مصير الجاحظ، إذ غفا ونام في خزانة كتبه، ولسبب ما تساقطت فوقه الكتب وهكذا قضى.

# برت إم هارو

عندما تم بيت الحكمة في القاهرة زمن الحاكم بأمر الله جمع المترجمين من سائر اللغات المندثرة والسارية، كان كثير المجادلة، عويص المناغشة، سألهم: هل يمكن انقلاب المعنى في كتاب إذا نُقل إلى لغة أخرى؟ يقول المسبحي في تاريخه المفقود وكان حاضرًا المجلس إن الجمع تهيَّب الإجابة لغرابة السؤال، وربما لأنهم لم يفهموا الهدف الخفي منه، لكن المؤكد أنهم لم يكن لديهم ما يمكن أن يشكل إجابة، قلبت الأزمنة المتوالية خاصة المعاجم التي ذكرت الكتب والتآليف مثل «الفهرست» لابن النديم، و«كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة، غير أنني لم أجد ما يمكن اعتباره إجابة عن سؤال الحاكم بأمره، إلى أن وقفت على إمكانية ذلك، لو أنني مثلت أمام الخليفة الذي اختلف القوم في أمره لقلت: نعم يمكن هذا، ولضربت مثالًا بكتاب الخروج إلى النهار المعروف خطأ بكتاب الموتى، العنوان لا غير بَدل المضمون، غيَّره تمامًا، شاع ذلك حتى أصبح شبه مستحيل عودة الأمور إلى أصولها واتصال الفروع بجذورها، لا أدري متى بدأ اهتمامي بتلك المتون المتعلقة بحياة أخرى، أول من تخيل تفاصيلها المصريون القُدامى، كم من السنوات انقضى حتى وضعوا هذا التصور المتقن لبدء الرحلة الأخروية، ثم المثول أمام المحكمة الأوزيرية، عبور مراحل، وترتيل مناجاة في أثر أخرى حتى الموقف الأكبر عندما يمثل «المبرأ»، وهو لفظ قريب من «المرحوم» أمام

المحكمة الأوزيرية حيث يوزن القلب في كفة وريشة ماعت رمز العدل والتوازن في الوجود، فإذا ثقلت موازينه يكون مذنبًا، يلقى القلب إلى حيوان أسطوري، نصفه العلوي تمساح والأسفل أسد، اسمه «هَمْ هَمْ» عندئذ يصير المبرأ إلى الجحيم، أما إذا خفت موازينه فيصير إلى حقول يارو حيث أرض ليس فيها أعداء، سلام دائم ونعيم مقيم، ماء ونخيل وثراء ونعيم، شغلني الكتاب، بالتحديد عنوانه، برت إم هارو أي الخروج إلى النهار، قرأت مؤلفات الألماني إريك هورنينج وصنوه الأقدم أدولف ارمان عن المعتقد المصري القديم وما وضعه والاس بدج الإنجليزي والأمريكي النبيل جيمس هنري برستد، ولي معه شأن سأفضي به يومًا، وقفت على رؤية الأجداد، رفضوا العدم، اعتبروا الإنسان في رحلة، الحياة مرحلة، إذ تنتهي لا يكون عدم، إنما انتقال إلى حياة أخرى ممتدة باقية، لا يتم البدء فيها إلا بعد حساب، من هنا كانت المحاكمة والميزان ورمز العدالة ماعت، وما زال القوم يقولون في حواراتهم «أنت على راسك ريشة..»، الرحلة الأخروية فيها مجهول وخطر، من هنا جاء كتاب الخروج إلى النهار، إنه يزود المرحوم بدليل لما سيقوله أمام المحكمة وخلال الأطوار التي سيمر بها حتى وصوله إلى حقول يارو، جنة النعيم، ما زال القوم في صعيد مصر يهمسون في أذن المرحوم، جرى ذلك مع أبي، عندما همس الأكبر عمرًا في أذنه مطمئنًا له، موصيًا إياه ألا يخاف وحشة الطريق، وإذا لقي كذا فعليه أن يتلو كذا، أما العنوان فحَوى الرؤية، عندما تتم مرحلة الدنيا ويعبر المبرّأ المحكمة تصير روحه ضوءًا بين النجوم، لذلك عُد الرحيل الأبدي خروجًا إلى النهار وليس دفنًا في الظلام، لهذا عندما يرى الأهل في الريف شهابًا يهوي يقولون إنه روح أحد الصالحين أتم المدة واتحد بالنجوم، الحساب والجنة والنار صار إلى الديانات التالية مع تغير الرؤى وتبدل التفاصيل مع نقاء الجوهر، كان الكتاب يوضع على شكل لفائف من البردي، وصلنا بعضها، رأيت نسخة

في متحف تورينو مفرودة على جدران القاعة الرئيسـية، أما الأتم الأكمل فالبردية المخصصـة للمـبرّأ آني وزوجتـه التـي تقـف وراءه أو إلى جواره في كافة المشـاهد، انقضـت الأزمنـة الغابـرة وصـار كل شيء إلى نسـيان وهـذا من حقائـق الوجود، اللغـة نُسـيت والرموز تبدلت والألوان بقيت لكن تغـيرت دلالاتها، وعندما أعاد شـامبليون اكتشاف اللغة المنسية لم تعد جزءًا من بنية لها خصائصها ومعتقداتها إنها عنصرًا باليًا فردًا ليس متصلًا بمكوناته، بعض السمات لا تزال سائرة، في العقائد، في اللغة، في الخفي غير المدرك، غير أن هذا كله يظل في حاجة إلى إدراك وجهد، لا شيء يبقى، لا شيء يدوم، ما تظنه ساريًا، أبدًا صائر إلى تحول، تبدل، ما حيواتنا إلا من غبار النجوم، من غبار إلى سـدم تكون الصيرورة، قرأت شـذرات من الكتاب عند برسـتد وسليم حسـن وجون ولسـون ونوبلكور وغيرهم، ثم قرأته كاملًا في ثـلاث ترجمات، الأولى من الإنجليزية أنجزها فيليب عطية، والثانية من الفرنسـية أتمتهـا الدكتـورة زكية طبوزاده، والثالثة لمحسـن لطفي السـيد، أورد فيها نصوصًا بلغـات ثلاثة، الإنجليزية، الفرنسـية، العربية، أما الرابعة فتمت بسـعيي، إذ كنت أتمنى قراءة النصوص القديمة مترجمة مباشرة إلى العربية، خاصة أن العامية المصرية تتضمـن ألفاظًـا عديدة وتراكيب عتيقـة، عندما التقيت في ألمانيـا بشريف الصيفي المتخصـص في الهيلوغرفية، عرضـت عليه الأمر فرحب ونشرت ما أنجز في أخبار الأدب، ثـم صـدر الخروج إلى النهار في كتـاب وطبع مرات، هكـذا أديت واجبي تجاه نص أحببته وصرت إلى حفظ مقاطع منه، خاصة الأربعين قسمًا بعدم ارتكاب المسيء إلى الآخريـن، كيف بدل العنـوان المترجم من مضمونـه؟ في الشرح إجابة عـلى سـؤال الخليفة الفاطمي الحاكم بأمـر الله الذي ظل عالقًا أكثر من ألف سـنة؛ لأنهـم وجـدوا اللفائف الكتابية مـع المومياوات، ظنوا أنها كتب للموتى، شـغلني هذا، فتلك النصوص كُتبت بلغة الأحياء وقتئذ، فهل تخيلوا أن الراحلين العابرين

سيقرءونها بنفس اللغة؟ لا نعرف حتى الآن بأي لغة يكون التخاطب هناك، باللفظ أم بالإشارة، أم بوسيلة نجهل كل شيء عنها، هل تُلقى المفاهيم في الأرواح، بلا وسيط؟ لا علم ولا إحاطة مني بشيء، عندما أقدم والاس بدج وفولكنر على الترجمة، أطلقا عليه «كتاب الموتى»، هكذا صار رفض الفناء التام قبولًا به وصار الانتقال فناءً، تبدلت الرؤية بسبب عنوان وتلاشت الطريقة، الأجداد لم يعترفوا بالموت، آخر طقس قبل الدفن طقس فتح الفم، عندما يفتح الكاهن ما بين الشفتين بما يشبه القضيب صائحًا:

«انهض إنك لست بميت.. .

# الكتبي خربوش

أين رأيته؟

أين رأيته؟

آه. على سور الأزبكية، نحيل، حاد الأنف، غائر العينين، يرتدي زيًّا أزهريًّا، جبة وقفطانًا غير أن غطاء رأسه فاروقية من قطيفة مجعدة على رأسه صيفًا أو شتاء، ها هو يتحدث إلى بائع غامق السمرة متخصص في الكتب الأجنبية، إنجليزي، فرنسي، ألماني، لغات أخرى، لا أراه عبر مسافات الوقت واقفًا إلا عند هذا الرجل، أصافحه، إذن أعرفه من قبل، لابد أنني التقيته عند بائع آخر قبل، مازلت أذكر عبوري ميدان العتبة باتجاه السور، الكتب المصفوفة أثارت عندي بهجة، نشوة غامضة، أخيرًا وقعت على المصدر الأتم للكتب، سور الأزهر بدأ عندي بالشيخ تهامي، من أسوان، يميل إلى بدانة، بعد المدرسة كنت أتجه إليه، أجلس على رصة كتب، أختار كتابًا، رواية في معظم الأحيان، أستغرق، يهن الضوء، يجيء عمال الإنارة، يضعون السلالم إلى أعمدة الإضاءة، يشعلون المصابيح التي تضاء بالغاز، فيما بعد علمت أن وسط المدينة والشوارع كانت مزودة بشبكة غاز طبيعي منذ عهد الخديوي إسماعيل، الشيخ تهامي لم يكمل تعليمه في الأزهر، لسبب ما لزم الرصيف يبيع الكتب للطلبة ولربات البيوت اللواتي لم يكملن دراستهن، يبحثن عن روايات، بعد العشاء يرص الكتب، ينام فوقها، لم أعرف له مقرًّا إلا الرصيف، منه بدأت، ثم دار الكتب إلى أن عرفت السور الذي كان مقصد نزهتي، أما الشيخ

خربوش فلم أعرف له مقرًّا لم ألتقه إلا في حركة، يعبر طريقًا، يتأهب لمفارقة من يتحدث إليه، عُرف عنه قدرته على الوصول إلى النوادر، أو كما يقولون -يقدر يجيب المخفي- أما الذاكرة والقدرة على حفظ العناوين وأسماء المؤلفين ومواضع النسخ أو الطبع، فلم أعرف له صنوًا، غير أنني وجدته في الحاج محمد مدبولي وصاحبي حامد سعيد، كان يعمل موظفًا بمكتبة عامة، تخصص في الحصول على الطبعات المفقودة ونسخها بالتصوير ثم بيعها لمن يرغب، لكل منهما ذاكرة تقارب الشيخ لكن لا تشبهها، ذلك أنه تميز عنهما بما لم أعرفه عند مخلوق آخر، لا بالمعاينة ولا بالسمع أو القراءة، ذلك أنه أوتي القدرة على حفظ نصوص مفقودة، لا يتضمنها مخطوط أو مطبوع، يتلوها بالعلامات وما تبدل منها، يعيد الأمور إلى أصولها عبر الذاكرة، رأيته مرة في حديقة الأزبكية فوق الحشائش يجلس أمامه رجل صيني، أبيض الشعر، خفيف اللحية، عرفت فيما بعد أنه سعى خصيصًا من الصين للقائه عندما سمع أنه يحفظ كتاب اللصوص المفقود من مؤلفات الجاحظ، دفع له مبلغًا له صورة، إلا أن الشيخ لم يهتم، لم يكن يعبأ ولا يناقش، بل إنني لاحظت أنه يتناول المقابل فلا ينظر إليه، ولا يعد العملة ورقية كانت أو معدنية، فرح بالصيني لأنه طلب نص «اللصوص» بالذات، لم يسع إليه أحد وكان يخشى أن يفارق الدنيا ويمضي الكتاب معه، فلم يسع إلى تدوين ما يحفظه رغم أنه كثير، معظمه نادر، ولا يعرف أحد كيف وقف على الأصول ولا كيف صانها في ذاكرته، جاءه علماء متخصصون من ليون في هولندا، وبولونيا في إيطاليا، وفيينا وفرايبورج وليل، غير ذلك كثير، عندما سافرت إلى بكين، نزلت ضيفًا على أكاديمية العلوم الاجتماعية، سألت عن مستعرب جاء إلى مصر، كان يتخذ اسمًا عربيًا على ما درج عليه أساتذة العربية هناك ما زلت أذكر اسمه لندرته «صاعد إلى حافة الكون»، دققوا في الاستفسار فهم أهل عمق وتيقن، وصفته كما رأيته، جلس إلى الشيخ خربوش أربعين نهارًا متوالية عدا أيام الجُمع، التي يغيب فيها

ولا يعـرف أحـد مقصده لأن ما من إنســان تعامل معه اســتدل على موقـع إقامته، عادوا إليّ، أخبرني الأســتاذ بسام من رافقني وأطلعني على مقابر الأباطرة وطريقها الأبيـض الذي أذهلني لبسـاطته وعمق دلالته، أكد لي أنه لا يوجد شـخص قصد مصر في هذا الوقت، ولم يُعرف بين المسـتعربين منذ أن بدأت مدرسـة الاسـتشراق شـخصٌ بهذا الاسم، حيرني ذلك حتى شـككت فيها عندي، كان أملي أن أجد أثرًا لهـذا الصيني الذي رأيته بعيني، لعله يكون نسـخ ما سـمعه وأودعـه خزانة ما، إما في الجامعـة أو أحـد مراكـز الاسـتشراق، بلبلني خاطـر مضمونه تسـاؤل هل كان يحفـظ نصوصًا قديمة حقًّـا أم توهمها فوضعها فأملاها، لكن ماذا يدعو كل هؤلاء الأسـاتذة إلى شـد الرحال إليه؟ علمت من الشـيخ تهامي أن كبير الدروز في جبل الكرمل، أرسـل يطلب منه إملاء النصوص الكاملة لرسـائل الحاكم بأمر الله، وله مقدار وزنها ذهبًا بندقيًّا مضمون العيار، اعتذر بلطف وكياسة، صحيح أنه يحفظها لكن نطقه بها وإخراجها إلى العلن سـيحدث أمرًا يخشـاه، إنه النص الوحيد الذي اعتذر عن تلاوته والنطق بمضمونه، عندي كتاب أملاه عليَّ كلمة كلمة، إنه «راحة العقـل» للداعي الفاطمي حميد الدين الكرماني، ما زلت أحتفظ بما كتبته عام أربعة وسـتين وأنا جالس إليه في صحن الأزهر، قرب العمود المخصص للشـيخ صالح الجعفري، عليه رحمة الله تعالى، إنها المرة الوحيدة التي لزمته فيها، لم أعرفه إلا ساعيًا من الجماميز إلى الأزبكية ومن الحسينية إلى المغربلين، كلما وقع عليه بصري أتساءل عما يجري في ذاكرته الغريبة، سألته يومًا عما إذا كان ممكنًا زيارته في محل إقامته، قال مشيرًا بيده في حركة دائرية:

«الدنيا كلها داري..

مـرة سـألته عن مخطـوط كامل نـادر «عنقا مغرب» للشـيخ الأكبر، سـألته عن صحة ما سمعته، أن الكُتيب المطبوع في مكتبة الحلبي مختصر للأصل، أكد لي ذلك،

قـال إنـه يعدني به غير أنه يحتاج إلى وقت، مر وقت في أثر وقت، كل مرة ألتقيه أهم بالسؤال فيقول بميل ناحيتي حتى ليوشك أن يسند رأسه إلى كتفي:

«لم يحن الأوان بعد..

طـال الأمد، أدركنـي يأس، تمكن مني نسـيان، قنعت بالمطبوع رغم اسـتيثاقي بصحة ما أفضى به إليَّ، اكتملت مدة قدرها سـبع سـنوات، لقيته أمام مقهى ماتاتيا بميدان العتبة، وقد زالت فيها بعد، يحمل تحت إبطه مظروفًا يحوي أوراقًا، قال:

«إليك ما رغبت..

تطلعت إليه مستفسرًا، قال مُليًا:

«أتذكَّر مطلوبك وتنساه أنت؟!»

تأملت العنوان المرتجى خجلت وفرحت، وعندما رفعت بصري نحوه لم أجده، تلفت حولي، غاب عني ولم أره إلى يومنا..

# كتابان

في الشـارع الثالـث بناحية ويليامز بـرج، تقع المكتبة التي اعتـدت بدء جولاتي بزيارتهـا كلـما جئت لزيـارة ابنتي، في الناحيـة مكتبتان وباعة كتـب فوق الرصيف بشـارع بيدفورد العرضي، الأول وحتى التاسـع رأسـية، لا أعرف أي صاحب في البلـد، معـارفي في مانهاتن، لابد أن أعـبر النهر إذا قصدت موعـدًا مع أحدهم، ما مـن صلات إلا من خلال عبوري المقاهي والمتاجر، أما الوقت الأطول فأمضيه في تأمل العناوين وشراء ما يعنيني، المكتبة محدودة المساحة، منظمة، أدخل مباشرة إلى قسـم الفن والعمارة، كل الكتب مسـتعملة، لست أول من يفضها، كتاب لا أعرفه عن هوبر، مسـتطيل، ضخم، مطبوع سـنة خمسـة وخمسـين كانت اللوحات الملونة تطبع منفصلة وتلصق على صفحات الكتاب، يحتوي على مائتين وسـت وخمسـين لوحـة منها ثـمانٍ وثمانون ملونة، النـاشر نيويوركي «إبرامز»، أعرفه من منشـوراته المعتنـى بها، آخـر ما اقتنيته كتاب ضخم عن نسـيج آسـيا الوسـطى، مجمع ألوان، صـادر بعد عام عـشرة من الألفيـة الثالثة، إذن.. مـا زال. لوحـات هوبر مطبوعة في اليابـان، هذا رسـام توفي عام سـبعة وسـتين، توحدت بعالمه المعـبر عني بدرجة مـا لا يمكنني تحديدها، شـخوصه وحيدة حتى وإن أحاطهـا زحام، عرفته خلال أسـفاري، شـهدت معظم أصـول لوحاته، ليـس مثل الأصل شيء، مـرة في مدينة كولون الألمانية شاهدت معرضًا له، في باريس قصدت القصر الكبير زرت معرضًا للحنين ضم عددًا من لوحاته، هذا الكتاب أقرب ما عرفت إلى ألوان عالمه وطبيعة

أثيره، لا أرى كتابًا عنه بأي لغة إلا وأقتنيه يصحبني كلما تنأنأت الكُرب، عُدت إلى البيت، أشارت ابنتي مداعبة: هوبر؟ قلت: ومن غيره؟ جلست إلى جوار الواجهة الزجاجية المطلة على النهر الشرقي، بالضبط في مواجهة الأمباير ستات، الأبرز على الضفة الأخرى، يبدأ الكتاب الحميم المُقتنى تسربه إليَّ أحيانًا أضعه على مقربة من رأسي عند هجوعي، تلك صلتي، لفت نظري إهداء مكتوب بحبر أخضر على ظهر الغلاف المقوى والمكسو بورق أزرق غميق، أخضر على أزرق، لابد من تحديق..

«لكم تمنيت لو أنك قربي، أرى تقدم مايكل عبر الأيام، أخسر متابعة حفيدي الوحيد، صوته يؤنسني ولكم أتمنى استعادته بعد انتهاء محادثتنا، لا يؤنسني إلا صوتك الهادي الخلو من أي شجن، لا يهدأ قلبي إلا بيقيني أنك سعيدة، إليك أحدث ما صدر عن هوبر، تأملي اللوحة التي رأيناها معًا وأطلقت عليها ماري في المقهى.. صفحة اربعين: ابوك جون».

اتجهت مباشرة إلى الصفحة، اللوحة مطبوعة بالأبيض والأسود، في كتب أخرى بألوانها، ماري تجلس إلى منضدة في مقهى، فراغ، لا أحد، لحظة ليلية، ترتدي قبعة ومعطفًا، تمسك بفنجان قهوة صغير، تلامسه بأصابع يديها، تتطلع إلى نقطة ما لا يمكن تعيينها، نظرة قادمة من فراغ مقيم، هوبرية، أعرفها عند آخرين من عالمه، على ظهرها

«أوتومان 1927 زيت 36 ×28 أيوا مجموعة ادموند الابن..

لأيام تالية لم أر إلا ماري في المقهى وماري الابنة البعيدة في مكان لا أعرفه والحفيد الذي لا أدري أين يسعى الآن، كم عمره؟ هل يذكر جده؟

كثيرًا ما سألتني ابنتي خلال الأيام التالية: سارح في إيه يا بابا؟ أتطلع إليها مبديًا ابتسامة، تقول إنها لن تلقى إجابة غير أنها تقلق من صمتي، أقول كلمات عامة ليس لها دلالة، الهدف منها النطق، مرت الأيام، عدت إلى البيت في مصر،

آويـت الكتـاب إلى الرف المخصص لهوبـر، عبرت المحيط مرتـين، وفي نهاية العام الثـاني كانـت الثالثة، خرجت عصرًا في موعد مشـيي اليومي، اتجهت عبر الشـارع الرابـع إلى طريق بدفورد مباشرة، الجو صفو، احتـمال المطر غير وارد، باعة الكتب فـوق الأرصفـة، توقفت عند مـن اعتدت الحوارمعـه، يعرف القليل مـن العربية، نشـاطه الأسـاسي على الإنترنت يبيع الكتب من خلالها، أقلب البصر، كتاب لم أره مـن قبل، يحوي تجارب لوحاته بالأبيض والأسـود، أقلـب الصفحات، كل لوحة أعرفها لها أكثر من تجربة، أتذكر أمرًا، أو ربما أدركت وجود تلك السـطور، شـكل ما، بحدس ما، لأمر ما لا أعرفه كامن بين الحروف:

خط أصغر، متلاحق، حبر أزرق على ورق أبيض.

«أعرف أنك لن ترى هذا الكتاب، لكنني أتمنى إدراكك له بشكل ما، بحس ما لا أعرفه، خارج الممكن، أوهم نفسي أنني أشيعه لك، مايكل قبّله عندما قلت إنني سأرسله إليك، وإنك تحب هذا الفنان.

من محبتك إلى الأبد

ماري...

# كتب المستحيل

جاء في خلاصة المواقيت للبيهقي السمرقندي أن السلطان محمود بعد أن بلغ ما بلغ في الهند، استقر به الحال في حيدر آباد، بعد الحروب والغزوات آن أن يجمع المعارف والعلوم من شتى اللغات، فكر فيما كان وسيكون، في تلك الليلة طرح على وزيره رضا خسرواني ما يرغب التوصل به أو الوصول إليه، شرّق وغرب إلى أن ذكر الكتب فتمنى كتابًا يقرؤه في الصباح فيتوصل إلى معان، يعيد قراءته في المساء، بعد غياب الشمس وسدول الليل فيجد مضمونًا متغيرًا تمامًا، كتاب إذا تم استيعابه تنمحي سطوره وتعود صفحاته ناصعة، كتاب إذا قرأت سطوره يُسمع صوت يلفظ ما هو مكتوب، كتاب إذا نُقل إلى لغة أخرى لا يبقى منه معنى، قال إنه يتمنى كتابًا يرحل مع الرياح، كتابًا يُقرأ بلا حروف، آخر يطالعه الضرير، مال إلى الأمام، رفع أصبعًا محننًا نبره

يرحل مع الرياح، ينتقل مع النسمات.

تساءل

هل هذا على الله ببعيد؟؟..

أجابه الوزير بهدوء

لا يا مولاي، لكن بشرط

ما هو...؟

أن يمتد عمرك ألف عام، فتقف على كل ما رغبت من كتب مستحيلة الآن.. الآن يا مولاي..

# كتب لم تَعُدْ

استغرقني آرسين لوبين، وطرزان، وشرلوك هولمز، وجونسون وبن جونسون، والمفتش بوارو في قصص أجاثا كريستي، وعندما نزلت حلب سألت عن فندق الشرق الذي نزلت فيه وكتبت «جريمة في قطار الشرق السريع»، وعندما أقمت في فندق ونتر بالاس بالأقصر استفسرت عن الحجرة التي أقامت بها وكتبت جريمة على النيل، فقال المدير إنه لا يعرف، لكن يمكن أن يحجز لي الغرفة الملكية فلم أزده حوارًا لأن مقصودي غاب عنه، استغرقني لوبين ما بين السابعة والثامنة، وربما قبل ذلك، أو بعد ذلك، لست متأكدًا فإذا كنت غير ذي يقين بما مررت به وارتبطت وعرفت فكيف لي الوثوق بما يخص غيري؟ لست بمسيطر، ما زلت أرى لوبين وهو يقفز إلى وسط الغرفة وعلى وجهه ابتسامة هازئة، شاهرًا غدارته:

«ارفع يديك..

لعله أول طريقي إلى الماركسية، كنت أحلم أن أسلك نهجه، أن أصير لصًّا شريفًا، أسرق الأغنياء لأعطي الفقراء، عندما زرت باريس سألت أصحابي عنه، فوجئت أنهم يجهلونه، غير معروف، أستاذ أُجلُّه قال لي: إن موريس لبلان المؤلف لم يكتب إلا سبع قصص معدودة وإن كل ما طالعته في صباي موضوع من عرب محترفين وغير مترجم، نفس الأمر ينطبق على إدجار رايس بورغوزو مؤلف روايات طرزان فتى الأدغال والذي نما منذ ولادته في الغابة، تبنته القردة كالا التي حنت عليه وأرضعته حليبها، وعندما رأيت الأفلام المأخوذة عما قرأته صرت مشدوهًا

به، وبمشاعره تجاه أمه حتى بكيت عندما قرأت وصف احتضارها وحزنه عليها، بعد عودتي إلى دياري خطر لي أن أستعيد بعضًا مما أعرفه، وجدت عند باعة الكتب المستخدمة فيضًا من لوبين وطرزان وبوارو، بعض العناوين أعيها بالنص، ما إن شرعت بعضها واستوعبت الصفحات الأولى حتى تعجبت من حالي ونطقت بصوت مسموع: هل استغرقني ذلك يومًا؟

# مجنون الكتب

بالتأكيد، عندما جلست إلى جدتي في تلك الليالي النائية وقرأت لها من كتب جدي كنت أتقن معرفة الحرف، أراني ملتصقًا بها إلى جوار صومعة القمح، على ضوء لمبة ساروخ أتابع الحروف في طبعة شعبية للملحمة الهلالية، لست متيقنًا هل دخلت المدرسة أم أنني أتأهب؟ ذلك أنني أتقنت الحروف قبل أن يصحبني أبي إلى إبراهيم أفندي سكرتير مدرسة عبد الرحمن كتخدا يسلمني إليه بعد إنهاء إجراءات الدخول، كنت قادرًا على القراءة وليس الكتابة، هذا حال مفرد لم أسمع بمثله، ليس لذكاء خُصصت به أو توقد ذهن ميزني، إنها الظروف؛ ذلك أن أبي كان يقرأ متمهلًا، حريصًا على شراء الصحف، يقرأ العناوين ويتمهل أكثر إذ ينتقل إلى متون الأخبار والمقالات، يشير بأصبعه إلى ما ينطق به بينما بصري يتابع ويحتفظ بما يراه، هأنذا إلى جوار الجدة عائشة في بيت خالي، نحيلة، ممشوقة، فوق جبهتها وشم أخضر كأنه شمس مجنحة، لا أقدر على تحديد السنة، يشق عليَّ ذلك لانتفاء وجود علامة، زمن بلا إشارة ليس إلا سديمًا أرى ملامحها عبر ضباب خفيف يُخفي أكثر مما يظهر، نجلس في البيت الذي وُلدتا فيه منفردين، البيت خلو إلا منا، خالي يسهر مع الرجال في الرحبة بعد صلاة المغرب أو العشاء، أمي وامرأة خالي مع نساء العائلة مضين إلى موضع قضاء الحاجة، مكان اسمه الحماد، كل منهن تحمل وعاء ماء دافئ، مكان لا يقربه أحد طبقًا لتقاليد موغلة متوارثة، إلى جانبنا سحارة مخصصة لكتب جدي، بعضها مخطوطات كتبت بعناية، السطور سوداء والعناوين حمراء،

يحضرني اسـم «القاضي عياض»، «ابن عربي»، «سـيدي عبد الوهاب الشعراني»، لم أعرف عنهم شـيئًا وقتئذ، غير أنني مع طـي المراحل عرفتهم وقرأت ما وصل إلينا مـن تصانيفهم وصار لي بهم صلة، أتوقف في السـطور الأخـيرة أمام تاريخ الفراغ مـن النسـخ، يقرن الخطاط اسـمه بصفات التواضـع والتقرب إلى الخالق سـبحانه وتعالى، من هو؟ في أي جهة سعى؟ أين الآن؟.. أين؟

أقرأ من سـيرة بني هلال، ما زال القوم يحتشـدون لسماعها، يعرفون شخوصها وينحـازون إلى بعضهم ضـد آخرين يناصرهم فريق مغاير، للشـاعر وقفة، ملامحه شـمّاء إذ يقـص أخبار الحروب البعيـدة والهوى المنقضي، لم أعـرف منهم إلا الحاج سـيد الضـوي، أدعـو له وقـت تدويني هذا بطـول العمـر، وممن أحطـت بروايته ورقفني صوته عم جابر أبو حسـين وهو من سـوهاج، إقليمـي، نطقه مثل نطقنا، كلاهمـا صـان موروثه الأبنودي ولـو لم يفعل غير ذلك لكفـاه، كان يمكن لكل ما أنشداه أن يتذرى في سديم النسيان، فكم من نفائس فاه بها الخلق لم تجد من يصونها ويرعاها! يصاحب الشـعر والسرد موسيقى، الربابة آلة أساسية، يحتضنها الشاعر، مصـدر ومنبـع حتى وإن عزف عـلى مثيلاتها آخرون خلفه، مـن عجائب ما رأيت وسـمعت، وتر واحد لا غير، العازف ذو الدراية والتمكن يُطلَق منه ثراء عجيب، غريب، شجن، محتو للأسى الشفيف المكمور في نفوس البشر السـاعين عبر عصور متعاقبة، متوالية، تستظهر الدفين المكين، ما من آلة تؤتيني سؤلي ويبدو منها قدري حتـى ليجفـي جفنـي رُقادي فيهجرني الوسـن لمـا تبثه عنـدي، تبسـبس مهجتي، قديمة، موغلة، رأيتها مرسومة على جدران المعابد ومراقد الأبدية، عاينت نموذجًا منهـا وصل إلى زماننا سـليمًا، معروضًـا في جناح المصريات باللوفـر، تأملته طويلًا ورغـم صمتـه وغياب مـن لمس أوتارهـا منذ آلاف السـنين فإنني أصغيـت إلى ما تبثـه فَيَقُـوم رَمْيتي، لا يوجد مـا يماثل الربابة الصعيدية بوترهـا الوحيد، عرفت في العراق وتركيا وسـهوب آسـيا آلة ذات وتر يتيم، لكن نـبر الأنغام مغاير، مختلف،

أكثر خشونة، أغلظ، لا  لا يشبه ربابة الشعراء المتجولين في مصر العليا شيء، ثمة هوى دفين يرققها، أو أمور كامنة فيمن يعزفون عليها، للربابة عندي مسكن وإقامة، حتى وإن لم أصغ إليها مباشرة.

أقرأ لجدتي من كتاب مطبوع، تصغي إليَّ من قعدتها، تسند جبهتها إلى يدها، الآن أتساءل بعد أكثر من ستة عقود: هل كانت تسمعني فعلًا أم تصغي إلى نفسها؟ هل كانت متوحدة بذاتها أم تسمعني؟ بعد أحوال صرت كلما رأيت لوحات إدوارد هوبر الأمريكي استعدت انفرادها، مع أنه يرسم أجنبيات نائيات، غير أن حالة الإنسان هي هي في الأسى والحنين وما عسى، كم ليلة قضيتها إلى جوارها! ماذا أودعت عندي؟ لم أكن أطالع إنما أعايش، أرحل مع قوافل الصحراء وأمتشق السيوف وأرمي بالسهام، أقف في أحد الجيشين المتواجهين، يخرج منهما فارسان، يصيح كل منهما بعبارات مستفزة مستنفرة، تبدأ المبارزة، ينطبق كل منهما على الآخرين، يا لطيف يالله السلامة، أصغي إلى صرخات المحاربين، أحيانًا أستعيد ما قرأته بصوت مسموع:

«وعلا الغبار وثار حتى سد منافذ الأقطار...

تتطلع أمي إليَّ، تنطق اسم الله، عندما يتحدث المرء مفردًا يكون إيذانًا بخلل العقل، ربما كانت تغريبة بني هلال أقدم ما قرأت، أتعرف على الكتابة من خلال تحديقي إلى تلك اللحظة، أرحل بنظراتي من موضع إلى آخر، لا تنقضي حسراتي، تخص النسخة جدي لأمي، درس في الأزهر ولا أعرف إن أتم دراسته أم أنه اكتفى بقدر، لم تطلعني أمي على شأنه؛ لأنني لم أسأل ولأنها لم تقاربه، مضى وهي ابنة ثلاثة أعوام، هذا خضت فيه، فصلته في كتاب التجليات فليطالعه من يرغب الاستزادة، عاد جدي ليصبح شيخ القوم، يؤم المصلين يعقد الزواج، يفتي في أمورهم، يمدح سيد البرية، وقد سمعت ثناء على صوته الجميل ممن سمعوه وما زالوا يذكرونه وأكدوا لي أنهم لم يعرفوا مثله رغم توالي الفجر وليال عشر.

أحدق مليًّا إلى تلك اللحظات المنقضية، البعيدة، قراءتي لتسلية جدتي خلال انتظار أمي فاتحة إبحاري وترحالي في لجة القراءة، عندما رأيت غلاف «البؤساء» لفكتور هوجو عند فكري بائع الصحف في ميدان الحسين، اشتريت الطبعة البيروتية بقروش عيديتي الثلاث، ما زلت أرى الغلاف، ملمس الورق، شكل الحرف، أما جان فالجان فيطالعني أينما قصدت، حتى إنني بكيت عند سقوطه خلال معارك كوميونة باريس، ما زلت أذكر ما أنشده عند إصابته:

سقطت بوجهي إلى الثرى

وداعًا رفاقي إلى الملتقى

فيما تلى قرأت «أحدب نوتردام»، مترجمة في روايات الهلال، لا أذكر المترجم، غير أنني مشيت محدودبًا مثله، يتقمصني ألم جلده، كدت أصاب بالصمم غير أنني لم أدق أجراسًا مثله وعندما شاهدت الكنيسة الشهيرة في باريس والتي بنيت في القرن الثالث عشر الميلادي، قرب وقت مدرسة وجامع وبيمارستان السلطان حسن كدت أرى الغجرية أمامها وكازيمودو الأحدب الأصم لا أدري هل كان صدفة أم بتأثير ما عندما حددت أمام مدخلها موقعًا مختارًا للقاء محبوبة همت بها زمنًا ثم انقضت وتركت عندي ندبة في روحي وهفوفًا كلما لاحت مولية أو مقبلة بادية اللطف، غزيرة الحنو، صرت متقبلًا كل فرق، هيابًا من أي لقاء، ذاك حسبي، في الثامنة قرأت من الشيخ تهامي «مذلون مهانون» لمن همت به وما زلت، فيودور ميخائيلوفتش دستويفسكي وعندي حكاية سأرويها إذا سمح الوقت والإمكانية، حتى اللحظة تعاودني مشاعر التعاطف العميق مع الأب المهان أمام ابنه، أما دارتنيان النبيل في الفرسان الثلاثة فكأنه وليّ حميم، كنت إذا تشاجرت مع أحد زملائي في المدرسة أنطق مثله، أقول محتدًّا:

«ألقي بقفازي في وجهك..

لم يكن عندي قفاز قط، كذا من تشاجرت معه:

«أدعوك إلى المبارزة... أحضر شاهدك..

يتطلعـون إليَّ بدهشـة، أي مبارزة، أي شـهود عليهم أن يختاروا، قالوا لأسـتاذ الرسـم إنني أنطق أمورًا وأقول أشياء غريبة، غير أنني لا أبالي، تسـتمر وتيرة انفعالي، مسـتعد للمـوت دفاعًا عن شرفي، رافضًا أي إهانـة، غير أنه لا يصغي إلى ما قالوه، قـام بيني وبينه لُطف، أحيانًا ينصحني بقراءة عنوان ما، وعندما شـكا إليه زملائي حالي، وتفوهي بالفصحى عبارات غريبة، مؤكدين جنوني، أجابهم بهدوء مبتسمًا:

«ليتكم مجانين مثله..

# كتاب الوجود

تهاجر أسراب الطيور من أقصى الشمال البارد إلى الجنوب المشمس الدافئ إلى أن يلوح الهجير فتبدأ المسار ولكن بالعكس، جنوب / شمال، نفس الطرق غير المحددة بعلامات، عين الارتفاعات، نظام لا يتبدل، المواضع التي يتم احتضان البيض فيها لا تتغير، ما من قواعد معروفة، ما من مستقر لها.

تهاجر أسماك السلمون من بحار باردة عرفت بعضها في جزر جرينلاند، بيضاء لدوام الثلوج طوال العام، ربيعها عابر، ودفؤها معدوم، تتجه إلى نقاط معينة عند التقاء الأنهار بالمحيط، تضع بيضها، بعد حين مقدر لا يعرف الزيادة أو النقصان يفقس، تخرج الثمار الحية الصغيرة إلى سبل معلومة، إلى المحيط الخضم، لم يلقنها أحد، لم يتل عليها صوت تعاليم السريان، إلا أنها لا تخطئ.

لكل موجود وقته، لكل معلوم حينه، في السنة تتعاقب الفصول لكن ثمة مخلوقات لا تعرف الفصول، بعض أنواع الحشرات تولد وتفنى في سويعات، زهور تبقى متفتحة، باعثة للبهجة عدة أيام، ثم يبدأ الذبول فالاحتضار، تطورات محددة، تغيرات محسوبة، من يقرؤها على ورد الجناين؟ من يتلوها على زهور الجداول؟ من؟ أحيانًا ألمح كائنًا صغيرًا، دقيقًا جدًّا، في حجم رأس الدبوس، لا يحتمل زفيرًا مباشرًا من فراشة، ما دام حيًّا فإنه يلد حياة تتبعها حياة، ولأنه كذلك فلا بد من ذاكرة تحتفظ بخبرات الماضي في موضع ما من هذا الحيز الدقيق جدًّا، لا بد من حنين إلى جنسه وترتيب ليتعرف على قرين جنسه لا بد، فأين مستقر هذا التدوين؟

وما مآله؟ ترى البحار متعاقبة الأمواج، تسـافر في أثر السفر، يخالها الرائي مياهًا لا غير، غير أن هذا المتشـابه يحوي تنوعًا يذهل اللبيب، ثمة تيارات تحتية دافئة، أنهار متدفقة مّن اللاحيث إلى اللا أين، ماء يسري في الماء، وثمة ماء آخر يصعد في الماء، نوافير على أعماق متفاوتة لا يدركها كل ذي علم حتى من أوتي البصر والبصيرة.

في لحظة معينة يتغير وضع الجنين، ينتقل من وجود إلى وجود، يخرج من حضور إلى سـعي لـه مخرج آخر، من يضـع القواعد؟ من يحـدد؟ كيف يتـم البدء؟ وكيف يكون الانتهاء؟

ثمة كتاب لا صفحات له ولا سـطور، كلمات لا تستخدم فهي معدومة، يحوي ذاكـرة كل موجود وسـاع، ما ظهر وما خفي، ما هيئته؟ مـا لغته؟ كيف يعلم الحي والجماد بما يحويه؟ كيف؟

ليس بوسعنا إلا السؤال!





# حكايات سديمية

# الاسم الأعظم
## تدوين مغاير

قال الشيخ فريد العطار في الجزء الأول من كتاب «تذكرة الأولياء» عند كلامه عن علي بن يوسف بن الحسين، ما نصه: عرف يوسف أن ولي عصره هو ذو النون المصري الحامل للاسم الأعظم، فاتجه صوب مصر وكله رجاء إن يحصل على اسم الله الأعظم، وعندما وصل أخميم، مقر ذي النون، مضى إلى حيث يداوم الصلاة في مسجد بسيط مهدئ للروح والأشجان، سلم وجلس فرد عليه ذو النون السلام، ومكث يوسف غير بعيد سنة كاملة في زاوية المسجد، لم يجرؤ أن يسأل، بعد تمام عام كامل سأل ذو النون:

«من أين هذا الفتى؟».

قال: «من الري؟».

فسكت عنه سنة أخرى، بعد تمامها سأل ذو النون:

«ولأي أمر حضر هذا الفتى؟».

قال: «لزيارتك..

فمكث عنه سنة ثالثة، ثم سأل:

«هل من حاجة؟».

قال: «جئت لكي تعلمني الاسم الأعظم..

فمكث عامًا آخر، ثم أعطاه آنية خشبية مغطاة، وقال اعبر النيل في المكان الفلاني، هناك شيخ ستسلمه الآنية، احفظ كل ما يقوله لك. فحمل يوسف الإناء ومضى، بعد أن قطع مسافة من الطريق ساورته الوساوس: «ماذا يتحرك في هذا الإناء يا ترى؟»، كشف الغطاء عن الآنية، قفز منها فأر وهرب، تحير، تبلبل، قال: «أين أذهب الآن؟ هل أعود إلى ذي النون، أم أمضي إلى الشيخ؟»، مضى بالإناء الفارغ إلى الشيخ، تبسم في وجهه متسائلًا: طلبت من مولانا اسم الله الأعظم؟ قال: نعم. قال: رأى سيدنا قلة صبرك فأعطاك فأرًا، سبحان الله.. إن فأرًا لم يقدر على الإصغاء إلى اسم الله الأعظم فكيف تحتفظ به أنت؟ خجل يوسف، لم يجد بدًّا من العودة، قال ذو النون: إني طلبت من الحق تعالى ليلة بعد أخرى أن يأذن لي بتعليمك اسمه الأعظم، غير أنه لم يأذن.. أي لم يحن وقت ذلك حتى الآن، قال تعالى: اختبره بفأر. وعندما فعلت كان أمرك كذلك، اذهب الآن إلى بلدك حتى يحين الوقت...

## ما سيكون

معروف لمن عنده علم بأحوال الكنيسة القبطية أنها بدأت نظام الرهبنة، ومنها انتقلت إلى سائر أنحاء الدنيا، أول الأديرة ما أرساه الأنبا بولا والأنبا أنطونيوس في مكان قصي قريب من البحر الأحمر، عندما قصدته بعد مئات السنين من وصولهما إليه تساءلت بالصمت والنطق: كيف قطعا المسافة؟ بأي زاد؟ من دلّهما عليه؟ لعله الأعمق صمتًا، في تجوابي الأنحاء المعمورة، معروف للخاصة أن الكنيسة يتبعها رهبان سائحون عددهم غير معروف بالضبط، لكنه لا يقل عن خمسة ولا يزيد عن سبعة، لا يعرف ذلك على وجه الدقة إلا البابا، والمؤكد أنه لم يبح لأحد، للرهبان السائحين شروط وحدود، أما اختيارهم فيتم بعد تدقيق وثاقب ملاحظة من القائمين على الأمور في الدير، هذا ما جرى في بداية القرن الرابع عندما خلا الأنبا باخوم رئيس الدير الأبيض في أبرشية جرجا إلى الراهب إثناسيوس المتوحد، أخبره بخروجه إلى البرية ليسيح فيها، خلا إليه سبعة أيام، لقنه أصول الخلوة عند الهيام في غير المعمور، عليه أن يدبر زاده بعيدًا عن الخلق، ألا يطلب العون من أحد لكن عند الضرورة عليه أن يغيث المُضام من سائر المخلوقات، إنس وحيوان ونبات، أن يمجد سيده دائمًا ويؤدي الصلوات أينما كان، في البر أو البحر، يؤكد القدامى الذين اطلعوا على الجزء المفقود من وقائع البلاد الأربع الغربية أن الأنبا باخوم طلب منه أن يضع في مهامه محاولة التوصل إلى الكتاب الذي يحوي ما يكون، قال ذلك ثم صمت، لم يسأل إثناسيوس المتوحد، أحنى رأسه متقبلًا كل ما يُقال له إن

نُطقًا أو صمتًا أو تلميحًا أو إشارة، قبل شروق الشمس خرج مستقبلًا ضياء النهار الجديد، موليًا وجهه صوب الصحراء، غير معني بالجهة أو القصد، لا يصحب إلا خُرجًا حوى أمورًا لا يعرفها إلا هـو ومكنونًا من ذكريات ورؤى ودفائن عميقة، لم يكن يعرف كم عدد السائحين، هل وقع الاختيار عليه لأن ذلك قدره أم لغياب أحدهم بلا انتظار رجعته، معروف أن العدد لا يزيد أو ينقص، سواء كانوا خمسة أو سبعة، ربما يلتقي أحدهم فلا يعرفه، حتى وإن لم يكن لهما ثالث في عمق الصحاري وعنـد حـد البحـار أو في خضمها، أما كيـف يحتفظ بصلته مع الكنيسـة فهذا ما لا يدريه إلا قداسـة البابا نفسـه، لم يعـد للأنبا باخوم أي وَصل بـه خفي أو ظاهر، لا يعـرف أحـد على وجه الدقة واليقين إلى أين مضى في سـياحته تلك، غير أن ما جاء في الكتاب الذي اختفى جزء منه منذ القرن السـابع يؤكد أنه لم يكتف بالسـياحة في بريـة مصر، الممتدة شرق النيل أو غربه، لم يمـر بحواف الواحات النائية، إنما أمعن وأوغـل حتى إنه ركـب البحر وطاف بجزر لم يطأها راهب قبله أو غير راهب، ولم يكن ذلك إلا أنه اعتبر نفسه مُكلفًا بمهمة بالإضافة إلى سياحته، فلم يسمع قط أن واحدًا من الآباء طلب شيئًا ملموسًا أو معنويًا من راهب سيخرج إلى الطواف بغير المعمـور من هـذه الدنيا، يصعب إحصاء الأماكن التي قصدهـا، لكنه بلغ أصقاعًا نائيـة بعضها ليله سـتة شـهور مما يعـد الخلق المتعايشـون، أما نهارهـا فأبيض غائم بعيد، برده أصعب لظهور الشـمس على بعد سـحيق فلا تدفئ ولا تدثر ولا تُبصّر إنما تزيد الإحسـاس بالبرد رغم ظهورها وبالعتمة مع أنها مضيئة، سـلك دروبًا في جبـال يبـدو السـحاب والطيور الكواسر تحت قممها الشـواهق، يُقـال إنه ورد في الكتاب أنه ساح في سهوب آسيا، وأنه لقي شخصًا مفردًا مثله يلف جسمه بقماش في لون البرتقال غير مخيط، لم يكن بوسعه وقد رأى إنسيًّا مثله في هذا الهِوّ المؤدي إلى الصين -كما ينقلون عن الكتاب المفقود- كيف تحاورا؟ كيف تفاهما؟ بأي لسـان؟ بـأي نظام.. إشـارات، هل كان عنده علامة أو إشـارة على ظهـور صاحب الثوب

البرتقالي، حليق الرأس؟ ربما، المؤكد أن كلًّا منهما أقبل على الآخر، لا يعرف أحد من بدأ الكلام لكن الموثوق به طبقًا لرواة الجزء المفقود أنه نطق بسؤال عن كتاب ما سيكون، تطلع إليه ذو الثوب غير المخيط، أجاب باستفسار: أحقًّا قطعت كل هذه المسافات بحثًا عن كتاب ما سيكون؟ أومأ المتوحد مؤكدًا دهشًا من صوت الإنسي، غير قادر على استعادة اسمه لأن سنوات عديدة، ربما تتجاوز الأربعين -وفي أقوال أخرى الخمسين- لم يصغ إلى من يخاطبه باسمه، قال الرجل بالمعنى دون النطق المسموع مشيرًا إلى صدره، ربما إلى رأسه أو عنقه، أو موضع القلب منه:

«إنه معك.. داخلك، تطوف به، دانٍ منك..

كانت المعاني تتدفق إليه بغير لسان، استوثق لأسباب غير معروفة، أدرك أن سياحته اقتربت من الغاية فأبطأ وتمهل غير أنه لم يكف لوعيه بقرب التمام..

# نــص

أثق أنني أعرفه، لم ألتقط بسمعي اسمه، خجلت من الاستفسار، خاصة أنه لمح إلى تزاملنا فترة من الوقت، لم أتذكر أي شيء يمكنني من خلاله الاستدلال، ملامحه ليســت بعيدة، ليست قصية عني، ربما رأيته مرات في المبنى الرئيسي حيث أمضيت أكثر من أربعة عقود في نفس الموضع تقريبًا رغم تبدل المواقع وتنوع المســئولية، أو التقيتـه في المصعـد، مـن يدري.. ربما تجاورنـا حينًا من الوقت كـما يقول، مظروف أبيــض يحـوي أوراقًا، هكذا خمنت، بعد نفاد الممكن مـن التحيات وتبادل عبارات القدوم والضيافة حلّ صمت، غير أنه لم يتح الفرصة كي أسأله مباشرة عن الغرض من زيارته، قال إنه أمضى ســنوات متعاقبة في إعداد هذا النص الحاوي..، مد يديه مسندًا المظروف إليهما، قال إنه لم يجد في معارفه إلا شخصي يأتمنه على النص، إذا لم أمانع -كما يأمل- يرجو معرفة رأيي الذي ســيكون نهائيًّا، حاسمًا، يقضي بإخراجه إلى النـاس أو حجبـه كأنـه لم يكن، خطـر لي أن أســأله عن نوعيتـه، أي نص هذا؟ روايـة، مذكرات، ملاحظات، لماذا يســتخدم هذا التعبير المســتحدث؟ لم يشــع إلا مؤخرًا، غير أنني لم أنطق بما نويت، ربما لرغبة في الاكتشاف، أو لشيء لا يبين يبث عندي قلقًا ما لم أعرفه من قبل، شرعت في النطق بما يســهل إنهاء اللقاء، خاصة أنه جـاء بـدون موعد، حضـوره جاثم حتى بعـد انصرافه، تطلعه مُغْـبر، يحصي أمورًا ويختلـس النظـر إلى ما يخفى عليَّ، لا يتنفـس، إنما يخلي الفراغ مـن الفراغ، أي كائن هـذا؟ بعـد انصرافه مكثــت لحيظات، خرجــت إلى الممـر الذي تطل عليـه أبواب

المكاتب المتجاورة، النوافذ عريضة متجاورة، أطل عبر زجاجها على الحي القديم، لا يقوم بناء في المواجهة، حتى الأبراج المطلة على النيل لا يوجد شيء، فراغ للبصر لم أحتجه من قبل، لحقني الساعي، لم يعتد ذلك، سألني عما إذا كان أمر مزعج جرى، نفيت بالإشارة، عدت إلى الداخل، المظروف فوق المكتب، كلما حاولت الحيدة ببصري عنه عدت إليه أي، نص هذا؟ لم يقل طبيعة المكتوب، رواية، قصص، بحث، انتبهت إلى طول تحديقي، قمت لأتناول السترة من فوق المشجب، ارتديتها بسرعة، تساءل الساعي عما إذا كنت سأنصرف، أومأت بالإيجاب، بدا دهشًا، ليس من عاداتي، غير أنه لم يستفسر، قلت إنني سأنزل السلم، لا داعي لاستدعاء الأسانسير، قال: تعب عليك. لم أرد، أتحاشى النظر إلى المظروف الراقد فوق سطح المكتب منتفخًا بما فيه من أوراق، سارعت بنزول الدرج، أسهل من الصعود، في الطريق إلى الطابق الأول سأكون وحيدًا، ربما ألتقي بعض الزملاء عند منحنيات السلم، أما المصعد فحيز ضيق، أدرك أن وجوده ما زال متمددًا لم يختف، لم ينحسر بعد، عندما خرجت إلى الطريق استنشقت الهواء إلى أقصى ما تستطيع رئتاي تحمله، لم يقع لي مثل ذلك، لم يحدث أن ترك أحدهم أثرًا يدفعني إلى محاولة الإفلات، اعتدت الإصغاء حتى إلى من لا أحمل لهم ودًّا، يقتضي عملي ذلك، بعضهم تفلت منه كلمة، نظرة، حركة ما، تسفر عما يكنه نحوي، أو تعكس جفوة ما، أجتهد ألا يبدو رد فعلي، ماذا جرى إذن؟ إنه مغاير لكل من عرفت أو قابلت منذ سنوات، أتوقف:

ألم أبالغ؟

لم تبدر منه أي إشارة بعداء أو جفوة فلماذا ضيقي به وهروعي منه؟

شيء ما، خفي، لا يبين، تبدو ملامحه عادية، لو التقيته صدفة فلن يلفت نظري، المؤكد أنني رأيته، ربما صافحته أو أجبت تحيته، العاملون كُثر، الجُدد لا أعرفهم، لم أنفرد به من قبل، لكنه عندما قصدني اختلف الأمر، مجرد استعادته تنفرني مني.

هل سألتقي به مرة أخرى؟

عندما سألني عن المدة التي يمكنه استطلاع رأيي بعدها، قلت بسرعة: أسبوعان. الحق أنني كنت متعجلًا انصرافه، لا أجيب إلا بما يضع حدًّا للمقابلة غير المنتظرة، يجب أن أكون منصفًا، لم يبد إلا اللياقة، ما يقض أمره عندي ذلك الحضور الثقيل، لم أعرفه من قبل، حتى صباح اليوم التالي أحاول تفادي استعادته، أبذل الجهد لشغل نفسي بأمور جسيمة، غير أنه يطالعني فجأة، أرى عينيه، أصبح متعبًا، ثقيل السعي، أُقبل على قطع المسافة من البيت إلى المكتب متمنيًا ألا أصل، أعول هَمَّ اللحظة التي ألج فيها الغرفة فأرى المظروف فوق المكتب، بوسعي أن أطلب من محمد الساعي نقله إلى داخل الصوان أو أحد الأدراج لكنني لم أقدم، بل يمكنني القول بدقة إنني لم أرغب، ربما يخف الأمر عندما أقرأ ما كتب، أتحاشى النظر إلى المظروف وبعد قليل أختلس النظر إلى ذلك المستقر حيث تركه، عندما يظهر في مخيلتي بنفس وضع جلوسه أوشك على النفور، غير أنني في اليوم الثالث مع ظهور الهالات السوداء وتثاقل الجفنين طرأ عليَّ ما أَوْجسني، ألوم حالي، بل أتساءل مُليًا ما يعرض لي عنه، الرجل قصدني متعشمًا، آملًا، لم يلح منه إلا كل ود، لم يُبْد بغضًا أو نفورًا، كله إقبال ورجاء فلماذا أضمر انزعاجي منه وأوشك على إظهار النفور، أشرع في فتح المظروف وبَدْء الاطلاع غير أن قعدته تواتيني فأتجه إلى النافذة!

من النقيض إلى النقيض أتبدل وأحار، غير أنني في اليوم السادس غلب علي الخشية من ظهور مباغت، عندما رن الهاتف في ساعة مبكرة يوم عطلة الجمعة، تطلعت إلى الرقم، مجهول عندي، غير مسجل، من سيطلبني في هذا الوقت؟ خفت أمرًا، ضغطت مفتاح الجواب..

يا ساتر..

هو..

صـوت غليظ، مُجنـزر، قادم من طبقة لا علم لسـمعي بها، أعـرف أن الصوت كاشـف للحال، لم أخف انزعاجي في هذا الوقت الذي لم أعتد تلقي مكالمات فيه، بعـد اعتذاره واستفسـاره عما إذا.. قلت مقاطعًا: إنني لم أنته بعد. اعتذر للإزعاج مـرة أخرى، جلسـت على حافة المقعد، متطلعًـا إلى لا شيء، عندما رن الجرس مرة أخرى، نفس الرقم لم أرد، أخبرني باسـمه، غير أنني لا أذكره، بالتأكيد لفظه عندما دخل محاولًا تذكيري بلقاء لا أعرف عنه شـيئًا، أدرجته قارنًا الرقم بحرف واحد، «م»، عندمـا اتصـل في اليوم التـالي لاحظت اختلاف التوقيت، السـاعة الخامسـة والربـع، بعـد وصـولي البيت مبـاشرة، لم أرد، أوقـن أنه يعرف حركتـي، يراني من موضع ما.

صباح اليوم السابع، قطعت المسافة من الباب إلى المكتب متثاقلًا، نومي المتقطع منـذ زيارته يوشـك الدفع بي إلى لحظة أخشـاها، تعاقب الرنين، أرقـام لا أعرفها، يبدل الهاتف كل ربع ساعة، أوقن أنه هو، من هو؟ من؟

سيجيء ويدخل، ألم أحدد الوقت بأسبوع؟! لا أعرف كيف ألتقيه؟ مرة أخرى أشفق عليه، لماذا أنفر هكذا؟ لماذا..؟ أتطلع إلى المظروف المستطيل، يمكنني تقليبه على الأقل، قراءة الصفحات الأولى، أقرر الاستمرار أو التوقف.

يتحـرك المظـروف نحوي، أنزع اللاصـق الشـفاف، الأوراق في ملف رهيف، مصفوفـة، متسـاوية، الصفحة الأولى بيضـاء تمامًا، ربما ليحفظ الأخـرى، لكن ما يليها بيضـاء، أسرع بالتقليب، لا شيء، لا حروف، لا كتابة، نصوع..

# مسافات

بدا ذلك غريبًا، لم يتوقعه، طريق حديث رصفه الجيش زمن حرب الاستنزاف لوصل الوادي بالبحر الأحمر، يمتد عبر الصحراء الشرقية، في ذلك الوقت كان الساحل الممتد خاليًا، تجمعات صغيرة متنائية، الزعفرانة فنار واستراحة ضئيلة، الغردقة قرية صيادين، ميناء محدود، رأس غارب مدينة أشبه بالمعسكر لخدمة شركات البترول، القُصير ماضيه البعيد أثرى من حاضره، كان مقصد الحجاج، يعبرون منه إلى جدة ثم مكة، صحراء قفر، تلال صخرية مختلفة عن رمال الغربية الناعمة المتموجة مع أنه لا يفصلها إلا النيل، لذلك بدا ظهور رجل يرتدي جلبابًا أبيض، يتدلى من كتفه خُرْج من قماش يشبه قلوع المراكب باعثًا على الدهشة، أشار إلى جانب الطريق الأيسر، توقف السائق الذي نزل من العربة غير أنه لزم، لم يتبعه وإنْ بقي إلى الجوار، خلاء يبعث على الخشية، حركة نادرة إلا إذا عبرت قافلة عسكرية، إنه زمن الحرب وكافة الاحتمالات مفتوحة، يقطع الأمتار القليلة بسرعة متمهلة، تمامًا كما يخطو الرجل الذي لم يستطع تحديد عمره في البداية، تكوينه لشاب، قامة مستقيمة وكتفان عريضتان، غير أن التجاعيد تبدو مع الاقتراب، من مسافة خطوتين، نطق بالسلام، أومأ ولم يجب، عيناه ضيقتان، يطل عبرهما شجن كثيف لا يتفق مع حيوية القوام ومتانته، هوى قلبه إلى جهة لا يمكنه تحديدها، يشبه أباه بدرجة ما، غير أن ما لمحه ونفذ إليه تغير بعد لحيظات، لم يتوقف ليخاطبه، إنما استمر بنفس خطوه، اضطر إلى محاذاته، سأله عن الوجهة فأشار إلى اللاجهة،

إشـارة يصعب تعيين وجهتها، قال «إلى هناك..» تجاوزا السـائق الذي ظل ملازمًا مكانـه، ناظـرًا إلى الطريق الذي قدم منه، سـأله مرة أخرى، «أيـن هناك؟»، أجاب «هنـاك..» استفسر عـما إذا كان ممكنًا أن يصحبـه، لم يتطلع إليه، إنما خُيـل إليه أنه أطرق أكثر، لم ينف ولم يقبل، غير أنه لم يتوقف عن الخطو ليلحق به، غمره حضوره الغامـض، حتى أنـه لم يلتفت إلى الـوراء ليتأكد من قرب السـائق والعربة، ما زالا في مرمـى البصر، لا يـدري هل نطق الرجل أم خُيِّل إليه، لكنـه متأكد من معنى ما وصله يطلب منه أن يلزم الصمت، ألا يُكثر من التساؤلات إلا عندما يحين الأوان، أي أوان هـذا؟ إلى أي وجهـة؟ لا يعـرف، ما هيمن عليه أن يتبـع الرجل الذي بدا لـه مألوفـا جدًّا، حتى كأنه يرى والده، في نفس الوقت غـير معهود بالمرة، نافر عن كل مرجعية، ما يصغي إليه خطوهما، كأنه قَرْعُ طبل صغير يُطرق سـطحه بأطراف الأنامـل، يثق مـن وجود النغم لكنه يجهل المصدر، لا يـدري أين قرأ عن دراويش يهيمـون عـلى وجوههم في الصحاري والجبال ملبين الجذبة، سـمع من صاحب له عن سـبعة رهبان سـائحين لا إقامة لهم، حتى بابا الكنيسـة القبطية يجهل أماكنهم، لا يقيمـون في موضع، يفارقـون بمجرد حلولهم، هل يكون أحدهم؟ بعد مسـافة من ثلاث إلى أربع سـاعات بالسـيارة، جهة اليمين، دير الأنبا بولا وعلى مقربة منه الأنبـا أنطونيوس، عندما قطع الطريق أول مرة حيره موضعهما، كيف بلغاه في هذا الزمـن القـصي؟ كيف قطع كل منهما المسـافة بمفرده؟ كيـف أدركا وجود عين ماء هناك، هناك في موضع أشـد نأيًا وافت المنية أبا الحسـن الشـاذلي في حُميثرا، لم يبلغها بعـد، كيـف قطع المسـافة الوعرة بمفرده، يثق بشـكل ما أن الرجـل يصله ما يدور عنـده، يقطع الطريق متوازيًـا منه، متجهًا إليه بكليته حتى أنـه لم يفكر في تداعيات غيابه عن المهمة التي خرج من أجلها، يتسـاءل بدهشـة: هل توقع ذلك؟ لو أخبره من يثق به أمس عما يلاقيه الآن لسخر منه ونأى عن جانبه، الآن لا يعنيه إلا اقتفاء أثـر مـن يقوده إلى حيث لا يدري، غير عابئ به، لم ينطق إلا لفظًا لا غير، يشـك أنه

قاله، وصله بطريقة يجهلها، ليست في حسبانه، لم ينتبه إلى دخوله، مدقًّا ضيقًا يرتفع قليلًا عن مستوى الطريق إلا بعد أن أوغل ونأى، ضوء لا يعرف إلى أي مرحلة من النهار ينتمي؟ كأن الغروب على وشك، لكنه ليس بغروب ولا شروق، هل ما زال يمضي في الصحراء الشرقية؟ يصعب عليه التحديد، أي ضوء هذا؟ ما مصدره؟ لماذا يتبدل ملمس الأرض؟ لماذا يرى تضاريس الصحراء من أعلى مع أنه لا يطير؟ إذ بلغا مفترقًا يتقدمه بخطوة، يتوقف: ألا تخطو معي؟! يبلغه ما لا يسمعه، يدرك بشكل ما، مرة أخرى، «هناك..» يشير إلى اللاجهة، ليس بوسعه إلا أن يلبي، أحوال تترى عليه، يخف ويشف، يصل إلى حافة مُرتقى يشبه الصخر لكنه ليس بصخر، لا يعرف أي مادة تلك، غريب عنها وغريبة عنه، يلمح هناك في منطلق الفراغ بوابة غير متصلة بأي شيء يتصل ببناء، فقط جزء من جدار غير ممتد لونه سماوي فاتح، أعلى الباب مستطيل مدرج بارز أقرب إلى البرتقالي، أما الباب نفسه عينه فأزرق محيطي، كأنه يرى جزءًا من الماء اللانهائي عند عمقه الأقصى، يتراءى له باب شبيه شاهده يومًا عندما وصل إلى مشارف مدينة مغربية معلقة قصدها لأن بنية لطيفة مبهرة بأندلسيتها الصافية تعلق بها قدرًا من الوقت، ولّت بغتة ومضت سرعة يا الله! حتى يبلغ المدخل لا بد من عبور باب قائم في الفراغ، الباب دائمًا مدخل يؤدي إلى شيء، غير أن هذا باب لا يؤدي إلى أي شيء، تعلق بهذا الشوفشاوني وأضمر النية على العودة إليه ليصل الزنقة التي وُلدت بها البنية التي آنسته زمنًا وأنس بها، لم يعد قط، هاهو باب مماثل، شبيه، يقوم حيث لا عرض ولا طول، لا علو ولا سفل، لا غلظة أو نحولًا

يعبره كأنه يطفو، أين كان ينتظره هذا كله؟ عندما خرج صباح ذلك اليوم الذي لم يبلغ غروبه هل توقع هذا؟ هل ما زال السائق شاخصًا مكانه ينتظر أوبته؟ إلى أي الجهات مضى الساعي الذي تبعه وأدى به إلى حيث لا يمكنه تحديد وجهة أو تعيين الفارق بين الأصل والظل، بل إنه لا يدري أيهما؟

يتبـدل إلى أحوال، يتجسـد له كافة ما يخطر له، تمامًا كما يهوى، حديقة شاسـعة جمعت كافة ما عاينه أو قرأ عنه من شجر اللبان إلى أغصان تحمل تلك الفاكهة التي لم يعرفها إلا في سهوب آسيا، وتين الصحراء وتوت ينمو تلقائيًّا مذاقه عسل مصفى وتمْر واحة غِرْداية الشـفاف مثل الكهرمان، بوركـت يا دوفلي نور، لا يبذل جهدًا، لا يمضـغ ولا يبصق النواة المسـتعصية على البلع، بمجـرد خطرة الفاكهة أو رقرقة اللبـن الفائر من الضرع للتو يدرك مذاقه، كافة ما يرغبه يسـعى إليه، إذا اسـتدعى وقفة عند شـاطئ الماء الأعظم يمتد البر ويعمق العمق، يتنسـم ويصفو، تطوى له المسـافات فيقبع يرغب المد فتنبسط الجهات ويقطع، لا يرى غيره لكن يعي وجود آخريـن، لا يراهـم غير أنه يدركهم باللاحواس، لا يسـأل إلا وتهفـو الإجابة، هو الصوت، هو الصدى، هو ما يسـتعصي عليه وما يسـهل، أين كان ينتظره هذا كله؟ أي وجود شفيف؟

غير أنه يسـتفسر عن لحظة يرى فيها من يعرف، يسـتأنف إلى مقصده، يؤدي ما كُلف به، غير أنه لا يلقى إجابة، تدركه خشـية قديمة، ما يمر به لم يعرفه، لم يلم به، يتمنى أن يصرخ، يريد ملمس الأشـياء وليس نسائمها، يرغب في الإحاطة، عناق مـا تدركه حواسـه، إيلاج ومغادرة وليسـت تلك الراحة التي تدركـه كلما تاق إلى مطلـوب أو ظمـئ إلى مرغـوب، لا يلقى إجابة أو إيضاحًا، غـير أن معنى يلوح له بـدون نطق أو همس، لقد بلغ اللاهنا في غمضـة عين بلزومه ذلك الجوّال الهائم، في لحيظة مما يعرف من قبل اللاقبل وطُويت له أكوان، الكل يبلغ ولكنه لا يرجع، إنها اللامسـافات التي يستحيل قياسها، يتلفت فلا يدري يمينه من شماله، لا جهة تعينه أو تدله إنها وحشة لم يألفها وضوء ناعم لا يتغير ولا يتبدل، سارٍ أبدًا به وبدونه..

# موسيقى

تراجعت الطبيبة الشابة إلى الخلف فوق مقعدها، قالت إن نتيجة القياس مقلقة، الاستخدام الخاطئ للسماعة بشقيها أتلف الأعصاب، صمتت لحظة ثم قالت بصوت أهدأ محايد مثل الأجانب الذين تعلمت منهم:

«أمامك عدة شهور..

ثم أوضحت:

«لن تزيد عن ستة شهور..

أطلت النظر إليها، جميلة، عندما التقيتها أول مرة صافحتني، نطقت اسمها رغم أنه مكتوب على مدخل العمارة، وعند باب العيادة، وفوق المكتب، تبعته قائلة «مطلقة..» لم أبد دهشة وإن حيرني ذلك فيما تلا، أهي دعوة أم توصيف حال بتأثير هزة، متناسقة، ألوفة وإن قام دونها حاجز غير مرئي أقرب إلى الحس، قصدتها عن طريق صاحب مشترك، تخصصها نادر، لا يعمل به إلا خمسة أطباء، أو ستة، تناسق منغم يصل عينيها بأنفها المحندق وشفتيها الممتلئتين، كيف لم أنتبه إلى الشامة على وجنتها اليسرى كأني أراها لأول مرة، كأنها لم تخبرني بفقد سمعي خلال شهور معدودات.

عند اجتيازي باب العمارة الخلو من أي حراسة توقفت، بل تجمدت حركتي فجأة، قدمي اليمنى إلى الأمام واليسرى إلى الخلف، ما خشيته يتحقق، ما سمعت

عنه للآخرين يجري لي، سأصير أصمَّ، عندما بدأ العرض تصورت أنه سيزول، غمامة خفية تحجب الأصوات عن اليسرى، بعد حين تسربت إلى اليسرى، كنت أتحدث إلى صاحب حميم، فوجئت به يستفسر: هل تعاني مشكلة في السمع؟ قال إن هيئتي تدل على ذلك، قلت إنني أستخدم سماعة بالفعل، قال إن إصغائي كان أفضل قبل سفري الذي غبت فيه ستة شهور، صحبني صديق مقيم إلى شركة متخصصة خرجت منها بواحدة لكل أذن، تقول الطبيبة المطلقة إن المشكلة بدأت من هنا.

أصم؟

تبدو الطبيبة صريحة مثل الأجانب، لا تجمل ولا تخفف، يمكنني التفاهم مع الآخرين، بالإشارة، بالكتابة، لكن ماذا عن الموسيقى، لم أنل منها حظي، عندي نهم إلى أنغام لم أعرفها بعد وأخرى اعتدتها وأتوق إلى استعادتها، أتفحص التسجيلات على الشرائط التي أصبحت عتيقة، أعتني بجهاز يمكنني من الاستماع إلى ما تحويه، أتفحص الأقراص الممغنطة، أنحي جانبًا ما يجب الإصغاء إليه، موسيقى من الصين، سماعيات وبشارف وموشحات عربية، تركية، مقامات عراقية، آذرية، كيف أنأى عن سماعي رصد؟ كيف لا أتزود على فترات متقاربة بوصلة من مقام نهاوند؟ هل أطيق ألا أصغي إلى «رق الحبيب»، حفلة مسرح الأزبكية، يناير عام اثنين وخمسين تسعمائة وألف، فيها بلغت أم كلثوم الأقاصي! في السنوات الأخيرة اقتنيت تسجيلات مرئية، أطرب لحركة يديّ هوبرت فون كرايان، وإشارات رو بنشتاين، كيف؟ كيف؟

عدة أسابيع لا أقدر على الاستيعاب، أنام وأقوم متمنيًا محو كافة ما مررت به حتى لقاءاتي بالطبيبة المطلقة والتي أكدت لي أن الأعصاب تهن بأسرع ما قدرت، معها حق، الغمامة تتكاثف، بدأت الإصغاء، قصرت أويقات نومي، حتى أثناء تناولي زادي أدير المؤشر إلى الحد الذي يمكنني من الإصغاء، لزمت البيت نهارًا،

أتزود بأقصى ما أقدر عليه، في الليل أخفض الصوت، أستعين بسماعة اعتدت استخدامها في الطائرة، تلغي ضجيج المحركات، أمر ببعض الفضائيات، في الركن التحتي سيدة أو رجل يقرأ الأخبار بالإشارة، لم يخطر لي قط من قبل أن هذا سيكون لي يومًا، عليَّ التعجيل بإتقان اللغة غير المنطوقة، الحاجة تلبي متطلبات الوقت في عمري المتقدم، لكن ماذا عن الموسيقى؟ أتشوق إلى ارتواء مستحيل بلوغهو كلما غَمُقت الغمامة، شارفت الحد الذي يغمرني فيه الصمت، غير أنني أدركت أمرًا، مع تزايد الهو بيني وبين الأنغام المستقاة بدأت أعي ما لم أستوعبه في البداية، ثمة موسيقى أخرى، لا ليست أخرى، إنها موسيقاي، لكنها لا تصدر عن مذياع أو قرص مدمج أو حاسب آلي، مني، مني، ليس بالضبط، من أفق ما يصعب تحديده، ليست مقطوعات لها أول ومختتم، بل أنغام تسري، تتوالى، لا تمت إلى منشأ، تنبع من اللا أين، يشق عليَّ التحديد أينما وليت، هذا مقام صبا يرقرقني، يأخذ عليَّ جهاتي، ما أصغي إليه ليس إلاي..

## جاء في الحكم

### لابن عطاء الله السكندري

* سَوابِقُ الهِمَمِ لا تَخْرِقُ

أَسْوارَ الأَقْدَارِ

أَرِحْ نَفْسَكَ مِنَ التَّدْبيرِ

فَمَا قامَ بِهِ غَيْرُكَ عَنْكَ لا تَقُمْ بِهِ لِنَفْسِكَ

اجْتهَادُكَ فِيمَا ضُمِنَ لكَ وتقصِيرُكَ فِيما طُلبَ مِنْكَ

دَليلٌ عَلى انْطِماسِ البصيرَةِ مِنْكَ

لا يَكُنْ تَأَخُّرُ أَمَدِ العَطاءِ مَعَ الإلْحاحِ في الدُّعَاءِ

موجبًا ليأسِكَ

فهو ضَمِنَ لَكَ الإجَابَةَ فيما يخْتارُ لَكَ

لا فيما تَخْتَارُ لِنَفْسِكَ

وفي الوقْتِ الذي يُريدُ

لا في الْوقْتِ الذي تُريدُ

إذا فَتحَ لَكَ وِجْهَةً من التَّعَرُّفِ

فلا تُبَالِ مَعَها أنْ قَلَّ عَمَلُكَ

فإنَّه ما فَتَحَها لَكَ

إلّا وَهُوَ يُريدُ أَنْ يتعرَّفَ إلَيْكَ

أَلَمْ تَعْلَمْ أنَّ التَّعَرُّفَ هُوَ مُورِدُه عَلَيْكَ؟!

والأَعْمَالُ أنْتَ مُهْديها إلَيْهِ

وأَيْنَ ما تُهديهِ إليْهِ

مِمَّا هُوَ مَوُرِدُهُ عَلَيكَ؟!

ادْفِن وجُودَكَ في أرْضِ الخُمُولِ

فَما نَبَتَ مِمَّا لَمْ يُدْفَنْ لا يَتِمُّ نِتَاجُهُ

ما نَفَعَ الْقَلْبَ شَيْءٌ

مِثْلُ عُزْلَةٍ يَدْخُلُ بِها مَيْدَانَ فِكْرةٍ

كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ

صُوَرُ الأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةٌ في مِرْآتِهِ؟!

الكَوْنُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ

وإنّما أَنَارَهُ ظُهُورُ الحَقِّ فِيهِ

فمَنْ رَأَى الكَوْنَ وَلَمْ يَشْهَدْهُ

فيهِ أَوْ عِنْدَهُ أَوْ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ

فقَدْ أَعْوَزَهُ وُجُـودُ الأَنْوارِ

وحُجِبَتْ عَنْهُ شُمُوسُ المعارِفِ بِسُحُبِ الآثارِ

ما تَرَكَ من الجهل شيئًا
مَنْ أراد أن يَحْدُثَ في الوقت
إحالتك الأعمال على وجود الفراغ
من رعونات النفوس
ما من نَفَسٍ تبديه
إلا وله قَدَرٌ فيك يُمضيه
من أشرقت بدايته
أشرقت نهايته
مِنْ عَلامَة مَوْتِ القلْبِ عَدَمُ الحُزْنِ عَلى
ما فاتَكَ مِنَ المُوافقاتِ
وتَرْكُ النَدَمِ عَلى ما فَعَلْتَهُ مِن الزَّلَّاتِ
النُّورُ لَه الكَشْفُ
والبَصِيرةُ لها الحُكمُ
والقَلْبُ لَهُ الإِقْبالُ والإدْبارُ
ما بَسَقَتْ أغصانُ ذُلّ
إلا على بِذرِ طَمَعٍ
مَا قَادَكَ شيْءٌ
مِثْلُ الوَهْمِ
أَنتَ حُرٌّ مما أَنْتَ عَنْهُ آيِسٌ

وَعَبْدٌ لِما أَنْتَ لَهُ طَامِعٌ

إنَّ شَمْسَ النَّهارِ تغْرُبُ باللَّيْـ

ـل وشَمْسُ القلُوُب لَيْسَ تغِيبُ

لا يُخافُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْتَبسَ الطُّرُقُ عليْكَ

وَإنَّما يُخَافُ عَلَيْكَ مِن غَلَبةِ الهوى عَلَيْكَ

لا يَسْتَحقِرُ الوِرْدَ

إلا جَهُولٌ

وُرودُ الإمْدادِ بِحَسَبِ الاسْتعدادِ

شُروقُ الأَنْوارِ عَلى حَسَبِ صَفاءِ الأَسْرارِ

النَّاسُ يمْدَحُونَك لِما يظُنُّونهُ فِيكَ

فكُنْ أَنْتَ ذامًّا لِنَفْسِكَ لما تَعْلَمُهُ مِنْها

رُبَّما أفادَكَ في لَيْلِ القَبْضِ

ما لم تَسْتفِدْهُ في إشراق نهارِ البسْطِ

إلى المَشِيئَةِ يَسْتَنِدُ كُلُّ شَيْءٍ

ولا تَسْتَنِدُ هِيَ إلى شيْءٍ

تَسْبِقُ أَنْوارُ الحُكماءِ أَقْوالَهُمْ

فَحَيْثُ صارَ التَّنْوِيرُ وَصَلَ التعْبِيرُ

تمَكنُ حلاوةِ الهوى مِنَ القَلْبِ

هُوَ الدَّاءُ العُضالُ

لا يُخْرِجُ الشَّهوَةَ مِنَ القَلْبِ

إلا خَوْفٌ مُزْعِجٌ أَوْ شَوْقٌ مُقْلِقٌ

حُقُوقٌ في الأَوْقاتِ يُمْكِنُ قضَاؤها

وَحُقُوق الأوْقاتِ لا يُمْكِنُ قضاؤُها

ما فات مِنْ عُمْرِكَ لا عِوضَ لَهُ

وما حَصَلَ لَكَ مِنْهُ لا قِيمَةَ لَهُ

لا تُزَكِّيَنْ واردًا لا تَعْلَمُ ثَمَرَتَهُ

فَلَيسَ المُرادَ مِنَ السَّحَابةِ الإمْطارُ

إنما المُرادُ مِنْها وُجُودُ الأَثْمارِ

لِيقِلَّ ما تفْرَحُ بِهِ

يَقِلُّ ما تحْزَنُ عَلَيْهِ

إنْ أرَدْتَ ألَّا تُعزَلَ

فلا تَتَوَلَّ وِلايَةً لا تَدُومُ لَكَ

الكائِنُ في الكوْنِ

ولَمْ تُفْتَحْ لَهُ مَيادِينُ الغُيُوبِ

مَسْجُونٌ بِمُحيطاتِهِ

وَمَحْصُورٌ في هَيْكَلِ ذاتِهِ

فالنَّهارُ لَيْسَ مِنْكَ إليْكَ

ولكِنَّهُ وارِدٌ عَلَيْكَ

الفِكْرَةُ سَيْرُ القَلْبِ
في مَيَادينِ الأغْيارِ
الفِكْرَةُ سِراجُ القَلْبِ
فإذا ذَهَبتْ فلا إضاءةَ لَهُ

# سطور على شجرة

قيل إن سيدنا ذا النون، قال: وجدت على شجرة في بيت المقدس سطورًا مكتوبة لا تُفهم، قرأتها -وكان ذو النون قادرًا على قراءة كل حرف مستعصٍ- فإذا معانيها كما يلي:

كل عاص مستوحش، وكل مطيع مستأنس، وكل خائف هارب، وكل راج طالب، وكل قانع غنيّ، وكل محب ذليل.

# الأمرنسبي

تلـك حكاية ذائعة، لعل أقدمها ما ورد بالسنسـكريتية في إطار الديانة الجائيّنيّة، أقدم ما عرفت الهند من معتقد.

ذات يوم جاء ملك بخمسـة رجال عُمي إلى فناء قصره حيث رُبِط فيل ضخم، ثم سـألهم أن يخبروه، ما هذا الشيء؟ كل منهم تحسـس الفيل، وطبقًا لإدراكه أخبر الملك بها حَسِبه، من تحسس الخرطوم قال إنه أفعى ضخمة، من لمس الذيل أكد أنه حبل، من مر بيده على السـاق قال إنها جذع شـجرة، الرابع أمسـك بالأذن مؤكدًا أنها مروحة، أما الخامس الذي لمس جانب الفيل فتسـاءل دهشًـا: أي جدار عظيم هذا؟!

كل منهم أصر على صحة ما عرفه باللمس.

# ماء دافئ

جاء في النصوص الهندية القديمة، أن هناك سبع حالات للتعبير عن حقيقة واحدة، ضربوا مثالًا بالماء الدافيء.

قد يكون الماء دافئًا لشخص قادم من البرد.

قد لا يكون دافئًا لشخص قادم من غرفة دافئة.

ربما يكون دافئًا أو غير دافيء لحالات معينة.

بمعزل عن أي حالة لا يمكن وصف الماء.

رغم تعذر الوصف يمكن القول إن الماء دافيء بالنسبة لحالات..

رغم تعذر الوصف بذاته يمكن القول إن الماء غير دافيء بالنسبة لحالات معينة..

رغم أنه متعذر الوصف بذاته، يمكن القول إنه دافيء وغير دافيء بالنسبة لحالات.

في كل الأحوال يظل الأمر نسبيًّا.

# حرف السين

حدثنا الشيخ محمد أحمد بن إياس الحنفي المصري في عدة مواضع من كتابه «بدائع الزهور في وقائع الدهور» عن ظروف تولي قنصوه الغوري السلطنة، كان أميرًا كبيرًا، متقدمًا في العمر ينتظر حسن الختام، وقع اختيار الأمراء عليه حتى يمكنهم الخلاص منه بعد أيام معدودات، أو أسابيع قليلة إذا طال الأمر حتى يحسم صراع الأمراء الكبار ويتم اختيار أقواهم، وأكثرهم تمكنًا، عندما عرضوا الأمر عليه رفض وتمنع، حتى إنه بكى لكي يتركوه في حاله، إنه يريد أن يمضي ما تبقى له في حاله، بعيدًا عن الهم والغم، كما أنه يخشى ألا يقدر على تحقيق العدل للكافة، الحِمْل ثقيل وسوف يحاسب عليه أمام عزيز مقتدر.

أصر الأمراء وقبلوا رأسه، ورفضوا المغادرة حتى سماع الموافقة، هكذا.. قبل على مضض بشرط ألا يطول الأمر أكثر من شهرين أو ثلاثة، رضوا بشرطه وانصرفوا لتدبير أحوالهم ومآلهم، مرت الأيام، بعضها يجر بعضًا، لا يذكر ابن إياس تفاصيل كثيرة عن أحواله إلا ما اعتاد ذكره من أخبار السلاطين، من عزل وتولية، طلوع ونزول إلى ومن القلعة، تغيير الملابس من البياض إلى السواد لدخول البرد مبكرًا، إلى غير ذلك من وقائع، غير أنه في موضع آخر يقول ما نصه: «ويبدو أن السلطان ذاق حلاوة السلطنة..

استدعى الغوري ابن زنبل ضارب الرمل، سأله عمن سيتولى بعده؟ نظر الرمّال إلى الرمل، رص الودع وبدل مواضعه وأصغى إلى أصداء الرياح داخل

إحداها، نقل البصر بين الذرات الصفراء وملامح السـلطان، ثم نطق بعد درجتين من الصمت: «أول حرف من اسمه.. سين..».

في اليوم نفسـه اسـتدعى السـلطان كبـير البصاصـين، طلب منه أن يعـد قائمة بأسـماء الأمراء الذين تبدأ أسـماؤهم بحرف السـين، بعد يومين بـدأت الحوادث، تعثر الأمير سـلار في حفرة ودق عنقه أثناء لعبه الكرة، أما الأمير سـلامش فداهمه مغص وعر بعد تناوله العشاء، لم تشرق عليه شمس النهار التالي، لم يمض شهر إلا وخـلا مماليك مصر من أي أمير أو صغير يبدأ اسـمه بحرف السـين، وعندما أنهى إليه كبير المصريين بتمام المهمة كافأه السـلطان بياقة من فرو السَّـمُّور الأسود وهذا غريب نادر، أدركته راحة ونام آمنًا، غير أنه لم يفكر قط في سليم العثماني..

# فين؟

في الطابق السابع من البناية رقم واحد، الشاهقة، المطلة على النهر، الشقة التاسعة في نهاية الممر، تجلس الأم الشابة تنظر إلى المياه المؤدية أو القادمة من المحيط، الواجهة الزجاجية العريضة، تبحر أنواع مختلفة من المراكب، السفن، قوارب المواصلات البحْرية التي تصل شطري المدينة، بعد بدء إغفاءة ابنها اليومية، تستسلم إلى الرؤية، تصغي إلى هسيس الحنين صوب الهُناك، حيث أيامها المنقضية، لم يفتر ولم يهن، غير أنها اليوم قلقة، حائرة، خاصة أن الهاتف هناك لا يجيب أحد على رنينه، لم تعتد ذلك، تتقن فارق التوقيت، بل إنها تمضي بتوقيتين، هنا وهناك، عندما تبدأ إعداد العشاء قبل عودة زوجها، ترى والديها هناك أمام التليفزيون يتابعان الأخبار والبرامج الحوارية، لماذا تخشى استعادة سؤال ابنها الذي سيحتفلون بإتمامه العام الثالث، منذ عودتها التي انقضت عليها شهور خمسة لم يذكر جده، اليوم فقط استفسر فجأة:

«هو جدو رايح فين؟».

# طَــي

أمـا وقد دنا اكتمال سـعيي، وطي صحفي، ولاح مبـدأ المعاد، واقتربت الأوبة، فلا يقضني إلا الحيرة، لا أتحسر على ما فاتني، ولا أحزن لما انقضى ولا أذرف الدمع على مراحل لم أعشها في حينها كما يجب، ذلك أن الظروف لم توات، والمعتقد، حائل ومانع، كما أني لا أطلب امتداد الأجل، فلكل أوان حاله، والرضى به مسـاعد على إغلاق القوس المقابل للقوس.

أرى في حدقتـي عينـي الآن ما لمحته يومًا في تحديـق أبي إليَّ، نظرة هادئة وادعة، طلة المسافر إلى من أحب ومن اعتاد، من الكائنات إلى الجدران والأسقف والدعائم الحاملة، ما من شيء في الكون صامت أصلًا.

سافر أبي إلى جهينة، أمضى أيامه الثلاثة في التسليم، دخل البيوت على الحريم في غيبـة الرجال، صافح وودع وتملى وأبلـغ، فقط، امرأة خالي، لاحظت ذلك، عندما تابعت ابتعاده عبر الرحبة، قالت لإحدى قريباتها:

«عم أحمد ماشي بيحدف.. رِجْل هنا ورِجْل هناك..

صاحـب لي أوتي البصـيرة بعد البـصر، هاتفتـه في معزله لأطمئـن، قال بهدوء بليغ:

«حموت السنة دي.. أنا والحاج سيد..

صاحب حميم، شاركه هيامه بالشعر والإنشاد، يكبره عمرًا، مشواره أطول، غير أن علة صاحبي هذا قربتها، مع اقتراب اللحظة، فوجئت به يحدثني عن ترتيب أشياء وتجهيز أمور، قلت بتلقائية:

«يا أخي.. بعد الشر عنك..

أجابني بهدوء:

«شر.. ليه شر.. مين عارف».

لا أعرف ما رآه عند اكتمال المشوار وهو المرهف، الدقيق، لكنني أقارب موضعه، منذ حين كان يشغلني الأين والوقت، اسم اليوم، أي ساعة، ليل أم نهار، علام سأغمض الرؤية ولا أقول العينين تظلان مفتوحتين مع التمام، يغمق سوادهما ويعم، هكذا رأيت عيني شقيقي الذي لن أعلم أبدًا، لماذ استدار في رقدته إلى عكس ما اعتاده.

لا يشغلني هذا، غير أن حيرتي مصادرها شتى، أسئلتي بلا إجابة، وأعرف أنني لن أجد. دائمًا كنت أردد، أعرف أنني لن أعرف غير أنني لن أكف عن السؤال، الآن تخفت حدة استفساراتي، لم أعد أنطق بصوت لا يسمعه إلاي: من أين وإلى أين؟

إذ تشتد حيرتي أقدم على متنفسي الوحيد، أرقص طوال عمري أخجل من الرقص، لم أرقص إلا قسرًا، في ليلة نشوى كنت بصحبة، تقدمت بُنَيَّةٌ فارهة، بثها وقاد.

نحوي مباشرة.

صاح صاحبي الذي يعرف تقاليد القوم:

«تدعوك.. قم ولا تحرجنا..

غير أنني تجمدت وعلى شـفتي ابتسـامة محايدة، عندمـا أدارت ظهرها خجلت لخجـلي، وتحملت لـوم الصحب، حتـى عندما دُفعـت دفعًا، تظاهـرت بالرقص، جبلنا على الخجل منه، لم أندمج مع أحد، قمعنا أنفسنا وطوينا داخلنا أشياء، شرط الرقـص التدفـق، نبعه مـن الداخل، ليس من أي جهة أخـرى، لذلك عندما ناء بي الحـال، وتزايـد اقترابي ودنـوي من طريق لا أعرف عنه شـيئًا، أندلـع راقصًا، أبدأ تحريـك ذراعـيّ إلى أعـلى مديرًا يدي إلى يمين وشـمال فأنتبه متأخـرًا إلى كنه الصلة بـين رفع الأيدي عند الولولة والرقص، أقـوم من قعادي، أولي الوجه كل صوب، أحاول تجاوز حضوري المادي إلى اللامدرك بكافة الحواس، أصير إلى كل اتجاه تمامًا كما سـأتفرق عن بعضي، غير ملم بما سـأقصده غير أن باعثي على الشـطح ومحاولة الإفلات ثقل الحيرة عليّ..

# معرفة

جاء في الحكمة الصينية القديمة: «كان الحكيمان يتنزهان فوق الجسر، قال الأول:

-انظر إلى هذه الأسماك كيف تثب فرحة، مستمتعة؟

قال الثاني للأول وهو يحاججه:

-أنت لست سمكة، فكيف عرفت أنه مستمتع؟

قال الأول:

-وأنت لست أنا، فكيف عرفت أنني لا أعرف متعة السمك.

قال الثاني:

-أنا لست أنت، وبالتالي فمن المؤكد أنني لا أعرف ما تفكر فيه، ولكن من المؤكد أيضًا أنك لست سمكة فمن البديهي أنك لا تعرف ما يشعر به السمك..

قال الأول بعد توقفه:

-لنبدأ من جديد، أنت سألتني كيف عرفت ما هي متعة السمك، وهذا يعني أن مجرد إلقائك عليَّ هذا السؤال يشير إلى أنك تعرف أنني أعرف، إذن، يجب أن تعرف أنني أعرف..

# سمك

جاء في الجزء المفقود من «المكنون في مسائل ذو النون» ما نصه:

ذات يـوم كان سـيدي ذو النون يصطاد سـمكًا من النيل أمـام أخميم، تقدم منه أمـير الناحيـة، وكانت جرجا من أهـم مقاطعات الدولة، لا يتولاهـا إلا ذو منزلة ورتبة، قال:

«إن مولانا يرغب في تولِّيك منصبًا رفيعًا تدبر فيه أحوال الناس».

استمر ذو النون محدقًا في المياه المسافرة من الجنوب إلى الشمال، قال كأنه يتحدث إلى نفسه:

«انظر إلى النهر، إنه مزدحم مليء بالأسماك، أيها أفضل حالًا، السـمك الذي يعـوم حيثـما شـاء، ويأكل ما يريـد، ويقفز عندمـا يرغب، أم السـمك الذي يدفعه جهله إلى هذه الصنارة..

أطرق أمير الناحية صامتًا، واستمر ذو النون متطلعًا إلى المياه المسافرة أبدًا.

# فراشة؟

من الفكر الصيني:

ذات ليلة، أبصر زهانغ زهو في منامه أنه فراشة، كان مرتاحًا تمامًا لكونه فراشة، يا لها من حرية! يا لها من حياة كما يرغب، كما يهوى، نسي أنه «زهو» فجأة استيقظ ليجد نفسه مذهولًا في إهاب «زهو» بات لا يعرف ما إذا كان «زهو» هو الذي حلم بأنه فراشة، أو ما إذا كانت الفراشة هي التي حلمت أنها «زهو».

# حلم

جاء في الفكر الصيني:

نحلم أننا نقيم احتفالًا، يبزغ الفجر، نبكي، في المساء ننتحب، صباح اليوم التالي نذهـب إلى الصيد، عندما نحلم لا نعـرف أننا في حلم، نفسر، في أثناء حلمنا، حلمًا آخـر، ولا نعـرف أننا كنا نحلم إلا بعد أن نسـتيقظ، وعنـد اليقظة الكبرى وحدها ندرك أن المسألة كانت مسألة حلم كبير، الحمقى وحدهم هم الذين يعتقدون أنهم يقظون، بل هم مقتنعون تمامًا بهذا، أمراء، دعاة يجمعهم هذا اليقين، كونفوشيوس وأنت لستما سوى حالمين، وأنا من يقول إنك تحلم، أنا أيضًا في حلم.

# حـــلـــم

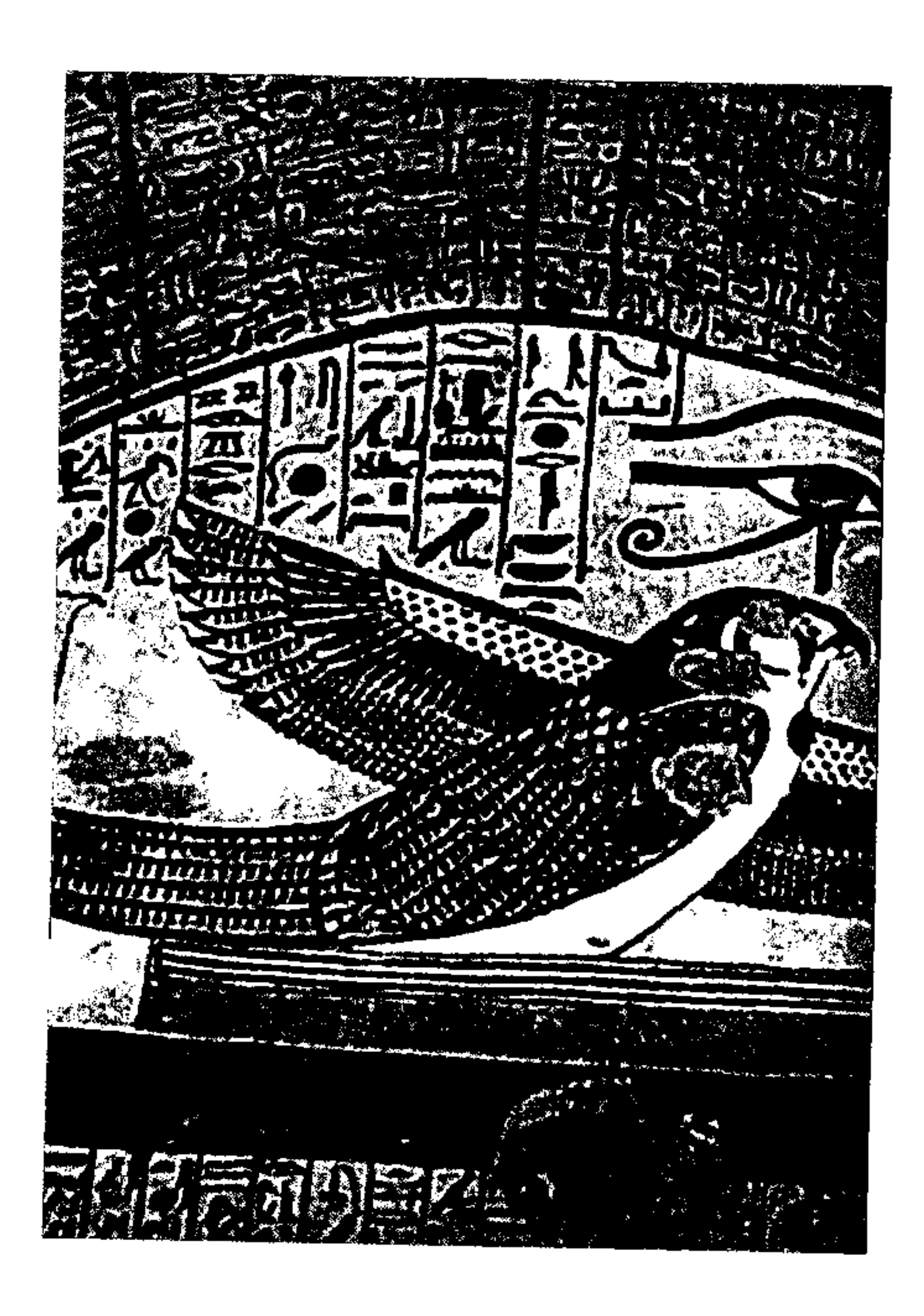
يقول باسكال:

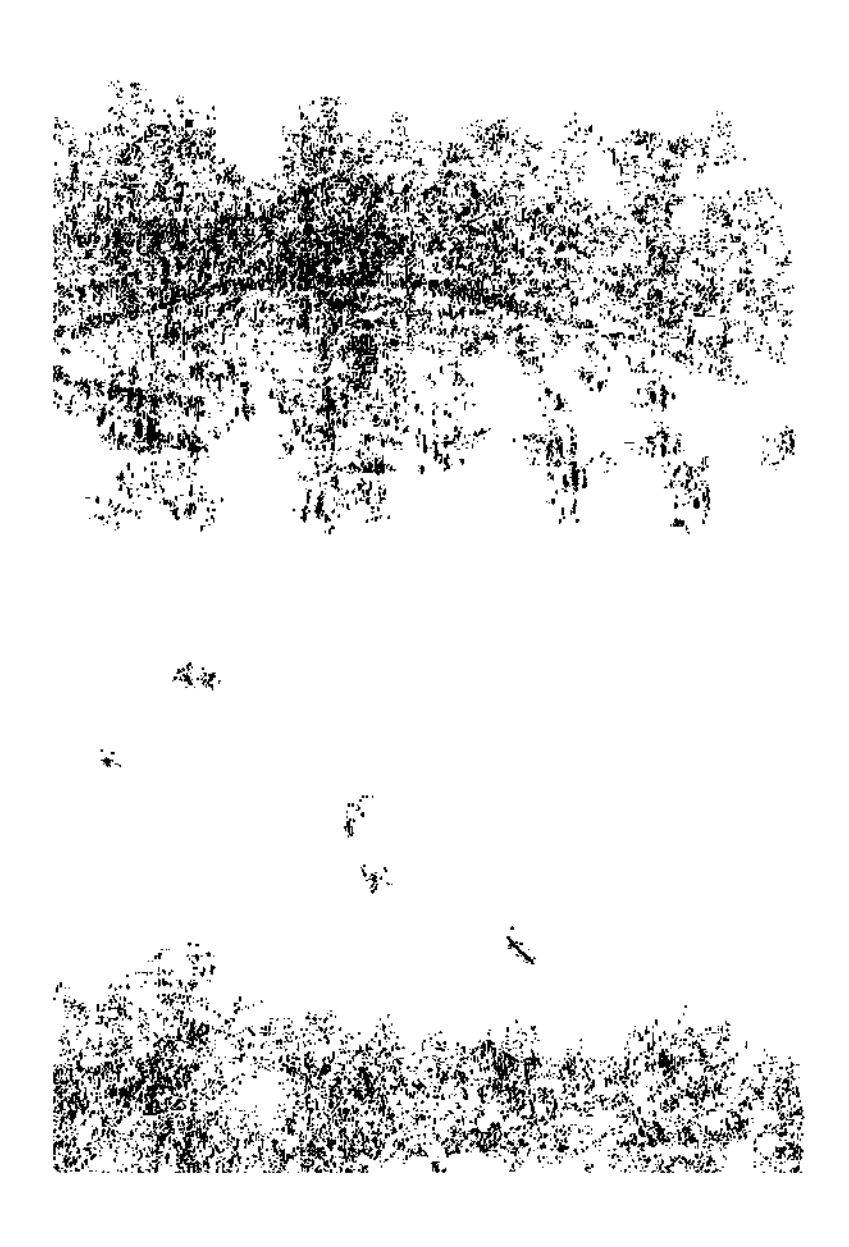
أليـس ممكنًـا أن يكون هذا النصف من الحياة هو نفســه مجرد حلم طُعِمت عليه سائر الأحلام، نستيقظ منه بالموت؟ من ذا الذي يعرف أن هذا النصف الآخر من الحياة الذي نظن أننا سنستفيق فيه، ليس سوى نوم آخر مختلف عن الأول.

# مُعلم

«المعلم الجيد هو القادر على إيجاد الجديد فيما هو يستعيد القديم».

**كونفوشيوس**





حكايات ومسائل تحوتي

## من مسائل تحوتي

جرى ذلك كله في أبيدوس، مصدر الحكمة ومرفأ العلوم ولب القداسة وموضع الآتي بعد المنقضي ومقصد الساعين من كل فج، لم يذكر ذلك في نصوص مكتوبة، إنما روايات شفهية لا يزال بعضها ساريًا لأن بعض الوافدين من الضفة الأخرى للبحر أصغوا ودوَّنوا العلهم يصلون إلى بعض من معرفة المصريين القدامى، بالطبع لحق بها تغيير بدرجة ما، لكن طول الإمعان ونفاذ التدقيق يمكن أن يشي بالأصول، في ذلك الحين لم يكن معضد الفكر، حاد البصر والبصيرة، تحوتي قد ارتقى إلى مرتبة مطلقة، لتحقق واكتمال القداسة لا بد من بُعد عن الزمان أو انقضاء مسافة من المكان، كان لا بد من انقضاء عصور متوالية قبل أن يصبح رمزًا للحكمة، للعلم، للمعرفة، إنه أول من اهتدى إلى الكتابة، صاغ الحروف وجلى الدلالة، أول من نظر في النجوم، ميز الثابت منها والسيّار وأسس أشكال البروج، مما وصل إلينا من هيئاتها القديمة التي رصدها وسجل ملامحها من مرقبه الواقع على الحد الفاصل بين الأخضر والأصفر، بين الزرع والجدب، بين الأرض السوداء والصفراء، يمكننا رؤية الاثني عشر برجًا في مقبرة رمسيس السادس بوادي الملوك، وهيئة أكثر اكتمالًا تعرف بالزودياك محفوظة الآن في ركن من القسم المصري بمتحف اللوفر، انتزعها شامبليون من مكمنها الأصلي في معبد دندرة البطلمي ونقلها إلى باريز، نظر في البحار ورسم الطرق التي لا ترى، وعاين التيارات التحتية التي لا يمكن للبحارة رصدها، كما رصد هجرات الطيور وحدد مساراتها، لا يمكن إحصاء ما وضع

نقـاط انطلاقه وتطوره، أمره معـروف، مُقر عند الكافة حتى أولئك المغايرين له في المعتقد نتيجة ما ألموا به في زمن ناء عن وقته ومداه، تحوتي اسـمه الباقي.. قادم من اسم عتيق للطائر أبيبس الذي يرمز إلى القلب، إلى المركز، يطالعنا فيها تبقى، وصل إلينا بمعجزة بجسـد إنسـان ورأس الطائر المجتبى، اسمه من أسماء الزمان، ما زال يُطلق على أحد شهور السنة القبطية وما هذا إلا التقويم المصري القديم الأدق على الإطلاق، ما زال يتبعه أهل الفلاحة في ريف مصر، إنه توت، تبدل اسمه مع الزمن وصيرورتـه وانتقالـه إلى ثقافات وحضـارات أخرى، صـار إلى هرمس، إلى مثلث العظمـة، إلى إدريـس النبي وغير ذلك، مما وصلنا ما نقلـه ديودورس الكريتي عن المتون العتيقة ومنه إلى أيجور الفلورنسي الذي أودعها خزانة كاتدرائية سـان مارك في البندقيـة خلال القرن التاسـع الميلادي، هذه المسـائل لا يـزال معظمها مجهولًا، وإنني لمورد بعضًا مما تيقنت منه، لعل وعسى..

# طرق البحر

سأل سيد الأرضين: يخلو البحر من طريق، ما من طرق مرئية في خضمه، كيف يمكن خوضه بدون مخاطر التيه والهلاك المحقق، شغل السؤال تحوتي، غير أنه لم يُقر بعجزه، لم يحدث ذلك قط، يقول دائمًا: ما من سؤال إلا وجوابه موجود، بل إن السؤال فاتحة الجواب، المهم أن نُعمل الفكر والتأمل ونطيل الملاحظة، مما نُقل عنه أيضًا أن السؤال يحوي أحيانًا من الجواب ما يتجاوز الرد المبين، المهم إتقان السؤال والجواب. عاد إلى مقره عند الحافة في أبيدوس، أي بحر يقصد؟ الأمر نسبي، سكان المحلات القريبة يسمون الترع الصغيرة بحورًا حتى إذا اقتربوا من النيل صاحوا منبهرين: هذا بحر، أما الذين يعيشون عند الحد الفاصل بين اليابسة والماء الأزرق الممتد، الذين يطالعون يوميًّا غياب الشمس في الماء وليس عند حد الرمال، فينظرون وجلين البحر اللانهائي، أخبرهم الأقدمون بوجود ماء أعظم محيط بالكون، من يقدر على الخوض فيه لا يرجع منه، عمر الإنسان لا يكفي كله إلا لقطع جزء يسير منه، فكر تحوتي في رحيل الماء عبر النهر، مجيئه من بعيد حاملًا الأشجار المنتزعة من أراض قصية، منها شجر الدوم الرحب متقبل الجوار، غرسه البعض بعد انتشاله هائمًا، غرسوه في الأرض السوداء فثبت وغاص وأينع، يعرف أن أنواع الترحال بعدد الأنفاس، هذا الماء، أي ماء في سفر دائم، يتصاعد بخرًا ويسافر مع الغمام حتى إذا ناء به يتساقط مطرًا سخيًّا، سأله الكاهن الأعظم عندما كان في بداية المدرج:

أي قوة أعتى في نظرك؟

قال مجيبًا بصوت خفيض حذر:

النار.. تلتهم كل شيء.

تبسم الكاهن الذي لن ينسى جلسته وأسئلته أبدًا.

وماذا عن الرياح.. ألا تؤجج النار وتزيدها اضطرابًا.. وأحيانًا تخمدها؟

ثم قال:

ألم تر الماء يُلقى على النار فيطفئها؟

ثم قال:

أعلم أن الماء هو القوة الأعتى، رأيته يقص الجبال قصًّا، وهو العنصر الوحيد الذي تجيء منه حياة..

يستعيد تحوتي ما لمح به الكاهن الأعظم، كان يشير ولا يجيب، يومئ ولا يعين، يسأل فيجيب في عين السؤال، لم تطل الخلوة، قدَّرها البعض بسبع ليالٍ وأكد آخرون أنها أربع عشرة، أيًّا كان الأمر، مضى إلى كاهن الوقت، سيد الأرضين، قال إنه أمعن واستقصى، إيجاد الطرق في الماء، أيًّا كان، سهل ميسور، تطلع ابن حور المقدس منتظرًا استكمال الجواب كأنه طفل يبدأ الاستيعاب، قال إنه لا بد أولًا من المعرفة، إذا توافرت يمكن إيجاد الطريق هنا، أشار إلى دماغه.

مدد المستمع المكين شفتيه في هيئة فضول متسائلًا.

قال:

قبـل ذلـك يجب إيجاد الوسـيلة، كما يجيء شـجر الدوم المنتزع مـن موطنه بالماء ويذهـب معـه، هكـذا نسري بهذا، كشـف الغطـاء عن نمـوذج لقـارب صغير له مجدافان، قال إنه مُجرَّب في مياه «الأوزيريون» المقدسة.

تساءل سيد الوجهين: أسترحل بهذا في الماء الأعظم؟

قال بصوت هادئ خفيض:

المبـدأ واحـد.. المبـدأ واحد يا مـن تصون الحـدود.. هكذا ظهرت السـفن إلى الوجود.

# نَسْج الألوان

لعـل مرقـد جميلة الجميلات «نفرتاري» أروع ما عرفـه البشر من مثاوٍ أبدية، لا أقصـد الـبر الغربي إلا وأمضي إليه، بـل إنه المكان الوحيد الـذي أتهيأ له، فأحرص ألا أرى شـيئًا قبله ولا أطالع بعده، أسـتعيد بعضًا منه على البُعد، إذ يسـتحيل تمثله كامـلًا لتنـوع مقاماته وثـراء مفاصله وعذوبة حنايـاه، غير أنني مورد أمـرًا متعلقًا بهـا جـرى قبل بلوغي البر الغربي، بل إنني عندما نزلته أول مرة عام واحد وسـتين ضمـن فريـق الكشـافة لم أبلغـه، لم أكـن ملمًّا بهـا، تعلقي بها جـاء متأخـرًا، بعد أن اسـتوعبت وأدركـت وأقمت على الأسـباب، غـير أننـي عرفتها مبكـرًا، ذلك أن الأسـتاذ الروبي - مدرس الرسـم الفني - طلب مني أن أنفذ مشروع التخرج من هذه اللوحة، قدم إليَّ صورة للملكة نفرتاري - جميلة الجميلات - تسـلم يدها إلى إيزيس المقدسـة، تقودها إلى النعيم المقيم الدائم راضية مرضية، هادئة، مستسلمة، بل إنها التسليم نفسه، تمعنت وحاولت الاستيعاب، كان المفروض أن أنقل المشهد كـما يبـدو، لا تحريف ولا تصريف، لو اقتصر الأمر عـلى النقل لما وجدت صعوبة، غير أنني يجب علي تنفيذه بحيث يصلح لنسـج سـجادة من الحرير سـدى ولحمة، مائة عقدة في السـنتيمتر الواحد من نوع جوردس، عقدة مغلقة، محكمة، كل مربع عـلى الـورق تقابله عقدة من خيـوط رهيفة، لا بد أن أصبغ ألوانهـا بغير معاونة أو مسـاعدة من أحد، جمعت دراسـتي بين تصميم السـجاد وعملـه وصباغة الخيوط مـن قطن وصوف وحريـر، في الأغلب الأعم مواد طبيعية مثـل الفُوه - عود أحمر

- والعصفـر - أصفر - والنيلة - أزرق - إلى غير ذلك، حتى الآن بعد مضي ثلاثة وخمسـين عامًـا لا أدري ولا أعـرف لماذا اختـار لي هذه اللوحـة، في الدفعة النهائية سـبعة وعشرون دارسًـا وزع على كل منهم تصميمًا من سـهوب آسـيا أو مضارب الأناضـول، كرمان، بخاري، أصفهان، قم، تركي.. إلى غير ذلك، عداي، اختار لي لوحة من زمن سـحيق لم ندرسـها من قبل ولم ألمَّ بها، غير أنها كانت البداية لصلتي بهذا المرقد الفريد والذي تقتضي زيارته ترتيبات خاصة، ولولا مودة جمعتني بالقوم وصلـة لما وجدت إليها سـبيلًا، لسـنوات ظل مغلقًا بعد تأثر الألـوان العتيقة بآثار الأنفـاس التي تتخلـف عن الزوار، أمضى معهد بول جيتي سـنوات يعملون بدقة وحصافة، دخلت في خضم انهماكهم بصحبة متخصصين، عملت لمدة خمسة شهور في رسـم اللوحة التنفيذية، وسـتة شهور في نسـجها عقدة عقدة، كنت أنقل البصر بـين مـا خططته ولونتـه والخيوط التـي أعقدها وأقصها وأسـويها بالمقـص، وهذا شـأن لو تعلمون عسـير بالنسـبة لسـجادة رهيفة كتلك، قام بيني وبين اللوحة أمر مبين، يشـق عليَّ الإفصاح عنه، من لم ير الأصل فلن يسـتدل أبدًا على ما أومئ إليه أشـير، جـرى عندي شيء سلسـال، يعود من حيـث بدأ، مختلف تمامًا عما شـعرت بـه تجاه مطربة الغروب ميريـت آمون التي عاينت تحتها منـذ عثورهم عليه منكفئًا قرب جبانة المسـلمين، خطوطها، ذلك التعبير على وجهها، فمها الحاوي للشروق والغروب معًا، استدارة ردفيها الكوكبية.

تُـرى أكمل مـا يكون من بعيد عند لواح وقفتها بعد نصـب التمثال، وإتمام القدم المكسورة بنحت من مادة مغايرة عالجها صاحبي الفنان محمد مبروك، غير أن وقوفها وتعرضهـا للرمال السـوافي والريـاح الباردة وتقلبـات الفصول غيّر هـذا من هيئتها وتعبير وجهها فكأنها تدرك وتعي ما يجري، أما اللون الأحمر صابغ الشفتين المرتويتين السخيتين فزال تمامًا، قلت لخفير الموقع عندما لاحظت طول شخوصه إليها:

«هل رأيت أجمل من هذه؟».

قال:

«والله يا أستاذ كل ما ابص لها حالي يَدرْبك..».

خضت في أمري معها وفصلت في نص موسوم «مطربة الغروب» فليطالعه من يرغب.

عندما زرت المرقد أول مرة لم أشـأ الاستفسـار عن موضع المشـهد الذي تقود فيه إيزيس جميلة الجميلات، أرجأت وقمعت فضولي، صرت راغبًا في تحقق اللقاء بنفسي، توصلت به آخر الممر الذي يمكن رؤيته كاملًا من المدخل، أما المشـهد فمنقوش على الجانب الآخر للعامود، مواجه للمرحلة الأخيرة، ثلاثة أعمدة، هو أوسطها، لم أفرج عن زفيري، تراجعت بمقدار خطوة حفظًا للهيبة وصونًا للمعاني الغامضة، تمليت من خطوط وحنايا نفذتها رسـمًا ونقشًـا، عقدة، عقدة، ما يقرب من سنة، عملت يوميًّا لعشر ساعات على الأقل، عندما رأى الناظر ما أديت هز رأسـه مرات، واقترح إرسـال السـجادة بعد اعتماد نتيجة الامتحان النهائية إلى الوزير، ظلت معلقة في مكتبه، رأيتها في الثمانينيات عند زيارتي لرجل أثير عندي، الوزير حسـين كامل، أخبرني من أثق به أنها لم تعد، لم أسـأل، لم أحاول، اعتبرتها في اللا مكان، تمامًا مثل جميلة الجميلات التي ترتدي الثوب الأبيض النقي المتطهر من كل سوء، فوق خصرها ذي المرجعية عقدة إيزيس بلون أحمر، وعلى الرأس تاج آمون، أما إيزيس فيعلوها تاج حتحور، قرص الشـمس يحيط به قرنا بقرة، أما ثوبها فأحفظ تفاصيل نقوشـه الغالب عليها الأحمر، متخذة حركة موج البحر عند اقترابها من الشاطئ بعد ترحال طويل مجهول مداه.

لماذا اختارني الأستاذ الروبي، لماذا خصني وأفردني بهذا التصميم الفريد، لا أدري وإن كنت على يقين أن في الأمر شيئًا، في الأمر شيء، الغريب أن انحنائي على الكتابة يعيدني إلى نفس الوضع الذي لزمته تلك الشـهور الخمسة خلال تصميمي الرسم، فكأني طوال رحيلي في الحياة أنحني عليها وأحن. غير أنني لن أنسى أبدًا تلك اللحظة أثناء انهماكي، وتأكدت مع ترددي على منزل الأبدية لجميلة الجميلات.

# ابن السماء

أخبرني عالم المصريات الإيطالي أنطونيو نيو زاده، أن من مقتنيات متحف تورينو غير المسموح الاطلاع عليها أو ذكرها في المقتنيات، لفافة بردي نسخت في معبد أبيدوس تؤكد أن تحوتي صاغ وحدد كثيرًا من الرموز التي حيرني أمرها، منها الباب الوهمي أساس المذبح في الكنيسة والمحراب في المسجد، كما أنه حدد الجهات الأربع بدقة مذهلة، وقد أجرى الفلكي الشهير بنيني الصقلي دراسات دقيقة على قياسات واجهات الهرم، وأثبت -بما لا يدع الشك- اتساقها مع الجهات الأربع الأصلية، بعد حوالي خمسمائة عام وفد إلى مصر ثلاثة من الصين أوفدهم الإمبراطور المنحدر من أسرة هان، قاموا بقياسات دقيقة حيرت القوم المصاحبين، وفي الأغلب الأعم هم الذين عرّفوا أهل أخميم بدود القز واستخلاص الحرير الطبيعي، أو عرفوه منهم ونقلوه إلى الصين، الأمر غامض لكنني سأذكر ما تحصل لي في موضعه. ربما يجيب ذلك عن تساؤلاتي التي تؤجج فضولي حول كيفية وصول لوازم هذه الصناعة التي اشتهرت بها المدينة حتى الآن، نفس التقنيات المستخدمة في الصين، لكن هذا مما يطول الحديث فيه فلأرجئه حتى لا أحيد فالأمر دقيق، عاد العلماء الثلاثة إلى ديارهم البعيدة، كانوا يعرفون تحوتي والرمز إليه بطائر أبيس، وأنه مدلول الحكمة، وحدثوا البعض عن مكانته في الصين، وغزارة علمه، والحاجة إلى ملايين السنين لفض ما جاء به رغم أنه لم يدخل في التفاصيل، لم يخض في الجزئيات إنما أرسى المبادئ، وأسس الإيماءات، في المدينة السماوية أمضوا وقتًا ليس بالهين، بعده رفعوا

الأمر إلى الإمبراطور ابن السماء، خلاصة ما أكدوه أن تحوتي رمز حكمة البشر أخطأ في الأسس التي شيد الهرم الأكبر على أساسها مواجهًا الجهات الأربع، ثمة فروق طفيفة تؤكد الخطأ، صحيح أنه يسير جدًّا، لكن سيحسب هذا لابن السماء، حكيم مصر كان على خطأ، يبدو من دقة المناقشات وعمق المداولات أن تحوتي كان له شأن عظيم، وأن صلات قديمة جدًّا قامت بين الصين ومصر الأولى التي لم تخلف لنا نصوصًا، فالكتابة كانت في بداياتها. ابن السماء لم يقتنع، استدعى أكبر العلماء من جميع الأنحاء، ليس المنتمين إلى قومية المتدربين، إنما الكافة، أقاموا في المدينة المقدسة، حظوا بأرقى عناية، بعد سبعة شهور من البحث والتدقيق طلعوا بعد ورود الإذن إلى السيد القائم، قدموا خلاصة ما توصلوا إليه، قالوا لابن السماء: «القواعد التي وضعها تحوتي سليمة تمامًا، الكون هو الذي تغير.. المجرات تتباعد ومواقع النجوم تبدلت..

# نومة العروس

إلى يمين الداخل مقصورة مفتوحة على فراغ المرقد لذلك لا أقول حجرة لأنها بدون باب يتوسط جدارًا، مفتوح تمامًا على بقية المكان، أخطو على مهل، إلى اليمين، بعرض الحائط، سبع بقرات يسر حضورها الناظرين، صفان، الأعلى أربعة، الأولى حمراء، الثانية سوداء، الثالثة حمراء منقوشة بمساحات غير متساوية بالأبيض، الرابعة بها مس من حمرة، الصف الثاني أربع أيضًا، إذن.. كيف أقول سبعة، فعلًا الرقم صحيح، الثامن ثور متين أسود مشوب بلون بني، أثداء البقرات تدل عليهن، أما الأخير فصفته جلية، استدارة قرنيه، تكوينه المغاير، تحت.. أقول تحت، الصف الثالث أربعة مجاديف لا تتصل بقوارب، كأن كلًّا منها معلق في الفراغ، مجاديف هنا، ماذا يعني ذلك؟ فلأرجئ جوابي الآن ذلك أنني لم أتوصل به إلا بعد مشقة، خاصة أنني علمت أنها من رموز تحوتي، فلأتمهل إذن، ما أتوقف أمامه هيئة جميلة الجميلات على جدران مرقدها ومأواها، وإن كان لم يُعثر لها على مومياء، فقط كما ذكر عالم المصريات الألماني أريك هورنينج المتخصص في العقيدة، قال إنه عند الكشف وجدوا جزءًا من قدم متصل بصندل ملكي يرجح أنها من بقايا الجسد الذي حاول لصوص القرنة سرقته فتعاملوا معه بخشونة، وإنني لأخشى التفكير في هذا المصير المزري للملكة منعمة، جميلة جميلات جئن قبلها وتبعنها بعد غيابها، ما روعني هدوءها، جمالها المستكين، لا يمكنني تحديد لحظة معينة أجزم بتوصلي خلالها إلى نتيجة محددة، أو وضوح لما غمض عليَّ، ترددت

على المرقد كثيرًا وتأملت طويلًا واستفسرت من صحبي عن أمور، وطالعت كتبًا عديدة، بعضها مزود بصور دقيقة، بارعة لفنانين مهرة، معظمهم أجانب، أمعنت وناقشت، وصلت هذا بذاك، فلم تكن كينونتي إلا موضع تلاقٍ لأطياف بعضها قادم من حيث لا أدري ولا أعرف، ومنها ما وقفت على منبعه وأحطت بمصدره، ذلك أن الأمر حيرة، لا يقين مبثوثًا فيه ما يستوعبه الإدراك، يكفي تلميحي هذا فالتصريح مورد لما لا قبل لي به، ذاك حسبي.

في آخر زيارة إليها انتبهت إلى ما حيرني، ولأبدأ بوضعية يديها، إنهما مبسوطتان، مرفوعتان إلى جوار بعضهما، متقاربتان، متجاورتان، مشرعتان غير أن كلًّا منهما قائمة بمفردها، وضع فيه تسليم، فيه انتفاء للقدرة على الفعل، إنه حال المبرأ، الراحل أبدًا، يشهر عجزه النهائي عن الفعل المبين، إنه حال المتوفى بين يدَيْ غاسله، أو ممدده، أو مكفنه، يقول بغير نطق:

ليس لي من الأمر شيء.

ليس لي من الأمر شيء.

ظهوره لمن يحبونه، لمن هرعوا للمساعدة، لذوي القربى والصحبة، محدود، جد قصير، وغالبًا ما يكون أقرب الناس في هذه اللحظة هم الأبعدين صلة، غير أنهم الأقربون معاونة، وهذا حال عاينته من ناحيتي وبالنسبة لمن هرعت لعونهم، جميلة الجميلات ترفع يديها، مبسوطتين كل البسط لكن دون فعل ولا التنبؤ بالإقدام على فعل، خلاص! انتهى ذلك.

من حال إلى حال مضيت، من أمر إلى آخر رحلت، لكن قبل أن أفضي أقول إن تحوتي استلهم هذا الوضع عندما وضع رموز الكتابة وأسس عمارة المعاني، بسط الأصابع إلى أعلى قادني إلى إسلام الجميلة المرققة قيادها إلى الآلهة المقدسين بدءًا من الخفي آمون، إلى نبع الأمومة والمحنة والحدب إيزيس إلى سلسال الخصوبة

والأنوثة حتحور، وعين العدالة والنظام ماعت التي تبسط حمايتها على المكان كله، جميلة الجمال تُسْلم قيادها إلى هؤلاء الأرباب، هي متهيبة لأنها تجهل ما هي مقدمة عليه، والمتهيب وجل، لكن إذا وُجد من يأخذ بيده يستكين، يهدأ وإن لاح توجس من بعيد، مهما كانت التعاويذ، مهما بلغت النصوص من قدسية، الراحل مسافر والطريق مخاطر فما البال إذا كان مجهول المعالم، غير معروف مداه؟ وإلى أين يؤدي؟ كيف يهتدي من يقيم في موضع محدد إلى اللامتعين؟ ليس لدينا إلا تصورات تختلف من هذه الفرقة إلى تلك، يورث هذا صمتًا على الملامح، فالمجهول عظيم والسؤال مهما تردد لا إجابة له، أستعيد ما رواه أخي وصاحبي عندما انحنى كبير أقاربي وهمس في أذن أبي راجيًا منه ألا يخاف، ألا يخشى وحشة الطريق ومخاطره، إنهم حوله، وعندما يصير بمفرده فليذكر الله، وألا يهاب فلم يكن إلا خيرًا، أدى الرسالة وأتم الأمانة، في تلك الليلة كنت نائيًا عن الدار، في الفجر حصل لي فزعة، أعرف كوابيسي ومراماتي، لا لم يكن هذا الحال منها، لم يسبق ولم أعرفه مرة أخرى، بالتأكيد في الأمر شيء، في الأمر شيء.

ملامحها الخلو من أي هسيس، المجردة من الحس، أعادت لي لحيظات مازلت أذكرها كأنها تمر بي، عندما مُددت فوق السرير المفرد، المتحرك، دفعوا بي إلى غرفة الجراحة، كنت خلوًا من أي ردة فعل، مجردًا، نائيًا عن كل حس، آنيًا، لا أرى إلا ما يحيطني، غير مستدع أي لحظة من الفانيات الذاريات، أوقفوا الحركة عند المدخل، جاء طبيب التخدير، كان في الجراحة الأولى، مصري صعيدي قبطي، صار صاحبي إلى الآن، في تلك المرة كان أمريكيًا، لا أذكر الآن أصله، لعلي أوردته في تدويني المعنون «الأزرق والأبيض» كان يمضغ علكة، رأيت تحرك وجنته، وخزة في ساقي، لمحت أنبوبًا يتصل بجسدي، كأني غيري، لا يعنيني حالي ولا يدهشني شيء، فقط وخزة نقطتين في مثانتي، طلبت ما يخلصني منها، جاءت الممرضة أو الحكيمة أو الطبيبة بزجاجة منحنية العنق، تبولتها، لا أريد أن أمضي بها، ما أذكره

واقعة أخرى ربما أستدعيها في غير هذا الموضع، كنت أرنو إلى المعدات وجلها أزرق وملامح شاب مصري يتدرب أو يعمل، لا فرق عندي ولا أمر، كنت قصيًّا عن كافة ما يخصني، ما يعنيني، فلا أبعاد، لا فضول، لا سؤال، لا دهشة، لا شيء يمت إليَّ ولا يصدر عني، هذا بالضبط ما رأيته في ملامح الجميلة، الأثيرة، المفضلة، الملكية، المنعمة، المزهو بها.

ما أرجفني ذلك التسطح، ذلك التملس، انتفاء الفروق بيننا، فلا أنا جمال الساعي بعدها بآلاف السنين، ولا هي نفرتاري التي سبقتني بأحوال لا حصر لها، لو أني عشت حضورها ما كان ممكنًا لي وقوع بصري عليها، ها أنا أنفرد بها، أتأملها، أدقق بياض ثوبها والحزام المحيط المتدلي، كأنني أتطلع إلى سطح مرآة، هل كان ممكنًا لي إدراك حالها هذا لو أني لم أمر بلحيظات ما قبل بدء نومي العميق الذي شُق فيه صدري واقتطع جزء حميم من قلبي واستبدل بأنسجة حيوان مجهول عندي، لا أعرف، لا أدري غير أن تماهيًا صار بيننا، حتى إنني كلما طالعت ترحالها مع المقدسين الذين يتقدمونها في المجهول رأيت حضوري فيها، لا أبعاد، لا شيء إلا ما يشير إلى وسم سرعان ما سيتبدد، سيصير نسيًا منسيًّا، تمامًا، تمامًا، أقلب الصور المتقنة لها فيما اقتنيته من كتب عنها فيقع لي ما يحدث في مثواها تحت الأرض: أينما وليت يدركني وضع يديها حتى إنني استنفرت من غياهب نسياني وصفًا لشيخي الأكبر سيدي محيي الدين، حيرني وأحدث عندي بلبالًا جعلني أطرح الحيرة في تساؤل: هل اطلع على ما وضعه تحوتي المقدس من رموز؟ هل يجمعهما شيء رغم بُعد الشقة، ألمح فقط، ألمح، وفيما يلي ما أورده نصًّا من الفتوحات لعل غيري يقدر على الشرح، يقول مولاي الشيخ الأكبر تحت ما يمكن اعتباره عنوانًا:

نومة العروس.

من نام بنفسه فهو ميت

ومن مات بربه فهو نائم

نَوْمة العروس

والحق ينوب عنه

يا نائمًا، كم ذا الرُقاد

وأنت تُدعى

فانتبه

كان الإله ينوب عنك

بما دعا

لو نمت به

لكن قلبك نائم

عمّا دعاك

ومنتبه في عالم الكون

الذي يرديك

مهما مُتّ به

# مجداف

ماذا يعني المجداف في مثوى جيلة الجميلات؟

ماذا يعني القارب فوق قبة الإمام الشـافعي، وقبة خانقاه برقوق الشـمالية التي يرقد تحتها امرأته وبناته؟

مـاذا يعني بناء الكنيسـة المعلقة على هيئة مركب مبحـرة صوب مصادر الضوء والألوان القادمة من سحيق الكون؟

ماذا؟

ليس بوسعي إلا الإجابة، فلأحدد أكثر، المحاولة، ليس عندي رد قطعي يقيني لما أطرحه من أسـئلة، لما حيّرني وجود المجاديف صرت أتردد كثيرًا وأطالع كل ما اسـتطعت إليه سبيلًا، إلى أن قرأت ما ذكره الأصطخري في كتابه «نشق الأزهار في عجائـب الأقطار» ما ذكـره عن رموز وضعها هرمس الحكيـم وبعضهم يرفعه إلى درجة القداسـة، غير أن المقطوع به كما ذكـرت أن هرمس ليس إلا الحكيم المصري الأول تحـوتي، إنه التحوير اليونـاني، أما حكماء العرب فأطلقوا عليه إدريس النبي، تتبدل الأسـماء غير أن الشخص واحد، وربما اندمج فيه آخرون كما يقول البوني في كتابه «شـمس المعارف الكبرى» ولي مع هذا حكاية سأوردها عندما يناسب الحال وأتهيأ، أما الآن فأرجع إلى ما ذكره الأصطخري الذي أكد أن المجداف رمز للزمن وضعه هرمس، أي تحوتي الذي ابتكر وصمم القارب رمز العبور عندما سأله سيد

الأرضيـين عن إمكانية إيجاد طرق في البحر الخضــم، لم تذكر المراجع المتاحة وجود مجاديف في النموذج الذي أنشأه تحوتي مستلهمًا طفو شجر الدوم فوق نهر النيل زمن الفيضـان القادم من دمعة إيزيس الأولى، وهـذا يُعرف بنزول النقطة عند المصريين وقـد اتخذته عنوانًـا لكتاب صغته منذ حولين، ما طالعتـه عند الأصطخري دفعني إلى إعادة النظر، كنت في ذلك الحين على شفا، إذ جرى لي عارض نال مني فلزمت علاجًـا لم يكـن منه مفر أورثني علة مقيمة، لكنني راضٍ، قانع بأن قضاء أخف من قضاء، له في الأمر حكمة، سـبحانه جلّ جلالـه، قلبت صفحات الكتب فوجدت مواضع قليلة أورد بعضها صور الجدار الذي شغلني، وفيه البقرات السمان وتحت المجاديـف الأربعـة، بحثت عن اللوحـة التي بذلت من أجل رسـمها وتنفيذها ما يقارب السـنة فلم أجد إلا صورة واحدة في مجلد ضخم جُلّه صور ملونة لأجمل ما حـوى الـبر الغربي من مراقد، عنوانه يعني «ممـر إلى الأبدية» وضعه ثلاثة من علماء المصريات، هم على التوالي طبقًا لترتيب أسمائهم على الغلاف.

R. walleman

M. kunnen

A. mekhitarian

لم أعرف أحدهم شـخصيًا، ولا أذكر الآن مـن أي مكتبة اقتنيته، غير أن تاريخ دخوله عندي مدون، أول أغسـطس عام ستة وتسعين وتسعمائة وألف، تلك عادة درجـت عليها منذ بدء اقتنائـي للكتب طفلًا، ما أكتبه أيضًـا تاريخ بدايتي للقراءة وانتهائـي منهـا، غير أنني لم أعـنَ بتدوين المكان، فات الأوان، فـات، يواتيني هذه اللحظة نغم أصغيت إليه في قبة الأمراء بمراكش منذ سـنين عديدة، مصدره أنامل عازفات فارسيات، موزعات على الطار الموشوش والتنبك الهدير، والناي الحزين لانفصاله عن أصله كما قال سـيدي ومولاي في مطلع المثنوي، أرجئ الوصف إلى ما تبقى عندي ماثلًا في حكاياتي الهائمة من مراكش لها جميل الطلة وعذوبة المحنة،

عندما انحنيت لأنقش ثوب إيزيس المنمنم تأخذ بيد نفرتاري كدت أصغي إلى موسيقى غامضة لم أسمعها إنما أتوق إليها، فما أغرب شأني.

قبل إمعاني في معنى المجداف ومحاولة فهم حضوره في المرقد، عند بدايته، أتوقف قليلًا عند مغزى القارب، بعد أن توصل إليه تحوتي صار متنوعًا، منه الصغير الذي لا يتسع إلا لفرد والضخم الذي تُحمل فوقه أحجار الجرانيت المقتطعة من محاجر أسوان إلى مواضع نصب المسلات، ولهذا ترتيب حار فيه المحدثون ومن يطالع تفاصيل نقل مسلة الأقصر إلى باريس سيتساءل متعجبًا: كيف أنجز القدامى ما سعوا إليه؟ القارب يعني الإبحار، هذا لا يكون إلا في حيز، ربما يكون قوامه الماء أو الفراغ، كُلُّ موجود مُبحر، يستوي إن كان مُدبرًا أو مقبلًا فالأمر نسبي، القمر مبحر، الشمس أيضًا، النجوم، الحجر، البشر، الشجر، والبحر نفسه مسافر، القارب بدأ فكرة في مخيلة تحوتي وأيضًا نتيجة احتياج، لذلك جرى الأمر في الرسوم المقصود بها التوضيح على الجدران وأوراق البردي وكُل سجل متين تصوير الشمس في قارب، الأول للرحلة المنظورة والأخرى التي لا يمكن رصدها لأنها في العالم الليلي، والليل خباء، ستر، لا يمكن معرفة ما يجري فيه إلا بالمخيلة، الانتقال عبر ساعاته يجري خلال بوابات وكهوف، لا أرجو من صاحب الفضل كله إلا أن يمهلني ويمدني حتى أنهي ما نويته وأشرت إليه في سفر البنيان، أن أسطر كتاب البوابات، وكتاب الساعات، وكتاب المساء، والصُبح إذا تنفس، ليت يتم ذلك، إذن.. القارب انتقال، لكنه لا يتحرك من تلقاء ذاته، لابد من دفع ودافع، مرة أخرى أشير إلى القوى المحركة ، وضع تحوتي إشارة رامزة لها لا مثيل ولا شيء يشبهها، كرة تامة الاستدارة، على مس منها ذراعان دانيتان غير متصلتين بجسد، إنها إشارة إلى القوة المحركة، بدلًا منها، نرى أربعة مجاديف رمزًا ودلالة على الحركة، أي إبحار الزمن، ولأننا لا نعرف المبدأ فإننا نجهل المعاد، حتى الآن يستحيل التحديد، وربما يكون ذلك كذلك، العجيب أن مجاديف الجميلة لا تتصل

بقـوارب، مـع أنها ماثلة في وضـع الدفع ولكن بـدون دافع، ما مـن كائن يحركها، تواليهـا في أثر بعضهـا يوحي بحركة لا يمكن تعيينهـا أو تحديدها أو الوقوف على سـياقها، لم أعرف خطوطًا توحي وتومئ بالحركة، بدء وانقضاء، شروع وتمام، إلا في وضـع هذه المجاديف الأربعة، والخطـوط التي تغطي القبة البحرية لخانقاه فرج بن برقوق بصحراء المماليك، والعجيب الغريب أن غزارة الحركة توحي بقوة الموج ومتابعته بعضه بعضًا، فوق الجوسق قارب يشبه ذلك المتوج لقبة الإمام الشافعي، يقول البعض إنه مخصص لوضع الحبوب اللازمة لإطعام الطيور الحائمة، هذا جزء من الموقف، لكن.. من يصل إلى تلك الذروة، أي وسـيلة خصصها الواقف لبلوغ القارب عند المنتهى؟ كيف والقبة دائرية، زلقة، يصعب تسـلقها، بحثت في أصول الحجة فلم أقف على شيء، إذن.. الأمر رمزي فهل كان يعي المصمم دلالة ما يقوم بـه أم أنه سلسـال خفي يـؤدي إلى عين التصرف مـع خفاء المراد وغيـاب المنطلق، مـا رأيتـه في مولد سـيدي أبو الحجـاج الأقصري، جرى ذلك عام خمسـة وسـتين مـن القرن المـاضي، تصادف وصولي مع الليلة الكبيرة، خـلا الأمر من أي ترتيب، حيرني ما رأيته فيما يُعرف بالدورة، سبعة قوارب يُخرجها القوم من مواضع معلومة للشيخ، يحملون كلًّا منها على الأكتاف، يطوفون الجامع المشيد فوق المعبد الحاوي لكنيسـة بنيـت في وقت متأخر، فـما أغرب ومـا أدل ذلك! سـبع دورات، يتنافس القوم متدافعين ولكن بحركة محسوبة، عين الطقس في عيد «أوبت» العتيق، المندثر كما نظن، هذا موضوع دقيق لا أخفي خشـيتي الخوض فيه، يقينًا.. أن من يحملون القوارب لا يدركون أنهم يستمرون بطقس يظن العارفون وغيرهـم أنه منحدر من عقيـدة اندثرت في الظاهر، كم من أمور نسـعى بها ولا نـدري؟ أتوقف عند معنى الأمـواج حول قبة خانقاه فرج والقارب المبحر إلى الأعالي، وأمواج أخرى منمنمة في نقـوش أجمل محـراب وقفت أمامه واسـتويت مبهـورًا، مأخوذًا، مـع كل قدوم يتجدد عندي ما يتجدد، رغم ترددي بها يقارب عدد أيامي، وهذا المكان سأفرد له

حيـزًا يليـق، لا أفضل ذكره عرضًا، غير أنني أومئ، أشـير فقط لا غير إلى حركة ما أراه تتابـع موج، ليس إلى الأفـق المبين لكن إلى الذروة، إلى أعلى، إلى حنية المحراب التي توحي إليّ بالعين، إن الله يسمع ويرى، لو أفضت فلن أكف، أكتفي بالتلميح، وترديد الدهشـة من وضـع المجاديف الأربعة، رمز الزمن، الزمن يبحر بنا شئنا، أم لم نشـأ، لا نعرف كنهه، أو ما يتضمنه، لكن: ماذا يجمع المجداف بالوقت، بالدهر، بالزمن؟ أقول إنه خُلو المعالم، كل علامات الزمن متوهمة، صاغها وحددها وسـن لها الإطار تحوتي، مازال التقويم الذي وضعه هو الأدق، هو من يتبعه أهل الفلاحة، لا الميـلادي أو الهجري، إنـما العتيق، العتيق، كذلك الماء، أذكـر مرة أخرى أن الماء واحد، واحد، لا طرق فيه ولا دروب، كُلها متخيلة، إلا لنفر يسير، لمسوا السرّ وفي عمري الموشك على التمام لم أعرف إلا شخصًا واحدًا هو ريس مركب الصيد الذي أقلني من الغردقة إلى شـدوان، ذكرت ذلك في حكاية كتاب البحر، فليطالعها من يرغب.

# تماهي الغاربين

من المسائل المحيرة والتي عثرت عليها بعثة تنقيب بولندية في لفافة بردي محفوظة الآن في متحف تورينو، قصدته أربع مرات، أي كلما نزلت المدينة التي عرفت فيها أمورًا، لا أدري كيف استقرت فيه مع أن البعثة من جامعة وارسو، لم أجدها في العرض، غير أن مدير المتحف أكد لي أنها موجودة لكن غير مسموح بالاطلاع عليها إلا بتصريح خاص لا يمنح إلا لمن يجري بحثًا علميًّا للحصول على دكتوراه دولة، لم أدر ماذا أقول أو كيف أشرح له أن ما يعنيني أهم من الأبحاث التي يتحدث عنها وأن ما يشغلني جليل، دقيق، أعرف ما أقدم عليه لكن من أين له الاستيعاب وهو مقيد بنصوص، لم أبد ضيقًا ولم أحتج إذ صرت إلى حالة من هدوء أقربها عندي عربة تمضي بدون صوت محرك، أو جهد سائق، مضيت إلى المتحف الذي صرت أحفظه وإنني لأعتبره الأثري بعد المتحف المصري وأمره عجيب، اقتنيت كتبًا عديدة عن محتوياته منها ضخم، حملته في حقيبة يدي خشية عليه واتئناسًا به، ثمنه مرتفع بمقاييس الوقت، لم أتردد رغم أنه بالإيطالية التي أجهلها، غير أن ما حواه من صور مطبوعة جيدًا، خاصة مقبرة الموظف «كا» مكتملة المحتويات، توقفت أمام جلابيب من كتان كأنها نسجت بالأمس وثمانية أرغفة خبز شمسي، عين ما أفضله وأهوى، بالطبع راق لي أشياء أخرى أحتفظ بمعالم بعضها وتساندني صور الكتاب في تذكر بعضها، غير أن ما حيرني ظل قائمًا، منذ زيارتي الأولى عام ستين عندما كنت عضوًا في فريق الكشافة، مشيت بصحبة

من لا أذكرهم الآن حتى بلغنا أسوان وبالصدفة حضرت ضغطة الزر التي فجرت أول عبوة ناسفة للصخور في بناء السد العالي، لكن لتلك وقفة أخرى ربما أحكيها، ما يعنيني زيارتي البر الغربي التي كانت مفتتح صلتي بأهله وناسه وما حوى، رأيت جدران المراقد على اختلاف أنواعها، لملوك، لنبلاء، لفنانين عاشوا أعمارهم كلها هنا، ارتقيت الجبل ونزلت عبر دروب غير ممهدة وأخرى بادية إلى دير المدينة ومعبد هابو إلى وادي الملكات، بدأت حيرتي منذ ذلك الحين ولعقود تالية رحت أحاول إيجاد الإجابات عبر الكتب المتاحة ومن عرفتهم الذين ينتمون إلى أهل الاختصاص حتى استقر بي الحال إلى قضاء فترات طويلة في البر الغربي، صرت أسألهم.. البشر الساعين أو أولئك الذين عبروا من حقب طويلة أو قريبة، يستوي الحال عندي فكلاهما مستحيل إدراكه، تمامًا مثل الوقت، اللحظة الآنية تفلت، تولي، إلى أين؟ لا ندري، يستوي الآن مع تلك المنقضية منذ ملايين السنين، كل ما يمر يستحيل استعادته إلا عبر المخيلة المحدودة بمُدد أصحابها وقدراتهم، توقفت طويلًا إن في معاينتي أو استعادتي أمام رسوم آلهة الأقدمين، اجتهدت لأتعرف عليها، أميز بينها، حيرني أمر؛ من حدد هيئاتها؟ من وضع ملامحها البشرية، من وحد المخلوقات التي تسعى، فجعل الجسد الإنساني رأسًا لحيوان أو حشرة، ومدَّ جناحي النسر المحلق من جسد أنثى قاعدة وفوق رأسها ريشة؟ من حدد الألوان للثياب، للأجساد، للتيجان فوق الرءوس؟ ماذا جال في ذهن النحات أو الرسام وهو ينقش أو يوجد من كتلة الحجر الصمّاء ملامح إنسانية لمن ينظم الكون، ما رأيته نظام دقيق يقي من الفوضى، يدبر الأمر، في سياق محاولتي الإجابة عما يقلقني عرفت من العالم الفاضل محسن لطفي السيد والذي واظبت على حضور دروسه للغة المصرية القديمة وقرأت وعرفت بترجماته للكتب المقدسة المنقضية، أنه يوجد نص في متحف تورينو تم تدوينه في العصر المتأخر للحضارة المصرية والذي جرت فيه محاولة لإحياء التقاليد والأصول الأولى، حركة تشبه هبة الشمعة قبل انزواء

شعلتها، عجيب هذا، لي صاحب مات في فراشه بدون أي مقدمات، كان في سفر إلى بلد أجنبي، عثروا على آثار مني في فراشه، دُهش بعضهم إلا أن طبيبًا من أصحابنا شرح وأوضح أنه يحدث أحيانًا عند موت الفجأة أن يقذف الإنسان، يبلغ الذروة، يُشَيّع ماؤه رجلًا كان أو امرأة. وصلت ذلك وقارنته بهبة الشمعة الأخيرة أو تغريدة البجعة التي تصدر أجمل ما عندها من نغم قبل صمتها الأبدي، بعد سنوات من صدي في تورينو عن مقصدي استضافني الأستاذ سيرجيو نيوزاده أستاذ العلوم العربية بجامعة ميلانو وكان لي بـه صلة ومودة، أمضيت قرب بيته ليلتين في فندق مُطل على بحيرة جميلة اسمها ليزا، يبزغ منها جبل أشم، يظهر أحيانًا ويغيب مرات مع تكاثف الضباب، أثناء تحاجحنا رويت له سعيي الخائب في تورينو فأخبرني أنه يمكنه الحصول على ما أرغب على أن أطالع ما أريد هنا، سيطلب اللفافة وما يتعلق بها باعتباره مهتمًا ومختصًّا بالأصول اللاهوتية للديانات، طبعًا سيرسلون إليه صورة فالأصل من المكنونات التي يستحيل فضها، بعد ستة شهور أرسل إليَّ يسألني الحضور إذا استطعت إلى ذلك سبيلًا، رتبت حالي وسافرت إليه مباشرة، في بيته القديم الفسيح أطلعني على ما رغبته، نص عتيق يتضمن محاورة بين تحوتي والكاهن الأعظم لمعبد أبيدوس المهيمن على كافة المعابد في الأرضين، البحري والقبلي، عاونني في قراءته، فيه حدد الهيئات والملامح بدقة، وأيضًا المهام، بعضها معروف الآن، المقدسة سخمت على سبيل المثال، مثيرة الزعابيب والرعود، لعل ذلك يفسر لنا ما يقوله البعض في الريف، عندما يلحق أحدهم أذى بأنثى يقولون «دا سخمطها..»، قال الكاهن الأعظم:

لكن هذا كثير..

ثم قال:

سيظن من يجيء بعدنا أننا فرقنا إيماننا..

قال تحوتي:

إنه الكثير في الواحد، ليس هذا كله إلا تجليات للأصل

قال بعد حين:

لكنني أرى تداخلًا للرموز، تاج حتحور على رأس إيزيس.. تبسم تحوتي، قال إن المحاولة تجري لتجسيد ما لا يجسد، لذلك يجب عدم القطع، نحن نتوهم ما يوجد حقًّا، تماهي الإشارات يرسخ التوثيق ويؤكد ما يجب أن يؤكد.

الغريب أن ما استوقف الكاهن الأعظم حيرني، عندما شرعت في تنفيذ اللوحة التي اختارها الأستاذ الروبي ونسجها في سجادة من حرير، لاحظت مما قرأته أن إيزيس ذات الرداء الأحمر فوق رأسها تاج حتحور، دائرة يحيط بها قرنا بقرة، تصورت أنه خلط أو لغاية لا أعلمها، هذا ما تكشف لي، اللا يقين مقصود، قال صاحبي الأستاذ سيرجي إن طالبة ستجيء من روما بالقطار تعد أطروحة عن هذا النص النادر، يمكنها أن تعينني، غير أنها لم تأت لسبب لا أعلمه. وما يزال جهلي بمضمون اللفافة قائمًا، غير أن يقينًا خفيًّا وقناعة لا أعرف مصدرها ترسخ عندي استحالة نُطقي بما كنت سأطلع عليه لو أتيحت الإمكانية فما لمحته من إشارات يدل على أمور البوح بها مستحيل!

# نصوص محيرة

«ثمة نصوص باقية عندي، لا يمكنني تحديد مصادرها أو نسبتها إلى زمن أو مكان، أوردها كما تهمي عليّ»:

**سطور غير متصلة بما قبلها أو بعدها:**

« أول ما صرت إلى وحدانيته

فصرت طيرًا جسمه من الأحدية

وجناحاه من الديمومية

فلم أزل أطير في هواء الكيفية عشر سنين

حتى إذا صرت إلى هواء مثل ذلك مائة ألف ألف مرة

فلم أزل أطير حتى صرت إلى ميدان الأزلية

فرأيت شجر الأحدية

فنظرت

فنظرت

فعلمت أن هذا كله خدعة

خدعة هذا كله

خدعة، خدعة، خدعة..

*** سطران لا غير، غامضان، مستعصيان، كتبا بخط ديموطيقي وليس هيروغليفيًا مؤصلًا مثل بقية اللفافة. قرأهما عليَّ صاحب عارف وحيم:**

**فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرًا ولا تسأل عن الخبر**

**حوار**

قال سيد الأرضين، من يأمر فيُطاع، ومن يسأل فيُجاب، «هل يأتي يوم يمكن أن تسبح فيه الجبال والصروح على الماء؟».

قال تحوتي مبديًا الدهشة والأدب معًا:

«هذا قائم يا مولاي..

«كيف ؟»

«ما هو العنصر المتصل، القائم، الواصل بين أجزاء المعمورة؟»

«ما هو؟»

«ماذا يحتفظ بمستواه فلا يزيد هنا أو يقل هناك، وإذا جاء من عُلو أو سفل فإنه يمضي إلى المستوى الموجود والذي لا يختل قط؟»

«ماذا؟»

«إنه الماء يا سيد الأرضين، من هنا كل شيء يسبح عليه، يعوم فوقه بها في ذلك الجبال والأراضي الشاسعة، القفر منها والعامر، كلنا نسعى فوق الماء وبالماء..

**ما بين أون وأبيدوس:**

- طالعت هذه الحكاية في مصادر عدة، وأوردتها في دفتر تدويني الأول «خلسات الكرى»، تنسب في مصادر عديدة إلى «أبو الفيض سيدي ذو النون الأخيمي»، يقول البعض إنها من مسائله، ما استوقفني أنه كان يعلم قلم الطير كما

أجمعت المصادر، سواء تلك التي خصصت له مثل «المكنون في أسرار ذي النون» للسيوطي، أو كتب تراجم الصوفية مثل «حلية الأولياء للأصبهاني» أو «طبقات الشعراني» لسيدي عبد الوهاب، وغير ذلك كثير.

جاء في المسألة أن رجلًا من أهل مصر خرج صباح جمعة وعليه جنابة، نزل في النيل ليستحم، أمضى وقتًا يتنعم بالماء، عندما خرج رأى مدينة مغايرة، وشاطئًا مختلفًا، أما ماء النهر فأسرع جريانًا وأغمق حمرة، ألقى في معارفه تفسيرًا لكافة ما يراه، هذه بغداد وهذا نهر دجلة، أما بيته فقريب، مجاور لمقهى التجار، قصده، امرأته عراقية مفهرسة، عيناها بابليتان، وبشرتها كردية، وسماتها فارسية في مجملها أما صهيلها عند الذروة فعربي لا يمكن ترويضه، كانت عجبًا في رحابتها وحنيّتها وانتظارها لعودته وتوديعها له كأنه سيغيب عنها أبدًا، تنعم بها، ولم يرد عليه شيء من حضوره القاهري إلا أحيانًا في الأحلام، إذ يستيقظ يتطلع إلى أنثاه راقدة بجواره، تبث شذاها وتثري مدارها، تبقيه في إسارها، ذات يوم جمعة، خرج من بيته مبكرًا وعليه جنابة، خطر له أن يغتسل في دجلة، نزل في النهر وأمضى وقتًا، طلع في النيل، لم يظهر دهشة، لم يبد أمرًا، جفف جسده ولملم حاله قاصدًا بيته المصري، عين الوقت الذي يعود فيه، لم يتأخر عنها، تنسم الملوخية التي تتقنها، ومشى الهوينى إليها ليكر عليهما ليل بعده نهار ثم ليل، إلى أن حل يوم جمعة، لم ينزل فيه إلى السوق، سمع من ينادي عليه خلاف ما اعتاده، أطل من المشربية، رأى عيسى النخال (أو عبده الفران كما جاء في بعض النصوص) وإلى جواره تقف امرأته العراقية، تحمل طفلًا على باطها والآخر إلى جوارها، عمره نفس المدة المنقضية منذ نزوله نهر دجلة، تبسمت باشتياق غير مليمة، أشارت إليهما: ولداك، جاءا ليريا أباهما ويعرفاه..

انتهى ذلك، وقد دونته تقريبًا كما قرأه عليّ سيرجي نيوزاده الذي لقي حتفه بعد سفري أثناء عبوره الطريق من عربة لم تكن مسرعة كما قيل لي، غير أنها المصائر..

# تحليق

قال سيد الأرضين لحكيم الوقت محاورًا وسائلًا: ألا يمكن التوصل بطيور تحلق إلى الأبد، تظل أجنحتها مرفرفة، لا تقتات ولا تهن؟

طلب تحوتي مهلة من الوقت حتى يجد ما يطلبه السيد المجتبى. بعد حين مضى إلى منزل ملايين السنين في غرب أبيدوس، أماكن محفورة في الجبل الغربي ليسكنها المبرءون إلى الأبد حتى يحين الأوان، وقع اختياره على جدار خال تمامًا لم تنقش عليه الرموز بعد، أحضر الألوان، خاصة الأسود والأحمر، بدأ برسم خطوط نحيلة بالأسود، صحح المائل منها بالأحمر، شيئًا فشيئًا لاحت طيور بيضاء مفرودة الأجنحة، ملأت الجدار، حتى لم يعد فراغ، مناقيرها حمراء ياقوتية وأرجلها برتقالية، أما الأزرق النيلي فموزع على أجسادها الرهيفة المغطاة بالريش الزرعي، طيور لا يمكن إرجاعها إلى جنس معين، ذلك أنه اعتاد منذ طفولته المبكرة على وفادة أسراب شتى بدءًا من الخريف وحتى لواح الربيع، أنواع شتى تقيم قرب موارد المياه، تتنسم الدفء، اختار من كل نوع عنصرًا، رسم هذه الأسراب التي يكاد الناظر إليها أن يسمع حفيفها، بل أصواتها، هذا عين ما نطق به سيد الأرضين عندما استأذنه الحكيم في زيارة ليرى ما رغب، عندما عبر الممر المؤدي وفوجئ بأسراب الطيور محلقة من خلال الجدار، توقف على مسافة، بعد عودته قال لتحوتي وهو يحاوره: خشيت إزعاجها حتى لا تتفرق.

ما تـزال الطيـور تحلـق في عتمة المرقـد الأبدي المحفـور قـرب الأوزيريون في الصخر، ولا يحمل اسمًا أو رقمًا، لم يكتشف بعد ولم يدرج في آثار أبيدوس، لا يعلم الموقـع إلا نفـر يسـير يتوارثون السر الدفين منذ آلاف السـنين، ومـن يدري.. ربما يكـون ذلك مأوى الحكيم المفـرد الذي قُدس فيها بعد واقـترن بالطائر أيبس الذي صار رمزًا للحكمة السارية، ربما..

# صَقْل

ترد هذه الكتابة بصيغ شتى في ثقافات مختلفة، خاصة الصينية والفارسية، غير أنني فوجئت بعناصرها موجودة في لفافة تورينو، تمامًا مثل حكاية الرجل الذي نزل في نيل القاهرة وطلع في دجلة بغداد، كذا نصوص أخرى لم أقرأ في أي مصدر معروف أن أصولها من مصر القديمة، تقول الحكاية إن سيد الأرضين دعا رسامًا ماهرًا من التابعين للمعبد الكبير، طلب منه أن يرسم حديقة من زهور كيميت ونخيلها وأشجارها، توجه إلى تحوتي الذي اشتهر بجمال خطه وروعة رسومه، أليس هو من صاغ أشكال المقدسين، الرعاة، وميَّز بينهم بالألوان والتيجان، وأوجد التماهي بين هذا وذاك؟ جاء بهما إلى جدارين متقابلين، مساحة كل منهما لا مربعة ولا مستطيلة، بدأ الرسام المتقن فنه العمل، بينما جلس تحوتي مقعمزًا، قاعدًا مثل الذين يعملون في الأراضي بعد نثرهم البذار وسقيها ثم رعايتها بالبصر الخبير، في ثلاثة مشارق للشمس أنجز الفنان الماهر ما طُلب منه، حديقة أفسح من الجدار وأعمق من مدى النظر، فيها شجر النخيل، الدوم، الجميز، ما لا يثمر إلا زهورًا متداخلة ألوانها، بعضها معروف وكثير منها أثار دهشة الناظرين، بعد انحناءة وعلامة تبجيل قال إنه يُقدم ما طلب منه راضيًا مرضيًا، راجيًا أن يكون وفق إلى ما طلبه سيد الأرضين، عندئذ.. قام تحوتي وبدأ العمل، لم يمسك بفرشاة ولم يأت بألوان، إنما راح يصقل الجدار مستخدمًا أدوات غير معروفة صممها وصاغها خصيصًا، هكذا قيل في اللفائف. لم يتوقف إلا لتجرع شربة ماء أو لتناول

قضمة من رغيف شمسي ما زال خبيزه ساريًا في بعض مناطق الجنوب، شيئًا فشيئًا بدت ملامح الحديقة زاهية ألوانها، متنوعًا طرحها، كلما تقدم الوقت تزايد زهاؤها وبانت جلوتها، ورغم أنها انعكاس للحديقة على الجدار المقابل، فإن لمعة خفية أوجدت لها نشأة أخرى، دهش سيد الأرضين حتى إنه لم يخف ذلك، قال: إن ما قام به تحوتي الحكيم يمكن أن يسري مع سائر الموجودات، كان ذلك أول تعرف إلى المرآة..

# مركز

لابد من مركز

ما من موجود إلا وله مركز

هل الكون له مركز؟

نعم

أين؟

ابحث عنه تجده.

لا أدري أيـن قرأت العبارات السـابقة، هل طالعتهـا في كتاب بعينه أم في كتب مختلفـة أم أنهـا محصلة قـراءات أو تعبيرات متعـددة عن همـوم راودتني وتدرجت في مراتبهـا مـع توالي مراحـل العمر وتنوع وتعمـق البوادر، وتدرجهـا إلى المحاط الأخـيرة، غـير أن ما ظننته يخصني وجدته مترددًا في زمن سـحيق، نـاءٍ جدًّا، رغم وعيي الأتم بتساوي كل مُوَل في البعد، ما الفرق بين لحظة انقضت منذ دقائق خمس وبين لحيظات انقضت منذ خمسة آلاف عام أو أكثر؟ كلاهما لا يمكن استعادته إلا عبر مخيلة إنسـانية، وجدت ذلك عند تحوتي سيد الحكمة، أيبس الصابر، الناظر إلى ما لا يمكن تحديده، كنت أصغي إلى سيرجي نيوزاده وهو يقرأ عليَّ ما دونه الحكيم القديم، السابق عليَّ، من الخط الهيروغليفي إلى العربية مباشرة التي أتقنها وتبحر في علومها وله تصانيف شـتى عن الأدب العربي، والإسـلام، والمصاحف الحجازية،

خاصـة التـي كتبت في فترة مبكرة، أسـتعيد صوته كأنه يقرأ منـي، يطالعني، ينطق بها لم أقله تحريرًا أو شـفاهة، يصيغ ما وددت البوح به، غير أنه منسـوب إلى تحوتي، إلى تـوت، جـرى لي ذلك مـرارًا، أفكر في أمر لم يسـبق لي الاطلاع عليـه، أو الإلمام به، ثم أفاجأ بمن سـبقني، ربما من آلاف السـنين، أو مـن بضع أحوال، فلأضرب مثالًا على ذلك، منذ سنوات اعتدت حضور مؤتمر للموسيقى الشرقية، في مؤسسة تشغل ديرًا قديمًا، شمال باريز، شيده لويس التاسع الذي أسر في المنصورة، خصني صاحبـي المشرف عـلى الأمور بالنوم في غرفتـه، حضرت مؤتمرًا عـن المقام، وآخر عن السـماع، أمري مع الموسيقى ممتد، عتيق، لعلي أذكر بعضًا منه، لا أذكر بالضبط في أيهـا قلـت: إن الأنغام وُجدت مع نشـوء الوجود وإن من اختصوا بالحساسـية والرهافـة والقـدرة يمكنهـم الكشـف عنهـا وإظهارها للنـاس، كانـت مداخلتي مكتوبـة، مصوغـة، عنوانها، «رحيل المقـام»، قال خبير بلجيكي مشـارك معقبًا إن أفلاطـون قـال ذلـك، والله والله لم أنطق بذلـك عن أحد، المـرة الأولى التي أصغي فيهـا إلى مثل ذلـك، لزمت الصمت، ليس عن خجل، إنـما لارتباك، فكيف أشرح هـذا الحـال؟ غير أن سـيرجي كان قريبًا مني ولي به تعلق، لم أتـردد في القول بأن ما أصغيـت إليـه شـبيه بما توصلت بـه، تطلع إليَّ، قـال إن الحقائق لا تتغـير، واحدة، يمكن الوصول إليها من عدة أزمنة وعبر أساليب مختلفة.

صحيـح، للحقيقـة الواحـدة أكثر من طريق، غـير أن أمـورًا غوامض أقضتني ولكـم حاولـت أن أعـرف فلـم أزدد إلا يقينًا إنني لـن أعرف ولن أحيـط علمًا بها حيرني حتى أسـبغ على ملامحي وسـعيي تساؤلات شتى أكاد أراها بعيني في عينيّ، غـير أنني لا أكف، لو هدأت، لو اسـتتب هجوعي فسـيكون عدمـي وانتفائي من ذلك السعي والوجود، ذاك حسبي.

لـكل موجود مركز، للبيت مركز، لا أعرف أيـن، المدخل ليس بمركز، كذلك المخـارج المطلـة سـواء أكانـت نوافذ أو شرفـات، حجـرة الاسـتقبال متوارية، لا

تستخدم إلا مرات معدودة، مكان النوم محجوب، كنت في مراكش منذ سنوات، استضافني أب لصاحبة ودود في داره بالمدينة القديمة، جلسنا في غرفة الاستقبال المفتوحة على الحديقة الداخلية المنسقة، تنتظم حولها شرفات لطابقين، بعد تناولنا فطائر أطلسية وجبن حلوم من شو فشاون وحليب نوق فاترًا وعسلًا جبليًّا نادرًا، اقترح عليَّ الطواف بالبيت للفرجة عليه، تأملت النقوش والأسقف الخشبية المراكشية، مجمع الألوان البهيجة، توقف أمام باب منمنم، فتحه برفق، طالعني فراش رحب موجٍ بوثارة وألفة، قال بصوت مغاير «لأول مرة أدعو شخصًا ليس من الأسرة إلى هنا.. قلبي يحدثني أنك مِنَّا..

تأثرت حتى إنني حرصت ألا أسأل ولا أستفسر بالإيماء أو التصريح، بل إنني لم أطل المدة احترامًا لخصوصية الحيز، انتبهت يومئذ إلى أنني لم أصحب أي إنسان إلى مواضعي الخاصة، وأنني طويل التحفظ حتى مع أولئك الذين يمتون إليَّ بصلة، ذلك طبعي وديدني، وعندما مررت بظروف طال أمدها، سفر زوجتي الطويل للعلاج، وبقاء ابني وابنتي في الطرف الآخر من المحيط، كنت أمضي أيامًا متعاقبة لا أفتح الباب إلا للبواب الذي اعتاد أن يأتيني بأشياء غالبًا تتعلق بسد الرمق، أمضيت مدة سبعة عشر يومًا متصلة، لم أر الطرق حتى من الشرفة ولم أرد إلا على هواتف أفراد أسرتي وأشقائي وصحبي القليلين حتى لأحصيهم على أقل من أصابع اليد، هذا مما يطول الحديث فيه، غير أنني أقول بتأثير الحبس الانفرادي واستدعاء القصيّ من مكنوني، ربما سبب آخر أجهله وكم من أمور متعلقة بنا جسدًا وروحًا سنمضي ونحن لا نعرف عنها شيئًا.

العمارة الوحيدة الواضح مركزها، الهرم، إنه التركيز الأقصى، اختزال الاختزال، هذا التكوين الهائل يتمركز في نقطة نهاية التماس بين المادة المحسوسة المحدودة، والفراغ المبين، لولا تلك النقطة لما كان البناء الهائل كله، لضل السبيل وتفرق في سائر الجهات، هكذا المركز، يجمع الشتات، يلم ويلخص، إذن.. أين مركزي؟

أهـو القلب كـما اعتقد أهل تحوتي في الزمـن القديم حتى إن العضـو الوحيد الذي يتم حفظه داخل الجسـد هو القلب. ماذا عن المخ إذن؟ أهو ما هو؟ لا أدري؟ هل يكمن في الوعي؟ ربما، عندئذ لا يمكن إدراكه، هل توصل تحوتي إلى كنه الوعي؟ لا أظن.. لا هو ولا من جاء بعده؟ إذن.. أين؟ ليس لنا إلا التساؤل، لعل وعسى..

في وقتـه، كان المصريـون جميعًا يؤمنون أن كيميت - الأرض السـوداء - مركز العـالم، ومازالوا يقولون: «أم الدنيـا» الأم للمُنجَب واحدة لا غير، الأم هنا مصر، وعندما اضطر سنوحي إلى الهجرة قسرًا بعد أن نفاه الفرعون كان رعبه وخشيته أن يموت مغتربًا وأن يُدفن في أرض غريبة، أي أرض خارج مصر نجسـة، سـنوحي راح يرسـل استعطافًا تلو الآخر إلى سيد الأرضين يرجوه أن يسمح بالرُّجعى وإلا فإنه العقاب الأقصى، مع بدء هجرة المصريين الواسـعة للاتصال بأسـباب الرزق، انتشروا في مشـارق الأرض ومغاربهـا، في الانتخابات الرئاسـية التي أجريت عام أربعـة عشر بعد تمام الألفية الميلادية الثانية قرأت أن المصريين في نيوزيلنده صوتوا بكثافـة وأنهم جاءوا من مدن قصية، يـاه.. نيوزيلنده! صحيح أنه ليس للدنيا حد، لكن بالنسـبة لمصر هذا آخر الكيان المعمور، إذن وصل أهلي إلى الأقاصي، عشـت ذلـك، أنـا من سـمع أقاربي يقسـمون عند سـفرهم إلى طهطا - مسـافة ثمانية كيلو مـترات فقـط - بغربتهم، جرى هذا التبـدل في أقل من نصف قـرن فما أغرب وما أعجب!

أتطلـع إلى النجـوم النائية، البـاردة، البادية، الضـوء هو الكائـن الوحيد الذي يغـادر مصـدره ويبقى بعد فناء مـن غادره، ربما اختفـت هذه النجـوم الدانية إلينا ومازال الضوء الذي انبعث منها راحلًا في أعطاف الكون، غير أنني أتساءل:

أين المركز؟

لا بد من مركز.

لكل موجود مركز.

لا يُدرك إلا شعرًا وحدسًا، أستعيد ما أنشده والت ويتمان الأمريكي والذي صار بيني وبينه صلة عبر نصوصه، يقول حباه الله وأيد ذكراه..

«ذلك التكوين النجمي البادي فوقي

بلطف يتشربني، بطلاقة يعلو

يمتد شرقًا، غربًا، شمالًا وجنوبًا

وأنا بِتُّ نقطة في قلبه تحوي كُل ما فيه»

الأمر نسبي، الأمر نسبي يا أهيل مودتي وصحبي الخلص الباقين على عهودي وما احتويته وما بشرت به وسعيت من أجله رغم كافة الرياح غير المواتية، يا غربتي عنِّي ولي.

يقول السيد ويليام ليثابي في مؤلفه «العمارة والروحانيات» الموضوع عام ألف وثمانمائة واثنين وتسعين، ولم يظهر بالعربية إلا بعد قرن كامل وتسع سنوات، قال ما نصه:

قد يبدو أن هناك بهجة ولغزًا في فكرة الحدود أو المركز، يعبر الأطفال عن هذه المعاني بوقوفهم بين خطين أو دائرتين تعبيرًا عن الحدود، ألا تذكر يومًا قيل لك فيه إن دار البلدية في بلدتك الأم هي مركز المسافات؟

نعم، نعم، نعم يا سيد ويليام، لكنها عندي لم تكن دار البلدية، بل مقر البريد، عندما بدأت سعيي في تلك الأنحاء، كنت أثناء عودتي من الصعيد أو الإسكندرية أقرأ المسافة على اللوحات المتتالية - القاهرة.. عشرون كيلو مترًا - كنت أتساءل، فليس لي ولم يتبق لي إلا التساؤل شأن الطفل المتفتح على الدنيا، حتى لأعتبر نفسي كينونة التساؤل وغايته، لكن وجب التنبيه يا أسيادي الكرام، يا من تطالعون هذا

التدويـن الـذي لم أدخر من أجله جهدًا، ولم أبخل بالوقـت والتحصيل، فقط أريد التفسـير أن الطفل يسـأل ليتعلم ويكتشـف، أما الهـرِم مثلي فيسـأل ليتحسر وليُقرَّ بالعجز عن إدراك الحقائق، يواسيني أن أحد الأجلاء - لعله الشيخ الأكبر سيدي محيي الديـن - قال: إن العجز عن الإدراك إدراك، لا أدري من أوضح لي أن مركز المدينة محدد بمبنى البريد الرئيسي في ميدان العتبة، نقطة المفصل بين القاهرة القديمة التي شهدت أول سعيي والقاهرة الخديوية التي كانت تسمى وسط المدينة ولم تعد كذلـك، تعـددت المراكـز عدا ميدان التحرير المسـتمر مركـزًا سياسـيًّا، قديمًا قيل: إن كل الطـرق تـؤدي إلى روما ظنًّا مـن أهلها أنها المركز، أمـا الكلدانيون فاعتبروا أنفسهم الأفضل لأن بلادهم مركز العالم، في كتاب «قدماء الرحالة» يقول شارتون الفرنـسي إن كل أمـة تؤكد أنها مركز العالم، بالنسـبة للمصريين المركز في طيبة، عند الأشـوريين بابـل، لـدى الهندوس جبل مـيرو، لليهـود أورشـليم، للإغريق جبل الأولـب أو معبد دلفي فيما بعـد، أما الفرس فيعتبرون بلادهـم الأفضل لأنها تقع في الوسـط، عندمـا زرت الصين للمـرة الثانية قصدت بكين مبـاشرة، ولي بالصين تعلق وقرب، تجولت متمهلاً في المدينة المقدسـة السـماوية، هنا أقام ابن السـماء، في عام ألف وسـبعمائة وثمانية عشر وجه الإمبراطور رسـالة إلى ملـك إنجلترا، يقول فيهـا إنه مفوض من السـماء، وإن بلاده مزدهرة، مصدر لـكل فضل وخير، عندما تحـاورت وتفاوضـت متحاججًـا مع الصينيـين وجدتهم يؤمنـون في أعماقهم أنهم المركـز، وبالنسـبة لكل البشر حتى عصر جاليليو كانـوا يعتقدون أن الأرض مركز العالم، والشمس والنجوم تدور حولها، من يقول غير ذلك كافر، وما جرى لجاليليو معـروف، لكن الحقيقة اتضحـت مع كوبر نيكوس، اتضح أن الشـمـس وكواكبها وسائر توابعها ليست إلا مجموعة صغيرة في طرف قصي من مجرة درب التبانة، وأن الكون أفسـح مما نتصور، هنا أقول إن المصريـين القدماء اعتقدوا بالقوى المحركة. أشرت إلى الرسـم المعـبر عنها في أبيدوس ومرقد رمسـيس السـادس، يدان تحفان

بدائرة رمز لصيرورة الكون، هذا يعني إدراكهم للا نهائية الوجود وفساحة الكون، لذلك حرصوا على أن يكون لسائر عمائرهم صلة بالكون، بمركز ما، اعتقدوا طبقًا لمعارفهم أنه هناك إلى الشمال. في اتجاه الدب القطبي أو النجم المعروف عند اليونان بسوتيس وعند العرب بالشعرى اليمانية. مداخل الهرم والمعابد إلى الشمال. عندما نزلت مرقد حور محب، المحارب الذي أصبح سيد الأرضين توقفت عند زهاء الألوان ورهافة الأشكال لكن ما بهرني وجود علامات في أقصى نقطة من الضريح تحت الأرض تحدد الجهات الأربع بدقة متناهية، عندما يرقد المبرّأ يجب أن يتجه رأسه إلى الشمال.

في أبدية الراحل يجب أن يكون على صلة بعمق الكون، باللا نهائي، ما زال ذلك مستمرًّا عند المسلمين، لحظة الرقاد النهائي يجب أن يتوجه الرأس صوب الكعبة التي يعتبرها المسلمون مركزًا للعالم، يعتبر الهنود قمة الهملايا ذروة العالم ومركزه، حدث أن الرحالة الصيني سنج ين زار الهند عام خمسمائة وثمانية عشر ميلادية، هو أول من جمع السجلات البوذية، يقول إنه تسلق جبال تشنج لنج خطوة خطوة، لمدة أربعة أيام حتى وصل مع صحبه إلى أعلى نقطة، عندما نظر إلى أسفل بدا كأنه معلق في الهواء، هناك يقول السكان القلائل إنها النقطة الوسطى للسماء والأرض، هناك جبال باميرا، هنا أتوقف لأقول: إنني متعلق بهذا الموضع رغم أنني لم أبلغه ولا أظن أنني سأصل إليه، صلتي بدأت بالاسم، سمعت به أول مرة عند حضوري مؤتمرًا لموسيقى المقام في ذلك الدير الذي أشرت إليه بضاحية «رويامو» الفرنسية، استمعت والتقيت بالفرقة التي قدمت من جبال باميرا، لم أعرف نغمًا جسَّد لي معنى الترحال، الانتقال كما أحطت مما سمعته، كنت أظن أن موسيقى الغجر أدق، كذلك الفادو البرتغالي المأخوذ عن الحَدْو الذي ينشد للجمال أثناء سيرها الوئيد في الصحراء الخالية، الهوْ، جرى لي مثل ذلك مع «لاهور»، و«خراسان» و«نيسابور»، ذكرت طرفًا من ذلك في دفتر تدويني السادس «رِنّ»، هناك أماكن عرفتها ورأيت

فيها ما لم يعرفه غيري، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر، أخميم وأبيدوس، والبر الغربي لطيبة، هنا أشير إلى أمرين لعلي أفصل ما جرى لي بخصوصهما إذا ما سمح الوقت وأذنت الأنفاس، أولًا ليلة أمضيتها في الهرم الأكبر بمفردي، وحقيقة صلة أهل أخميم بالحرير الطبيعي المأخوذ من دود القز، وعلاقة الصين، وإجابة عن سؤال حيرني: من أخذ مِنْ مَنْ؟ لسيد الحكمة تحوتي صلة بالأمر، لعلي أتذكر في السياق.

لكل أمة جبلها المركزي، في مصر القديمة كان متخيلًا، الشرقي حيث تطلع الشمس والغربي حيث تغرب، في الهند اعتقد الهندوس أن جبل «ميرو» هو المركز، وفي مجموعة «البورانا» المقدسة الهندوسية أن النجوم تدور حول ذروة هذا الجبل، أما جبل العالم عند الكلدانيين فهو «نذير» ويُقال إنه الذي رست عليه فلك نوح بعد الطوفان، وعند الأتراك يقولون برسوها عند قمة «آرارات»، وأنه يوجد أثر أيضًا لقدم آدم عند قدومه من الجنة، وعند الإغريق جبل الأولمب، عندي كنت أقول مع أهالي الجمالية والدرب الأحمر وباب الشعرية إن الجبل عند الدراسة، لم نعرف ارتفاعًا يفوقه، إلى أن توسعت حركتنا فاكتشفنا المقطم، خاصة بعد بناء مدينة فوقه، غير أنني عرفت الألب متأخرًا، قرأت عبور هانيبال المعجز لقمته، أرقبها من الطائرة عندما أقصد باريس أو جنيف أو لندن، أنتبه عند اقترابي منها، أبحث عن أعلاها «المون بلان» أو القمة البيضاء، لحيظات تقترب الطائرة من صخور الجبل أو العكس، ألمح طرقًا وبيوتًا متناثرة وثلوجًا مستمرة طوال العام، أما الجبل الذي هبته وخشيته فهو الأطلس الكبير، عرفته عند نزولي مدينة مراكش، قمة توبقال القصوى منه مكسوة بالثلوج طوال السنة، حتى في قيظ يوليو عندما يبلغ القيظ مداه، مراكش موازية لأسوان، نفس خط العرض، أقف في ساحة الفنا، أرقب الثلوج تلمع فضيًا فوق القمة، بلغتها عندما زرت صاحبي سيدي أحمد التوفيق، محقق «التشوف إلى أهل التصوف» ومصادر أخرى وروايات عن

عالم الأطلس، عندما صعدت الجبل وجدت السفح يشغي بالحيوات والآثار، يبدو من بعيد أجرد، أصم، زرت فيه قبر المعتمد بن عباد، وضريح سيدي منصور الذي أوردت بعضًا مما كتبه من مؤلفه القيم الفريد في هذا التدوين.

لا أرى جبلًا إلا وأتذكر الآية الكريمة في التنزيل العزيز: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾.

إذ أبلغ الشُمَّ الرواسي، أُضيّق العينين، أرقب وأنا حسير، لا ألقى ولا أجد مثل الآية العزيزة معبرة عن التغير والتحول والتبدل، لا شيء يبقى، ما نظنه لن يفنى أبدًا سيولي، سيتفرق يومًا، عندما يوفي الإنسان مدته يتفرق، لذلك قال شيخنا الأكبر: «لما كانت الحياة جمعًا والموت تفرقة»، تتفكك ذرات الإنسان، يتخذ كل منها طريقه في الوجود سربًا، هنا يرد عليَّ للتو، في هذه اللحظة ما قاله مولانا جلال الدين:

«لا تبحث عن المركز

انظر أيها الإنسان إلى ذاتك

أنت المركز»

فاهدأ إلى حين..

# أوضـــاع

في مقـبرة باشـادو بالقرنة الـبر الغربي، في صالة الدفن رجل يسـجد بجوار قناة يجـري فيهـا ماء سلسـبيل، ومـن الأرض تبزغ شـجرة دوم، ولي بهذا الثمـر القادم مـن عمـق إفريقيا على أمواج النهـر تعلق، مذاقه فريد، يخـص بالتحديد بيت خالي الـذي وُلـدت فيه، كان يرص فـوق القمح في الصومعة، متـاح لمن يرغب، علمت أن أحدهم في الإسـكندرية يسـتخرج منه بهجة للشـاربين، حرصت على تناوله ثم أصبـح ميسـورًا متاحًا بعد إقدام شركة على تعبئته، كذلـك الخروب الذي يقف بي عنـد رهافـة الوقت، ليـس مثله مشروب، عزيز فريـد، أما الدوم فنـادر، ليس هذا مقصدي أو هدفي، ما يعنيني سـجدة باشـادو، السـجدة، السـجدة يا أُهَيْلَ مودتي، سـجدة منذ حوالي أربعين قرنًا، إلى مدخل القسـم المصري بمتحف اللوفر اتجهت بصحبـة ابنتي، جرى ذلك منذ سـنوات عديـدة، كانت في المبتـدأ وكنت في الخبر، بجوار الباب تمثال لمصري قديم راكع، يداه مبسوطتان على ركبتيه، خاليتان من أي سوء، صاحت ماجدة «دول مسلمين زينا..

لعلها نبهتني إلى الأيدي، ليس الفن القديم في المراقد أو المعابد أو أوراق البردي إلا منظومـة تـترى من أوضاع الأيدي، مرفوعة نائحة في مقبرة راموزا، نقشـت في مرحلة تل العمارنة، أقف أمام النائحات فأسـمع نواحهن حتى ليقطر دمعي، ذات صبـاح كنت أركب حافلة المؤسسـة، دار عـم شرف عند الفتحة المؤدية إلى شـارع الصحافة، أنتظر قليلًا، خرج نسـوة كلهن يرتدين السـواد، كأنهن جئن من جدارية

البر الغربي، غير أن الإضافة كانت تلك الأنثى، شابة، فارهة، تتوسطهنَّ، هي من نزل بها المصاب، تترنح إلى يمين وشمال، رفيقاتها يمنعنها من السقوط.

في هذه اللحظة أدركت الصلة بين الرقص والموت، الرقص للحزن، للفرح أيضًا، لكل طاقة تجاوزت مداها، لكل تجاوز للقدرة على الاحتمال، للرغبة في تجاوز المحدود المقيد إلى اللا متناهي اللا مؤبد، فهمت السبب الذي يجعل أحبابي المغاربة يسمونه شطحًا، وما الشطح إلا الذهاب إلى بعيد، إلى بعيد جدًّا، في المكان اللا محدود والزمان اللامتناهي، هذا ما لا يقدر عليه الإنسان فيقدم على المحاولة، الإفلات من إساره بالرقص، لحظة باقية معي رغم فوات الوقت، حركة الأيدي ماثلة أمامي، يتبعها بالضرورة رفع اليدين خاصة من الراحلين عند سعيهم في العالم الآخر ومرورهم بالمراحل المؤدية إلى المحاكمة التي يعقبها إما النعيم المقيم في حقول بارو السماوية، وإما الفناء في اللا وجود، مصير كان يخشاه كل حي..

من صاغ تلك الأوضاع الباقية حتى الآن عند صاحب كل عقيدة إيمانية؟ من حدد رفع اليدين أو بسطهما؟ من فرّق بين السجدة والركعة؟ بين الانحناء والإطراق؟

شغلني هذا طويلًا، إلى ما عرفته من خلال لفافة تورينو، كلما تذكرت جلسة سيرجي نيوزاده وصبره عليَّ أثناء قراءته الخط الهيروغليفي وفهمه للقليل ثم ترجمته إلى العربية، أتساءل: لماذا يرحل الطيبون إلى الأبد؟ يجيئني الجواب من داخلي: ليجيء آخرون! لولا رحيل الآخرين ما جئت أنت ولا غيرك، سألته مرة: كم لغة تتقن؟ قال: لا أعرف بالضبط، ربما ثلاثين، ربما أكثر، لم أحصهم..

لم أجد في كل ما قرأته ما يعبر عن جوهر الأوضاع التي حددها تحوتي في ذلك المعبد المقيم بأبيدوس، مكمن كُل علم، ومبدأ كُل صوب، ومعين الأسرار، عندما بدأت معايشة الفتوحات المكية للشيخ الأكبر سيدي محيي الدين، فوجئت به يورد

ما أعده وصفًا لما تحدد منذ آلاف السنين، أورده نصًا كما جاء في الجزء السابع من طبعة الدكتور عثمان يحيى التي لم ينجزها بسبب تمهله الدقيق، وغيابه المفاجئ.

## رفـع الأيـدي فـي صـلاة الجنـائـز

«وأمَّا رفع الأيدي عند كُل تكبيرة، والتكتيف، فإنه مُختلف فيهما، ولا شك أن رفع اليدين يؤذن بالافتقار، في كل حال من أحوال التكبير، يقول (المصلّي على الميت): ما بأيدينا شيء!

هذه (أيدينا) قد رفعناها إليك في كل حال، ليس فيها شيء ولا تملك شيئًا.

أمَّا التكتيف فإنه شافع، والشافع سائل، والسؤال حال ذلة وافتقار فيما يسأل فيه، سواء كان ذلك السؤال في حقّ نفسه، أو في حقِّ غيره، فإنَّ السائل في حقِّ الغير، هو نائب في سؤاله عن ذلك الغير، فلا بُدّ أن يقف موقف الذِّلة والحاجة لما هُو مفتقر إليه فيه.

و«التكتيف» صفة الأذِلَّاء، وصفته: وضع اليد على الأُخرى، بالقبض على ظهر الكف والرُّسغ والساعد، فيشبه أخذ العهد، في الجمع بين اليدين: يد المعاهِد والمعاهَد، أيْ أخذت علينا «العهد» في أن ندعوك، وأخذنا عليك «العهد» بكرمك في أن تجيبنا، فقلت: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

أيها الأهل والصحب، لم أعرف نصًّا ينفذ إلى صميم ما أبدعه المصريون القدامى فنًّا ودينًا كهذا، ما كتبه الشيخ الأكبر بعد آلاف السنين، تأملوا رحلة الإنسان بعد تمامه في العالم الآخر، في لحيظات ورعه الدنيوية، يداه خلو من أي شيء، مرفوعتان أو مبسوطتان، ما من شيء يشغلهما بعد أن فرغتا من كل شيء أما التعبير المحايد الخالي من أي رفة فعل، فهو ما استوقفني في مرقد جميلة الجميلات، إنه عين التسليم، عندي كثير مما أخذته من قراءة اللفائف غير أنني أخشى اللُّجة والحيرة، فأكتفي بإيراد صيغة غريبة، عجيبة فيها شرح وتفسير لما حيرني في أخميم..

# حرير أخميم

الأمر عندي قديم، أشرت إليه مرارًا في مواضع متفرقة مما دونت، ربما بدأ بنزولي أخميم لأول مـرة وأخْذها لي مني، شيء لا أقدر على تعيينه، يتجاوز كل ما نعرفه تسرب مني إلى فراغها ونواصيها ما سيطر عليَّ وتملكني ذلك اليقين أنني أتنقل في عدة مدن متداخلة، كل منها منسوجة من الأخرى، ليس لأن جبانة المسلمين تقوم فوق أطلال معبد قديم، أما البربا الواسعة فأخفاها المغربي الذي جاء عبر الصحراء وأشار إلى الأعمدة الضخمة فلم يعد يبصرها مخلوق، ربما ما تزال موجودة، الكلام هنا كثير، غير أنني أقصر على موضوع بلبلني وحيرني، أعني حرير أخميم المتبع في نسجه طريقة خاصة حتى إنني أمضيت وقتًا أتأمل النساء وهن يرفعن الخيوط ويخفضنها بترتيب معلوم، نول كله من الخشب، مركب متداخل، ولأنني ما زلت أحتفظ داخلي بنسّاج السجاد القديم شغلني الأمر، من أخذ مِنْ مَنْ؟ الصين أم أخميم، قرأت كل ما أتيح لي أن أحصل عليه من كتب بالعربية والإنجليزية، عندما زرت شنغهاي قصدت متجرًا في شارع ضيق قرب المدينة القديمة، يعلق صورة ملكة بريطانيا، تتجه إليه مباشرة بعد مراسم الاستقبال واللقاءات التي يمليها النظام المكين، تأملت النقوش، الملمس، عين ما أجده عند تأملي الحرير في بيت الشريف، أقدم من يعملون في نسج الحرير حتى إن كبيرهم الآن لا يمكنه استقصاء السلسال، ظلت النقوش التي طالعتها في شنغهاي، في المكان الأقدم لبيع القماش المرغوب في أنحاء الدنيا، كنت موقنًا أنني رأيت الزخارف من قبل،

موجـودة، مصونة عندي، لكن.. متى، كيف، أين؟ حدث بعد سـنوات أن أقمت في باريس مدة شهرين، مقري الذي اعتدت عليه فندق عتيق بشارع نهر السين، منه أبدأ المشي الذي ربما يطول إلى ساعات، أتمهل هنا، أسرع هناك، أجلس عند ناصية ألفتها، قرب كنيسـة سـان ميشيل اهتديت إلى متحف العصور الوسطى، هذا حالي مـع المدينـة التي تعلقت بها كما القاهرة ولذلك أسـباب ظاهـرة وأخرى خفية، من الأولى تشابه واقع بين وسط القاهرة الذي شيده الخديو إسماعيل واستعان بأوسمان مخطط باريس في القرن التاسـع عشر، تشـابه الواجهات والتخطيط، ميادين تتفرع منها الشـوارع كأنها أشعة الشـمس، ألفتها بعكس مدن أخرى باعد ما بيني وبينها نفـور غامض، منها لندن التي أعجب لمن يبهـرون بها، لا يعنيني منها إلا المتحف، وبالتحديـد حجر (شـباكا) وليس (رشـيد) رغم أهمية الأخير ولهـذا تفصيل لعلي مـورده يومًـا، دخلت المتحف بدون أي فكرة مسـبقة عن محتـواه، مررت بقاعات فيهـا أثاث عتيق وأواني طعام وشراب إلى أن رسـوت في قاعـة فاجأتني، تطالعني قطـع نسـيج متبقية مـن أثواب وأغطية، كلها من نسـيج أخميـم، لا تمت إلى عصور وسـطى بـل أقدم بكثير، بعض القطع تطالعني منها عيـون متبقية من ملامح بالية، تذكـرني بعيـون الفيـوم المعروفة، تحـدق فينا ولا تمنـح أسرارها بسـهولة، لابد من مجاهـدة، مـاذا جاء بهذا الحرير كلـه إلى هنا؟ كل القطع تمـت إلى العصر المتأخر من الحضارة المصرية قبل اعتناق القوم للمسـيحية، إذن.. كانت أخميم تنسج الحرير في ذلك الحين القصي، البعيد.

أيها المخفي أظهر

أيها المجهول أفصح

كنت بمفردي وعندها تجتاحني تلك الأحوال ربما أقدم على أفعال تضعني بين المختلـين، ربـما أقلص ملامحي، أو أقـدم على رقصة يتصاعد نغـم مصاحب لها من داخلي، أو أطوي لسـاني أو أقف على ساق واحدة، سيطرت على حالي، سألت عن

كتاب بأي لغة يشرح تاريخ المجموعات التي يؤويها المتحف، استفسرت في المكتبة الملحقة فلم أجد إلا كتيبات صغيرة، أما الكبير المعتمد عند أهل الاختصاص فنفد منذ سنوات وقد يطبع مرة أخرى، في العام التالي نزلت فيينا لأيام معدودات، التقيت بعضًا من أبناء بلدتي جهينة، تفرغوا لي واحتفوا، في يوم كنت أركب مع أحدهم، لمحت إعلانا عن معرض لفنان يشغلني أمره، كلين، لم يستخدم إلا لونًا واحدًا فقط، الأزرق، ولأني لم أعرفه إلا من الكتب عدا بعض أعمال يسيرة في المتروبوليتان ومركز بومبيدو ومتحف الفن الحديث «الموما» طلبت إيقاف العربة، نزلت مع ابن قريتي قاصدًا المتحف، قال إنه يمر كثيرًا بالمتحف لكنه لم يدخله، صحبني مجاملًا لكن عنده فضول، المبنى فسيح، ضخم، مدخله مهيب، غاب عني اسمه للأسف، ربما لأن المدينة ظلت على مسافة مني حتى إنني سخرت من أغنية اسمهان «ليالي الأنس في فيينا..» فلم أجد فيها أنسًا ولا جنة، إنما هي موضع يُعبر، لا يمكنني الإقامة فيه، اتجهت إلى القاعة حيث لوحات كلي، أمضيت ساعة أتأمل لون الأبدية، إشارة اللانهاية، مررت بقاعات فيها أوانٍ فضية، وأخرى لوحات لأسماء أجهلها من العصر الوسيط، فجأة ولجت قاعة كلها فتارين عرض، حدقت في العيون الأخميمية، قطع نادرة من حرير البلدة التي لا أكف عن التردد عليها وتقصي شئونها حتى عاتبني أهل مودتي في مسقط رأسي، قال حاج من أسرة أمي:

«نحن أهل الغرب.. مالنا والشرق..

مِزق من قطع منسوجة منذ عصور سحيقة، بعض الزخارف لم يتبق منها إلا وحدة أو جزء من دائرة، أو عين إنسانية لم تغمض لانفصالها عن بقيتها، ألوان لم أعرف لها مثيلًا أو شبيهًا، بها غموق، لكنها واضحة، نورها باطني، إضاءة العتمة، كيف؟ هنا يكمن السر، يمكنني الاستفاضة، أمضيت أربع ساعات حتى دُهش بلدياتي، آثر البقاء رغم إلحاحي بالانصراف خشية إعاقته، الوقت هنا له كيانه، لحسن الحظ وجدت نسخة من الكتاب الحاوي لكافة القطع التي

أحضرها دبلوماسي نمساوي في القرن الثامن عشر، أقام فترة في أخميم، الكتاب عنوانه بالإنجليزية FRAGILE REMNANTS، أعده بيتر نوفر، نص بالإنجليزية والألمانية، بعد سنوات رأيته في القاهرة مطبوعًا في الجامعة الأمريكية، غير أن الذي أثار عجبي، عودتي إلى فيينا بعد عامين تقريبًا، مضيت إلى المتحف، عبثًا حاولت الوصول إلى القاعة، كُلي ثقة أن قاعة الأواني الفضية تسبقها، وجدت الأواني ولم أصل إلى شذرات حرير أخميم، لم يتعرف كل من سألته من موظفي المتحف وحراسه على ما وصفت، ولولا اقتنائي للكتاب لشككت فيما عندي وفي مجيئي الأول، لا تفسير عندي لذلك، غير أنني مورد ما وقع لي، ما رأيته في باريس وفيينا لم يكن جديدًا على بصري، طالعته من قبل، أين؟ لا أدري، أثناء تقليبي الصفحات وتأملي الأشكال والألوان الغريبة والعيون المحدقة إليَّ من صميم العدم، رأيت أمامي جدرانًا وأسقفًا ثلاثة من مراقد الأشراف في القرنة.

مرقد سنفر، تحمل جدرانه وسقفه أجمل تكعيبة عنب على الإطلاق، الأقدم في مسار البشرية، الأفريز عنقود عنب وزهرة لوتس متفتحة، على التوالي، منبع واحد، غصن يبزغ منه العنب والزهر، أصلهما واحد رغم اختلافهما وفي هذا معنى، تذكرني إحاطة العنب بالتابوت بشعر أبي نواس الذي تمنى أن يدفن إلى جوار كرمة حتى لا يُحرم في أخرويته من شذا الخمر، المهم.. ما غمر الجدران من زخارف، السقف موج بحر متتابع، أطل عندي مقعد «أوزير» في مرقد باشادو حيث السجدة التي أشرت إليها تبعتها على الفور زخارف مرقد «أنهر كاو» غزيرة، متنوعة تكون قاموسًا لأشكال أصولها في الزهرة والنجمة، تجسد التجزيء، الصلة بين المفردة والكل، أساس ما يُعرف بالأرابيسك، كُل وحدة قائمة بذاتها عندما تتصل بمثيلتها ينشأ كون يتكرر إلى ما لا نهاية، عندما زرت الكنيسة المعلقة التي يحيرني معناها ومبناها ومقصدها، سمعت زائرًا يقول لصاحبه: أرابيسك أخذوه هنا، التفت إليه موضحًا: الأصل هنا..

تأكدت من عمق البُعد عندما تمهلت - متأملًا في مراقد البر الغربي - في السير الـذي أدركته من لفافة تورينو، أدركت المبدع، صاحب المنشأ، تحوتي حدد المثلث والمربع والمستطيل، تفسير ذلك طويل، سافرت إلى البر الغربي وأقمت حيث اعتدت في بيت الحاج محمود الـذي أعده لإقامة مريحة، يشبه البيت الذي وُلِدت فيه، ولي به وثيق صلة ومحبة، خصصت أيامي السبعة لتأمل وفحص الزخارف.

يا ألله

إنها نفس المنقوشة على حرير أخميم!

إذن الأمر قديم، يحدث لي ما يمكنني إدراجه في عجائب الاتفاق، إذ يحدث اهتمامي بأمر، في ذروة بحثي وتنقيبي أفاجأ بتوصلي إلى سبب أو أكثر يعينني، حدث أن نزلت ضيفًا على جامعة هالة القريبة من ليبزج في ألمانيا الشرقية وقت أن كانت شيوعية، لأمر لا أريد ذكره شُغلت بالبوذا، عصر يوم استضافني أستاذ سوري الأصل في بيته، رحت أتطلع إلى أرفف المكتبة، فوجئت بكتاب عن بوذا، عنوانه «بلوهر وبوذاسف» حققه ودرسه الفرنسي دانيال جيماريه، وجدتُ فيه ما يشفي الغليل، بعد عودتي من الأقصر، رحت أنقب عن كل ما يتعلق بأبي الفيض ثوبان ذي النون الأخميمي، ربما بتأثير ما قرأته عن إتقانه لغة الطير -الخط الهيروغليفي- قرأت ما ورد عنه في «حلية الأولياء» للأصبهاني، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي، و«الطالع السعيد في أعيان أهل الصعيد» للإدفوي، و«طبقات الصوفية» للسلمي، ما كتبه القدامى ومن تلاهم، غير أن ما أيدني وأرشدني وفك عقدة من لساني ما وجدته في مخطوط اقتنيته يومًا من الشيخ تهامي، ألح عليَّ في أن أحفظه، عنوانه «تعطير الأرجا في أعيان جرجا»، جرجا كانت أكبر إقليم من الأربعة التي تكون منها الصعيد بعد الغزو العربي، جاء فيه أن ذا النون كان عنده مؤلفات هرمس النبي -هوتحوتي أو توت، هكذا عرفه اليونان- ومن بينها الأشكال الحاوية للحكمة المتوارثة في زخارف حرير أخميم، إذن الأمر أبعد من القرون الأخيرة للحضارة

المصرية وبدء اعتناق المصريين للمسيحية، صرت كالمحموم، أنقل كافة ما يصلني بالأسباب التي تفضي إلى محاولة الإجابة عن السؤال جاء في كتاب «المكنون في مناقب ذي النون» كما ألمحت سابقًا أن ثلاثة من أهل الصين وفدوا على أخميم وقت أن كانت مركزًا لرمز الذكورة المقدس، الإله مين، وأنهم لزموا البلد واختلطوا بأهله، وانتظروا قرب مدخل المعبد الكبير الذي اختفت بقاياه بعد ظهور المغربي، تعلم الصينيون لغة القوم، تزوج أحدهم من إحدى بنات الناحية وأنجب منها، بعد سبعة عشر عامًا رحل اثنان وبقي من تأهل، هم من أتقنوا أسرار الحرير التي وضع أساسها تحوتي وكان في الأصل مخصصًا لملوك مصر المقدسين إلى أن ذهب ذلك مع من اندثر من تعاليم وأسس وقواعد علوم، واختلط الأمر على الكافة حتى قيل باختصاص أهل الصين بصناعة الحرير الطبيعي، ومن يشك فيما أوردت فعليه مراجعة ومضاهاة النقوش والأشكال في مراقد البر الغربي، ومضاهاتها بأقدم النقوش التي وصلت من زمن الأباطرة وزمن الممالك المتحاربة وصولًا إلى أسرة الهان وظهور ماو وغيابه، كذلك مراجعة المتون المشار إليها فيما أوردته.

# من متون توت

نبـوءة باقية: هناك ما يجب أن تعلموه، لا شيء يبقى، لا شيء مخلد، سـوف يأتي زمن تصير فيه مقدسـات المصريين مجرد ذكريات للفرجة، كل صلواتهم المقدسـة، كل ورعهم، طقوسـهم، سـتصير نسيًا منسـيًّا، ستختفي سـائر الرموز ويتندر منها الأحفاد وربما يسـعى بعضهم إلى تدميرها وإزالتها، سيملأ الغرباء الديار ويصبون مخلفاتهم في النيل المقدس، لا شيء يبقى، لا شيء يدوم، لن تهمل الرموز فحسـب، بل ما لا يتصوره عقل ولا تستوعبه مخيلة الآن، ستهمل العقائد والتقوى، ستحرم الطقوس وتتخذ المتون معاني غير المعاني، بل إن اللغة ستنسـى، سـتصير شكلًا بلا معانٍ إذا ما قُدر لأحدهم فك رموزها، آه يا مصر، آه يا مصر، لن يتبقى من ديانتك إلا حكايات غامضة، لن تؤمن بها ذريتك، فقط نقوش على الحجر أو البردي تقص عن ورعك، سيسكن مصر من يجتاحها من البرابرة، ستصير الديار مقفرة رغم أنها مسكونة، ستصبح مقفرة مع أنها عامرة..

# مسألة

سأل سيد الأرضين:

لماذا يموت الخلق؟

قال تحوتي:

لتحقق الإياب..

لابد من ذهاب.

# مسألة

بدا سيد الأرضين كأنه يحدث نفسه عند نطقه بهذا السؤال:

كيف أموت وأنا الملك؟!

قال تحوتي:

«الموت بداية وليس نهاية، بالموت ينتقل الكائن إلى طور آخر، الموت ليس مرضًا، ليس عرضًا، إنه صنو الحياة، لذلك نقول في صلواتنا (لقد مات مفعمًا بالحياة)».

# مسألة

قال سيد الأرضين:

لماذا البحر أزرق؟

قال تحوتي:

لأنه حزين.

ولماذا حزنه؟

لأن الماء هو العنصر الوحيد الذي لا يعرف الاستقرار، حتى أثناء تكوينه راحل، متبدل الهيئة والكينونة، وكل راحل حزين لأنه مفارق.. فما البال بمن يرحل عن ذاته، عن مكوناته، محكوم بالتبدل، بالتغير، بالانتقال. لذلك يحزن، يأسو فيزرق لونه وهو مُليم..

# مسألة

يحزنني أنني في الأبد ربما لن ألتقي بمن أحببتهم، بمن وجدت فيهم بعضًا مني؟

لماذا الحزن وأنت ما زلت تسعى؟

لأن الوعي سيفنى، سيكون أمرًا آخر لا نعرفه.

قال تحوتي:

من يدري؟ نعرف أن المادة أيًا كانت لا تفنى ولا تُستحدث، ربما يبقى الوعي أيضًا، ربما تبقى الذكريات.. ربما يبقى ما نتصور استحالة بقائه..

# مسألة

بعد صمت قال سيد الأرضين:

ألم تفكر وأنت الحكيم العليم، في دواء يعالج من الموت؟

سيدي، الموت ليس عرضًا حتى يمكن العلاج منه، الموت جوهر للحياة، بدونه لا تكون ولا توجد، كما أن السعي هو الجانب الآخر للسكون.

# مسألة

تمنيت لو أعيش ألف حول.

قال تحوتي:

هذا تجاوز للمألوف، للمستقر، للطبيعي.. إذا بلغته فستسعى بنفسك.

قال تحوتي متعجبًا:

أسعى.. إلى ماذا؟

إليه..

## مسألة

لماذا يحتاج التفسير إلى تفسير؟

قال تحوتي:

لأن التفسير يحتاج إلى مُفسر..

# مسألة

إذا كان النعيم مقيمًا في حقول يارو، إذا انتفى أي أعداء، فلماذا يحزن الخلق عند ذهاب أحدهم؟

أجاب تحوتي: من لا يحزن عند السـفر آثم قلبه، معطوب المزاج، فما البال بسـفر لا عـودة منـه إلى المألوف! الحزن ليس للرحيل، إنـما للفقد، لاختفاء الأب، لغياب الأخ أو الأخت، لتبدد الابن أو مخلوق نعتز به.

## مسألة

في الطريق إلى أبيدوس، تساءل:

هل تعتقد أن رأس سيدنا وحبيبنا أوزير ماثل هناك؟ قال تحوتي وعنده دهشة، ليست من السؤال، لكن من نبرة خفيضة لم يعتدها من سيد الأرضين.

ليس مهمًا الموضع، المهم اليقين أنه هناك، إذا رسخ اليقين فسيكون هناك.

# مسألة

-لماذا نجهل ما يخرج منا؟ لا نعرف إن كان الجنين ذكرًا أم أنثى، حتى بعد ميلاده لا يعرف شيئًا عما كان فيه.

-لا نرى البذرة التي تنبت منها الشجرة، إن لم تُدفن فلا تكون هناك فروع أو غصون.

# مسألة

استفسر سيد الأرضين بشيء من حيرة تقلق منها نحوتي:

-هل لهذا الكون من حد؟ هل لهذا الوجود آخر؟

-نعم، عندما تكف عن السعي، عندما يصير الميعاد إلى المبدأ. عندئذ يكون حد الحدود.

# مسألة

يا حكيم، يا من أرسيت شكل الحروف، يا من حددت هيئات المقدسين، يا من عينت أوضاع النجوم التي نهتدي بها، لماذا أموت ولم يصدر عني إلا كل خير؟ حفظت الحدود، وأمّنت الأفواه من مسغبة، ومهدت الطرق، ووصلت المنقطع، لم ألحق الأسى حتى بعدو أسير.. هل أمضي كما ذهب الآخرون؟

قال تحوتي: الذهاب حتمي لوصول آخرين وإلا لما جئنا...

# مسألة

قال سـيد الأرضين وفي صوته إشـارة حـيرة، هو من يعـرف كل شيء كما يظن الكافة يطرح على تحوتي بلا تردد أو مراعاة:

-إذا كان المسـتقر، المجمـع عليـه، أن الوجود كله من خلـق الله، فلماذا نختص بعـض الأماكن بالقدسـية، وبعض الأزمنة كذلك؟ فهذا موضع أشرف من سـائر المواضع، وهذا يوم أفضـل، وتلك ساعة أو لحظة للدعاء فيها أو التوجه استجابة.

-قـال تحـوتي: الوجود طريق، لا يعرف أحد أوله وآخـره، لا ندري مبتدأه ولا نعـرف منتهـاه. كل من يسـعى ينـدرج في عداد السـالك؛ لـذا كان ضروريًّا وضع علامـات: علامـة مكانية، أخرى زمانية تدرأ النسـيان وتُرسـخ المعتقد، لو لم يكن ذلك لصار الكل إلى خواء، فعندما تتشابه الأشياء وينتفي التمييز يصير التيه مصيرًا محتومًا وهذا مبعث للفقد والتذري..

# نصيحة

قال تحوتي: لا ترسم الطريق، لا تحدده مسبقًا، اسلك أولًا وستتضح معالمه، سيوجد..

## لا ينتبه أحد

لم أصارع الثور القوي في عيد سُد، كأني لم أتهفهف مع لحن العازفات القادمات، كيـف لم ألحـظ انقضاء الوقت؟ كيف لم أرصد انصرام المراحل وأنا من يأمر فيطيعه الكُل، كيف؟ كيف؟

اعتاد تحوتي أن يجيب مباشرة، لكن ما أثار انتباهه دبيب الحزن وسريان الأسـى في نبره، لذلك تأخر بضع لحيظات قبل أن يقول.

مـع لواح ضوء الفجر السـابق لبزوغ الشـمس وحتـى غيابها غربًـا يجري تنبيه وتذكير في كل لحظة، غير أن الإنسان لا ينتبه، يمضي كأنه باق أبدًا، الكل سيغربون عـدا من يتطلـع إليهم، ليس كل نهـار إلا موجزًا يختزل الوجود ومـا فيه، منبهًا إلى أن العـدم لا ينتهـي إلا لعـدم، مع أنه يُنبت الوجود، يظهر قرص الشـمس «أتون» عفيًّا قادرًا، مكتمل الاستدارة، متوهجًا بالحضور، بالحياة، يمضي صاعدًا في الفراغ الذي لا يليه فراغ، حاجبًا كل نجوم وأفلاك ومدارات الوجود، متطلعًا إلى الذروة، بل إن التطلع إليه صعب، وعر مع سلوكه الطريق، إنها ولادة، يليها سعي حثيث، تدرج، من الطفولة إلى الصبا إلى الفتوة إلى وهج الشـباب تمضي الشـمس في نصف النهار الأول حتى تبلغ نقطة استـواء الظل، عندما تكون في المنتصف تمامًا يتوارى الظـل، هنا يبدأ الميل، فلنقل إنه السـفر من لحظة الميـلاد إلى تمام العشرين فينتصف إذا قدرنـا العمـر بالأربعين، أو إلى صميم الثلاثين إذا قدرناه بسـتين، وهكذا..، في النصـف الأول يكـون التطلع إلى الأمام، كل شيء مقبـل، كل أمر آتٍ، كل حدث

قـادم، مع بدء ميل الشـمس جهة الغرب، مع تزايد الاتجـاه صوبه والاقتراب منه، عندئـذ يبـدأ الالتفات الهـين إلى ما فات، ما مضى، مع الإمعان يبـدأ الانكفاء إلى ما انقـضى، يتحسر ذوو الألبـاب، يحاول بعضهـم - وليس كلهم - تـدارك الفوت، لكن.. هل رأى أحد منذ بدء الخليقة قرص أتون يرجع القهقرى؟ مستحيل، محال، وإلا انقلب الوجود وغلبت الفوضى فلا يكون وجود، شرط صيرورته النظام حتى وإن لم نلحظه، حتى وإن لم ننتبه.

صمت تحوي مقدار لحظة، سيد الأرضين مستغرق، يصغي، بل على غير عادته دنا منه حتى كاد يلامسه.

استأنف فقـال: إن كل نهـار يتضمـن الخلاصـة، كافـة المراحل، حتـى صُفرة الغيـاب، لكن لا ينتبه الخلق، لعل الطيور، بعضها وليس كلها، تدرك ذلك؛ لذلك تقابل القرص المضيء بالصياح الجماعي، الأشـد قبل غيابه، بعده تصمت فجأة فلا يسـمع لها همس، وما بين البزوغ والغروب تـتردد الأنفاس، الطريق بيّن، المراحل واضحـة، الطريـق مسـتقيم، الاتجاه واحـد، من يبدأ الخطـو لا ينثني أبـدًا، يتلفت بالذكـرى نعم، لكن يتقهقر محال، الكل يتجـه إلى الضرورة القصوى، الكل يرجع إليها لكن.. لا يعرف أحد، لا ينتبه أحد.

# تفسير

أحـوال سـيد الأرضين أقلقت تحـوتي، يدرك الخفـي وراء ما يطرحـه عليه من مسـائل وهموم، ما قضقضه ذلك الشـك المبـين فيها تصور أنه من الرواسـخ، لكنه يعي أيضًا أنه ما من نهائي، ما من دائم أبدًا؛ لذلك أقدم على تفسـير أحوال التبدل والتغير التي تجري الإشـارة إليها تلميحًا، لا تصريحًا على أنه قلق التقدم في العمر، عندمـا يصـير ما تبقى أقل ممـا ولّى، يبدأ التأهب للحظة كبرى، كان على وشـك أن يطّلـع سـيد الأرضين عـلى تأملاته حول التغـيرات التي لا محـال لوقوعها، يعرف هـو المجرب المقنن للأصـول والوقائع المتوهمة، أن الجسـد مهما يكـن حفظه متقنًا فمصـيره إلى تفـرق، سـتمضي كل ذرة في طريق، وما أكثر طـرق الأبد! ذرة تصبح في بـزوغ شـجرة، أخرى تتحـول إلى بخار ينزل في موضـع قصي مطرًا سـخيًّا يصير إلى نهـر، إلى بحر، إلى بحيرة، بركة، تتعدد الأسـماء والماء واحد، يمضي مع الدورة، يـسري مـع الغمام، يهاجر مـع مياه البحـار، ذرة أخـرى ربما تندمج بحافة شـاطئ ملامس للمحيط، تلتقي الاثنتان فلا تدركان أنهما من نبع واحد.

ذرة ربـما تصير جزءًا من سـم قاتل، أخرى تدخل في التريـاق المُبْطل، ثالثة ربما تفلـت إلى الفضـاء، تتبع دورة النجوم، تنجذب إلى مـدار هنا وآخر حتى تصير إلى نجم مشرف يصل ضوءُه إلى إنسان يتطلع إليها وعنده ذرة أو ذرات من عين ذلك الذي قُضي، هكذا ترنو الكينونة إلى الكينونة.

كُل ذرة تمضي إلى خلق جديد.

لا.. لن يؤدي هذا إلى ترسية أحوال سيد الأرضين، بل ربما أثار ذلك ريبة الكهنة وحراس الحكمة، رغم نبوغه وذيوع أمره وتمكنه ممن يترصد به، ويرقب ما يصدر عنه، ليس كل ما توصل إليه نطق به، وكم من أحوال ستندثر معه! تنطوي حتى يحل زمن يتقبل فيه الخلق ما لم يستطع البوح به، كُل ما سيقدم عليه أنه سيمضي إلى لقاء النظر والتأمل لمجلس حكماء المعبد، سيطلعهم على أحوال سيد الأرضين، على دُنوه واقتراب اللحظة الفارقة حتى يمكنهم تدبير الأمر.

# مسألة

قال سيد الأرضين شاردًا كأنه يحدث نفسه:

مـا لي أفكـر في لقاء مـن رحلوا هناك أكثر من اسـتعادتي لمن عرفتهـم وما زالوا يسعون؟

التفت تحوتي مبهوتًا، أدرك صميم الحال ولم يكن عنده جواب.

# مسألة

تساءل سيد الأرضين:

يبدأ التكوين من لا شيء، وينتهي إلى لا شيء، شرط الوجود التغير، لماذا ينتهي كل شيء عندما يتوقف التبدل، التغير؟

قال تحوتي بعد صمتٍ تخلله إمعان.

التبدُّل واقع حتى في العدم، كُل ما في الأمر أننا نرى ما يمكننا مطالعته ومعاينته، بحواسنا، وكلها محدودة، ثمة تغيرات تقع فينا، داخل أجسادنا وأرواحنا، في المحيط المنظور بنا، والآماد القصية هذه لا يمكننا الإحاطة بها أو إدراكها رغم أن بعضها أقرب إلينا من حبل الوريد هذا..

أشار إلى العرق النافر في عنقه.

# نصيحة

قال تحوتي للمريد المقبول حديثًا في المعبد:

ستنقضي سبع سنوات لن يهتم بك أحد، تسأل فلا تُجاب، تستفسر فلا تسمع ما يشفي الغليل.

في السبع التالية تسأل فيُصغى إليك وقد تحدث مجاوبة.

في السبع التابعة تتلقى.

في السبع الأخرى يبدأ كُل من نَصَحك أو أخَذْت عنه، يأخذ منك..

# مسألة

بدا سيد الأرضين كأنه يحدث نفسه عندما تساءل:

كيـف يكـون رحيلي؟ هل أتـألم عند تلـك اللحظة؟ هـل أفزع؟ ماذا سـيجول بخاطري؟ من سأتذكر؟ من سيمثل عندي؟

رغم أن تحوتي أدرك كنه الحال، أنه يخاطب ذاته ناسـيًا وجوده؛ فإنه أجاب غير مبال إذا كان كلامه سيبلغ أو يضل.

قـال: لا يذكـر المخلوق ما كان عليـه قبل مجيئه، لا يعي لحظة ميـلاده وما عاناه عنـد مروره بمضيق المهبل إلى رحابة الوجود، كذلك عند ميلاده الجديد، لن يعي، لن يتمثل، لن يتذكر من تلك اللحظات شيئًا.

# مسألة

لأول مـرة منـذ بدء انفراداتها يمد يده، يلمس ظاهر يده، سـكن تحوتي خشـية وتأدبًا، أصغى إلى ما يقوله:

كأن كل مـا عشـته ذكـرى عابرة، ومضة، كأننـي لم أَصْبُ، لم أخـرج إلى الوغى مشـتبكًا ومنـازلًا حتـى لا يدنس الأشرار أرض كيميت المقدسـة، كأني لم أرسـل الوفـود إلى جزر المحيط القصي لإحضار البخـور واللبان والعطر المنبعث من عود الند ليلائم هيبة المحبوب، الحامي، مانع الأذى عن الديار، كأني لم..

# مسألة

قال سيد الأرضين: ما تقوله يعني وهمية كل ما نُبشر به ونبثه للخلق.

لم يجب تحوتي.

قال سيد الأرضين: إذن ما قادنا إلا الوهم.

يقول سيد الأرضين:

تكلم، أفصح، منتهى هذا أنني وأنت مجرد وهم..

لزم تحوتي الصمت.

# مسألة

ليس أول مرة أجد فيها تشابهًا بين بعض ما اطلعت عليه يكاد يصل إلى حد التطابق بين ما حوته لفافة تورينو المنسوب محتواها إلى تحوتي وبين مضامين الفكر الإنساني، دائمًا كنت أورد ما أطلعني عليه سيرجي لأن الموروث الأبيدوسي أقدم، لكنني مؤخرًا بدأت أشك في وجود تحوتي نفسه، ربما وُجد شخص ما، يومًا ما، في موضع ما، كان بداية سعي هذا الاسم الذي تم بعضه ومازال يكتمل عبر العصور، ربما يكون من أصحاب أسماء أخرى، ربما خشي البعض البوح فنسبوا ما رأوه إلى من لم يوجد قط.

# مسألة

إنه كذلك، إنه ليس كذلك..

## مسألة

الحدود الشمالية عند البحر، مع أنه لا حدود للبحر..

# مسألة

قال سيد الأرضين: لماذا أسألك إذن؟

قال نحوتي: وكيف لي أن أعرف؟

-هل تعني أن لا شيء يمكن معرفته؟

-كيف لي أن أعرف؟ ربما ما أظنه معرفة تراه يا سيدي جهلًا، وما أراه جهلًا تعتبره معرفة.

-ماذا تقصد؟

-الأمر كذلك.

# مسألة

السماء، حمرة الشفق، مصدرهما بصري.

# مسألة

قال الحفيد ذو الأربع سنوات:

-هل الغد هو اليوم؟ هل اليوم هو الأمس؟

# مسألة

إلى متى، إلى أي يوم سيتكرر شروق وغروب الشمس؟

# مسألة

يمكنني الإنباء بمركز الكون، عندي.في صميمي، غير أني غير قادر على بلوغه.

# مسألة

روى تحوتي أن الملك العقرب، وكان قويًّا، مهابًا، ساعيًا، فاعلًا في توحيد البلاد ولحمة أجزائها، سمح بوجود كاهن جمع العلم والحكمة، منعزل، متفرد، في معبد يقع شرق النيل -تقريبًا في موقع أخميم الآن- أرسل إليه المسئول عن صوامع الغلال في البر كُله، وهذا منصب جليل الشأن وقتئذ وما زال، سأل عنه، عندما وصل إليه وجده يجلس عند ضفة النهر، يمسك صنارة، قال رئيس الصوامع: سيد الأرض يطلبك للعمل إلى جانبه. لم يلتفت الكاهن ضئيل الحجم، عظيم البصيرة، ظل مستمرًّا على وضعه، متجهًا إلى النهر، ممسكًا بالصنارة، قال إنه سمع عن وجود سمكة نادرة محنطة في القصر، محفوظة منذ مئات السنين، هل كانت تفضل البقاء حية تسعى في النهر سنوات معدودات يعينها ما يعينها ويتهددها ما يتهدد الآخرين في النهر والبحر أن تستمر كما هي الآن محنطة، محفوظة، لا تقطع مسافة، ولا تغوص إلى الأعماق ولا تراوغ أداة صياد، صنارة كانت أوشبكة؟ قال رئيس الصوامع، من يؤمن الغلال لسائر من يسعى في أرض كيميت «مصر»؟ بالطبع كانت تفضل النهر مع البقاء المحدود تسمع وترى وتراوغ وتندفع هنا أو هناك.

هز الحكيم، العليم الملم رأسه، وبقي على وضعه متطلعًا إلى حيث لا يمكن التحديد أو التعيين، وعندما انصرف لم يلتفت ولم يشعر به.

# مسألة

سأل سيد الأرضين: كيف ترى الشمس والقمر وتلك النجوم؟

قال إنها أشد الموجودات وحدة، تجيء بمفردها وتمضي معزولة عن غيرها، لو تماست مع أخرى يكون فناء مبين.

قال سيد الأرضين: هل يمكن وجود لغة يتخاطب بها ما لا يمكننا محاورته، أحيانًا أوشك على سماع حوار الجدار مع الجدار، وهسيس النجم للنجم، أممكن هذا؟

قال تحوتي: لا يوجد في الوجود صامت أصلًا، لكننا لا نعرف كُنه النطق، هل يتحدث الجرم إلى غيره، أم يخاطب ذاته بذاته؟ ما أدركه حتى الآن تلك الوحدة في المدارات المحكوم بسلوكها مسبقًا..

# مسألة

قال تحوتي: في كل لحظة، في كل نَفَس أرحل إليَّ وأعود.

# مسألة

السماء في حكم الاستحالة، كلما وصلنا إلى واحدة بدت أخرى، تمامًا مثل الأرض التي نطأ ثراها، لا نعرف أغوارها، كلتاهما ليست في المتناول.

«سطور باقية من متن غاب للأسف في مرقد لم يُفتح بعد، المرجح أنه منسوب إلى تحوتي».

## مسألة

أعود اليوم إلى صومعتي في معبدي، رغم أنني عدت إليها بالأمس.

# مسألة

كيف يتعرف الماء على الماء؟ كيف تلتقي النقطة بالنقطة؟ كيف تتحاور الموجة مع الموجة؟

قال تحوتي: النقطة، الموجة، الشلال، المطر، الثلج، ليس هذا كله إلا أحوالًا لجوهر واحد، الماء، ولأن الماء هو الماء، فإنه يتعرف إلى نفسه ويحاور ذاته، يتعقبها ولا يلحق غيره.

# وجود

سأل سيد الأرضين: هل كان الوجود سيوجد لو أن الإنسان لم يوجد؟
تطلع تحوتي، رأس الحكمة محدقًا، طال صمته، لعلها المرة الأولى التي لم يجب.





سديم

# تـفـرق

كثيرًا ما تساءل دون نطق عما سيراه أو يسمعه أو ينتبه إليه وعيه عندما تحين اللحظة، هل سيعيها؟ هل سيدرك أبعادها؟ غير أنه ينثني ليرد على ذاته، يجيب السؤال بسؤال: هل يعي المولود لحظة انفلاق المشيمة وعبوره إلى الخلاء؟ من يتذكر النفس الأول؟ من يحتفظ بذكرى أول شهيق أو أول زفير؟ يحتفظ بكتاب يحوي أقنعة اللحظات الأخيرة واللحظة الأولى، أقنعة من الجبس لمن بلغوا اللحيظة الحرجة، تستدعي إليه نوم المواليد في ساعاتهم الأولى قبيل تلمسهم قطيرات الحليب وبحثهم الحائر عن مصدره، تشابه يستبعده، غير أن ما جرى له لم يتوقعه ولم يتخيله، مع بدء الوهن ودبيب ما فوجئ به، يدفعه إلى الغوص في لجة عميقة، يجاهد للتنفس، لاستنشاق الهواء، لأول مرة يدرك أنه لتمام الشهيق لا بد من زفير، دخول ثم خروج، عندما يكون مسار واحد يؤدي إلى اللاجهة، في تلك الليلة، ربما أولها أو آخرها أو أوسطها، لا يقدر على التعيين، يرى يده اليسرى تودع اليمنى، بنانه يلوح لكفه، عينه تفارق مستقرها تنوح على ما أبصرته له، ما اختزنته عنده من قباب سمرقند إلى أشجار اللبان في سومطرة حتى حافة المحيط من مختلف الضفاف، كم من أمور ودَّ العودة إليها، لم يقدر على استرجاعها إلا بالخيال، قدماه تفارقان ساقيه أول ما ناله الوهن، عضوه يحاول التعلق بخصيتيه، يشهد تيهه عنهما، يتفكك ظاهره قبل أن يبدأ تفرق قطره عن قطره، تمضي كل ذرة وجهة لا تبلغها أخرى، يمضي ممعنًا حيث لا يمكن تمييز الفوق من التحت، حيث اللا جهة، يتعدد رحيله متخذًا سبيله في اللاوجود سربًا..

# عمران

على البر الشرقي من النيل تقع زاوية سلطان، نسبة إلى منشئها سلطان باشا والد هدى هانم شعراوي، الداعية الأولى إلى تحرير المرأة، قصر كبير تهدم عبر الزمن ولم يتبق منه سليمًا إلا حمام فريد من رخام أزرق شفاف لم يعرف مثله، يجيء المصريون وبعض أثرياء العرب للفرجة عليه، كذلك أجانب، لسنوات طويلة منذ إقامة الباشا في الشرق غير المطروق لسبب غير معلوم، لم يكن سبيل إلى الزاوية إلا عبر النيل، القارب من الضفة الغربية للنيل، في السبعينيات شق الطريق في البر الشرقي وانكشفت مقابر زاوية سلطان الفريدة، الغريبة، أنصاف قباب تتوالى متجاورة كموج البحر، رغم صمت الأحجار، فإن تتابعها وامتدادها على مدى البصر يبعث بأصوات عديدة يلتقطها من يتقن الإصغاء، ومنهم هذا الراهب السائح الذي يلف الصحاري منذ سنوات لا يعرفها أحد، لكنه عندما وصل إلى هنا ورأى أمواج الحجر، قباب المقابر، المثاوي الأبدية، لزم.

في أحد الأيام تصادف مرور مسئول كبير في عربة مصفحة، كان يسير بسرعة كبيرة، يبدو أنه لمح التتابع المثير، توقف، أو أمر بإيقاف السيارة، نزل يتفرج ويتعجب، لمح الراهب فتقدم منه.

«أين العمران يا بني؟».

طلب منه أن يصعد إلى سطح القصر ويطل، من هناك يمكنه أن يراه، رغم وحشة المكان، وقلة المارة وقتئذ تقدم الرجل يتبعه سائقه، عاد بعد دقائق غاضبًا،

تساءل عما إذا كان السائح الجوال يسخر منه، بالطبع لم يكن يعرف أنه راهب، كانت ملابسه متهرئة، فقط العلامة الوحيدة هي الصليب كبير الحجم الذي يتدلى حول عنقه إلى صدره، قال ساخطًا: سألتك عن العمران فلم أجد إلا هذه المقابر العجيبة!

قال الراهب، إنني أرى دائمًا من يسعى إلى هناك ولا يرجع، لكنني لم أشهد قط مجيء أحد من هناك إلى هنا.

**عن «الطرق الهائمة».**

# مَـدْرج

لا يمكنـه تحديـد بداية ذلك، جـرى التوجه إليه من حيـث لا يدري ولا يمكنه الإلمـام، سريـان خفي لا يبين، بالتأكيد اكتمل حلوله شـهر رمضان، مائدة الإفطار عامـرة بـكل مـا يرغب، غـير أن حائلًا بـدا، قالت صنـوه: تتظاهر أنك تـأكل، ألم يعجبك؟ تنطق بإيقاع يتشابه مع انطواء إحداهن وتلملمها على نفسها بعد إخفاقه ولوجهـا بعد طول سـعي إليها. واضح أنني لم أعجبك، تهـوّن عليه، نَبْرها فيه لوم وإقصـاء ونـأي، مـن أصعب ما سـمع، غير أن الصـدود عن الطعـام جبره، قصد الطبيـب، بدا وجهه حائـرًا، طلب تحاليل، أجراها، كتب أدويـة، تعاطاها، غير أنه لم يـزد إلا بعـدًا، مضغ يطـول وبَلْع يصعب، فقدان وزن ونحول بـاد، غَوْر عينين، لم يفقد القدرة على المشي رغم تثاقل أطرافه وانتشـار ما يشـبه الشـوك المبثوث عبر مفاصله.

لديـه ما يشـغله رغم تقاعـده، يقـرأ، يصغي إلى الموسـيقى، يكتب رسـائل إلى أصحـاب قدامـى لا يثق مـن إقامتهم في محالهـم، يتلقـى أحيانًـا ردودًا، غير أن ما ينتظـره ميعـاد، لم يفرضهما عليه أحد، حددهما، اعتادهمـا، الأول مع صاحبه الذي ألزمـه المرض الإقامة في الـبر الغربي، حيث نقاء وجفاف الهـواء والناس الطيبون، منذ سنوات يتحدثان في أمور، لا يعنيهما عند التطرق إلى السياسة إمكانية التنصت عليهـما، تجـاوزا ذلك، الآخر بعد الظهـر صاحب تبقى من صحبـة، يلتقيان نادرًا، تجمعهما مناسبات عامة نادرة.

لا يمكنـه تعيـين بداية وهن توقـه، فتور إقباله، عاتبه الأول متسـائلًا: انت فين يـا عم؟ يتمتـم بأعذار واهية، الآخر لا يطلبه إلا قليلًا جـدًّا حتى إنه ليذكر المرات وما دار فيها، شـيئًا فشـيئًا لم يتجه إلى الاتصال، بل إنه عندما رأى اسـم الأول على شاشـة هاتفـه لم تواته رغبة مـن أي طيف للرد، اعتاد صمـت الهاتف، المشي داخل البيـت، يقل عدد الكلـمات المتبادلة بينه وبين رفيقة دربه، كلـمات التعامل اليومي، يسـتعيد مذاقـات طيبـة لم يعد قادرًا على تلمسـها حتى لو وُجـدت، يطول صمته، يقـول لذاتـه مـا لا ينطقه، يـدرك أن الوعي بالوفادة مسـتحيل، ربما يجـري بلغة لا يعرفها، بصور وأحاسـيس غير مألوفة، أما الانغماس في الغياب فيمكن رصده بل تدوينه، مستحيل إيقافه أو حتى إبطاله..

# هدم

أرسل الشيخ يطلبني فلبيت رغم حلول وعكة ليس مصدرها بدني، كنت أمر بتقلب حال وأشواق تترى وغيوث تتوالى، لقيت عنده قومًا وفدوا عليه من بعيد، لسانهم غريب عني غير أنه يجادلهم، عندما قام الشيخ إليّ صمتوا، أقبل عليّ ومعه قَدوم لا أدري من أين تناوله، بدأ يهدم فيَّ وأنا أشهد أبعاضي كيف تتفرق على الأرض نثارًا كما يهدم الهادم، إلى أن وصل إلى كعبي ولم يبق فيَّ شيءٌ إلا شمله الهدم وأنا أرى حطامي وهددي بنظر لم أدر مصدره، ثم بدأ يبنيني من كعبي وطالع إلى عقد دماغي، إلى أن اكتملت فأطرق وعندئذ قام ضيوفه مرة واحدة، أقبلوا عليّ، أحاطوا بي، ملسوا عليّ، قال الشيخ: قد جئت، سافر إلى بلدك فسافرت، وحين خرجت عنه انكشف لي العالم العلوي كشفًا لا ينحجب عني منه شيء، وكنت أمشي على الأرض مستجدًا، خفيفًا كالرغوة التي تجريها النسمات المتوالية فوق وجه الماء.

**«عن رسالة صفي الدين بن أبي منصور بتصرف».**

# انتقال

لا يمكنه تحديد كافة ما يتصل به أو يتعلق.

متى بالضبط يعي وجوده وإبهامه؟

لا يدري، لا يمكنه القطع

أقدم حديث عنه صدر عن والده، كان صغيرًا، ربما لم يتم الخامسة يرى قامته لا تطول المنضدة الصغيرة، فوقها صينية القلل، يتمدد أبوه فوق السرير المرتفع، يقول إنه يظل خفيًّا لا يبين، تبدو أعراضه فقط، لكن عند اللحظة الحاسمة، الخفية، التي لا يمكـن التنبـؤ بهـا يظهر، فقط للمعنـي، للمقصود، لو اطلع غـيره عليه لما تحمل هيئتـه، لخـر صعقًا، أما من بلغ التمام فلا يبدو عليه ما ينبئ عن زعجة أو رجفة، بل يسـود سكون مسـالم كافة ملامحه وأحيانًا ربما يبدر رضا مقرون بابتسـام، في مرحلة متقدمة رأى رسـومًا كاريكاتيرية، مرحلـة صـدق فيها كافـة ما رآه مـن تصاوير ومنحوتـات، دأب أولئـك على تصويره هيكلًا مجردًا يمسـك بيـده منجلًا، لكنه لم يعبأ ولم يتوقف عنده، يبدو الرسم هزليًّا بالقياس إلى المعنى الذي يثيره استحضاره أو تخيله.

لا يـدري بالضبط، بـدأ الحومان حوله، التفكير فيه، يقـول دائمًا إن المرحلة من الطفولـة إلى الثلاثـين يتطلـع المـرء إلى القـادم مسـتوثقًا بلوغه، بعـد الثلاثين، ربما الأربعـين بدأ يتلفت وكلـما أمعن قوي حضوره عليه، الغريـب أنه ما قبل الثلاثين

قابله كثيرًا أثناء خدمته العسكرية في الجبهة، دنا منه حتى كاد يتجسد به، لكن هذا كله دار حوله، خارجه ما يعنيه ذلك الانشغال به، لا يمكنه تعيين وقت محدد، يستعيد تلك الأيام عندما كان يستيقظ من هجيعه ظنًّا منه أنه مدركه، غير أن غياب والده وبعد قليل أمه مثل علامة فارقة، العدد الذي ظنه باقيًا بدأ يتناقص واتضح الأمر بذهاب شقيقه الأصغر، ثم بدأ وهنه ومروره بأطوار وأحوال اقتضاها الأمر، في أحدها مضى ساعيًا إليه، عبر أراضي وبحارًا ومحيطًا، وانتقل من فضاء إلى آخر، وقع بخطه، باختياره، وعندما دفعوا به إليه صوب أقرب نقطة يشارفه خلالها تعجب، إذ بدا هادئًا، راضيًا، جرى ذلك مرّات، في كل منها يوغل في استكانته حتى حلت به دهشة وتساءل بصوت مرتفع لحيظات اختلائه بذاته: أين الخشية القديمة؟ أين الرهبة من ملاقاته؟ عند هذا الحد جرت سكينة مستجدة، بل إنه راح يرتب أحواله تمامًا مثل المسافر يصفي ما لا ضرورة له ويوزع ما فاض عنه ويبقي حقيبته في المتناول، ليس الأمر إلا انتقالًا بصحبته، من هنا.. إلى هناك.

## لحظة

بعد انشغال طويل أفضى الخليفة إلى الوزير الأول بما يرغب تحقيقه، حيَّره التبدل والتغير طويلًا، ليس هذا كله إلا نتاج تعاقب الوقت وما يصاحبه من أعراض شتى يضيق المجال عن حصرها، توصل بفكرة أقضَّته، شغلته عن تدبير الأحوال وعن أهله، لو جرى تدبير عمل يوقف توالي الوقت، تعاقب الليل والنهار، سيدوم الحال أبدًا، لن تتبدل الأحوال، لن تقع الأعراض التي حيرته، أقضته، استدعى وزيره المطلع على الأحوال، المتصل بأهل العلم والاطلاع، صارحه بما يرغبه، ما يصبو إليه، له أن يطلب ما يشاء لتحقيق ذلك، لم يبدِ الوزير استجابة مباشرة، طلب مهلة ثلاثة أيام يعود بعدها بخبر يقين، في نفس توقيت اللقاء عاد ليقول إن المطلوب ممكن، لا شيء يستعصي على ما يرغبه خليفة المسلمين، فقط.. يحتاج إلى وقت، تساءل صاحب السدة عن المدة، أجاب الوزير إنه لا يقدر على التحديد، غير أن الأمر ربما يقتضي بضعة أسابيع، وربما عدة سنوات، أطرق لحيظات، عاد لينظر إلى عيني الوزير مباشرة مبديًا الموافقة، مرت أيام تحولت إلى شهور إلى سنوات معدودات، لم يكف خلالها عن الاستفسار والوزير يجيب بصيغ متقاربة مؤداها أن الحين اقترب، عند حلول يوم بعينه شكا الخليفة تثاقلًا في الدماغ، ورغبة في النوم، كان ما يخشاه العجز، غير أن ما حيّره استكانته وقبوله الوضع واستسلامه إلى قيادة الوسن الغامض الذي لم يعرفه من قبل، كان يتطلع إلى الأطباء المحيطين به، والمسموح لهم بالاطمئنان عليه، يلمح الوزير بينهم فيثقله الوهن عن الاستمرار وعندما مال عليه ليخبره أن اللحظة التي ودَّها حانت، تتحقق، لم يسمعه، كان نائيًا، ممعنًا في الطَّيِّ..

# فَـــرَاش

في يوم ما عقدت الفراشات اجتماعًا واسعًا لأنها كانت منزعجة من لغز اللهب، كل فراشة مدعوة لإبداء الرأي في هذه المشكلة المصيرية، قالت الفراشة الأكبر سنًّا الحكيمة التي تترأس الاجتماع: إن هذا إشكال قديم، قديم، لا نتوقع جديدًا، سبق هذا مناقشـات شـتى لم تسـفر عن نتيجة، لم يتم التوصل بعدهـا إلى حل، أفضل ما يمكن عمله الذهاب لرؤية ما يجري عن قرب، لعل الوصول إلى سر اللهب يكون ممكنًا.

طـارت أول فراشـة متطوعـة إلى قـصر مجاور ورأت لهب شـمعة خلـف نافذة وعادت مستثارة جدًّا لتحكي ما شاهدت، قالت الحكيمة: ليس في ذلك جديد.

اجتازت الفراشة الثانية النافذة ولمست اللهب، واحترق طرفا جناحيها، عادت لتقص ما عاينت، قالت الحكيمة إنها لم تطلعهم على مغاير..

الفراشة الثالثة اتجهت إلى القصر، إلى اللهب، ذابت فيه، لم يعد لها أثر.

الحكيمة التي تتابع ما يجري عن بعد قالت: إن الفراشـة الوحيدة الفانية تعرف سر اللهب.

**«عن لحظ الألحاظ»**

# طـــريـــق

مـا بـين صنعاء عاصمة اليمن ومدينـة تعز القريبة من البحر تمتد جبال شـاهقة وعـرة، بالغة الارتفاع حتى إن النسـور الجارحـة القوية لا تستطيع بلوغها، ومن قـدر لـه بلوغها يمكنه رؤيـة الطيور تحلـق بعيدًا، هناك بأسـفل، مشـهد فريد ربما يكـون الوحيـد في العـالم، استمر الحال كذلـك حتى خمسـينيات القـرن العشرين عندمـا قرر الإمـام مد طريق يصل المدينتـين العريقتين واضعًـا في الاعتبار كافة ما يترتب على ذلك من نتائج مختلفة سياسيًّا واقتصاديًّا، داخلية وخارجية، أشار عليه مصري مقرب باسـتدعاء مهندس مـن الصين قرأ عن قدرته في رصف الطرق عبر المرتفعات والسـهوب، لا يعرف أحد كيف اسـتدل عليه، ربما قرأ عنه وربما أخبره صاحـب خبير، كان المـصري المقرب موفدًا من الحكومة ليعمل مستشـارًا قانونيًّا، غير أنه أحب الديار وأهلها فأوصى أن يدفن بها وبقي قرب الإمام الذي لم يثق إلا بقلة، عندما جاء المهندس ولقيه في قصر الحجر، طلب الإمام ألا ينجز المهندس أي طريق مشـابه في أي مكان من المعمورة، كان المهنـدس قد أخذ الفرصة في المعاينة، أيقن أنه سوف ينجز عملاً غير مسبوق، سيبقى ذكره تمامًا مثل سور الصين، وافق عـلى مـا طلبه الإمام عـلى أن يُلبي ما يطلبـه، وافق للرجل عـلى ألا يتخطى الحدود الموضوعة، انحنـى المهندس حتى كادت جبهته تلامس الأرض دافعًا راحتي يديه إلى محاذاة صدره، لم يضيع وقتًا، بدأ على الفور، اعتاد القوم رؤيته في سترته الزرقاء

البسيطة وصندله أسود اللون، طوال أربع سنوات استغرقها العمل ليلًا ونهارًا، كان ينام في خيمة على حدود مضارب القبائل، أو بين العمال الذين دربهم وصقل قدراتهم، أو بجوار مُعدة، لم يأكل إلا المتاح، لم يطلب ما يخصه قط حتى صار مضربًا للأمثال ومحورًا لحكايات متداولة بين أبناء القبائل وشيوخها، أحيانًا يخرج الإمام لتفقد العمل فلا يرى إلا ضجيجًا ناتجًا عن معدات متداخلة، وغبارًا متصاعدًا وتكوينات متشابكة، مرات أعرب عن قلقه وشكه في التمام، أسرّ بهما يقضه إلى المصري المقرب، غير أن هذا طمأنه ورجاه أن يرجئ غضبه وضيقه، في نهاية السنة الرابعة، بالتحديد منتصف اليوم الأخير منها وفد المهندس على قصر الحجر، بعد انحناءة لم يبدها إلا في حضرة الإمام، وجه الدعوة لافتتاح الطريق، ليكون أول من يمر به، بُهر حضرته بما رأى، قطع المسافة بين المدينتين العريقتين في ثلاث ساعات، بعضها تحت الغمام وأخرى فوقها، رأى الطيور بأسفل وأوشك من بصحبته على إبداء الخشية عند المنحدرات والمنحنيات ولحظة دخول الأنفاق المحسوبة، عندما وصل إلى تعز، كان يعمل فكره فيما أفضى به إليه شيخ من شيوخ القبائل رافقه جزءًا من الرحلة، قال له همسًا إن الطريق مصدر فتنة ويقصر المسافة على أي متآمر يقصد العصيان، إنه مصدر للشرور خاصة أنه سيسهم في تغيير الأحوال، لَقي ذلك منه هوى واقتناعًا، عندما وصل إلى تعز، قبل دخوله القصر أمر بالمهندس فحضر، قال كلمة واحدة: «لِمُه..

لم ينطق واحد من الحضور حتى المقرب المصري الذي اتجه إلى المهندس ليشرح له الأمر، لم ينحن المهندس، لم تتغير ملامح وجهه، أطرق مؤمنًا، في الليل بدأ سلوك الطريق منفردًا سائرًا على قدميه قاصدًا أعلى قمة الجبل المشرف على تعز، يقول البعض إنه ألقى نفسه إلى هوة سحيقة تبدو قبل أن يبلغ منتهاها، يقول آخرون إنه

اختفى في مغارة لا يعرف أحد مداها، ويؤكد البعض أنه عاد إلى الصين بطريقة ما، المؤكد أنه اختفى تمامًا، ولم يستطع أحد طي الطريق كما طلب الإمام، لأن ذلك كان خارج مقدرة أي إنسان، هدمه أصعب من بنائه، المؤكد أن المهندس كان على دراية بما يمكن أن يتم لتلبية ما طلبه الإمام، غير أنه غاب وبقي الطريق إلى الآن..

# عَصَـى

يحكـى أن مـلاك الموت بلغ حدًّا أدركه عنده ما لم يتحسـبه ومـا لم يتوقعه، فمنذ سـعي المخلوقات وظهور الأشـياء بعد إدراك أسـمائها لم يكف عن السعي، يعمل باستمرار، لا معنى للوقت عنده، يتواجد في كافة الأكوان، يتوزع على عدة مواضع في لحظـة واحـدة ملبيًا الأمر، لكثرة مـا قبض أرواحًا لا يذكـر الأعداد ويضل عن الحـالات، أحيانًا يحاول التذكر لكنه يعجز، حـاضر دائمًا، غير ذي صلة بما فات أو تخيل الآتي، هذا ما جُبل عليه، ليس بوسـعه إلا أن يُلبي، يعرف أن مرويات عديدة تتناقـل عنه، شـفاهة وتدوينًا، خاصة حول ظهوره لمن حـان أجله فقط، يكون بين أهله أو صحبه، إذ يصير على مقربة، يزول الخفاء فيظهر إذا أذنت المشـيئة، يسـعى هنا وهناك، يتخذ صورًا شتى لا صلة لها ببعضها، لا قوام له، لا حضور يُلمس أو يُحـدد، لا يمضي كما يرغـب إنما يتبدل، يتغير، يختفي أو يظهـر كما يؤمر، لهذا أدركه ذلـك الحـال الغامـض الذي لم يعرفـه قط، جديد عليـه، خشي منه غير أنـه لم يقدر عـلى منع نفسـه من الخشـية إذا جـاز القول، فما بـدا يحل عنده، غامض، مسـتعصٍ على معارفه رغم طول بقائه واسـتمرار سـعيه منطويًا على ماض لا يمكنه الاطلاع عليـه، أو التطلع إلى ما سـيمضي إليه، فمن خصائصـه ألا يعرف إلا تلبية ما يصدر إليـه بـدون تمهيـد أو إخطار مسـبق، لذلك لم يعرف كم اسـتغرق هـذا الأمر حتى يتمكـن منـه ويسري إليه، في البدايـة التي لا يعرف كنهها تباطـأ في التلبية، صار لا يمضي مباشرة إلى المأمور بقبض أرواحهم وإنهاء سـعيهم، سـواء كانوا من الإنس

أو المخلوقات الساعية، الظاهر منها وما خفي، عرف ما لم يدركه قط، التباطؤ، التساؤل خاصة عندما يرد عليه الأمر بقبض طفل غض أو أنثى في مكتمل بهائها، أو نحلة على وشك إفراز عسلها أو زهرة تقارب لحيظة تفتحها، عرف التساؤل طريقه إليه، لماذا؟ كيف؟

لم يتوقف الأمر عند ذلك بل تمادى حاله وصار إلى أحوال لم ترد عليه قط، لم يبلغ أقصاها إلا عبر تمهيد إلى تمهيد وخطوة غير معهودة إلى أخرى، انتهى أمره إلى الكف، صار يتطلع إلى ما يتصور أنها الجهة التي يؤمر منها وخلالها، إنه ممتثل لكنه ضاق بما قام به آمادًا لا يُلم بها، يكفي ما قبضه من أرواح موجودات، لا يدري كم دام ذلك، ولا ما ترتب على توقفه وما تبعه من جزع عند سائر الموجودات، طوال مراحل المعاناة، تكاثر الوافدين لكف الرحيل وتوقفه، ثمة إشارات في النصوص العتيقة إلى هذه الأحوال التي يصعب تقدير مدة استمرارها، يبدو أن ذلك جرى قبل ظهور الكتابة والرغبة في محوها من أي استعادة محتملة، غير أن استفسارًا ورد في ألواح عُثر عليها في المتون الحبشية تلمح إلى تولي مهام قبض الأرواح من قبل ملاك آخر لا يعرف إلا الامتثال، محصن ضد كافة ما يخالف حاله.

# سؤال الأصوات

جرى ذلك قبل حوالي عشرين عامًا، نزلت مدينة ميونيخ مدعوًّا إلى لقاء في الأكاديمية البافارية، ثلاثة من علماء الفيزياء في جانب، وأنا في طرف، طرحت عليهم أفكارًا وتساؤلات، وجهوا إليّ استفسارات، هكذا جرت بيني وبينهم مذاكرة لعلها من أهم ما خضته فيها أجريته من مواجهات، خاصة حول الزمن، هذا أمر يقضُّني، يشغلني، بل يبلغ الأمر عندي ما هو أكثر من ذلك، ما زلت أرى القاعة الفسيحة المهيبة واحتشاد القوم فيها حتى أنني لمحت البعض وقوفًا قرب الأبواب وفيما يلي الصفوف الأخيرة، بينهم عالم مصري تربطني به مودة، يقيم في جبال الألب القريبة، متخصص في علوم الكون، ما جرى كثير، متعدد أورد منه أمرًا ألح عليّ وتصورت أن الإجابة ربما تجيء من أهل الاختصاص. يتعلق الأمر بالأصوات، أليس الصوت محصلة موجات؟ أي أنه ينتمي إلى المادة بشكل ما، إذا افترضنا أو اتفقنا أو تأكدنا أنه مادة، ألا يقول قانون الطبيعة إن المادة لا تفنى ولا تستحدث؟ هل يمكن أن تستقر في موضع ما، مكان ما، يمكن أن نتوصل إليه يومًا فنصغي إلى ما قلناه، إلى ما تلفظ به الأحباب، ما قيل من الأقدمين، ما لفظ من لغات اندثرت، ما توالى من هزيم رعود وتساقط مطر وحفيف شجر؟ هل نصل إلى يوم يتحقق فيه ذلك؟

انتبهت إلى صمت الثلاثة، إلى وجوم حلّ بهم فجأة، ظللت أطرح ما تبقى عندي وهم لا يجيبون ولا يتذاكرون وحتى الآن لا أعرف سببًا لذلك!

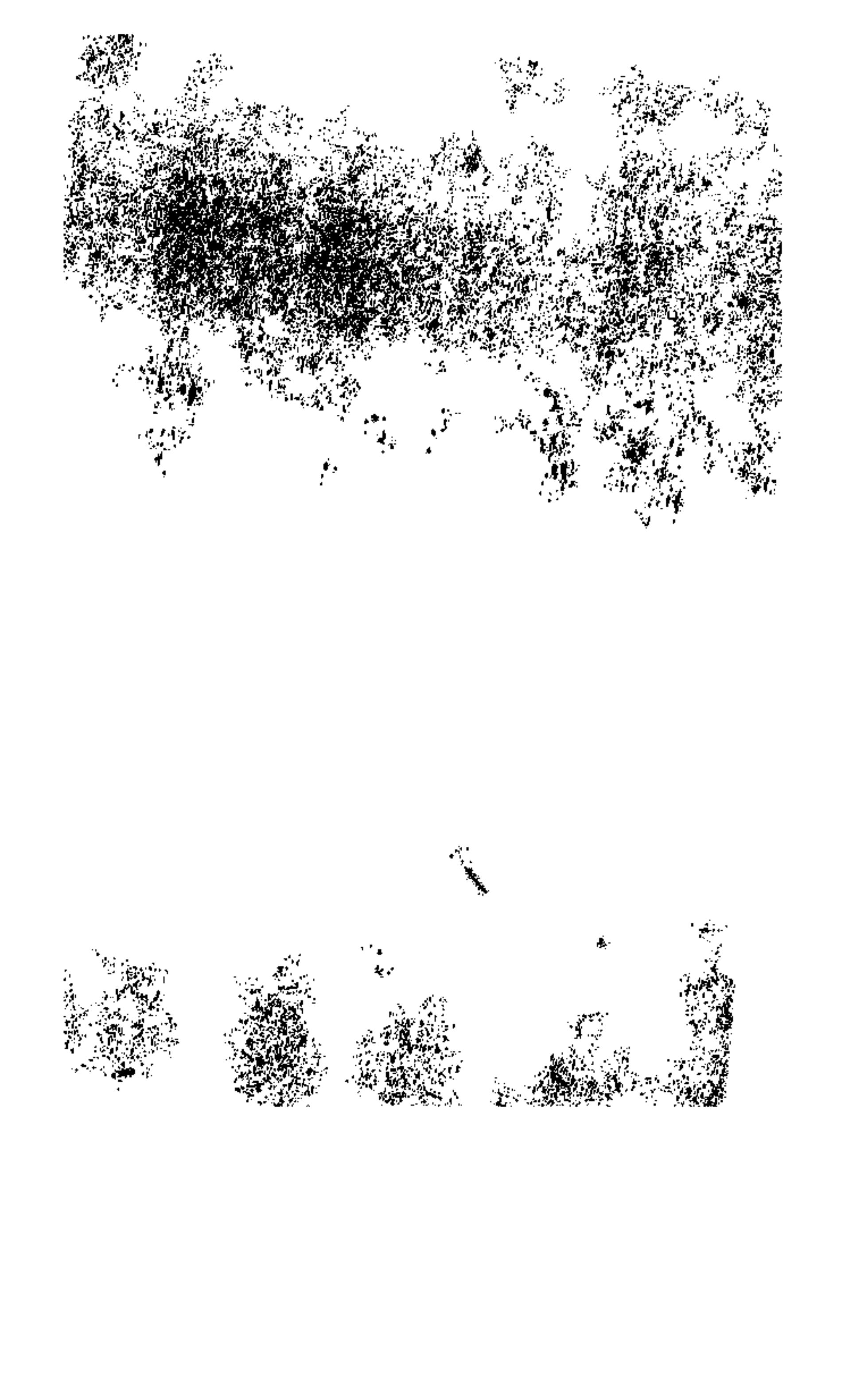
# خزانة

أنشأ ابن الملقن خزانة كتب ضخمة، جمع فيها عيون الكتب التي كانت معروفة في القرن الثامن الهجري، الخامس عشر الميلادي، يقول مؤرخ الفترة السخاوي في كتابه «الضوء اللامع» إنه كان عنده من الكتب ما لا يدخل تحت حصر، منها ما هو ملكه، ومنها ما هو أوقاف المدارس، يقول المقريزي المعاصر له: وقد أعانه على تكوين هذه الخزانة الضخمة، كثرة المال، ورخاء الأسعار، وقلة العيال، ذلك أن زوج أمه «عيسى المغربي» قد أحسن استثمار ماله، فأنشأ رَبْعًا، تكلف ستين ألف درهم فكان ابن الملقن يكتفي بأجرته وتوفر له بقية ماله وغيرها.

غير أن هذه الخزانة التي ذاع أمرها أصيبت بحريق أتى على معظم ذخائرها فحزن ابن الملقن عليها أشد الحزن، حتى كان يعزيه فيها أهله، كان ذلك أواخر عمره -ربما في مطلع القرن التاسع- فأصيب بالذهول بعد احتراقها، وتغير حاله، فحجبه ابنه ولم يلبث إلا قليلًا حتى مات، وكان قبل احتراق كتبه سليمًا، ناصع الإدراك..

عن «لحظ الألحاظ»





حكايات اليمام

# يمام السطح

جُبلت على حب اليمام خاصة والحمام والعصافير وسائر الطيور حتى الجوارح منها، مثل الحدأة والعُقاب، والنسور والصقور حتى البوم الناعق، هذا كله أمة من الأمم، لها تدابيرها، وتصاريفها وغوامضها المستعصية، كثيرًا ما فكرت وتحيرت، لماذا الطيور؟ لم أجد عندي سببًا إلا تفتح وعيي فوق سطح بيت كان يعتبر مرتفعًا بمقاييس الوقت، منذ نهاية الأربعينيات حتى مفارقتنا له في عام ستة وخمسين إلى مسكن أفسح لكنه مؤطر في الطابق الثاني من عمارة أحدث عند مدخل الدرب الأصفر، في مواجهة خانقاه بيبرس الجاشنكير، فلألزم درب الطبلاوي حتى لا أضل السبيل، إليه تنتمي أول صورة باقية في ذهني، أشير إلى دماغي قائلًا بصحبة ابتسامة: أول صورة في الفيلم، سماء حالكة ونجوم غزيرة، دانية، وأشعة مستطيلة تميل يمينًا ويسارًا بحثًا عن طائرات معادية. وصفت ذلك في كتاب التجليات، البيت من خمسة طوابق، شقة واحدة لكل منها، عدا الأخيرة، غرفة فسيحة، دورة مياه، أمامها سطح فسيح، لا يشاركنا فيه أحد، حال أبي دون طلوع أي منهم لبناء عشة دواجن، أو نشر غسيل أو ما شابه، سمح فقط لساكن الطابق الأول أحمد عمرو، إليه تمّت ثناء وثريا، الأولى ابنته والثانية ربما كانت ابنة شقيقه وإليها توجه ما عندي في صمت حشم، أكبر مني، رصينة لها أبهة وجلاء طَلْعة، أما ثناء فلم أعرف مثل خُضرة عينيها حتى الآن، لي معها موقف سأحكيه إذا سمحت الظروف، أذن أبي للحاج أحمد، ربما لأنه صعيدي من طهطا التي كانت تتبعها

جهينة قريتنا ومسقط رأسي، في عام ثمانية وخمسين استقلت، أصبحت مركزًا له قسم شرطة وليس نقطة وتحولت فيما بعد إلى مدينة بعد إنشاء الحكم المحلي، أذن له بنَصْب عمودين من خشب يصلهما سلك مزدوج يمضي إلى المنور متدليًا إلى تحت، هوائي لزوم المذياع، ما زلت أذكر واجهته المضاءة بمصباح صغير، وأسماء المحطات، كنت في الثالثة عندما أصغيت إلى الأخنف، مذيع راديو لندن في ليالي الغارات واضطرارنا إلى النزول للاحتماء، كنت أظن المذيع يجلس القرفصاء داخل الصندوق البني اللون، البيت كان فيه اثنان، الآخر عند روحية التي تسكن تحتنا، من السطح رحلت بنظري إلى الأهرام والقلعة جنوبًا ومآذن مختلف مشهدها، ومظلات تُقذف من طائرات منخفضة قرب العباسية وشيخ في طول إصبعي يرفع أذان الظهر خلال طوافه بالشرفة الدائرية للمئذنة، لهب النار من عمق المدينة، السادس والعشرون من يناير، غير أن ما يعنيني منزلة الطيور التي بدأت من هنا، لم يكن لنا صلات، تقضي أمي حاجة البيت، إذ تفرغ تقعد أمام الغرفة، على حجرها إسماعيل تهدهده، بعده محمد الذي غاب قبل أن يكمل العامين وأجهل مرقده الآن مع شقيقيَّ اللذين سبقاه، مع أن أبي كان يقول صباح العيد، أنا رايح أزور الأولاد. غير أنه لم يصحب أحدًا معه قط، فيما بعد علمت - لا أدري كيف - أن لأهالي جهينة المغتربين مرقدًا جماعيًا مفاتيحه مع الحاج عثمان الصاوي تاجر الخيش ناحية الخرنفش، وكان هادئًا، عميق الصمت، عنده صلاح، وعندما أوفى أبي المدة وبلغ التمام أراد أن يواريه الثرى بجوار الولدين السابقين لي، خلف وكمال، ومحمد اللاحق، غير أن أقاربه أصروا حتى كادت تقع وَحْشة، إلا أن شقيقي إسماعيل حسم الأمر عندما فضل رقدته بجوار أقاربه من بيت آل إسماعيل وهم أخوال أمي، هكذا بدأ تفرقنا، ولكن هذه حكاية أخرى، ما لي أشرق وأغرب كأني أخشى مقاربة «حمامي» الذي تعلقت بمرآه ومتابعته وقراءة كافة ما كتب عنه أو قيل شعرًا ونثرًا، لم أهْوَ امتلاكه فذلك فيه تقييد ومن يعشق الحمام ويهواه حقًّا لا يحبسه إنما

يتبعه ولو بالنظر، بدأ ذلك من السطح، لم ألعب مع أطفال ولم أختلط بهم في الحارة أو فوق سلالم البيت، كثيرًا ما ردد أبي: الاختصار عبادة. ربما خشي الاختلاط لعسر الأحوال، وربما حذرًا من ناس مصر، صاحبت اليمام والطيور وراقبت الحدأة إذ تحوم في حركة دائرية لتنقض إلى نقطة ما فوق الأسطح المجاورة ترتفع بكتكوت أو فأر صغير أو شيء أجهله، تحليق أكثر من واحدة على ارتفاع شاهق ينذر بوجود صيد ما مستهدف، أما اليمام البني اللون المشوب بزرقة فيجيء فرادى، يخطو فوق السور، مرة واحدة فقط حاولت الإمساك به غير أن أمي نهرتني وحذرتني، حرام إيذاء هذه الكائنات الجميلة، لو فزع أحدها فلن يأتي منها أحد، أتراجع متمهلًا، أتطلع إلى اليمام، الحمام، العصافير، أقترب منها هادئًا، لا أنوي مَدَّ اليد أو اللمس، لا أصدر صوتًا مزعجًا، شيئًا فشيئًا صرت كأني فرخ يمام، اليمام بالتحديد آنس إليَّ، تبادلنا المحنّة والرقرقة، أقف إلى جوار السور، أشب على أطراف أصابعي، يميل برأسه، بصة جانبية مصحوبة بميل الرقبة المطوقة بلون وسط بين الأزرق والأسود، ثمة شيء سري، ليس تجاه طير واحد، إنما الجنس كله كأنه يُبلغ بعضه بعضًا، لم أكن في البداية متأكدًا أو مستوثقًا، هل تلك اليمامة هي هي التي اقتربت منها أول أمس أو أول أول؟ عندما رأيت ثلاثًا متقاربة ولم تنفر إحداهن ترسخ عندي أن اليمام كُله أمن جانبي، أنس لي، عندما قدمت أمي لي غطاء علبة عسل به غَلّة، قالت إنه يمكنني الآن الاقتراب وإطعامه مباشرة، لن يفزع ولن يهجرني أبدًا، عندما نزلت بُخارى، قصدنا المسجد الكبير، غمرني الاهتمام بالزخارف الزرقاء والكتابة البيضاء وتناثر الأحمر الطوبي، لاحظت يمامًا مشابهًا لما أعرفه في مصر، اللون، الطوق، الخطو، تقدم أربعة من جنسيات مختلفة، منهم الهندي واللاوسي والإفريقي والتركي، فزع اليمام، طار محلقًا كله، مضيت منفردًا إلى الجانب الأيسر متابعًا طيرانه، بدأ يحوم قربي، دار حولي كأنه يتعرف عليَّ، وعندما حطت الأولى على كتفي صاح الهندي متعجبًا وبادر إليَّ، غير أني مددت كفي محذرًا، هدأ حالي

عندما طاف بي، ثم استقرت واحدة فوق رأسي وراحت تملس على شعري فصرت إلى حنين وسكون حال لم أعرف له مثيلًا إلا فوق السطح، تعجب رفاق الرحلة من ذلك وعندما شرعت بنية مزدهرة في التقاط صورة لي مع اليمام رجوتها بالابتسام ألا تقدم فامتثلت وكان ذلك بداية تماس بيننا حتى صرنا إلى وَجْد مبين حتى أنها كانت تتلمسني وتزقفني بيدها ما تيسر فأستعيد تبادلي النظر مع يمام السطح ومسراه حتى لأسمع هديله من نبرها، وأرقب نظرته الجانبية من عينيها وأوشك على الرفرفة حين تخطو..

# يمامة مفردة

هكذا صار أمري إلى اليمام وكل ما يمت إلى جنس الطيور التي حطت أو حلقت على مرأى مني فوق السطح أول ما عرفت ذاكرتي من أماكن، ورغم تشابه اليمام والحمام والعصافير رمادية التنوع، فإنني أتعلق ببعضها، أذكرها بملامحها، ليس صحيحًا أن الجنس يقع بينه تشابه حميم، في البداية ظننت أن أهل الصين يشبهون بعضهم بعضًا، غير أنني أدركت عدم دقة ذلك عندما دنوت وتأملت واستوعبت، كذا الطيور، كنت أجري فوق السطح، أداعب الطيور، أرقبها، أطعمها الحبوب أو أيسر لها الماء. كانت أمي تحسب نصيبها، تضع القمح أو الذرة، بعضًا من جير أو رمل فوق السور العريض، هكذا كانت ترصه بنفسها، قالت إن جارة لها في حارة «خوش قدم» أوضحت حب الحمام واليمام لهما، أما الحبوب فكانت تناولها لي في أوعية مسطحة تسهل التقاطها، وكنت بعد قيام العهد غير المنظور أقف على مقربة، أرقب الحركة السريعة وانقضاض المناقير الخاطف عليها، ومع الوقت رحت أمد كفي اليمنى وفوقها الحبوب، ربما أبدى البعض ملاحظة خلطي اليمام بالحمام، الحق أنني لا أفرق كثيرًا بينهما، رغم وضوح الخصائص لكل منهما، اليمام بني غامق، حجمه أرهف، الحمام متعدد ألوانه، يطير في أسراب، لا يجيء مفردًا إلا في حالات محدودة، أما اليمام فيقبل مفردًا، لكن داخلني يقين في زمن متقدم أن ثمة صلة بين ما يجيء بمفرده وسائر جنسه، ترسخ ذلك عندي مع التقدم في العمر وارتقاء السنين، ربما لتعدد ما قرأته ولتنوع معارفي الحدسية، أي تلك التي لا تستند

إلى مرجعية محددة، ومصادر بعينها، كانت أمي نبعًا من الحنين، إذ تفرغ من شـئون اليـوم، تجلـس أمام البـاب، إلى يمينه، تنتظر أبي، عودته من الشـغل، وتتطلع إلى ما أجهله، ما لم أدركه في حينه، إلى أمها في جهينة، إلى طفولتها وصباها، إذ يصل إليها نغم «على بلد المحبوب وديني..» لأم كلثوم، تصمت تمامًا، ينحني رأسـها وتحوش دمعهـا الذي أفلـت أكثر من مرة وألزمنـي الرهبة، كانت تتابـع الطيور من قعدتها وتوالينـي برعايتهـا، تخشـى وقوفي على خشـبة عرضية عند زاوية السـطح، عندئذ أصير أطول من حد السـطح وهذا خطر تتحاشـاه، أحيانًا تتابـع الحدأة المحلقة، لم يكن لدينا كتاكيت نخشـى عليها، غير أنها ربما تتقي سـلوكًا سمعت عنه، أو أنبأها أحدهـم به، تطير الحدأة على ارتفاعات شـاهقة، وأحيانًا تبدو ثابتة في الأعلى، غير أنها تنقض فجأة، عندما أقترب من اليمام لا يصدر عنها تحذير أو تقطيب وجه، بل كثيرًا ما لمحت دلائل رضا وتنسم مودة ما، بعد أن جاءها خبر جدتي من أبي الذي لم يكن يجيد إخفاء أمر ما، طالت مواقيت صمتها، ولاحت غضونها، ودام تطلعها إلى فرادى اليمام كأنها تنتظر رسـالة ما أو أمرًا تضيق مفاهيمي عن اسـتيعابه وقتئذ، إلى أن حلـت لحظـة تقع ما بين العصر والمغرب، أقف تحت خشـبة الهوائي الغربية، أرصُّ أحجارًا صغيرة متساوية الأحجام، سرى صمت حتى إن الأصوات المنبعثة من بعيد راحت، فوجئت بيمامة ريشـها بني فاتح، طوقها أبيض، تمشي متقدمة تجاه أمي التي شـخصت إليها حتى بدا كأنها شـغلت عن أختـي المتمددة على حجرها، كلما اقتربت تتمهل حتى توقفت أمامها، تتطلع إلى أمي بالمواجهة، أدركني ما جمدني مـكاني، لم أتحـرك ولم أصدر صوتًا، شيء ما لم أدرك كنهه قيـدني، ثبتني داخل دائرة غير مرئية، تتطلع إلى اليمامة منفرجة الشـفتين، دهشـة، مفاجأة، هكذا بدا لي الحال عندما استعدته طوال الحقب التالية، في قُربي وبُعدي، في حلّي وترحالي، في إطلاقي وتقييـدي، بعـد أن تبادلا النظر سـمعتها تقول بتحنان لم أعرفـه منها، هي الرقراقة الشفوقة حتى على الغمام العابر..

«إزيك يا أميرة الكل.. عاملة إيه..

لليمام صوت لا أقدر على مقارنته، غموق، نابع من هِوّ، لم أعرف صوتًا من الموجودات يقربني من حافة الوقت مثله، يُقلب عليَّ كل خبيء ويدفعني صوب كل منعرج شفيف، من أسماه هديلًا؟ لا.. لم أطالع بصفة تقربني منه، تدلني عليه، تقول أمي ما بين فرح غامض وحزن شفيف:

«يا ترى عاملة إيه هناك؟.. يا ريتك تكوني مرتاحة.. راضية عني..

يتلاحق الصوت، يعود الصمت، تحملق أمي إلى النقطة التي وقفت عندها لا تتجاوزها، في اليوم التالي قعدت في نفس اللحظة، عين المكان، راحت إلى حيث لا أدري، لم يظهر أثر لا ليمامة الأمس أو غيرها، لا أدري كم انقضى على ذلك، غير أن ما أوقن به بدايتي، كنت ابن ثلاثة أو أربعة، أخاطب الحمام، وأتآخى مع الجدران وأصغي إلى هسيس متبادل بين عروق الخشب التي تسند السقف، بعد أن صار كل ما مررت به نتفًا ونثارًا في الذاكرة، بعد أن لحقت أمي بجدتي، بعد انقضاء ستة أو سبعة شهور، خرجت إلى شرفة بيتي المطلة على واحد من أقدم بيوت حلوان، البيت لا يشغل مساحة كبيرة لكن ما عُرف به الحديقة، أنواع الصبار التي زرعها أبو جبل صاحبه من كافة أنحاء العالم، بعضها من المكسيك، الآخر من مرتفعات منغوليا أو صحراء كالجاري، كذلك الشجر، سمعت عن أجانب منهم يابانيون جاءوا وعرضوا تلبية ما ينطق به، غير أنه أبى ومن بعده أولاده الذين لا أعرف عنهم شيئًا، تقول زوجتي المولودة في الضاحية إنه كان رجلًا بشوشًا، ذا إقبال، يقعد عند مدخل بيته وبجواره سلة من الفل الأبيض، يوزعها على المارة، من يعرفه ولا يعرفه، بعد رحيله أغلق الأبناء البيت، رفضوا العروض كافة، لكن ما لم يقدموا عليه قام به الأحفاد، ولكن هذا موضوع آخر، كلما خرجت إلى الشرفة لحقني محمد ابني وهو طويل التأمل، تشغله أمور، منها الحروب التي حدثته عنها وأشهدتها، يحترم صمتي، وأورثني ذنبًا لم أنته منه بعد، لانشغالي وجريي على المعاش لم أتفرغ

لهــا، هذا ما لحقني تجاه والــدتي وتجاه ابني وابنتي، فحق عــليَّ الاغتراب والانفراد حتــى لو كنت في جَمْـع، جلس على مقربة مني صامتًا مثلي، راضيًا بالدنو فحســب، حطــت بيني وبينــه، لم أدر جاءت من أين؟ أحاول التبرير والتفســير فأوهم النفس أنها قدمت من حديقة أبو جبل، لكنني لست بمستوثق.

فراشــة لم أعرف لها مثيــلًا، مجهولة عندي، ولم أر صورتها أو رســمها في كتاب، أو المتحف الزراعي الذي عاينت به أنواعًا وأنواعًا من فراش محنط مثبت بدبابيس وهذا ما يخدشني.

خضراء

غــير أن الدرجــة لم أعرفها مــن قبل، عميقة لهــا طبقات لا تــدرك بالحس، كأن الجناحــين والجســد الرهيف قُدَّا من نبات غامض لا يعــرف أحد أين ينمو، طافت بنــا، حطت قربي، خُيِّل إليَّ أن عينيهــا متوجهتان نحوي، غمرني ما يغمض عليَّ، ما لم أعرفه من قبل، كأني محاط بغشاء شفيف، كدت أراني، ملامحي؛ المزيج من ابتسام كامــن وحزن مقموع، ســمعت ذلك من قديم، ربما من أمي نفســها، لا يجوز إبداء الحزن أو الأسى في الحضرة حتى تولي..

أستعيد السطح واليمامة والحمام المحلق وكُل ما يصلني، أقول بنطق خفيض..

«يا ترى عاملة إيه هناك؟

يا ريتك تكوني مرتاحة..

يا ريتك تكوني راضية عني..

محمد يســدد البصر إليَّ، ملتزم أو متهيب، لزم حال الســكون مثلي حتى حلقت مبتعدة إلى اللا أين..

# حمام الديمومية

حتى الآن أعد سقارة من كوامني وبواعث التوثب عندي، لم ينل منها بعد عشوائية الإحاطة كما جرى مع هضبة الجيزة التي حوصرت من قريب وبعيد، وقد كان بمكنتي رؤيتها واضحة جلية من سطح في الجمالية، ما تزال سقارة من أماكن معدودة أشارف فيها السر. منها في بر مصر أخميم، ومدخل جهينة من ناحية الغرب، وأبيدوس بما حوت، بظاهرها وخفيها، بما تسفر عنه وما تبطن، بدنيويتها وأبديتها، بما انقضى منها وما بقي، بما تبدد وما تحوي، البر الغربي أمره معروف بالنسبة لي حتى إنني لأود الإقامة فيه وتمضية ما تبقى لولا صعوبة الأحوال واضطراري إلى قضاء المعايش، كذلك المطل على جزيرة فيلة، آخر مكان ذكرت فيه إيزيس أم الدنيا وعذراء العالم، لا شيء يجددني ويعمقني ويقاربني مثل تدفق المياه عبر الجنادل، بهذه المناسبة أتمهل لأفصح عن أمر لم أبح به من قبل، ذلك أنني أحترم اثنين، الأول لم أعرف إلا اسمه وصفته وتاريخ أسلافه، أما الثاني فلم ألتق به شخصيًّا، لكن جرى بيني وبينه مراسلة، الأول رأيت مرقده عند زياراتي الأولى إلى أسوان، رأيت جهة الغرب مرتفعات تتوالى بعدها مراحل الصحراء الممتدة حتى ضفة الماء الأعظم المحيط، وقد بلغتها، وقفت عندها في عدة مواضع من طنجة شمالًا إلى العيون والداخلة جنوبًا، مرورًا بأصيلة والرباط والدار البيضاء وأغادير والصويرة وحواضر أخرى من المغرب الذي يُهيّمُني ويعرفني على ذاتي وهذا مما يطول الحديث فيه، لو فتحت المجال فيه فلن ينقضي، في أعلى نقطة إلى جهة المغيب رأيت قبة تامة الاستدارة، قيل لي عندما سألت إنها قبة «أبو الهوا»، شيخ لم يلتق

به أحد، جاء من عمق الفضاء محاطًا بسرب حمام أبيض، بمجرد ملامسة الأرض سكنت أنفاسه، هبت رياح ألقت عليه رمالًا دثرته، أما الحمام فلزم الموضع وما يراه الزوار حتى الآن من نسل ذلك الذي جاء محلقًا حوله، وعندما بنى بعض الأخيار زاوية صغيرة فوقها تلك القبة عُرفت بهذا الاسم، عندما جئت إلى أسوان أول مرة عام واحد وستين وتسعمائة وألف، حضرت بالصدفة ضغطة الزر بيد جمال عبد الناصر ومحمد الخامس وثالث لا أذكره، ربما يكون عبد السلام عارف العراقي، لو شئت التأكد فلن يكلفني هذا الكثير، غير أنني لا أعتمد في قص هذه الحكايات إلا على ذاكرتي وما حوت، وما كان يمكن أن تحوي إلى جانب ما يتراءى لها أو ما تعاد صياغته من خلالها. ذاك حسبي وثوابي وحقيقة مآلي عند القدير الرحيم.

مؤكد أنني زرتها، أرى حالي أمامها مشرفًا على النهر المهيب، طويل الصمت والذي لم أعرف له مثيلًا ويمكنني القول إنني رأيت أهم أنهار الدنيا، النيل ليس كمثله نهر، المهم.. أنني لست مستوثقًا، هل زرت (أبو الهوا) في رحلتي الأولى ضمن فريق الكشافة أم مرة أخرى تالية؟ لا يمكنني القطع، غير أن المبنى المهيب البسيط الآخر لفت نظري، فوق المرتفع، جهة الغرب، غير أنه أقل انخفاضًا، قيل لي إنه مرقد الأغاخان، زعيم طائفة الإسماعيلية، إحدى اثنتين انحدرتا من الفاطميين بعد خلاف يطول شرحه قرب نهاية الدولة بعد وفاة الخليفة المستنصر الذي جرت في عهده الشدة المستنصرية التي أكل الناس فيها بعضهم بعضًا لما عَزَّ القوت واختفى الرغيف حتى بيع بوزنه ذهبًا وهذا معروف، مدون، تعلق بصري بالقبة والضريح، قلت إن الأغاخان رجل عرف كيف يختار الموضع الذي يبدأ تفرقه في الوجود واللاوجود، ألتزم هنا بقول شيخي الأكبر سيدي محيي الدين الذي أتوسل به، وأنزع إلى كل فرصة تمكنني من ذكره أو ترديد قول منسوب إليه.

الآخر قلت عنه نفس المعنى، كنت أقرأ دائمًا عن حرصه على تمضية الكريسماس ورأس السنة في أسوان، لفت نظري زيارته الأخيرة لها ورحيله الأبدي بعد عودته

إلى موطنه بأسـبوعين لا غير، يبدو أنه أراد إغماض العينين في أسـوان، لكن المرء لا يفارق حيث يريد، لا في المكان أو الزمان، عندما قصدت أسوان منذ سنوات عديدة نزلت فندق كتراكت الذي شُيد على هيئة مسجد قرطبة الذي بُهرتُ بعمارته الفريدة، أثنـاء وقوفي في البهو منتظرًا إنهاء الإجراءات في مكتب الاسـتقبال، فوجئت بمدير الفندق يُقبل مبديًا المودة، قال إنه من جهينة، بادلته الحرارة، قال إنه سيخصني بشيء لا يقدمه إلا للمقربين، سـينزلني جناح الرئيس ميتران، قال إنه قرأ عن مراسـلات بيننا، قلت إن ذلك حقيقي، كنت أسـكن حلـوان بعد زواجي، بعد صدور روايتي الأولى «الزيني بركات» مترجمة إلى الفرنسـية، وصلني بالبريد خطاب، لاحظت أن شـعار الجمهورية الفرنسـية مطبوع على الركن العلوي جهة اليسـار، لم أتوقع أمرًا، ربما خطاب لشـأن ما، في اليـوم التالي قدمته إلى ماجدة التي تتقن الفرنسـية، طلبت منها أن تخبرني بما يحوي، فتحته على مهل لكن ما إن طالعت بدايته:

«دا من الرئيس ميتران.. معجب بالزيني بركات..

الخطـاب مكتوب بالخط عكس العنوان الذي صيغ بحروف الآلة، حبر أزرق، توقيع، تحته الاسـم، الورق يحمل شعار الجمهورية، الخطاب الأول معلق إلى الجدار المواجه في إطار من خشب، أحتفظ بالخطابات الأخرى في ملف بدرج مكتبي، كلما صـدر لي كتـاب مترجم قرأه وكتب لي رأيًا متضمنًـا النفاذ إلى الجوهر، إلى خباياي، أرد بشكر وتحية، عندما دخلت الجناح، خرجت إلى الشرفة وعندما رأيت ما رأيت صحت رغم انفرادي:

«الآن فهمت..

أنثني إلى سـقارة، فقد شردت مطولًا وحدت عن القصد، غير أنني أذكر مكانًا أوثره من الشـمال، أعني الميناء الشرقي ومنحناه العجيب، أرجئ ذكر جبل سربال في سـيناء، وجبـل جلالة في صحراء البحر الأحمر، والواحـات الداخلة غربًا، لعلي أسـتدرك أمورًا، سـقارة عنـدي تبدأ بمرتقـى الهضبة، عندما يصبـح النخيل هناك

بأسفل، لابد من نظرة متمنيًا بقاءه هكذا، كثيفًا، عتيقًا عند الحد، مهيبًا بالحافة المشرفة، سقارة كون، خاصة ما خفي منها، ما لم يُعرف بعد، جئت مبكرًا، هذا ما طلبه مدير المنطقة، يمت إليَّ بصلة، من بلدة قريبة من جهينة، سيفتح اليوم مدخل مؤدٍّ إلى مرقد ربما يحتوي على أثاث جنائزي كامل، كل الدلائل تؤكد أن اللصوص لم يعرفوا الطريق إليه، مشرف على قصور الفرعون في بدايات الدولة القديمة، لم يرقد هنا إلا كل ذي شأن، بل إن أهمية كل منهم تعرف بالمسافة الفاصلة عن هرم الملك، ما زلت أستعيد اللحظة، فتح الباب المغلق من أربعة آلاف عام وبضع مئات من السنين، ثمة صلة، ثمة وَصْل، بين بصري وما رآه أولئك الذين ردموا وأغلقوا الممر المؤدي، جاء بعدهم من قاموا بالتمويه المتقن، كانوا يُقادون من مقار إقامتهم معصوبي العيون حتى لا يستدلوا على الطريق، تمامًا كما جرى بعد ذلك مع فناني دير المدينة الذين حفروا ورسموا مراقد ملايين السنين في وادي الملوك، استعدت لحظة توصل كارتر بالباب الذي يحمل خرطوش الملك توت، يصف ذلك في مذكراته، أقف في ذلك الصباح السبتمبري، هدوء أسْبغ عليَّ، شأن اللحظات الفارقة التي عرفتها كلها، أتقلق قبلها، أتوقع وأتنبأ وأتخيل وأصوغ حوارات متوهمة حتى إذا دنوت وتدليت ينزل عليَّ هدوء فأصير إلى سكون ومحايدة كأني غيري، هذا ما حلَّ بي عند المدخل، بعد أن فرغ العمال المدربون من إزالة آخر العوائق تقدم مدير الموقع ليزيل الجدار المصوغ من الطوب اللبن، أو كما يُعرف في البر الغربي، بَرّي وملتقاي، بالطوبة الخضرا تمييزًا لها عن الطوب الأحمر والأسمنت الذي ابْتُلي الصعيد به.

كنت التالي للمدير الذي أحدث فتحة راحت تتسع شيئًا فشيئًا، كنت مُرهف الحواس لتنسم الهواء، محدد الإقامة منذ أربعة وأربعين قرنًا على الأقل، غير هياب مما يتردد عن مخاطر ربما تحملها غازات مكمورة طوال هذه القرون المستمرة، ضيقت عيني حتى أدقق وأحقق غير أن ما جرى فاجأ الجميع حتى وقت هذا التدوين.

إذ اندفعت حمامتان من العمق إلى الفراغ الفسيح، مرفرفتان، ارتفعتا مبسوطتي الأجنحة، دارتا دورة فوقنا ثم ولتا الوجهة صوب الجانب الغربي، غابتا....

# حمام البا

أعرف من لفافة تورينو التي فسر بعضها لي ما استطاعه سيرجي نيوزادة مترجمًا معانيها من الخط المقدس - الهيلوغريفية - إلى العربية مباشرة، في بيته الفسيح المطلّ على بحيرة ليزا، أن سيد الحكمة تحوتي هو من صاغ الرموز، أو .. فلأكن دقيقًا، محققًا، مختصرًا، صائبًا بقدر الإمكان، هل يمكن إرجاع هذا كله إلى شخص واحد؟ إيجاد الحروف، صياغة الكلمات، تحديد الجهات الأصلية والفرعية، درجات الزوال وميل الظل، علاقة المحدود باللامحدود؟ وسائر ما نُسب إليه بدءًا من تحديد الرموز المقدسة حتى طرق البناء وتعيين وسائل رفع المياه من سواقٍ وشواديف وطنبور، وصولًا إلى مواعيد نوّات البحر، أبيض كان أم أحمر، منذ تلك العصور السحيقة اعتمد الخلق ما حدده وأقرّه، وما زال أهل السواحل يستخدمون مصطلحات تقارب تلك التي صاغها، هل يُنسب هذا كله إلى شخص واحد؟ أم أنها تراكمات شتى صاغ بعضها وتوصل إلى الآخر من يصعب إطلاق أسماء عليهم لانعدام المعرفة بهم وقلة ما وصل عنهم، لذلك نُسبت الأعمال إلى اسم بعينه وهو أهم درجات الوجود، وتعدادها خمسة تنسب أيضًا إلى تحوتي سيد الحكمة والمعرفة، ولأتوقف عندها قليلًا فلطالما حيرتني وأعملت الأسباب لاتصال فكري وسعيي، أما الخمسة فهي: الاسم ثم الكا ثم البا وبعدهم الجسد، أما ما أثار دهشتي فهو الخامس؛ الظل، كيف يكون الظل من شروط الوجود والسعي؟ حيرني هذا الأمر مدة أربعين سنة أو أكثر، خلال هذه المدة كانت المعارف تأتيني من جهات شتى،

بعضها مني، وكثيرها من آخرين، معظمهم طُوي أمره، وقليل، بل نادرهم ما زال يسعى في عين وقتي، لا أدري في أي مصدر قرأت أن مما أرساه تحوتي من مفاهيم، أن كل مرئي له مقابل في اللامرئي، في صعيد مصر إذ يقع طفل أو يتعثر تسارع الأم نحوه قائلة:

«اسم الله عليك وعلى خيتك - أختك - اللي احسن منك..

اسم الله حافظ وحامٍ، وشاغل الإنسان منذ اكتماله وبدء سعيه.. الحماية، الحماية من المخاطر سواء كانت منظورة، معاينة أو غير مدركة. في مواجهة بيت خالي الذي بدأ سعيي منه في الحياة الدنيا، بيت.. لا، فلأكن دقيقًا، بقايا منزل، مدخل تليه ساحة صغيرة مؤدية إلى غرفة لا نوافذ فيها، لا صومعة، لا فرن، هنا تعيش الجدة «الدودة»، هذا ما كان يناديها به الناس، لا أعرف أهو اسمها الحقيقي أم أنها كنية غلبت فصارت بديلًا لاسم مجهول الآن، حلت مكانه، قصيرة، نحيلة جدًّا، برقبتها تجاعيد غائرة، تحيطها بعقد من مادة زرقاء غميقة، لم أعرف لها اسمًا أو وصفها، حلقات صغيرة متجاورة متضامة، كل سبع حلقة مختلف لونها فمرة برتقالية ومرة حمراء ومرة بيضاء، لا يتكرر إلا اللون الأزرق، الغريب أنني في إحدى زياراتي إلى القسم المصري بمتحف المتروبوليتان قد أصبحت حافظًا لمواقع مقتنياته حتى لأقدر على استدعاء ما أحن إليه على البُعد وهي عديدة، متنوعة، غير أنني أخص بالذكر باروكة من الشعر المضفر بتلبيسات من الذهب، الباروكة في المتروبوليتان والقناع في القاهرة، كذلك حاملة القرابين مذهلة الجسد بما حوى من معالم ومقامات وأنغام أكاد أصغي إليها مع طول التحديق أينما كنت، لا يؤثر فيَّ مثل تلك النظرة المحدقة إليَّ عبر آلاف السنين، أتواصل مع أصولها وأوشك على إدراك منابعها، في القسم الخاص بتل العمارنة شفتان لأنثى لم أعرف مثلهما قط، تمتان إلى تمثال لملكة أو أميرة، تهشم ولم يتبق منه إلا هاتان الشفتان فأصبح لهما وجود قائم بذاته، غير متصل بما قبله أو بعده، بما فوقه أو تحته، لا ذقن ولا

أنـف، فقط بقايا وجنات ثرية، هكذا صارتـا كونًا مكتملًا، أتوقف أمامهما طويلًا، وأمضي منفعلًا بما يغمض عليَّ، عندما أرى نحتًا كهذا، أو تمثال نفرتيتي الكامل في برلـين أو الناقص في المتحف المصري والـذي يمنحني أكثر مما يبثه الأول، ذلك أن الناقـص إيحـاؤه أغزر وأثرى، عندما يتم الشيء يحدد البصـيرة، وعندما نراه ناقصًا نكملـه نحن كما نهوى ونرغب، نصير إلى شراكة في إيجاده، وهذا مما يطول الحديث فيـه، لا أرى مثـل هذا النحت أو رسـم جميلة الجميلات نفرتـاري إلا وأرى المبدع الذي أوجد هذا، في شـفتي تلك الأنثى الغاربة، الحاضرة، أرى رغبة الفنان، ذلك المجهـول الـذي لا يذكره أحـد، لا يعتد بـه باحث ولا يتوقف عنـده مختص، فقط تمثال نفرتيتي غير المكتمل، وقياسـات جهاته وشـمخة الملكة وجلال عنقها المفرد فيـه أتـم من الكامل، المعروض في برلين بأبهة، واحتفاء مبين، الناقص عرفوا اسـم مـن صاغه، الفنـان تحتمس، عثروا عـلى التمثال في مقر عمله، ورشـته، لولا ذلك لظل مجهولًا، رغم وصول اسـمه فلم يعن لي شـيئًا سـوى أنه مشـتق، منتسـب إلى تحـوتي، لكن مـا بذله من عناية، ما أظهـره يجعلني أوقن إما أنـه عميق الإيمان وإما غائر العشق، قلت ذلك لصاحبي الذي قاسمني حب الأقدمين، والهيام بهم، حتى إن ألـوان لوحاته لم تحـد عن أصباغ القدامى والتي هي ألوان مصر. قلت لمن رحل وترك عندي غصة، جودة خليفة:

«الفنان الذي أبدع هذا إما أنه مؤمن أو عاشق..

أجاب على الفور بتلقائية أفتقدها:

«طبعًا العاشق لابد أن يكون مؤمنًا.. كلاهما واحد..

تلاحقني الشفتان، ليتني رأيتهما مع جودة، في الممر القريب تأملت طويلًا نافذة التجـلي، الخاصة بظهور رمسـيس الثالث، مكانها شـاغر في معبد هابـو، عند نهاية الممـر، قـرب موضع الخـروج تعلقت بثلاثة وجـوه من الفيوم، أعرفهـا قبل وقوع نظـري عليهـا، طالعتها في الكتب، جرى بيني وبين تلك العيون بث وتلقيت مثله،

لكم حيرتني تلك النظرات القادمة من اللاوجود الحسي، لو توقفت عندهم واستدعيت ما أعرفه من ملامح أخرى لحاد السياق وانصرفت عن الأمر كله، في المتحف معبد محدد من آثار النوبة، تم تفكيكه في الستينيات، أهداه عبد الناصر إلى الولايات المتحدة نظير ما أسهمت به في إنقاذ آثار النوبة، المعبد صغير، أشبه بما نسميه زاوية، محاط بمياه في لون نهر النيل، يعتبره القائمون على المتحف درة الموجودات، إنه محط الزائرين ومقصدهم، غير أن من تجول في الصروح العظمى لا يبهر بهذا رغم أنه مؤثر عندي لمسحة حزن بادية في أحجاره، هذا ما ألقاه فيه، فيما يلي المعبد باب يؤدي إلى قسم يخص أمريكا، هنا أعود إلى ما أثار دهشتي، أمران.. أولهما الظل باعتباره من المكونات الخمس، أمعنت الفكر والتدبر، توصلت إلى حقيقة بديهية، من يمت فلا ظل له، شرط الظل السعي، وتلك تتطلب القيام، من يكتمل تمامه يرقد والراقد لا ظل له، ظله مطوي فيه، متحد فيه، وشرط وجود الظل الوصل والفصل، ذلك أنه ملاحق لمن صدر عنه، متحرك غير مستقر، أحيانًا يتمدد أو يتقلص طبقًا لمصدر الضوء والتمكين، بدون الظل لا توجد حياة، من هنا قد أفهم ما حيرني عندما قرأته: الظل أصل الأشياء، يقول الشيخ الأكبر: إذا مضت الشمس تبعها نورها وبقيت الأرض مظلمة، كذلك الروح إذا رحل عنه الجسم إلى عالمه الذي جاء منه تبعته الحياة المنتشرة منه في الجسم الحي، وبقي الجسم في صورة الجماد في رأي العين، فيقال «مات فلان»، وتقول الحقيقة: رجع إلى أصله.

هكذا عين الحال.

ثانيهما، لماذا اختص تحوتي رأس الإنسان بجسد طائر عندما وضع الرموز وحدد أشكالها وألوانها؟ لماذا جسم يمامة بالتحديد، رأيت الشكل واضحًا في مرقد نفرتاري، وجهها بملامحه الأثيرة، الساكنة، في المتحف المصري بالطابق الثاني آثار من مرقد يويا، تطاردني منه عينان ساجيتا الجفنين لهما عندي وقفة وتطويل إذا أذن الحال، أما الآخر فذلك التمثال المذهب للبا، للروح، رأس آدمي بجسد يمامة

في حالة سكون، الجناحان مسدلان، ملامسان الجسم، بالاكتمال يخرج الإنسان خاصة والمخلوقات عامة من التقييد إلى الإطلاق. ما هو المرئي المعاين للإنسان القادر على الرفرفة والتحليق؟

الطيور.

ما أقرب الطيور إلى الإنسان؟

اليمام.

يقول تحوتي في المتون إنه لم ير خاصية في الإنسان إلا ورأى مثلها في اليمام، خاصة الصلة بين الذكر والأنثى عند بدء اللحظات الحميمية، فالمخلوق الوحيد الذي يبادل إلفه التقبيل والمناغشة قبل الوصل هو الحمام، اليمام، وغير ذلك مما لا يُحصى.

# حَمَام الحاج فهمي

ستظل هذه المسافة منعرجًا أحن إليه وأرنو، شأنها كمواضع أخرى، أثق أنني لن أبلغها، إما لزوالها أو انتمائها إلى مكان لن أعرفه مرة أخرى، لانقطاع الصلة أو لوهن الإمكانية عندي، أو لزوال المعالم وتغيرها، نبدأ من ميدان سيدنا ومولانا؛ المدخل المؤدي إلى بداية الخان، إلى اليسار المطعم الإيراني، لا يزال مذاق طبق الخضار باللحم والأرز المفلفل يراودني رغم بعد المسافة وانقضاء الحول بعد الحول، في فسحة المدرسة الإعدادية، ما بَيْنَ الفترة الأولى والثانية، ساعة نتجه كما شئنا، لم أشارك صحبي اللعب، إما أن أتجه إلى الشيخ تهامي أقلب الكتب وإذا توفر معي المال، ثلاثة قروش مقابل الوجبة ألتهم حبات البسلة بالمرق واللحم الناعم والأرز، لعله المطعم الأول الذي تعاملت معه، لم يكن من عاداتنا التردد على أماكن الأكل إلا فيما ندر بصحبة الوالد، الجهة المقابلة مدخل المقهى العتيق ذائع الصيت، على جانبيه فانوسان عتيقان وعمودان من رخام، درج من حجرين مستطيلين يؤدي إلى الممر المظلل بروح وريحان، تتوسطه ثلاث نافورات تبث المياه المرطبة صيفًا، المطمئنة شتاءً، على الجانبين مقصورات مظللة بستائر من خرز ملون، مرايا من قصور، صوانات عطور نادرة، أطباق مطعمة، دكك من خشب مخروط، الحاج فهمي الفيشاوي أمضى عمرًا يرتاد صالات المزادات أو أماكن يجري تصفيتها، اقتنى منها ما يجل عن الحصر، بعضه مازال معروضًا حتى يومنا هذا بعد زوال النعيم وأيام التقصي والدنو، لم أر الحاج عندما كان أحد فتوات

القاهـرة المعدوديـن منذ وعيت على حضـوره طفلًا أجيء إلى فضـاء المقهى حيث الشـاي في الأكواب الصغيرة ضيقـة الخصور، لم أعرف مثلهـا إلا في مقاهي بغداد والبـصرة وأربيل، تُعـرف هناك بالاسـتكان، منذ صباي أراه متمـددًا فوق الدكة، ضخـمًا، مهيبًـا، صامتًا، النرجيلة لا تفـارق فمه حتى أثناء نومه، فـراغ حوله عامر بالبخـور، بالمسـتكة والحبهـان وما خفي، نسـيم العنـبر والعاج والحريـر الطبيعي ومـرق الكوارع وثريد لحمة الرأس وفواح لحم الماعز المشـوي على بخار التنور، يا ألله، إلى جواره حصانه الأشـهب المنسَّـب، يقف على مقربة كأنه حارس وفي أمين، لا رباط يقيده ولا سرج أو لجام إلا عندما يعتليه الحاج، في المقهى حتى الآن لوحة من البني ومشـتقاته كافة، رسـمها فنان مجهول، واحد مـن كثيرين، عبروا وأقاموا ثم أدت بهم السُّـبل، كلٌّ إلى طريق، صورة فوتوغرافية مكبرة بالألوان؛ يقف فوق كوبـري الجامعة، الحصان وصاحبه، كل منهما مزهو، فخور، لا أدري عند التمعن والإيغـال من صاحب مـن؟ يحكي الوالـد أن ركوب الحاج فهمـي وتمخطره كان فرجة تستحق، يبدو الحصان مزهوًا بفارسه المتراجع قليلًا إلى الخلف، شمأ بنظرته وتطلعه، أما من رأى خطوهما الراقص فهو محظوظ، تناغم وتجاسر رغبة في اجتياز حيز الجسد المحدود، المؤطر، مفارقته إلى اللامدى، لم أقف للأسف على ذلك، غير أنني رأيت الحاج يطعم حصانه قطع سـكر، الحصان بعد أن فرغ يتمسـح برأسه في كتفه كأنه يقبله، شـاهدت أيضًا الحمام يقـف على حافة القفص والحاج مفرود كأنه شراع بليـغ، يتبادل اللثم مع الحمام الذي يتقـدم فرخًا فرخًا إلى حافة القفص وهذا مـن أغـرب ما رأيت وعاينـت، كثيرًا ما يختلط عـليَّ الحال فـلا أدري هل ما جرى كان واقعًـا أم توهمًـا مني، غير أن ما جرى بعـد هدم المقهى، لا ... قبل الشروع في تقويـض مسـتودع الذكريات غريب، عجيب، لـو أنني لم أعاينه بنفسي وشـاهدتُه فأُشْـهِدتُه بعيني لسرى عندي شـك، بعد أن أصرَّ المحافظ الغشيم على قراره بإزالة المقهـى التاريخـي لإقامة بناء حديث، قبل موعد بدء الهـدم بيوم واحد، قبل ارتفاع

أول معـول، ظـل الحـاج فهمي مغمـض العينين حتى ظنـوا أنه أوغل في الوســن، بالفعل لجَّ إلى بعيد، بعيد جدًّا، لم يسـتطع الاسـتمرار حتى رؤية البنيان الذي صار جـزءًا منـه، تقوض قبلـه، في نفس اليوم همد الحـمام، رآه كل دانٍ وقـصي طريحًا في قفصــه، أما الحصـان فظـل واقفًا مكانه، رأيته منكس الـرأس هزاله موجع للرائي، سبعة أيام لم يذق خلالها شربة ماء أو كسرة خبز.

# مسألة

سئل تحوتي يومًا، غير معروف ممن؟

• ما الفرق بَيْنَ اليهام والحمام؟

قال مجيبًا إن اليهام هو من نرغب أن نكون. أما الحمام فهو نحن كما نكون.

ثم قال: إن اليهام هو ما نطمح إلى أن نكونه، ما نتمنى أن نصير إليه في تفرقنا عن بعضنا، ما نصبو إليه، هو رغباتنا الدفينة مأمولة التحقق.

الحمام نحن.

# يمام الحمَّام

حدث ابن إياس في تاريخه المفقود أن امرأة الأمير منجك من يشبك شاد العمائر أرسـلت في طلب الشيخ صادومة المعروف عنه القدرة على الإصغاء إلى ما لا يقدر سـمع الإنسـان على التقاطه، ومعرفة أحوال الحيوان والطيور، واستدعاء الثعابين من مكامنها، كذا العقارب والهوام وأم أربعة وأربعين والعناكب السـوداء السامة، كان أمهـر من يجيد الحجامـة، وتخليص المولود المتعسر من الطريـق المعتاد، وعمل الأحجبـة التـي تقرِّب البعيد وتبعد الكريه غير المحبوب، وله واقعة كاد يهلك فيها لولا تدخل الشـيخ أبو السـعود عند السـلطان الغوري وسـأحاول أن أوردها إذا ناسـب الحال لأنها حساسـة بعض الشيء، ولأنني أخشى النسـيان سأوردها الآن باختصار وأشير إلى ذكر ابن إياس لها في تاريخه المعروف المنشور ولي به صلة معروفة، ذلك أن السـلطان الغوري عندما تجهز لمبـاشرة زوجته التي لم يتسرَّ إلا بها ولم يقتن أي جارية وهذا من الأعاجيب، فوجئ بوشم أخضر على هيئة مثلث أخضر اللون بجـوار فرجها، سـألها: ما هـذا؟ فقالت إنها طلبت الشـيخ صادومـة وهو المعتبر، الثقة، الأمين، ورجته أن يعمل لها عملًا يحبب فيها زوجها الذي يتباعد عنها مؤخرًا ويقويه عليها لوهنه المتزايد، غضب الغوري حتى بان عرق جبهته الغليظ، والذي يخشى نفوره أعتى أمراء السلطنة، طلب الشيخ صادومة وأمر ببطحه أرضًا لضربه بالمقارع، غير أن رسـولًا وصل من طرف الشـيخ أبي السعود، أسرَّ إلى الغوري، بما

جعلـه يتغير ويأمر بإطلاق صادومة، ويقال إنه ظل يردد لفترة: لا يهمني ما عمله، المهم... كيف وصل إلى ما وصل إليه؟

هـذا مـا كان من أمر امرأة السـلطان، أمـا زوجة الأمير منجك من يشـبك فقد خلت بالشـيخ وقالت إنها تعاني أمرًا غريبًا تخشـى البوح به لأقرب الخلق، طمأنها الرجـل وقال: سرك في بئر... قالت إنهـا كلما دخلت الحمام تفاجأ بفرخ يمام، يقف عند طرف المغطس، لا يرفع عينه عنها، والأغرب أنه يقدم على ما تخجل من ذكره ويمر بها كل ما هو غريب عنها، ترتعش وتنتشي، تكاد توقن أنه بني آدم مسـحور، مـا يحيرهـا كيف يصل إليها رغم أنـه لا يوجد منفذ في الحـمام، لا إلى الخارج أو إلى الداخل، سـألها أربعين سـؤالًا لم يوردها ابن إياس، طلب دخول الحمام، أشـارت إلى المـكان الـذي يبدأ ظهوره عنده، قالت إنها تخشـاه، ربما كان جنيًّا مسـحورًا، أو آدميًّا يعرف زوجها وأولادها، خفت صوتها قالت إنها تخشـى أن تحمل منه، تطلع إليها الشـيخ متعجبًا من درجة صوتها وخفوته عند نطقها بذلك، أما عيناها فسـال منهـما التوق، قرأ الشـيخ نصوصًـا، وحرك يده اليمنى ثلاث مـرات حركة دائرية، صمـت بعدها، اسـتدار إليهـا، حدق فيهـا حتى انتابتهـا رجفة وبلل، قـال إنه لن يقـترب ومـضى، فاتت الأيام، تكونت أسـابيع، قبل نهاية الشـهر الثالث أرسـلت تطلـب الشـيخ، عندما دخل، اتجـه إلى المـكان المقابل للموضع الـذي جلس عنده المرة السـابقة، أخرج قارورة عطر صغيرة، طلب شـعرتين مـن خُصلها، أحرقهما، اختلطت رائحتهما بالعطر، دهشت، قالت: لكنك لم تعرف ما أرغب، تطلع إليها، تلك النظرة، نفذت عبر سلسـال ظهرها، لم ينطق قام منصرفًا قبل ظهور فرخ اليمام، لم يجتمعـا لحيظـة في الحمام، عند طرف المغطـس مكث متعلقًا بها أثنـاء تجردها قبل نزولها الماء الدافئ السلسبيل...

# يمامة الدرب

لعل ذلك جرى في بداية عام سبعة وخمسين، علامة الزمن هنا العدوان الثلاثي، حضرنا وقائعه في مبنى على ناصية الدرب الأصفر الذي يصل ما بين شارعي الجمالية والمعز، أشهر ما فيه حتى الآن بيت السحيمي، في مواجهة بيتنا خانقاه بيبرس الجاشنكير، عرفت فيها بعد أن عبد الرحمن بن خلدون تولى مشيختها عندما جاء إلى مِصْرَ وأقام فيها حتى وفاته ودفن في مقابر باب النصر، أما المبنى الذي انتقلنا إليه فكان يعرف بعمارة عليش، أسرة قديمة عرفوا بمخبز للعيش ناحية أم الغلام، جئنا بعد أن ضاق بنا مسكن درب الطبلاوي مع تقدمنا في العمر، شقة من حجرتين وصالة، في مواجهتها تسكن عائلة أم جميل، سيدة قوية الحضور، لها منظر إذا وقفت في الشرفة ساعات العصاري لتشم الهواء، أما ما تعلقت به فابنتها واسمها «فرنسا» أكبر مني عمرًا، كنت في الحادية عشرة وهي على الأقل في السادسة عشرة، فارهة، جميلة الطلة، رائحة نسيمها الأنثوي مازال في ذاكرة شمِّي، رويت جانبًا من بواعثي تجاهها في الدفتر الخامس للتدوين «نثار المحو»، كنت أمضي وقتًا قبل تدرجي نحو النوم، خلاله ينشط خيالي تتحول الظلال إلى مخلوقات لم أعرف لها مثيلًا وأصوات الليل إلى مصادر غامضة، بعضها في كهوف البر، والآخر في عمق النهر الذي لم أكن أعرف ماءً أعظم غيره إلى أن رأيت البحر عام ستين ثم طرت فوق الماء الأعظم أو بحر الظلمات كما كان يُعرف قبل اكتشاف الضفاف الأخرى للمحيط، أعبره في سبع ساعات، كان الخيال متأججًا وسرحاته

بلا حد، ومما قوى عليَّ تلك الحقبة حضور يمامة كانت تظهر فوق السطح يوميًّا في وقت معلوم أستطيع تحديده، قبل سماعي اللحن المميز لنشرة أخبار الظهيرة في الثانية والنصف، تظهر فجأة فوق السور، لم أرها قط قادمة من أعلى، أو منطلقة من سرب، موعدها غير مألوف، أصحاب الأبراج يطلقون ما عندهم ما بين العصر والمغرب، يلوح كل منهم براية لها لون درّب سربه عليه، فوق عدة أسطح كنت أرقب صعود بعضهم على السلالم الخشبية إطلالتهم من أعلى الأبراج، تلويحهم وإطلاقهم صفيرًا، لكل نغم مُعين، ما من مخلوق مرتبط بمكانه مثل الحمام واليمام، لو نقل على بعد عشرات الكيلومترات يمكنه الاستدلال على موطنه، على مكانه بالتحديد مدفوعًا ومسترشدًا بالرائحة التي تخص الموضع أو مكانًا قريبًا منه، أيضًا بالضوء، يقول المختصون إن إبصاره يمكن أن يرى ما يتجاوز الأشعة فوق البنفسجية، أما استدلاله على الجهات فيتم طبقًا لموضع الشمس نهارًا ونجوم معينة ليلًا، خاصة الشعرى اليمانية، المعروفة قديمًا بسوتيس، والذي تتوجه إليه مداخل الأهرام والمعابد كافة ومراقد الأقدمين، كل برج من الخشب، له اسم آخر: «الغِيّة» من الغواية أو الهواية، والمعني بها أولئك الذين يعتنون بالحمام واليمام لهم أسواقهم وأماكنهم، يعرفون بعضهم البعض، لهم مصطلحاتهم، ومن أغرب ما عرفته منها إطلاق اسم «ضريبة» على العينين النادرتين، لم أجد صفة جامعة بين اللفظين أو وشيجة، أجمل الأبراج تلك المشيدة من الطين، في الريف، والأروع فيها رأيته على الطريق السريع أثناء قدومي من سوهاج إلى أسيوط بالعربة، بالتحديد فيما يلي النخيلة، وللنخيلة عندي منزلة رغم أنني لم أدخلها يومًا، لم أنزل بيتًا أو دوارًا من دورها، لكنني متوله بها عند مروري لأن شاعرًا كبيرًا ولد وعاش بها، أعني محمود حسن إسماعيل، وزميلًا عملت معه واقتربت منه، رحل مبكرًا بدون مرض أو علة، نام ولم يصح، أقصد فيليب جلاب، عندما وقع بصري على مجموعة الأبراج المتوالية، تشكيل فريد لم أعرف له صنوًا أو شبيهًا، طلبت من السائق التوقف،

دنـوت وابتعدت، تأملت وانبهرت، لم ألتقط صورة رغم صحبتي للآلة، ما يجذب انتباهي أفضل بقاءه في ذاكرتي، تسجيله بالصورة تقييد وتحديد، أما الذاكرة فتلتقط المكنـون الخفـي حتى لو تبدل أثناء اسـتعادته يظل اللب باقيًا بشـكل ما، هذا حالي مـع لحظاتي الحميمة، مع الأماكن التي ارتبطت بها، ناصية كانت أو ركنًا في حديقة أو واجهـة مقهى، مرأى الأسراب في فضاء القاهرة القديمة يرقظ ذاكرتي، حركتها الدائريـة، الصاعـدة فجـأة، حيدتها عن اتجاه ظننتـه أبديًّا، أثنـاء اقتراب سرب من الآخر ربما تنتقل واحدة من هنا إلى هنا، السبب في تقديري وليس عن علم ودراية نشـوء تجاذب بين أنثى وذكر، لا شيء يغير مسـار اليمام إلا هذا، وهنا عنصر تشـابه مع الإنسان، فلا يغير مصير الإنسان إلا امرأة، هكذا قيل.

يمامـة الظهـيرة توثقت بي واعتدتهـا، جرى بيننـا عهد، حتى إننـي كنت أملس ريشـها فلا تجـزع ولا ترفرف مبتعدة، أمي من قعدتها لاحظـت، قالت مرة: «أكيد فيك شيء لله...».

لما تطلعت إليها متعجبًا: قالت:

«الحمامة تحبك، الطير يشـعر بداخل من يقترب منه ... الحمامة لا تخاف منك».
لم أقـل لأحـد، حتى أمي، حتى هـذه اللحظة، لأول مرة أبوح بـها عاينته، بما جرى أمامي، مرة تبسمت اليمامة، ضحكة بشرية كتمت شهيقي حتى غابت، مرة أخرى لمحت دمعتين وأسـى إنسـانيين، مـددت أصابعي ملامسًـا طوق رقبتهـا الأزرق، خطـت تجاهـي مرتـين، لأول مرة أنتبـه إلى رهافة قدميهـا ودقتهما، عنـد انصرافها مرفرفة التفتت إليَّ، بعد أيام قلائل حزم أبي أمتعتنا ولم أطأ هذا السـطح حتى هدم البيـت وإزالتـه، البيت رقم واحد، عطفـة باجنيد داخـل درب الطبلاوي، باجنيد اسـم حضرمي، كل ما يبدأ هكذا با...، يكون حضرميًّا، نزلت حضرموت، زرت شبام، وسيئون والمكلا. لها تأثير ومكانة.

قـرب منتصـف الليل فوجئـت باليمامة تطـل عليَّ مـن زاوية التقـاء الجدارين، معلقة إلى ما لم أتبينه، ابتسـامتها التي لم تستمر طويلًا، هي لا يمكن أن أخطئها، هـي، هي، كيف دخلـت الغرفة؟ أين رفرفة الجناحين؟ لونهـا الأحمر الطوبي عينه، يُقال إن اليمام عندما تنسـم رائحة البر انطلق من سـفينة نوح، غرست أول يمامة في طين الأرض، عادت ولونه يكسـو قدميها، لفت نظر نوح وفهم البشـارة، دعا الله أن يكسـبها اللون حتى يتميـز عن الحمام، هكذا صار، أصبحـت متوقعًا ومتعجلًا لقاءنا الليلي، كم اسـتمر ذلك، ربما عشرة... لا، بالدقة سـبعة شهور، عاد أبي يومًا قعـد مقمعـزًا، مهمومًا لم يكن يقدر على إخفاء شيء، قـال لأمي إنه من الضروري الانتقال، لا بد من البحث عن سكن آخر، قال إنه رأى حمامة في الليل تعبر الصالة إلى أودة الأولاد، هذه علامة شيء مخيف لا يمكنه تفسيره، علمت فيما تلا ذلك من سـنوات عديدة أنه الموت، خشـيت أمي، عانت من الفقد ما يكفي، هكذا عدنا إلى درب الطبـلاوي، إلى البيـت رقم 11، بيت أم كوثر، قريب من مدخل العطفة، فيه اسـتويت على الانفراد وبدأت السـعي، لم أر اليمامة قـط، لم أعرف أهي التي تجلت لأبي فـكان مـا كان، أم أخرى مغايرة؟ غـير أن اليمامة ظهرت لي في مكان آخر، جد ناءٍ، جد قصيٍّ، فريد، لم أتوقعها قط، ولكن تلك حكاية أخرى.

# يمام المحيط

ثلاثة اجتيازات:

كل وافد إلى الوجود يعبر مرة إلّاي، ثلاث ثلاث، الأولى في جهينة عندما جئت مـن عـدم ولم أكن أعلم أنني ماض إلى مثله، العدم لا يلـد إلا عدمًا، ليت المخلوق السـاعي يعي ويدرك، المولود لا يعي ولا يحتفظ بذكرى عبوره من الرحم الأصغر إلى الأكبر، لكنني ... لماذا أجزم؟ لماذا أقطع بما لم أحط به يقينًا أو علمًا؟ به من يدري ربما نوع آخر من الوعي لا ندري عنه شيئًا.

المـرة الثانية عندما فتحت عيني، تمام السـاعة السادسـة إلا الربـع طبقًا لتوقيت مدينـة كليفلانـد بولايـة أوهايـو الأمريكيـة إفاقتي مـن النوم العميـق جرت على مراحل وضعتها في يومياتي المعنونة «الخطوط الفاصلة» غير أن ما أعيه وأتمثله كأنه تـم بالأمس إبصـاري السـاعة في مواجهتي، ذهن صاف، حضـور مكتمل وضوء سـابغ وافد عـبر النافذة الزجاجية بعرض الجدار، هأنذا بعد شـق صدري وإجراء الجراحـة، كنـت مثل المولود وما ولـد، غير أنني مولود مكتمـل المعرفة، أعرف أن هذا سرير، وتلك أنابيب، وأن السـاعة في موطني الآن الثانية عشرة، سبع ساعات فـارق التوقيت، إنني أشـارك من أجهلـه في الغرفة، لا أدري جنسـيته، طريح على ظهره مثلي، غير أنه مغمض العينين، مسـدل الوعي، لا يتحرك يمينًا أو شـمالًا، لا تبـدر منـه دفـة، ما بيني وبينه سـتارة خفيفـة، لم أتمكن من ملامحه لم أكـن قادرًا على الحركـة كما أرغـب، فقط أحرك رأسي، ثم إنهم جاءوا ثلاثة؛ ممرضتان وآخر زنجي

فاره، حركوا السرير بدُربة، خرجوا بي إلى غرفة في نهاية الممر، مفردًا صرت، سرير يتوسـط حجـرة نافذتها عريضـة، أمامي سـبورة، يكتب عليها اسـم الممرضة التي ستكون مسئولة عني ومواعيد تنوع الدواء.

حجرة فسـيحة، ناصعـة الضوء، يمكنني أن ألمح شـاطئًا وزرقـة بحر ممتدة إلى مـا لا نهايـة، لأني طالعت الخريطة قبـل قدومي لأعرف الموضع الذي سيشـق فيه صـدري ويخرج منه قلبي إلى حين، تنتهك وحدتـه ومصونته، أدرك أنها بحيرة من تلـك الموصوفة بالعظمى، على الشـاطئ الآخر كندا وعلى مقربة شـلالات نياجرا التي أقرأ وأسمع عنها منذ صباي، النافذة شفافة والضوء ساج، ناعم، أبقيها عارية من أي سـتارة، رافعًا السرير المحاذي لظهري، فقط لمسـة للزر المرسـوم على لوحة مستطيلة، أخفض وأرفع وأتجه يمينًا أو يسارًا بغير أن أغادر مكاني، فقط، إلى الحمام لقضاء الحاجة أو للاسـتحمام وشريط لاصق عريض بطول صدري، حتى موضع السـرة، بعـد انصراف ماجدة زوجتـي بإلحاح مني لاكتمال الغروب وخشـيتي من المسافة إلى الفندق، شوارع الناحية غير آمنة مضت وبقيت منفردًا متطلعًا إلى الجدار المحاذي للنافذة، ماجدة رصت فوقه الكتب التي حرصت أن تصحبني في رحلتي هذه:

الخروج إلى النهار - برت أم هارو

العهد القديم، العهد الجديد

القرآن الكريم.

الفتوحات المكية، طبعة بولاق

الإشارات الإلهية، للتوحيدي

مفاتيح الغيوب، لمؤلف مجهول

موبي ديك، لهرمان ميلفيل

صحراء التتار، لدينو بوتزاني

حكايات حارتنا، لنجيب محفوظ

ذكريات منزل الموتى، لدستويفسكي

المجلد الأول من أعمال تشيخوف

ديوان الحماسة، لأبي تمام

الطاو

عندما يجيء الدكتور فوزي للاطمئنان يبدي كل مرة تعجبه «أول مرة أرى مريضًا يجيء مع مكتبة».

لكم أَمْتن له، كان لقاؤنا بداية صلة ومودة دائمة إلى وقت تدويني هذا، بعد ذهابه غمرني حنين وتحنين. أما الحنين فإلى طلة أمي الصامتة عليَّ، وأما التحنين فإلى مواضع بعينها عرفتها وذكرها لا يعني شيئًا إذا أخبرت عنها أو أسررت، طفوت عبر الوقت الذي مَرّ بي، رحت مني وعدت إليَّ، في لحظة بعينها استوثقت أنني لست بمفردي، ما زلت وحيدًا، في الثامنة إلا ربعًا ستطل الممرضة التي لازمتني بعد الظهر، تبتسم مستفسرة، مودعة في الثامنة تلج الحجرة الممرضة التي ستبقى حتى الصباح، تناولني الدواء تعود في العاشرة، أتمنى أن تكون من أغدقت عليَّ بالأمس نظرتها الحانية، وعندما أدارت ظهرها وشبت على أطراف أصابعها سمعت موسيقى الأنوثة منبعثة من تضاريسها الدافئة، سرى عندي ما سرى فكان ذلك أول إشارة إلى دبيب الحياة وأنني مازلت على العهد مقيمًا، قَويًّا على الحضور الخفي حتى إني أصغيت وأرهفت الحواس كافة، لم أتوصل إلى شيء، غير أنني عندما توجهت إلى النافذة رأيتها، ما حيرني أنني نطقت على الفور.

«أهلا...

مستعيرًا هيئة ودرجة وبوح وإقبال ابنتي ماجي عندما تراني بعد طول غيبة، لم أسأل نفسي: كيف ولجت فراغ الغرفة؟ بل...كيف وصلت إلى هنا؟

هي ...هي...

يمامة السطح، تبادلني الحنين بالنظر، يميل رأسها إلى يمين ثم شمال، تعتدل، والله مبتسمة ...باسمة، متسائلة، مالك ...مالك؟ هكذا يبدو صوتها، هديلها المرقرق الذي طالما حيرني، كنت راغبًا تواقًا، متوثبًا إلى طرح التساؤلات: كيف قطعت الزمن من طفولتي إلى الآن؟ بأي عطر فواح استرشدت، بأي الكواكب استدلت؟ بأي الحبوب تقوتت؟

لم أنطق ولم تهدل، صرنا إلى صمت نتفاهم خلاله بالبصر والبصيرة، بالإيماء، دارت حولي، رفرفت عليَّ، حطت عند طرف السرير المحاط بحاجز خفيض يحول دون السقوط، دنت مني وأملت عليَّ ما يجب الهمس به والنطق بمضمونه عند الحين المقدر، أطلعتها وأطلعتني، طلت عليَّ وتلمست دفء ريشها، سرت عندي وبسطت عهودًا قديمة، زقفتني كافة صنوف الغياب، حاذتني كما كنت أحاذيها عند خطوها فوق سور السطح، تمليت منها جليًا من مرقدي وقد عرفتها من قبل ساريًا، لكم انقضت المدة خفية، كأنها سلبت مني همسًا، انبعث من حضورها نغم أجهل مصدره غير أنه شجي، نفذ إلى صندوق غرارة قلبي المهتوك سره، من لم يعد له من الأين أين، وقع بيننا محاججة وتفاوض وتبسبس خفيض، أفضت إليَّ باقتفائها أثري عبر التنسم، توسدت الفراغ ونعست في الأعالي الأقاصي، كان مسراها قربي يعيدني سيرتي الأولى، عناصري التي وفدت من كل صوب حتى تلملمت فيَّ وها هي تتأهب لتفرق لا لقاء بعده، غمغم دمعي وترقرق سمعي حتى إني لم أنتبه لمثول الأنثى التي تمنيت حضورها، الفواحة، الباعثة للقوى المحركة، تتطلع دهشة متسائلة بالنظر...

# يمام الحد

فنـاء خانقاه بيبرس الجاشـنكير المواجهـة لبيتنا في الدرب الأصفـر رأيت اليمام يتجـول فـوق الأرض غير هيـاب أو فزع مـن المترددين، يلقط الحـب المتناثر أو ما يناسبه مما نجهله، لم أمسه، لم أتجه إليه رغم نزق الصبا، لم يحذرني أحد، سبب أجهله دفع بي إلى تأمله، متابعته كأنني منه وكأنه مني، يقال إن طلسمًا مدسوسًا في موضع مـا يُحدث أمرًا لأي عابر لعتبة البـاب بحيث لا يقدر على الشروع في مس الحمام أو اليمام أو ما شـابه، حتى المعشش قرب القبة الرأسية بمهابة، ماثلة عندي من خلال كل منافـذ الاقـتراب، عندمـا أجيء من شـارع الجمالية، أو من ناحيـة باب النصر أو من داخل الدرب، تشـكل عنـدي صرحًا وتكوينًا مع المئذنـة المصاغة على هيئة مبخـرة، طـراز نادر، أقدمـه فوق ما تبقى من مسـجد الصالح نجـم الدين أيوب، وإليه تنسب حارة الصالحية الواقعة بين شارعي المعز وخان جعفر وتلك من دروبي ومسـالكي ومن مسـتثيرات حنيني النافذ، تلك أعتقها فيما تلا العصر الأيوبي أقدم الأمـير بيبرس الجاشـنكير على بناء اثنتين فوق ما تبقى مـن مئذنتي الحاكم بأمر الله وقد شيدها في الأصل على شكل منارة إسكندرية، ويمكن ملاحظة شبه مع الجزء الأسـفل من مئذنة قبة المنصور قلاوون، والتي تعد من معالمي ومرجعيات ذاكرتي وكانت رؤية هلال رمضان تتم من فوقها ولا تزال ماثلة مكتملة، استكمل أيضًا ما تبقى من مئذنة ابن طولون التي صممها على نمط ملوية سـامراء التي لا تزال وقد ارتقيتها وطفت حولها من أعلى عند ركوب طائرة حوّامة زمن ما بعد حرب أكتوبر

ولذلك تفصيل لعلي مورده يومًا، ومما يحكى، عن ابن طولون المولود في سامراء أنه كان عتيًّا، قاسيًا، لا يبدي ابتسامة ولا يلهو حتى مع أحفاده ومن قبلهم أبناؤه، في أحد الأيام كان في مجلس، أمسك ورقة، لفها حول إصبعه الوسطى، عندئذ قال أحد ندمائه:

«ضبطتك تلهو».

تطلع إليه مجيبًا للتو:

«لا ألهو... إنها أصمم مئذنة المسجد...»

عندما وقع زلزال القرن الثامن الهجري، أطاح بالجزء العلوي شأن مئذنتي الحاكم، أتمها بيبرس الجاشنكير، وهذا اللقب يعني وظيفته، هو المكلف بتذوق الطعام قبل السلطان حتى لا يتمكن أحدهم من دس السم له، وظيفة جليلة وحساسة، لا يتولاها إلا الثقة المبين، يُقال إنه بعد أن أتم الخانقاه كان يرغب في جعلها مأوى لليمام والطيور المهاجرة أيًّا كان جنسها، ظل يسأل ويتقصى حتى عثر على بغيته في رجل من أقصى المغرب الأقصى، يقال من شنقيط المعروفة الآن بموريتانيا وكان كيِّسًا، مهذبًا، حافظًا للشعر وخلاصة المنثور، قارئًا لنجوم السماء، عارفًا بمواقعها ومصائرها، وقدرة أفلاكها على التأثير، هو من أعد الطلسم الخفي الذي يوقف أي مخلوق يدخل إلى الخانقاه من أي جهة عن مجرد التفكير في النزوع تجاه أي يمامة أو حمامة، هذا مجرب معروف وحير ابن خلدون عندما قدم إلى مِصْرَ وتولى مشيخة الخانقاه وأشار إلى ذلك في كتابه الجامع، ذي المقدمة التي أصبحت معروفة، ذائعة أكثر من المتن نفسه، وإذا كان الطلسم يستدعي طلسمًا فلا بد من الإشارة إلى آخر خفي في داخل الأزهر أعده عجوز نوبي من قبائل الكنوز، طلسم يمنع أي طائر من التحليق أو سكنى الجامع، التعشيش فيه خاصة وهذا سارٍ حتى يومنا هذا، اجتهد كثيرون في محاولة الوصول إلى مكمنه والإحاطة بكنهه، غير أنه من الثابت فشل الكافة حتى كريزويل عالم الآثار الإنجليزي، والذي يعد حجة

في مجالـه، ما زلت أتـردد على الخانقاه خاصة عند العصر لاستلهام انقضاء الوقت وإدراك أن الإنسـان في خُسر، أما اليمام فله الأمـان والمودة في القربى، من المواضع التـي يأمـن فيها الحمام ويلتقط الغلة عند أقدام المارة ميدان سـان مارك في البندقية، عندمـا نزلتهـا أول مرة منـذ حوالي عشرين عامًـا قبل الأوان الحالي، يـاه كأن ذلك بالأمـس، عندما وقفت في الميدان أخذني العجب، كأنني في صحن مسـجد، المباني حوله على مستوى ارتفاع واحد، فوقها عرائس متساوية تمامًا مثل تلك التي ينتهي عندها جدران المسـاجد والكنائس، معظمها مستلهم من زهرة اللوتس، الفرق في الهيئة وعدد الحدود، فثمة ما يشتمل على واحد لا غير وهذا أقرب إلى الزهرة الأصل رمز التجدد وعودة الحياة ومنها يبعث الإنسـان من جديد، يولد تارة أخرى، ومن العجائـب ما عثـر عليه كارتر في مرقد تـوت عنخ آمون، مزهرية عـلى هيئة لوتس يبـزغ منها رأس الملك الشـاب، في مسـجد الحاكم للشرافات خمـس حدود، وربما يكون لذلك صلة بعقيدة الدروز التي تقول بحدود العقل الخمسـة، في سان مارك أطلـت النظـر ومن مقهى عتيق رحـت أرنو إلى عازفة كمان شـابة كانت الأنغام لا تتدفق من الأوتار، إنما من جسدها الأُمْلودي، سواد ثوبها الذي يلامس تقاسيمها مـع بشرتهـا الواقفة عند حدود البياض وصفرة زغب شـعرها ألحـق بي الدوار، في نوافـذ قصر الدوق رأيت عناصر زخرفة السـجاد الفارسي، والتركمان وبخارى في النوافذ المنمنمة وحوافها، طفت المدينة عابرًا جسورها الثلاثمائة مسترشدًا بصاحبة عرفتهـا في عـرض القناة الكبـيرة كان لعينيها ألق ثريا الموراـنـو الذي يصنع في قرية قريبة، اتصل بيننا مسرى المودة وكان ذلك فاتحة الخطاب، هيه... انطوى ذلك بعد تعدد لقاءاتنا في مواضع شتى حتى كان ما كان مما لست أذكره فلا يسألني أحد عن التتمة، ذاك حسـبي، حمام سان مارك، يمام النافورة القريبة من تمثال النيل في روما، يمام الكعبة، يطوف الصحن رغم الزحام ولا يحلق أبدًا فوق البيت العتيق له الحمى ومنـه الحمـى، أما اليمام المـكان الذي رأيته في صحن المسـجد القديم الحاوي لمرقد

سيدي نجم الدين كبرى في بادية خرتنك ولي معه شأن، عند الحد الغربي لوادي الملكات اعتدت في إقامتي الديسمبرية الخروج إلى حيث أشرف على أول البادية، أقترب من تجمعات الطيور القادمة من برد الشمال، رأيت بعضها فوق السطح في صباي المولي، مع اتساع المدينة وتزايد الأدخنة والأبخرة وعكارة الأنفاس بدأ تغير في المسارات، صارت الطيور تلزم الأطراف، في الأَقْصُر على مدى أربعة وخمسين عامًا منذ بَدْءِ مجيئي لم يتبدل شيء، خاصة عند الأطراف، فيما يلي الوادي الذي يقع به مرقد آي الكاهن الذي تحوم الشكوك حول قتله توت عنخ آمون واعتلائه العرش، أقعد منفردًا وتأتيني مفردات الأمم، بلبل أبيض وهذا من النوادر، كروان سنغالي، البكاشينة المزوقة، يحوم حولي صقر الغروب ومرة حط فوق كفي، تطلع إليَّ ثم اعتلى كتفي، مال برفق ملامسًا وجنتي فلزمت!، لم أعرف إذا كان هذا ذكرًا أم أنثى، لكن حنية الملامسة ولطف الاقتراب جعلني أوقن أنها تنتمي إلى ألطف الكائنات كما قال شاعرنا صلاح جاهين، رأيت الكناري، دقناش البادية، دقناش القبطي، الأكحل، وتبادلت مع غراب البين النظر، كنت أنام وكافة الأجناس حولي وإذا غفوت لا تحدث ضجة، غير أن صقر الصحاري ارتفع وانقض ملتقطًا عقربًا غليظة الحجم كانت تقصدني، إذا أدركني الغروب ومالت الشمس لتبدأ رحيلها الليلي تدنو مني الزرازير توقظني، بمس الجفون وحافتي أذني، في منامي منذ سبع سنوات، بعد وصولي بأربعة أيام جاءني صاحب قديم، غابت أخباره عني منذ أحوال، بدا شابًّا كما عرفته، قال إنه ملم بألفة الأسراب لي، ومحبتي لأنواعها، قال إن هذا عجيب، يعني أن شيئًا صافيًا من زمني الأول ما زال مكنونًا عندي، قال إنه يوصيني بطائر نادر أفلت من رفقته فضل مساره، إنه الحسون المغربي، سيأتي إلى موضعي، رأسه من درجة لون حمراء لا شبيه لها حتى في أندر الأصباغ واليواقيت، ما عليَّ إلا أن أمسكه برفق، وأن أحتفظ به وأسافر شمالًا إلى أبيدوس، أطلقه فوق الأوزيريون، هناك سيهتدي إلى ولّافه تطلعت إليه غير راض، تكليف

غريب لم أعتده، لم يحدث قط أن خطر لي إمكانية التفكير في مدّ يدي قاصدًا التقييد إلى أي طائر من أي نوع، استيقظت كدرًا حتى إن عم محمود استفسر عندما رآني في الصبح إذ يتنفس.

«مالك... جرى لك شيء؟»

لم أنطق، فقط تطلعت إليه صامتًا، بعد الظهر مضيت إلى حيث موضعي، لمحت أسرابًا شتى، ما هذا الحسون المغربي؟ لم أسمع بذلك، عندما أصبحت قاب قوسين أو أدنى فوجئت بردة فعل لم أعهدها، كل الطيور التفتت ناحيتي حركة غير معروفة لي، اندلعت مرفرفة في الجو، غابت عني ولم تعد لي حتى يومي هذا...

# يــمــام أبـــدًا

جاء في كتاب الإصطخري المفقود «سجع الغمام في أخبار اليمام» إنه من الأنواع المرصودة جنس يُقال له: «راحل» يطير منذ خروجه من البيضة حتى دنو منيته، يعد من أصغر الأنواع الموجودة حجمًا، لا يتجاوز طوله كف اليد إلا بمقدار إصبعين في بعـض الأخبار غير المؤكدة، يطير على ارتفاعـات عالية حتى إن الجوارح القوية لا تقـدر عـلى بلوغه، لا يعرف أسرابه الكثيفة إلا بعض سـكان الجبال المرتفعة عندما يرون عبور ما يشـبه سـحبًا كثيفـة مختلفة ألوانها، أخضر وأحمـر وأصفر وأخرى لا يمكن توصيفها لأنها غير موجودة في سـائر أنـواع الطيور المعروفة لهواة الأصناف كافـة، يقول سـكان الهضاب المرتفعة، مـن منغوليا إنه لو تصـادف رؤية الأسراب قبـل غـروب الشـمس أو شروقها فإن ما يصـدر من أصداء الألـوان في الفراغات العـلا من أعاجيـب الوجود، غير أن هـذا لا يتاح إلا نادرًا وربـما كل عدة أجيال، فمن الموثوق به أنها لا تسـلك مسارات محددة شأن كل ذي جناحين، إنها في هيامها الدائـم تتبع ما يصدر عنها وربما يكون لأحوال الجو على تلك الارتفاعات القصية تأثـير، قال البعض هذا، لكن كل ما يتردد غير موثوق به، لأن جمع الدلائل صعب مع بعد الارتفاع القصي، يؤكد الإصطخري أن بعض سـكان جزيرة سـومطرة في المحيط الهندي يؤكدون أن «يمام أبدًا» لا بد أن يمر بالجزيرة والسبب وجود شجرة مـن اللبان، نـادرة، لا تنمو إلا فوق مرتفعات الجزيـرة، ومن أجلها جاء المصريون القدامـى لأن طقـوس عبـادة الإله في قدس الأقـداس لم يكن ممكنًـا أن تتم إلا مع

الدخـان المتصاعـد من فحم خاص لا يوجد إلا في أقصى جنـوب المعمورة فيما يلي منابع النيل، ونوع نادر من البخور ينمو شجره في صلالة بساحل عمان بين أشجار كثيفـة من جـوز الهند تنبت وتثمر قـرب قرية صغيرة من إقليم ظفار، شـجر جوز الهند لا يعرف إلا في أقطار آسيا عدا هذه المنطقة.

أقـول إنني قرأت ما نقل عن الإصطخري، للأسـف لم يصل إلينا إلا شـذرات مـن مؤلفه في كتـب متفرقة، وإن ذكـره جزيرة سـومطرة كان دافعًا قويًـا لا يعلمه إلاي للانضـمام إلى هـذه الرحلة الخاصة التي أعدت لكاتب ألماني شـهير احتفى به واسـتقبله القوم بحفاوة ضـمن ذلك تخصيـص طائرة تقلع صباحًا من عدن وتعود مسـاءً، إلا أنني سـألت عن إمكانيـة بقائي يومين، فقيل لي: على الرحب والسـعة؛ ذلـك أنني مضطر للبقاء ثلاثة أيام حتـى موعد الطائرة التالية العادية، نزلت ضيفًا على مسـئول الزراعة في المدينة، إقامتي يطول الحديث عنها وربما أدون مفرداتها في مجال آخر إذا سـمح الوقت وخلا البال، إلا إنني أورد ملمحين، رحلتي الشـاقة في عربة رباعية الدفع، حكومية، قادها الناظر بنفسه في مدق وعر يرتقي تلالًا متوالية كلها مزروعة بأشجار اللبان، مشهده غريب، جعد، متشابك، خاصة الجذع ثلاثي الشـجر، أضفى على المكان غرابة، لكن الشـجيرات السـبع النـادرة التي يعبر يمام الأبـد المحيـط من أجلها قائمـة، محاطة، محمية بالأهـالي، الجزيرة كلهـا محمية طبقًا لقـرار من الأمـم المتحدة، خبراؤهـا يقيمون في أماكن خاصة، غـير أنهم يتجولون باسـتمرار للحفاظ عـلى مظاهر الطبيعـة، والظروف التي تؤدي بـآلاف الكائنات البحرية الغريبة، كثير منها غير معروف في المراجع المختصة، رأيت لحظات خروج القشريات والسـلاحف وأنواع الإستاكوزا ضخمة الحجم، بعضها في طول صبي تجاوز العاشرة، سـمعت أصوات الملاغاة والسـفاد، توقفت طويلًا أمام الأشـجار السـبع، درت حولهـا، لم أتجـاوز الحواجـز الدائريـة المغروسـة، قال الناظـر إن ثمة عُرفًـا ينظـم العناية بها، ترعاهـا عائلة يتكلم أفرادها لغة خاصـة بهم، يؤكدون أنها

المصرية القديمة التي كانوا يتخاطبون بها مع الرسل القادمين لاستجلاب البخور النادر من تلك الشجيرات، للأسف لم ألتق أحدًا من الأسرة، تعلل ناظر الزراعة بأسباب شتى، وربما حال بيني وبينهم لسبب ما، غير أنني التقطت صورًا، وفيما بعد مضيت إلى مقري ومثواي في البر الغربي، استيقظت مبكرًا قبل قدوم السائحين، خلوت بالمعبد الذي لا مثيل لمعماره، أبدعه سنموت لمن ارتضته وقبلته صنوًا ومكملًا لفراغاتها، عمال وفنانو دير المدينة ألموا بالصلة، سجلوا ما خمنوه على شقف الفخار، الأوستراكا، تفحصت الرسوم فوق الجدران، ترسخ يقيني أن ما عاينته في سومطرة هي المسجلة على جنبات المعبد المفرد في حضن الجبل، غير أن ما لفت نظري وحيرني رسوم عصافير دقيقة تتخذ وضعًا لا هو على الأرض ولا في الفراغ، أجنحتها مرفرفة بطريقة مغايرة كأنها تهفهف إلى أسفل، أيمكن أن تكون هي؟ إذن ... كيف تمكنوا من رؤيتها وتفحصها، عدت إلى كل ما استطعت الاطلاع عليه من طيور مِصْرَ، خاصة «طيور مِصْرَ» للكولونيل «مينرتزهاجن» وآخر للدكتور أحمد الحسيني وثالث شامل جامع لمحمد العناني ورابع من وضع برتل برون إضافة إلى ما جاء ذكره في المصادر القديمة مثل «الحيوان» للدميري «والحيوان» للجاحظ وكتاب مغربي لمؤلف مجهول وجدت فيه ذكرًا يمكن إدراجه في مجال التلميح، يذكر أن ثمة جنسًا من الطيور يطوف إلى الأبد بالفضاء، لو حط على أرض يموت. استعدت ما سمعته في سومطرة عن صلة غامضة بين شجيرات اللبان السبع وهذا النوع من اليمام، سمعت ممن التقيتهم تأكيدًا بوجوده وسباحته الأبدية في الفراغات العلا، لكن لم أتلق إفادة عن كيفية توالده، ورعايته للبيض خلال هذا التحليق اللانهائي، سمعت تفاصيل لا تخص نوعًا بعينه يتضمن قدرة الطيور على النوم خلال هجراتها الطويلة من مناطق الشمال إلى الجنوب وأثناء إيابها، بعض أفرادها يغفو وآخر يبقى يقظًا، مع الاستدلال بالغريزة على الاتجاه ومواضع الوصول حيث الدفء والماء والغذاء، عند خروجي إلى الصحراء، إلى

حواف البحيرات راقبت ورصدت ودونت الأنواع وتفاصيل السلوك، لكنني عجزت عن التوصل إلى تفاصيل دقيقة مقطوع بها عن يمام الأبد هذا، ألمح لي عجوز سومطري يعرف لغة الأسماك في أعماقها أن شجيرات اللبان التي اهتدى إليها المصريون القدامى هي العلامة الوحيدة في الأسفل التي يهتدي بها هذا الجنس النادر، من هذه الشجيرات تنبعث رائحة خاصة لا تقدر أي حاسة على التقاطها إلا يمام الأبد، أدرك المصريون ذلك فعمدوا إلى استجلاب هذا اللبان عبر شجيراته بعد أن وفروا له كافة وسائل النمو والتفتح داخل المعبد المعروف الآن بالدير البحري حتى تعبر الأسراب الخفية لصعوبة رؤيتها أو رصدها، للأمر صلة وثيقة بالمعتقد والرؤية، وهذا ما شق عليَّ تحصيله أو الإحاطة بتفاصيله أو حتى بما يومئ إليها، غير أنني شغلت بهذا اليمام حتى أصبحت دائم التطلع إلى أعلى أينما حللت أو وصلت، لعل وعسى، أحيانًا يقوى عليَّ شعور بمروره على محاذاة مني إلى أعلى، جرى ذلك في مواضع لم أتخيل أن ذلك الحضور الغامض لما لا أدركه سيقوى عليَّ إلى حد الرفرفة والهفهفة، يصعب عليَّ إحصاء المواضع، أذكر على سبيل المثال وليس الحصر، ضفة نهر اليانجستي بالصين، وقمة سلمان بك بكردستان، وقرب مدينة الداخلة بصحراء المغرب، وعند شاطئ المحيط المحاذي لسان نازير الفرنسية، أما الموضعان اللذان قوي عليَّ الأمر فيهما، فهما البر الغربي بالقرنة والجلف الكبير بالصحراء الكبرى، وأخيرًا زاد الأمر كل حين حتى لأسمع وأرى هفوف الأسراب الطوافة أبدًا، والتي يتحلل كل منها فور دنو الأجل إلى ذرات خفية تبادر إلى التفرق في الفراغات سحيقة النأي، يقوى عليَّ حضورها، مرورها، عبورها، رحيلها إلى اللاجهة، أدركها على البعد، كأني أصير إليها...

# مقتبس

يقول الجاحظ في كتابه «الحيوان»، حققه ودققه وشرح غوامضه عبد السلام هارون:

«الحمام وحشي، وأهلي، وبيوتيّ، وطوراني - منسوب إلى طور سينا - وكلّ طائر يُعرف بالزواج وبحسن الصَّوت، والهديل، والدُّعاء، والترجيع فهو حمام، وإن خالف بعضُه بعضًا في بعض الصوت واللون.

وقال: القُمريُّ حمام، والفاختةُ حمام، والورشان حمام، كذلك اليمام.

# مقتبس

ومـن مناقب الحمام حُبّه للناس، وأنس الناس بـه، وأنك لم تر حيوانًا قطُّ أعدل موضعًـا، ولا أقْصـد مرتبـة من الحمام، وأسـفل الناس لا يكـون دون أن يتخذها، وأرفـع الناس لا يكون فوق أن يتخذها، وهي شيءٌ يتخذه ما بينَ الحجّام إلى الملك الهمام.

# مقتبس

ويقول الجاحظ عن لقاء ذكر الحمام بأنثاه:

يبتدئ الذكر الدعوة، وتبتدئ الأنثى بالتأني والاستدعاء، ثم تزِيف وتتشكل، ثم تُمكِّن وتمنع، وتجيب وتصدف بوجهها، ثم يتعاشقان ويتطاوعان، ويحدثُ لهما من التغزُّل والتفتُّل، ومن السَّوف والقبل، ومن المصِّ والرشف، ومن التنفخ والتنفج، ومن الخيلاء والكبرياء، ومن إعطاء التقبيل حقه، ومن إدخال الفم في جوف الفم، وذلك من التطاعُم، وهي المطاعمة.

ويقول:

ثم مع إرسالها جناحيها وكفيّها على الأرض، ثم الذي ترى من كسحه بذنبه، وارتفاعه بصدره، ومِن ضَرْبه بجناحِه ومِن فرحه ومَرَحِه بعد قمْطِه والفراغِ من شهوته، ثم يعتريه ذلك في الوقت الذي يفتر فيه أنكح الناس.

# مقتبس

ويقول:

ومما أشبه فيه الحمام الناس، أن ساعات الحضن أكثرها على الأنثى، وإنما يحضن الذكـر في صـدْر النهار حضنًا يسـيرًا، والأنثى كالمـرأة التي تكفـل الصبي فتفطمه وتمرِّضه.

# مقتبس

قال مثنى بن زهير:

لم أر شـيئًا قَـطُّ في رجل وامرأة إلا وقد رأيـتُ مثله في الذكر والأنثى من الحمام. رأيـت حمامة لا تريد إلا ذكرها، كالمرأة لا تريد إلا زوجها وسـيِّدها، ورأيتُ حمامة لا تمنع شـيئًا من الذكورة، ورأيتُ امرأة لا تمنع يد لامسٍ، ورأيت الحمامة لا تزيف إلا بعد طَرْدٍ شديد وشدة طلب، ورأيتها تزِيف لأول ذكر يُريدها ساعةَ يقصد إليها ورأيتُ من النسـاءِ كذلك، ورأيتُ حمامة لهـا زوج وهي تمكن ذكرًا آخر لا تعْدوه. ورأيتُ مثل ذلك من النساء.

# مقتبس

وقال: لا يكون التقبيل إلا للحمام والإنسان، ولا يدعُ ذلك ذكر الحمام إلا بعد الهَرَم، وكان في أكثر الظنِّ أنه أحوجُ ما يكون إلى ذلك التهيج به عند الكِبَر والضعف.

# بيت هائم

وإلا فما بالي ولم أشـــهد الوغى      أبيت كأنــي مـثـخـــن بجراح

آخـــر

فالأرض تعلـــم أنني متصرفٌ      من فوقهـا وكأنــي مـــن تحتها

تعـب

وإذا كانــت النفـــوسُ كبارًا      تعبتْ في مُــــرادِهَا الأجْسَـــامُ

«المتنبي»

سِــرٌّ

فَكنْتُ إذا يَمَّمـتُ أرضًا بَعيدَةً      سَرَيتُ فَكُنْتُ السِّرَّ والليل كاتِمُهُ

«المتنبي»

# قُقْنس

وكان بها فيما يزعمون الطائر الذي يقال له قُقْنس، وهو طائر حسن الصوت وإذا حان موته زاد حسن صوته قبل ذلك بسبعة أيام حتى لا يمكن لأحد أن يسمع صوته لأنه يغلب على قلبه من حسن صوته ما يميت السامع، وأنه يدركه قبل موته بأيام طرب عظيم وسرور فلا يهدأ من الصياح، وزعموا أن عامل الموسيقى من الفلاسفة أراد أن يسمع صوت ققنس في تلك الحال فخشي إن هجم عليه أن يقتله حسن صوته فسد أذنيه سدًّا محكمًا ثم قرب إليه فجعل يفتح من أذنيه شيئًا بعد شيء حتى استكمل فتح الأذنين في ثلاثة أيام يريد أن يتوصل إلى سماعه رتبة بعد رتبة فلا يبغته حسنه في أول مرة فيأتي عليه، وزعموا أن ذلك الطائر هلك ولم يبق منه ولا من فراخه شيء بسبب هجوم ماء البحر عليه وعلى رهطه بالليل في الأوكار فلم يبق له بقية، ويقال إن بعض الفلاسفة أراد ملك من الملوك قتله فأعطاه قدحًا فيه سمٌّ ليشربه فأعلمه بذلك فظهر منه مسرة وفرح، فقال له ما هذا أيها الحكيم؟ فقال هل أعجز أن أكون مثل ققنس:

**خطط المقريزي – أول – ص18**

# أين سحر اليمام؟

تقول بربارة إلنا أسترالية الموطن - في كتابها عن اليمام:

ماذا يجذب الإنسان إلى اليمام، إلى الحمام، إلى سائر الطيور، أهو التنوع الجميل؟ مـن اليمام الصغير صاحـب الأطواق، إلى ملكة الحمام فيكتوريـا المتوجة، إلى الحمام الطابوتشـيني الهولنـدي القديـم، إلى حمـام الترومبيـتر الفرنكفـوني، إلى الزرازيـر والقـماري المصريـة؟ هـل هو السـحر الـذي يقترن مـع غريـزة العـودة إلى الديار، وغريزة السرعة التي تقترن بالأنشـطة الرياضية؟ أم أن السـبب هو روعة التحليق في السماوات وتوقنا إلى ذلك؟ أم أن الإجابة تكمن بالقرب منا، أي أن الطيور ترمز إلى الآخر بالنسبة لنا؟

# شعر

قال الخليفة المأمون: مهما وصف الناس الدنيا لما قدروا على الوصف كما قال أبو نواس:

ألا كلُّ حيٍّ هالكٌ وابنُ هالكٍ  وذو نسبٍ في الهالكينَ عريقُ

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت  له عن عدوٌ في ثيابِ صديقِ

ذكر ذلك ابن خلكان في «وفيات الأعيان».

# تعريف

قال ابن بختويشع في كتابه الحيوان، وهذا نادر جدًّا:

«الأتن: بضم الهمزة والنون، طائر يضرب إلى السواد، له طوق كطوق الدبسي، أحمر الرجلين والمنقار مثل الحمامة إلا أنه أسود، إذا اعتراه حزن، أو أسى، ينوح كالنساء.

# تعريف

جاء في الجزء المفقود من «الحيوان» لأرسطو ما نصُّ ترجمتِهِ:

«الأنيس: طائر حاد البصر، يرى من مسيرة ثلاثة أيام، يشبه صوته صوت الجمل، مأواه قرب الأنهار والأماكن كثيرة المياه، ملتفة الأشجار، له لون حسن وتدبير في معاشه، يحب الأنس ويقبل الأدب والتربية، وفي صفيره وقرقرته أعاجيب، وربما يفصح بالأصوات كالقمري، وربما أبهم كحمحمة الفرس، غذاؤه الفاكهة، وربما اللحم، ويألف الرياض.

# وحشة علي

جاء في «عمل اليوم والليلة» لابن السني عن خالد بن معدان عن معاذ ابن جبل، أن عليًّا رضي الله عنه شكا إلى النبي عليه الصلاة والسلام الوحشة فأمره أن يتخذ زوج حمام وأن يذكر الله عند هديله...».

وفي سنن أبي داود والنسائي من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «يكون في آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة».

# مسافات

جاء في «الحيوان» للدميري، أن من طبعه أنه يطلب وكره ولو أرسل من ألف فرسخ، ويحمل بالأخبار ويأتي بها من البلاد البعيدة في المدة القريبة، وفيه ما يقطع ثلاثة آلاف فرسخ في يوم واحد، وربما اصطيد وغاب عن وطنه عشر حجج فأكثر، ثم هو على ثبات عقله وقوة حفظه ونزوعه إلى وطنه حتى يجد فرصة فيطير إليه وسباع الطير تطلبه أشد الطلب وخوفه من الشاهين - الصقر - أشد من خوفه من غيره وهو أطير منه كله، لكنه يذعر منه ويعتريه ما يعتري الحمار إذا رأى الأسد، أو الشاة إذا رأت الذئب والفأر إذا رأى الهر.

# طــوق

حـدث بعـض القدامى فقالـوا إن نوحًا أرسـل الغراب والحمام من السـفينة لما استقرت على الجودي، فلم يرجع الغراب فدعا عليـه، ورجعت الحمامة فدعا لها، فتزينت بالطوق عن سائر الطير.

# طائر

تتنوع أسماء الطيور وأنواعها، لكنها تبقى دائمًا وأبدًا مظهرًا من مظاهر الروح الإلهية لتربط رمزيًّا بين الظاهر والباطن، بين ما هو محدود مقيد وما هو مطلق، عند تتويج الملك على الأرضين، مِصْرَ العليا ومصر السفلى، يقوم بإطلاق أربعة من الطيور إلى الجهات الأربع الأصلية ليعلم القاصي والداني، الظاهر والخفي أن ملكًا جديدًا تولى ...

# بـــا

إنها المكون التالي للاسـم في الإنسـان وسـائر المخلوقات، إنها الروح، تظهر في الرسـوم وبعض التماثيل على هيئة جسـم طائر رأسـه بشري، تقترن البا بالكا لتمدا الكائن بالطاقة الروحية اللازمة للسعي، الكا هي النفس، وفي ريف مِصْرَ العليا ما يزال القوم يلتزمون الصمت عند ظهور فراشة خضراء، إنها روح عزيز راحل جاء لزيارة من يحب.

# حمام اليمام

قال الأصمعي في كتاب: «الطير الكبير» إن اليمام هو الحمام البري، الواحدة يمامة وهو ضروب، والفرق بين الحمام الذي عندنا واليمام أن أسفل ذنب الحمامة مما يلي ظهرها فيه بياض، وأسفل ذنب اليمامة لا بياض فيه، انتهى.

# طـوق

نقـل النووي في التحريـر عن الأصمعي، أن كل ذات طـوق فهي حمام، والمراد بالطوق الحمرة أو الخضرة أو السواد المحيط بعنق الحمامة في طوقها.

# عـب المـاء

وقال الإمام الشـافعي في «عيون المسـائل»: وما عبَّ من الماء عبًّا فهو حمام، وما شرب قطرةً كالدجاج فليس بحمام.

# شعر

شقيق بن سليك:

| | |
|---|---|
| ولم أبـكِ حتـى هيَّجتنـي حمامةٌ | تغَنّي الحمام الورق فاستخرَجَتْ وجدي |
| وقـد هيَّجـت مني حمامـةُ أيكةٍ | من الوجد شوقًا كنتُ أكتمه جهدي |
| تنادي هديلًا فوقَ أخضرَ ناعمٍ | لوقتِ ربيع باكر في ثرى جَعْدِ |
| فقلت تعاليْ نبكِ من ذكر ما خلا | ونذكـر منه مـا نُسِرُّ ومـا نُبدي |
| فإن تُسـعديني نبك دمعتَنا معًا | وإلا فإني سوفَ أسفَحها وحدي |

# شعر

جحدر الفقعسي:

وكنتُ قد اندملتُ فهاج شوقي بكاءُ حمامتين تجاوبانِ

تجاوبتا بلحنٍ أعجميٍّ على غصنينِ مِنْ غربٍ وبانِ

فكان البانُ أَنْ بانت سُليمى وفي الغَرب اغترابٌ غير دانِ

# شعر

مجنون ليلى:

لقـد هتفت في جنْـح ليل حمامةٌ ... عـلى فَنَـن تدعـو وإني لنائـمُ

فقلت اعتذارًا عنـد ذاك وإنني ... لنفـسيَ فيـما قـد رأيـتُ للائـمُ

أأزعـمُ أني عاشـقٌ ذو صبابـةٍ ... بليلى ولا أبكي وتبكي البهائم؟

كذبتُ وبيت الله لو كنتُ عاشقًا ... لما سـبقتني بالبـكاء الحمائـمُ





حكايات مراكشية

# في قبة الأمراءِ المراكشية

أجلس ما بعد تمام الغروب، فضاء مراكشي مرقرق، قبة مستوفية الاستدارة تامة النسب، مشرفة على سرحة ماء مؤطر في مستطيل رحب، حدائق محيطة، منصة بسيطة، اسم الموضع بعث عندي حنينًا ما إلى أمور لا أستدل عليها، قبة الأمراء، أجلس بين مدعوين وضيوف من بلدان أخرى، بعد المفتتح انتقلت عضوات الفرقة الإيرانية إلى الصدارة فحللن عندي أهلًا ونزلن في روحي سهلًا، خاصة تلك البنية ممسكة الطار، نحيلة، فارهة، ستبقى من ثوابتي، تفاجئني حيث لا أتوقع وفي مواضع لم أبلغها إلا بعد طول ترحال واغتراب، وقفتها، جِلستها، عزفُها، لم أعرفها إلا من خلال مرقاب البصر، صلتي بالموسيقى الفارسية يطول الحديث فيها، ربما أفصح في مقام آخر، غير أنني أوجز فأقول إنني عرفتها بالتداعي بعد إيغالي في تذوق الموسيقى التركية ومعرفة أحوالها وأعلامها، في ضاحية باريسية على الطريق المؤدي إلى مدينة ليل التي أعرفها أولًا من الروايات القديمة ثم بالإقامة، التقيت موسيقيين إيرانيين،عازف متقن لآلة السيتاد الوترية، مستخرج لأدق مكامنه، على شاطئ المحيط التقيت في سان فرانسيسكو بعازف للآلة نفسها، قادر متمكن، هما صنوان، الأول اسمه داريوش إطلاعي، الثاني حسين علي زاده، لكل منهما حضوره وطرائقه، لكل أسلوبه وروحه، أحتفظ بتسجيلات وافية واضحة للحفلات التي حضرتها لكل منهما، الأمر مغاير لما أصغي إليه وأتلقاه من أخرى لم أكن جزءًا منها، إذ يدوي التصفيق أتجه أكثر إلى ما كان، إنما أنا جزء

من البِنْية. للأسف لم أحتفظ بتسجيل لما أصغيت إليه في قبة الأمراء، غير أن مطلع العزف يتجسد أمامي وفي سمعي بمجرد ورودها عليَّ، ملامحها مقامات وأنغام، هنا أستعيد ما دونته في «مقاصد الأسفار» أورده نصًّا:

كانت مثل زميلاتها الأربع الأخريات، نحيلة جدًّا، كأنها عصا ارتدت ثوبًا، ملامحها مستطيلة، تبدو خلال مشيها وكأنها تحاول الاختباء من شيء ما لا يبين، كلهن يرتدين السواد ويغطين شعورهن بحجاب خفيف، يظهر ولا يسفر، يومئ ولا يشير، يوحي ولا يلفظ، زميلاتها أربع أستعيدهن جمعًا، لا فوارق بينهن، مجرد مساحة من لون قاتم الحلوكة، ملامحهن اندمجت في ذاكرتي عداها، هي تمسك بطار أشبه بالغربال، الثانية أمامها قانون، والثالثة تحتضن كمانًا، أما الرابعة فلها التنبك،قريب من الطبل البلدي، غير أن ما ينبعث منه له رهبة، صوت مفرد، مهيب، أعرف أستاذًا تخصص فيها، جمشيد الأب، لقيته في رويامون بصحبة جمشيد الابن، لا أستدعي ما يتعلق بإيران إلا وترد عليَّ النحيلة، ليس لأنها الأجمل، ملامحها خبيئة لا تلفت النظر، إنها تبدو متمهلة كرائحة العنبر، تبث بهدوء، صمت، يسمع منه حفيف يتصاعد حتى يصبح صوتًا لشلال كاسح لكل ما يكمن بين الصلب والترائب، الأجمل أكبرهن سنًّا، المنشدة. لم أعدها منهن لأنها لم تختص بآلة رغم أنها جزء منها، صوتها، جمالها للعمر المتقدم تتجسد فيها رهافة وسريان الجميل، ما يضفيه داخل دافئ على خارج مهيب، طلة من الميراث الإنساني الرحب البديع، أرقب أناملهن تضبط ما يمسكن به، لا أدري من أين ستنبعث الأنغام، من الأصابع أم الأوتار والأسطح المشدودة؟ ترى: ماذا ستقدمه تلك البنية الرهيفة التي تبدو كظل لأصل خفي غائب لا ندري كنهه، الأناشيد من أشعار مولانا، وعندما نقول في كل لغات العالم مولانا فهذا يعني مولانا لا غيره، إنه جلال الدين دفين قونية، سافرت إليها بترتيب من صاحبي أكمل أوغلو، من مواليد مِصْرَ، الأبرز في إستانبول، تتأهب الفرقة النسائية، مفتتح حفلات السماع، تمسك الطار،

ترفعه إلى أعلى، من الطبيعي ألا يكون المفتتح إلَّاها، هي ولا غير، النغمة الأولى وما تبقى توابع، تمامًا مثل ضربات القدر في مفتتح الخامسة لبيتهوفن، بداية لا تنقضي حتى لو توارت إلى حين، تظل بادية، ماثلة، محددة للمسار كله، مفتتح البداية أساس التكوين ومرتكز البنيان، هكذا الرواية والنقش والعمل السياسي، الخطوة الأولى إشارة، تحدد الوجهة والمستوى، الحفاظ عليها مؤشر التوفيق، لم يكن عزفها إلا تمهيدًا، مع بلوغ الأوج بدأت تفسح للصوت البشري، تقدمت الجليلة بدون خطو، تصدرت الواجهة بدون سعي، توجهت إلى السماء المنبسطة فوقنا والتي بدأت حروفها النجمية في الظهور، وجهها صار أضوى، جمالها مراحل، شيئًا فشيئًا تتحد بما تقوله، لا أفهم ولكنني أدركت، ليس مهمًّا معاني الكلمات، المهم مجملها، الإيقاع يمنحني الفهم الأثقب، لا أعرف التركية، أو الفارسية، أو الصينية غير أن الموسيقى مدخلي ومأخذي، لم أتبادل مع أيهن كلمة، خاصة النحيلة التي رحت أطوف بها، لم أستفسر من صاحبي جعفر عنهن، لم أهتم بالاطلاع على موضع نشأتهن، يستوي عندي انتماؤهن إلى خراسان أو كرمان، البصرة أو أزمير، شانغهاي أو مرسى علم. أحيانًا لا أريد المعرفة لأعرف أكثر، بقاء الأشياء الحميمة بعيدة في موضع المجهول يقربنا أكثر من الجوهر في هيامي لقائي، هواي بخارى وإقامتي قاهرية، ودليلي ما قاله الشيخ صالح يومًا في ساحة الأزهر عندما جاء قوم من الملايو، يحفظون القرآن ولا يعرفون معانيه، أشار إليهم مصرحًا: هؤلاء أعمق إيمانًا، ذاك قصدي.

# سليطين

لسنوات لم أعرف المقصود بالاسم، إلى أن شرحه لي صاحب حميم من أهل المغرب، قال إنه تصغير سلطان فصارت رتبته عندي وإن لم يقترن حضوره جهتي إلا بتلك الصيغة، «سليطين» لولا أنني أحتفظ بصورته، أطالع ترقرق ملامحه، وسرحة نظراته وما صار لي معه، ولولا الصورة التي أبدو فيها قاعدًا عند قدميه لظننت أنه جاءني في حلم أو صار إليَّ في حالات توهمي ما لم وما لا يوجد، عندما نزلت الدار، في اليوم الثالث جاء أحد أصحابي، جعفر من كنسوس، قال مبتسمًا مبتهجًا: اليوم بعد صلاة العصر سيحل بالدار الشيخ مصطفى سليطين نزيل أغمات منذ سبعة عشر عامًا، لم ينزل المدينة إلا مرتين، الأولى عند وفاة أمه والأخرى بعد ولادة حفيده الأول من ابنته فاتحة، وها هي الثالثة، منذ خمسة أعوام قرأ عليه أحد مريديه، أستاذ للأدب في جامعتي محمد الخامس ومونبيلييه مقاطع من كتاب «التجليات» أصغى وقبل أن يذهب الرجال قال له: إذا جاء صاحب هذا وأشار إلى الكتاب فأخبروني، ثم قال: سيكون لي معه مفاوضة، عندما علم الأستاذ بحلولي ضيفًا على موسميات مراكش المكرسة للترحال جاء، مضى إليه فقرر الرجل مفارقة معزله، وهذا نادر، حدد موعدًا ما بين العصر والمغرب، لم يخطر أحدًا بالطريق الذي سيسلكه إلى البيت، فلو شاع الأمر سيصير زحام وقد لا يتمكن، أمره معروف، وصيته شائع، المستتر البعيد دائمًا مرغوب، هكذا لقيت نفسي في مواجهته، إلى جواره والد سي حبيب خادم ضريح الجزولي الكبير، صاحب

دلائـل الخيرات، صافحته بهـدوء مقاومًا رغبتي في تقبيل يـده، نصحني جعفر ألا أقدم، راح يتطلع إليَّ وأنا أخفض محلي حتى أصير دونه، بدا مطمئنًّا مُسرِّيًا، متفهمًا، قال شيئًا لم أتبينه غير أني أكاد أوقن قربه من هذا المعنى:

«قريب كقرب الشيء من الشيء...».

«بعيد عني، بُعد الشيء عن الشيء ...»

يتقـارب من بعضه، يوشـك على التلاشي من دائرة البـصر، نحيل حاني الطلة، دائم الابتسـامة، تتلاحق حروفه، تتداغم، أوشـك على دخول هـذا الحال، أحفظ ألحانًا كثيرة لمن أحب أصواتهم وتعلق بوجداني، أحيانًا أجهل الكلمات فأسـتدعي أخـرى تلائم الوزن والإيقاع وتتحد بالمقام، غير أنني فوجئت بيسر التلقي وصفو المتابعـة، رغم أنني لم أكن أسـتوعب إلا أن المعاني كانـت تصل إليَّ بدون بذل جهد للإصغاء أو لفهم المعاني، شـيئًا فشـيئًا يخفت صوته، يتطلع إليَّ، بالكاد أرى حركة شفتيه، ثم كدت أوقن أنهما لا تتحركان، غير أن المعاني سرت منه إليَّ بدون انقطاع، التساؤلات مني يقابلها الأجوبة منه، أحيانًا يستفسر، أو يطلب توضيحًا أو يطلب مني قراءة بعض مما دونته، أحببت إصغاءه إلى كتاب التجليات، ما قرأته عليه منه، رافقني ذلك بعد ابتعادي وخلال أسفاري إلى أنحاء شتى من المعمور، ولولا أنني لم أطلـب الإذن بالتصريـح لذكرت ما انتهى إليَّ من جيـل الإلقاء والتلقي، غير أن ذلك لم يكن أغرب من حديث سي زروق إلى الحسون.

# مقام الرجال

منذ نزولي مراكش، عام تسعة وسبعين من القرن الماضي وسعيي إليه ومثولي في حضرته لم أنقطع عنه حتى في بعدي عنه وبلوغي الأقاصي، ترددت عليها كثيرًا وفي كل سعي أبدأ يومي الأول بالتوجه إليه، ألج فراغ القبة؛ جدرانها الأربعة من الألوان، كذلك شهوقها واستدارتها، أحمر وأزرق وأخضر منعنع، نأيت عن مدينة السبعة رجال غير أن فراغ القبة بقي معها، كذا ألوانها، ورائحة ماء الورد الذي يرشه خادم الحضرة على المريدين والقصاد والغرباء مثلي، أينما وليت وجهي يحضرني، يواتيني، يسري عبر مساربي إلى قدس أقداس روحي. أما الموسيقى فأصغي إليها بمجرد أن يخطر لي الضريح وصاحبه، أتهدهد وأطفو مع المقامات الأندلسية والمواجيد الخفية، اعتدت أن أقصده مشيًا، من آداب زيارة الوليِّ الحميم التمهل والترجل؛ أما التمهل فيقتضي بطء الخطو مع السير ولزوم الجانب الأيمن كلما أمكن ذلك، هكذا الحال مع السبعة رجال الراقدين حول المدينة على مسافات متساوية، سيدي الجزولي، القاضي عياض، أبو القاسم السهلي، يوسف الصنهاجي، عبد العزيز التباع، عبد الله الغزواني، لي مع كل منهم أحوال، أما سيدي أبو العباس السبتي فأمره غير ذلك وهذا حديث يطول لعلي مورده يومًا، يليه سيدي الجزولي، عند نزولي مراكش أطوف بهم أجمعين ماشيًا، غير أنني ألزم سيدي السبتي، لا أصل إلى مدخل مرقده إلا عبر أقواس وممرات مظللة بغير أسقف، على جانبيها نساء فقيرات يترقبن ما يجود به الكرام، عند دخولي واتجاهي إلى الركن الذي يتصدره

سي محمـد عز الدين ضابط الإيقاع وحافـظ الأنغام، حارس المقامات، هو الوحيد الذي عنده علم الموسـيقى، يدرسها ويصونها، وليلة افتتاح مسجد مولاي الحسن الثـاني كان على رأس الجـوق يضبط المدائح وكنت أرقبه من شرفـة علوية يمكنني من نافذة بالجدار أن أرى المياه العظمى المنبسطة إلى اللاجهة، في كل مرة أرفع يدي بالتحية فيومئ للمصري القادم من بعيد، من صار معروفًا لأهل الحضرة والمقيمين بالمدينـة القديمـة، أقعد مترقبًا رؤية خادم المشـهد، رأيته أول مرة وتعلقت بسـعيه وإشرافه على الجمع، يرش ماء الورد على الحضور، ثم يوزع أكواب الشاي بالنعناع «الأتاي»، في كل مرة لا أراه أتوجس، أخشـى السـؤال حتى لا أسمع ما لا أتوقع، عند ظهوره يستقر الحال ويكتمل الأمر، تبدأ الحضرة حوالي التاسعة صباحًا، تستمر إلى ما قبل رفع أذان الظهر، صلاة الجمعة، تتدرج المقامات، ينشد القوم الموشحات المتوارثـة ويتصاعد الدرج حتى يقلع إلى الفراغات العُلا، فينشـج هذا ويدمع ذاك وينفرط عقد ذلك، كلهم من أهل مراكش، صناع، حرفيون، موظفون، متقاعدون، تجار، يحفظون الموشـحات عن ظهر قلب، ما نعرفـه في المشرق حال مغاير، نرتدي ملابـس بعينهـا، نتجه إلى مكان بعينـه، نرى عازفين وقائدًا، اسـتهلال فاندماج ثم انصراف، عند سـيدي السـبتي الأنغام والنظم مثل السـعي وسـلوة الأغراب، من سـدى ولحمة الحياة اليومية، هذا أمر آخر، بجوار القبلة مستطيل محدد يؤطر مرقد الولي الحميم، رضوان الله عليه، يرقد مستأنسًـا بالسـماع، حـاضر معنا، لرقدته هنا سيرة، بعد وفاته، حمله القوم ليواروه في مراقد المدينة المجاورة للسور، غير أنه حاد بهم إلى هذه القبة، وذلك الموضع بالذات الذي رقد فيه ابن رشـد أجدر الفلاسفة، شـارح أرسـطو، وجوهر الأجرام السـماوية، انتهى النعش إلى هـذا المكان، فوجئ القوم بصوته كما عرفوه.

«قم... هذا مقام الرجال...».

فوجئ الجميع بتشقق الأرض، عندئذ أقدم الأعوان، استخرجوا رفات ابن رشد، كفنوه، وأتوا بكل كتبه، وضعوه على الجانب الأيسر لدابة جهزت لتحمله مع سائر ما كتب إلى قرطبة حيث مهاده وملعب أترابه، حكى لي الشيخ مصطفى سليطين أن الكتب وكافة ما خط وضعوها في غرارة على الجانب الأيمن، فتعادل رفاته مع سائر ما دونه واستقام الحال طوال الطريق من مراكش إلى قرطبة، برًّا وبحرًا، أما سيدي أبو العباس السبتي فرقد وحوله طيب وريحان ونعيم محبين، صرت أنا القادم من بعيد نفرًا منهم.

# طنجية

في مراكش التقيت سيدي حبيب السمرقندي، تعرفت إلى أبيه راعي مقام سيدي الجزولي صاحب دلائل الخيرات وأحد الرجال السبعة، البيت مجاور للضريح، ما بينه والمسجد يسعى الوالد ليؤم المصلين في المواقيت الخمس، البيت مفتوح على الزنقة، لا يغلق بابه أبدًا، فسيح الفناء، من طابقين، تطل الغرف على ممرات مشرفة، تحت أماكن الضيوف، وأعلى الأهل ومن والاهم، إكرامًا لي ومحبة أفردوا لي غرفة في الطابق الثاني، فسيحة، رحبة، تطل على أسطح البيوت المجاورة، منها أرى مجمل المدينة وعند الأفق جبال الأطلس الشاهقة بلمعة ثلوج قممها التي تستمر طوال العام في برودة الشتاء القاسي أو قيظ يوليو الوعر، وهذا من أعاجيب مراكش، في المدينة يبلغ الحر مداه، وفي الأفق يبرق الثلج في ذروة الجبل والصيف، فسبحان من جمع النقيضين معًا، يتصدر الفناء المقعد، الجدران من جص فاسي منمنم، والأسقف من خشب مراكشي ملون، الجدران حتى منتصفها مغطاة بزليج مغربي منمنم، في البيت يلتقي أجناس شتى، معظمهم لا يعرفون بعضهم، لا يسألهم أحد عن منشئهم أو مقصدهم، يقعدون، إذا جاء وقت الطعام يدعون إليه، أحيانًا يقف سي حبيب يشرح ما سيقدم خاصة إذا جاء أغراب، أجانب في الجنس أو اللغة، ما زلت أذكر وقوفه ذات عشاء وبين يديه الطنجية، الآن وقت هذا التدوين وقد انقضت سنون لا حصر لها، لا أدري ... أكان ذلك اسم الوعاء أو الأُكلة - كما ينطقها سي حبيب - غير أنني أستعيد مذاقها، لحم ضأن مطهي

على الحرارة التي يضمرها الفخار المدفون في رماد حار لنهار وليلة كاملة، يستوي متمهلًا هادئًا متفاعلًا، منصهرًا مع البرقوق والتين والزيتون وطور سنين، فما أبهى وما أجمل! يبدأ سي حبيب بتوزيع المكنون في الأطباق التي يجاور كل منها رغيف خبز من القمح الصافي شبيه بالعيش الشمسي في صعيدي المصري، متعلق أنا به حتى إن صحبي وأحبابي إذا أرادوا إدخال السرور على روحي يأتونني بأرغفة منه، وأحيانًا واحد لا غير فأنفرد به لآكله بدون غموس، سواء قل الحضور أو كثروا لا يحتاج سي حبيب إلى استبدال الطنجية، واحدة فقط يغرف منها مقادير متساوية، أيًا كان عدد الحاضرين لا يأتي بغيرها رغم صغر حجمها ومهما بلغ عدد الضيوف يستمر يأخذ منها ولا ينفد ما فيها، يظل يغرف إلى أن يتأكد من شبع الكافة، إذ ينتهي من آخر ضيف يمضي عبر ممر مؤدٍّ إلى ما لا أدري، هذا من أعجب ما رأيت، لكنه ليس الأغرب، فما ألمحت إليه مما رأيته من الحسون وصاحبه أعجب.

# حسون

جـرى ذلـك في رحلـة أخـرى، شـتاء، فيـه تجـيء الطيـور المهاجرة مـن أقصى الشـمال، ولي بها هيام، أتقصى مسـاراتها وأتفحص أوصافهـا وأنواعها، بل أبحث وأسـأل عن عاداتها، إنما الطيور أمة من الأمـم التقيت أسرابها في مواضع شـتى من مِـصْرَ، خاصة عند الحـدود الفاصلة بين الأخضر والأصفر، بـين الزرع والجدب، بـين الغيطـان والصحراء. فوق سـطح بيتنا في درب الطبـلاوي، عاينت العصافير والهدهد، وفي شـارع الجيزة أمام حديقتي الأورمـان والحيوان رأيت «أبو قردان»، غير أن ما عرفته في الخلاء القريب من الماء والحقول يجل عن الوصف، خاصة عند مشـاركتي دوريـات رجال الصاعقة في الصحاري والمناطـق البعيدة عن الضجيج والزحـام ونفـث الدخان والعوادم، مع اتسـاع المدن غيرت الطيور مسـاراتها التي ظلت تسلكها آلاف السنين، ليس هذا بالهين، الأمر عويص ويحتاج إلى شروحات فلأرجـئ ذلـك، غـير أن الخيال مهما شـطح بي لم يكن ليبلغني مـا أصغيت إليه من أنيسـة الشوفشـاونية لقيتها في مراكش، أقول باختصار إنها أميرة أندلسـية العينين قادمـة مـن الحقب المولية إلى زمـاني بكامل بهائها وجلاء حضورهـا، لو أني اتبعت طيفهـا لوليت عـما أريد الإفضاء به إلى من لم ألتق بـه، فلأرجئ، فلأرجئ، هي من حدثتني عن عيسى الوزاني، مشينا من دار الباشا إلى ساحة الفنا، إلى حافتها المؤدية إلى الكُتبية المئذنة الأشهر، قدر لي رؤية شبيهتها «الخيرالدة» في أشبيلية، عاينت كلًّا منهـما وأنـا أقارن مآذن القاهرة التي أعرفها واحدة واحدة، كل منها قائمة بذاتها لا تشبه الأخرى، في المغرب تتشابه الصوامع -المآذن- كذا في سائر الحواضر الكبرى

من بخارى شرقًا إلى بغداد وحلب واليمن، في مِصْرَ يختلف الأمر، كل مئذنة قائمة بذاتها، مفردة، للمغرب تأثير ماثل في مئذنة محمد بك أبو الذهب المواجهة للأزهر، ومئذنة الناصر محمد بن قلاوون في بين القصرين، منمنماتها أندلسية جصية أرق وأدق من الدانتيل، لقيت عيسى عند طرف الساحة، يجلس فوق دكة مستطيلة، صافحنا وأبدى تهللًا بالشوفشاونية، قوامه فاره، ملامحه قُدت من صعيدي، يرتدي جلبابًا مغربيًّا بنيًّا وطربوشًا أقل طولًا من الذي عرفته صبيًّا غير أنه اختفى بعد ثورة يوليو، يعرف سبب قدومنا، أبدى الترحيب وأشار إلى حيث يجب الانتظار، كأنه أعاد تشكيل هيئته، بسط يديه على ركبتيه، رفع رأسه صوب الفراغ، أصغيت إلى صوت متموج مستمر، عصفور ما، ما أعرفه، ما تأملته في القاهرة القديمة، له صوصوة، ما سمعته هنا تغريد عجيب، توقف، ثم عاد، توقف ليستأنف مرة أخرى، عند طرف الدكة حط طائر الحسون، عرفت أوصافه من الشوفشاونية غير أنني فوجئت برقته وانسيابية ريشه وخصوبة ألوانه، الأحمر المجاور للأخضر المشرب مع البياض المتداخل مع الأصفر، أما نمنمة العينين والأنف وتناسق الأطراف مع الجسم الانسيابي فأوجد عندي رقرقة وتسليمًا، يتطلع إلى الوزاني، يرقبه، لسبب ما يبدأ عندي نغم لم أدر ما تصنيفه، غير أنه يمت إلى نوبة أندلسية من النوبات الإحدى عشرة التي وصلت كاملة إلى زماننا، لم أستطع تحديدها، بدأ الحوار بينهما، أوصتني الشوفشاونية بالصمت التام والإصغاء، وألا أسأل عن المعاني الكامنة إلا بعد طيرانه، تغريدات متبادلة مختلفة الطول، أحيانًا تتوقف فجأة ومرات تتداخل كأنهما في مبارزة، من حدة إلى رقة هفوف ومن سلسال إلى صعود ثم تدرج فصمت يسير، بلغت لحظة لم أعد أدري من صاحب الصوت، الطائر أم الإنسان؟ وعندما استفسرت صاحبتي عن إحجامي وعدم نطقي بالسؤال، تطلعت إليها صامتًا، لم أقل إنني وقفت على ما دار بينهما رغم جهلي بلغة الحسون والسبب الذي دفعه إلى إقلاع مفاجئ...

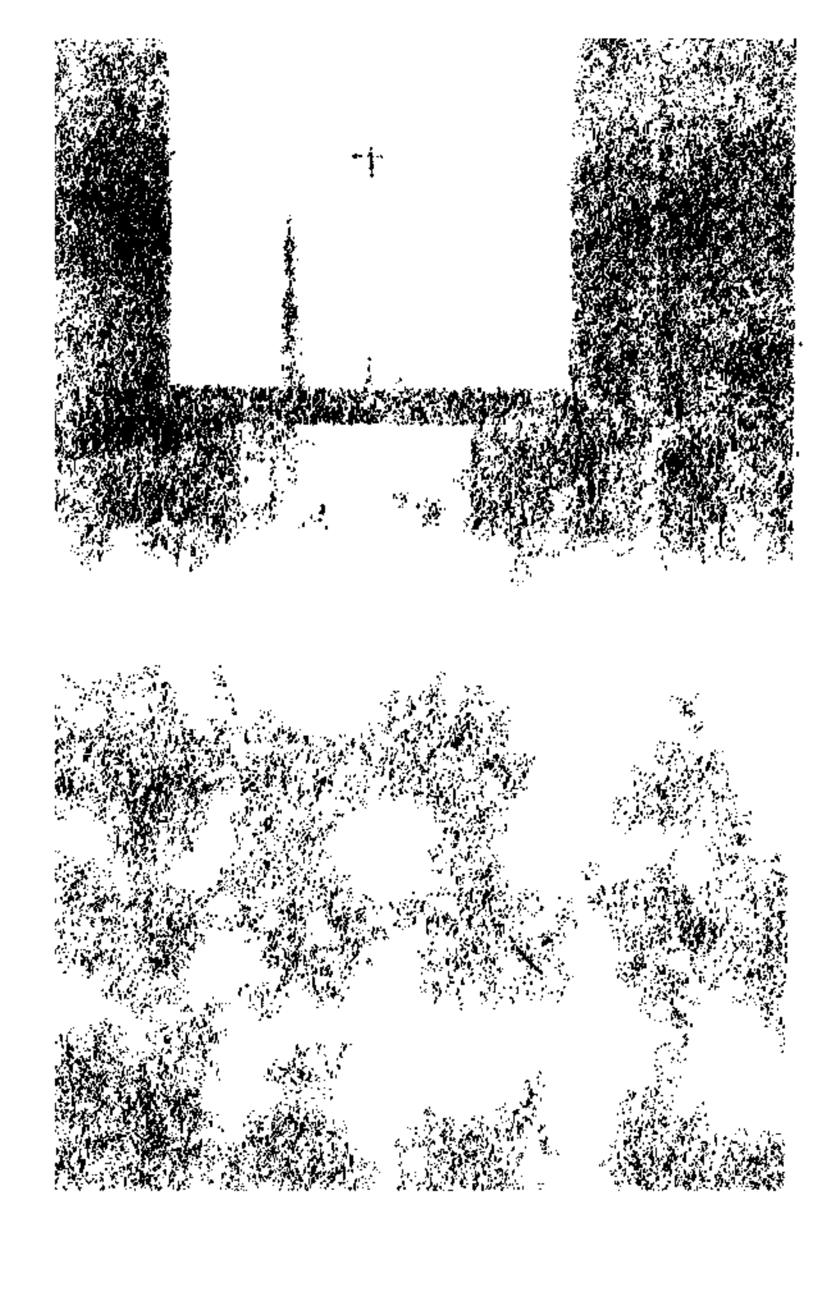
# بلبل عراقي

جـاء في كتـاب الحيوان للجاحـظ أن الحمام هـو المخلوق الوحيد الـذي يبتهج ويرفـرف بأجنحتـه فرحًـا بعد فراغه مـن الجـماع، كل الكائنات، بما فيها الإنســان يدركهـا الهمـود وتنكفـئ بعد بلوغ الذروة، حتـى إن بعضها يدير ظهـره إلى وليفه ويســعى إلى الوحـدة، غير أن الجاحظ لم يعرف ما عاينته ولـو ألم به لذكره في مؤلفه الفريـد والـذي لا ينافســه إلا «الحيـوان» لكمال الديـن الدميري وهذا سـفر فريد عجيب، به تكتمل رؤية الإنسان إلى ما يعيش حوله من مخلوقات، في بغداد تعرفت إلى محمـد القيـسي، كان فنانًـا يهـوى التمثيل، شـارك في أعـمال معروفـة وله ذيوع وانتشار، ملم بالتراث الفني خاصة الموسيقى وبالأخص فنون المقام، أخرج بعضًا من التسـجيلات النادرة، نسـخها صاحب له غاب عني اسـمه ولكن لم يغب عني موقـع معرضه «أنغام التراث» الذي يقع حيث تشـير إصبـع معروف الرصافي من خلال تمثاله، منه اقتنيت تسـجيلات نادرة لمحمد القبانجي ويوسـف عمر وسهرة خاصة لناظم وحبيبته سليمة مراد المعروفة بسليمة باشا، وصوتها لم أعرف له مثيلًا، أنثوي المطلع، به خشونة ذكورية، فما أغرب ما يتولد عن اجتماع الضدين في عنصر واحد، تسـجيلات أخرى لزهور حسـين، وصديقة الملاية، وباس خضر وغيرهـم من المطربين ومشاهير العازفين، كل هذا من أصول يحتفظ بها محمد القيسي وقصد إتاحتها للناس، مع تقدمه في العمر، قصد افتتاح مقهى يحتوي على كل ما هو عتيق،

الماء يقدم في السطل المعدني، لم أعرف مثله إلا بائع مشروب الخروب في مواجهة مشهد سيدنا ومولانا الحسين بالقاهرة المعزية، وما زال في المقهى المطل على دجلة أقفاص للبلبل العراقي، طائر نادر، بادي المعزة وغزير الزهو، مساء كل خميس يقيم حفلًا لقارئ المقام يوسف عمر، حضرته وجلست إليه وسمعت منه، ما زال يمثل عندي باهتزازة رأسه من يمين إلى شمال ومن شمال إلى يمين وشاربه الكثيف المصبوغ بالكوزماتيك والذي رأيت إعلانات عنه في سلسلة روايات الجيب التي كانت تصدر في الثلاثينيات والأربعينيات لصاحبها ومحررها عمر عبد العزيز أمين، القيسي خبير بطباع البلبل العراقي، دائمًا يتابعه بعينيه، بل لا أبالغ إذا قلت إن ثمة خيطًا خفيًا يربطهما، فإذا لاحت علامات وهن يدركها القيسي من مكمنه، المقعد الذي لا يفارقه، وطوال جلسته أتذكر الحاج فهمي الفيشاوي، وفم الشيشة لا يفارق فمه ليلًا أو نهارًا، كذلك محمد القيسي، ذات أصيل بغدادي في الخريف قال لي إنني سأرى شيئًا عجبًا لا يقدم عليه مخلوق في البر أو البحر أو الجو، انتبه إلى القفص الكبير الذي صنع في تونس وأهداه إليه أحد العاملين في السفارة، لونان لا غير، أبيض وأزرق، قال إنه وضع داخله زوجين متحابين، الذكر يزقق أنثاه، والأنثى لا تقرب الزاد إذا أدركه وهن، يرى منهما في ساعات الصفو والمحنة ما لم يعرفه في كائن ما، لم يقرأ عن مثل ذلك، قام متجهًا إلى القفص، أتى بمقعد وقف فوقه قبل أن يمد يديه ليفتح الباب طلب مني الانتباه، سوف أرى أمرًا عجبًا، ينزاح الباب إلى الخارج، لم يطل الزوجان على الفور، خطوة واحدة إلى اليمين، أخرى إلى الخلف ثم انطلقا كأنهما يتقنان الطريق، دار الذكر فوق النهر والأنثى في الاتجاه المقابل، شكّلا ما يشبه دائرة، ثم اتجه كل منهما إلى مركزها المتوهم في الفراغ، رقصة ما، اتجها إلى أعلى وعند حد معين تلاقيا، اتحدا، استمر ارتفاعهما بدون رفرفة، الرفرفة داخل كل منهما، خلال السمو إلى فوق يتواجان، بسمع

تغريدتهما بعد الفراغ كأنه نغم شارد من منظومة، يعودان معًا، رأيت بعيني دخولهما إلى القفص. عينا القيسي مغمضتان كأنه هو المنتشي. في مراكش ينتظرون في ميقات معلـوم من الخريف قدوم سـبعة أزواج من بغداد ليتسـافدوا في الفضاء المراكشي، ثـم يعودون بعد رفرفتهـم فرحين، لماذا يقطعون هذه المسـافة القصية ليتناكحوا لا غير؟! في الأمر أمر!





سـديم

# بيت هائم

## ريحٌ

يجولُ بآفـــاق البلاد مُغـــرِّبًا وتسحقُه ريحُ الصبا كلَّ مَسْحقِ

امرؤ القيس

## يقين

إذا قلت المحـــال رفعت صوتي وإن قُلتُ اليقيـــنَ أطلتُ همسي

أبو العلاء

## علم

واعلم أن العمر قصير والعلم كثير.

## علم

يجب أن تعلم كثيرًا حتى تعلم أنك لا تعلم.

# نية

النية أصل وشرط، الفعل تابع كالظل، الإنسان لا يتقرر حاله إلا بالنية، إنه يتغير من حال إلى حال، ولا يبدو على ظاهره أثر لهذا التحول، مثل أبي الذي جاء مضطرًّا من جهينة إلى مِصْرَ، وأمضى بها نصف قرن أو أكثر فلم أعرف متى قدومه على وجه الدقة غير أنني أعلم يوم وساعة انتقاله، ما أنا على يقين منه أنه اضطر للإقامة من أجل العيش وتربية الأولاد ولزوم الحال، والحال متغير، قد يدوم ثواني وربما يمكث قرنًا أو يزيد، ما أنا على ثقة منه أنه ظل يحن إلى أصل مولده، إلى موضع وفادته إلى الدنيا، فهو لم ينوِ المكوث في مِصْرَ، لذلك ظل حُكمه مثل الجائع مدة بدون أن ينوي الصيام فلا يثاب على ذلك، ومثل المسافر الذي يرد على مدينة ويبقى مدة طالت أو قصرت فإنه لا يصير مقيمًا، ما لم ينو الإقامة، وإذا نوى صار مقيمًا. أما حالي في هذه الدنيا فأنا أعلم به وأدرى، ذلك أنني منذ أن وعيت إلى زمن حكيي تلك الحكايات لا قرار لي، ولا نية للاستقرار، ولا لواح لذلك عندي، لذا أعي أنني غريب، راحل، منتقل وإن أطلت العيش هنا أو هناك، ذاك حكمي.

# وقت

كثيرًا ما تأملت أشكالًا من الحياة أجهل أسماءها إن كان لها اسم. كائن في حجم ذرة دقيق، عندما رأيته أول مرة ظننته نثرة وبر، غير أن حركته نبهتني إلى كينونته، ثمة حيوات أخرى لا تظهر إلا عبر عدسات المناظير المكبرة، لا بد أنها ذات وعي ما، حاضر وآن وآتٍ، ربما شكل آخر من الوعي لا ندركه، أقرأ عن عمر الكون، ثلاثة، أربعة عشر مليار عام مما نعد ونحصي، يتحدد البدء من الانفجار الكبير، في المتون العتيقة ثمة إشارات إلى بدايات مماثلة كما يصفه العلم، في متون الأهرام، في الخروج إلى النهار.

«في البدء كان هناك عماء».

«لقد جئت للوجود في الأزمنة السحيقة، ثم انشطرت مني منذ البدايات الأولى الأشكال المختلفة التي لم تكن قد تجسدت على الأرض من قبل، لقد أتممت كل عملي عندما كنت وحيدًا

عندما جرت البداية من جسم في حجم هذه الذرة المتحركة غير أنها كانت ذات كثافة لا يمكن أن أستوعبها كان كل شيء متضمنًا فيها، العناصر، الفلزات، الذرات التي أتكون منها، مضى على ذلك تلك المليارات من السنين، إذا كان للوجود مدة، فإن لي مدة، لهذا الكائن الذري مدة: الساعة عندي توازي مليون سنة من عمر الكون، اليوم ربما يساوي مليارًا، المليار يمكن أن يساوي ثواني

معدودات من عمر هذا الكائن الذي أرقبه وأخشى أن أتنفس قربه فيكون زفيري عاصفة هوجاء مدمرة لحياته.

لكن... مهلًا، ما لي أمعن! ما لي أتقصى! ألست القائل: إن الأمر نسبي؟ ألست من سطر أن ملخص الوجود يبدو لنا كل يوم، الفصول الأربعة تمضي على مرأى ومسمع، مراحل العمر ما بين شروق الشمس وغروبها! والعصر إن الإنسان لفي خسر، لم أكف عن طرح سؤلي كل حين رغم الإجابة الماثلة على مرأى ومسمع.

# كــلام

هـذا أمر جبلت عليه، نشـأت، واعتدت، عندما أتواجـد في جمع، أو أواجه من لم أعتده، من يقوم بيني وبينه حاجز، عندما ينشـأ عندي خجل في مواجهة حسـناء أوشك على طرق بواباتها، أصمت بالحديث، أو أحيد عن الكلام بالكلام، هذا أمر دقيق من صميم مكنوني.

حـدث أن هِمْـت بمحبوبة قدرًا مـن الوقت، تجدد حضـوري معها وصرت في خلق جديد، ثم إنها طلبت مني أن تعرفني إلى صاحب قريب منها، تبعتها إلى مقهى عند ناصية ما في شـارع بعينه ممتد في مدينة أسـكن إليها وفيها أهتدي، جلسنا، كان ساعيًا إلى القربى وكنت ممعنًا في التواري، متمترسًا، في كل دقيقة أنشئ ساترًا وألف حجاب، فجأة تطلع إليَّ بعد اتصال الكلام مني، قال:

«أنت تتكلم حتى لا تتكلم...

في معتقل التحقيق، واجهت الضابط مرتدي الثياب المدنية، رائحة عطره النفاذ ما تـزال في أنفي رغـم انقضاء ثمانية وأربعـين عامًا لحظة هـذا التدوين، أمعنت في التفاصيل، استخدم مهاراته وما درسه وما عرفه من خبرات لإرغامي على إجابات محددة، ولم يزدني ذلك إلا سـعيًا في الاسـتعانة بحالي، وعندما بلغ الحد الذي أيقن معه باللافائدة تبدل أدبه المصطنع، سبني ... لا، بل سب أمي، تطلعت إليه بعينين تـردان مـا فاه به، لم أنس ذلك قط، ذكرت ما جـرى لي معه مرات، ولو جمعنا وقت

معًا لأسـمعته ما تلفظ به وأنا حسـير، لم يتبق من العسف والحبس ومعاناة الحواس إلا تلك اللحيظة، ندبة في روحي، لم يشـف الغليل أنني أجبت بالنظر، بصمتي، لا يهدئني الآن إلا وعيي بأنني جبلت على الصمت منذ وفادتي، لم أخاطب صدقًا إلا عندما صِرْت إليَّ...

# مشيب

فما شَابَ رَأْسي مِنْ سِنِينَ تتابعتْ طِـوَالٍ ولكِـنْ شـيبتهُ الوقائـع

«عروة بن الورد»

# اسـم

قال تحوتي:

في البدء كان عماء، ثم أوجدت الأسماء فظهرت الأشياء والمعاني.

قرآن كريم: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ...﴾.

# إنسان

**قال حكيم صيني قديم:**

الماء والنار يمتلكان الطاقة، لكن ليس لديهما وعي، الأشجار كذلك، الطيور والحيوانات لديها الوعي، لكن تفتقد الحس الأخلاقي، الإنسان يمتلك الطاقة والحياة فضلًا عن الحس الأخلاقي، هو إذن... الكائن الأكثر كمالًا تحت السماء.

الإنسان ليس له قوة ثور، لا يستطيع الجري مثل الحصان، ومع ذلك يعمل الثور والحصان في خدمته.

لماذا؟ لأنه مؤهل للعيش في مجتمع، خلافًا للحيوانات، ما الذي يجعل البشر قادرين على العيش في المجتمع؟ إنه مبدأ التصنيف، ما الذي يجعل التصنيف فعالًا، إنه الحس الأخلاقي، هكذا ... فإن اعتماد التصنيف انطلاقًا من الحس الأخلاقي يقود إلى الانتظام، والانتظام يقود إلى الوحدة، والتوحيد يقود إلى تضافر القوى، وتضافر القوى يقود إلى القوة، القوة تسمح بالسيطرة على الأشياء، هذا ما يتيح للبشر أن يعيشوا بسلام في أماكنهم، فليتبعوا حركة الفصول الأربعة، ولينظموا حركة العشرة آلاف كائن بطريقة تنفع العالم كله.

**وقال أيضًا:**

إذا بقينا متباعدين، لا نتبادل المنافع، نعيش في فاقة.

# حلم

«النــاس نيـام، فــإذا مــاتــوا انتـبهــوا»..

«حديث شريف»

# حلم

قال كالدرون دي لا باركا في مسرحيته «الحياة حلم» نقلها إلى العربية من الإسبانية صاحبي صلاح فضل:

أيتها السماوات

لو كان هذا حقيقة، لكان هذا كله حلما

فلتتعطل مني الذاكرة

فليس بممكن أن يتسع حلم لكل تلك الأشياء

رحمتك يا رب فمن ذا يعرف

أن يخرج من كل هذه الأحداث

أو لا يفكر في أحدها أبدًا

من ذا رأى أحزانًا مشكوكًا فيها؟

لو كنت حلمت بتلك العظمة

التي رأيت نفسي فيها فكيف الآن

بتلك المرأة تشير إليَّ

بعلامات في مثل ذلك الوضوح؟

إذن كان حقًّا، لم يكن حلمًا؟

وإذا كان حقًّا، وهذا آخر

من الاضطرابات ليس أقل

فكيف بها تسمى حياتي

حلمًا؟ فهل هذه الأمجاد

تشبه الأحلام لتلك الدرجة؟

وهل الحقيقي منها يؤخذ على أنه أكاذيب

والزائف على أنه صحيح؟

ما أقل ما هناك من فرق بين جانب وآخر.

إلى حد أن تقوم مشكلة للمعرفة!

إن كان ما يرى وما يستمتع به

كذبًا أم حقًّا

فهل تشبه النسخة بهذا القدر

الأصل حتى يقوم الشك

في معرفة ما إذا كانت هي نفسها؟

إن كان هكذا لا بد أن ترى

وقد اضمحلت بين الظلال

العظمة والحكم

الجلالة والأبهة

فلنعرف كيف نستغل

هذه اللحظة التي قدرت لنا
فإننا لن نحظى منها
إلا بما يتمتع به رائي الأحلام.
هذا حلم، ليكن كذلك
فلنحلم الآن بالأفراح
فستصبح بعد مِن الأحزان
لكن... بنفس حججي
أعود لأقنع نفسي
لو كان حلمًا ...لو كان وهمًا زائلا
فمن ذا يضيع بوهم بشري
المجد الإلهي؟
وأي خير ماض ليس بحلم؟
ومن ذا يذوق النعم البطولية
ولا يقول لنفسه عندما
يستعيدها في ذاكرته:
إنه بلا شك كان حلما
كل ما رأى؟ فلو كان هذا يمسس
زوال وهمي، لو كنت أعلم
أن الشهوة شعلة جميلة

يحيلها إلى رماد

أي ريح ينفخ فيها!

فلنهرع إذن لما هو خالد

فهذا هو الذكر المعمَّر

حيث لا تنام السعادة

ولا تخبو العظمة

ما الذي يبهركم؟ ما الذي يفزعكم؟

إن كان معلّمي حلما

وإني لأخشى في أعماقي

أن أصحو منه مرة أخرى

وأجد نفسي حبيس السجن

وحتى لو لم يكن هذا

فحسبي أن أراه في الحلم.

فهكذا وصلت

إن كل السعادة البشرية

تمر في النهاية كأنها حلم

**حـلـم:**

قال الحكيم تشانج ووسه وهو يحاور صاحبه: أنت شديد العجلة في تقديراتك، ترى بيضة وتتوقع للحال سماع الديك، تنظر إلى السفود وتتوقع أن يوضع أمامك

حمامة مشوية، سأتحدث إليك حديثًا عشوائيًّا فهل يمكنك أن تستمع إلى حديث عشوائي؟ كيف يقعد الحكيم عند الشمس والقمر ويمسك الكون بذراعيه؟

الحكيم يحيل كل شيء إلى كل متجانس، يرفض التمايزات، يتجاهل الفروق في المراتب الاجتماعية، يكدح الناس، يكدون، والحكيم بدائي المعرفة، عديمها، يطوي عشرة آلاف سنة معًا ويقف عند الواحد، الكل، البسيط.

جميع الأشياء هي ما هي، تقتفي مجراها تلقائيًّا.

كيف لي أن أعرف أن حب الحياة ضلال؟

أن أعرف أن من يخاف الموت لا يشبه إنسانًا كان خارج منزله في شبابه فلم تكن له نية العودة إليه؟

لي تشي ابنة حارس الحدود آي لما أخذتها دويلة تسين لأول مرة بكت حتى تبلل ثوبها بالدموع ثم لما وصلت إلى المأوى الملكي وشاركت الملك سريره الفاخر وتذوقت الطعام الزاكي تأسفت لبكائها:

ما يدريني أن الميت لن يندم على توقه للحياة؟

إن من يحلمون بوليمة في الليل قد يأتيهم الصباح فيبكون ويعولون، والذين يبكون ويعولون في المنام قد يخرجون صباحًا للصيد، وهم حين يحلمون لا يدرون أنهم يحلمون، وإنما يعرفون بعد أن يستيقظوا، شيئًا فشيئًا تجيء اليقظة الكبرى وعندها ندرك أن الحياة نفسها هي حلم كبير.

**فراشة:**

ذات يوم رأى تشوانج تشو نفسه فراشة في المنام، كانت الفراشة تحوم وتتمتع ولا تعرف أنها تشوانج تشو، وفجأة استيقظ فإذا هو تشوانج تشو نفسه، نحن لا

ندري إن كان تشـوانج تشـو قد حلم بأنه صار فراشـة أم أن الفراشـة حلمت أنها تشوانج تشو؟

**محاججة:**

قال الحكيم تشـانغ ووسـه لصاحبه وهو يحاوره: لنفـرض أنك حاججتني، لو غلبتني بدلًا من أن أغلبك هل أنت بالضرورة على حق وأنا على باطل؟ هل أحدنا محق والآخر مبطل؟ أو هل كلانا محق أو كلانا مبطل؟ لا أنا أدري ولا أنت تدري، وغيرنـا أشـد ظلامًا، من نسـأل ليعطينا الموقـف الصحيح؟ ربما نسـأل أحدًا يتفق معك، لكن ما دام يتفق معك كيف يمكنه تقدير الموقف الصحيح؟ قد نسأل أحدًا يتفق معي ولكن ما دام يتفق معي كيف يمكنه وضع القرار؟ قد نسأل أحدًا يختلف مع كلينا ولكن ما دام يختلف مع كلينا كيف سيضع القرار؟ هكذا ... لا أنت ولا أنا ولا غيرنا قادرون...

**شذرة:**

لكل أول آخر، لكل بداية نهاية.

«مفتتح الزيني بركات»

**شذرة صينية لحكيم مجهول:**

«ليـس للداء بدايـة أو نهاية، تعرف الكائنـات حياة أو موتًـا دون أن تصل أبدًا إلى تمامها، ممتلئة حينًا، وفارغة حينًا آخر، لا تسـتقر الكائنات في أشكالها الثابتة، لا يمكن الاحتفاظ بالسـنين، ولا إيقاف حركة الزمـن، انحدار ونمو، امتلاء وفراغ، لا ينتهي شيء إلا ليبدأ شيء جديد ...».

**يقول زهانج زي:**

«من يعرف لا يتكلم، ومن يتكلم لا يعرف».

**جاء في اللاوزي:**

«علة وجود الشبكة هي السمكة

ما إن تصطاد السمكة حتى تنسى الشبكة

علة وجود الفخ هو الأرنب

ما إن تصطاد الأرنب حتى يُنسى الفخ

علة وجود الكلمات هو المعنى

ما إن يُفهم المعنى حتى تُنسى الكلمات

أين أجد من يعرف أن ينسى الكلمات لأقول له كلمتين؟!».

**قال كونفوشيوس:**

«تعيش الأسماك مع بعضها في الماء، ويعيش الرجال مع بعضهم في (الداو[1])».

بالنسبة للكائنات التي تتطور في الماء، يكفي حفر بركة ليجدوا فيها مادة وجودهم، أما بالنسبة لأولئك الذين يعيشون في (الداو) فيكفيهم التعطل عن العمل لتتابع حياتهم مجراها، وهذا ما يجعلني أقول إن الأسماك يسهو بعضها عن بعض في الأنهار والبحيرات، والبشر يسهو بعضهم عن بعض في فن التزوج بـ(الداو).

---

(1) «الداو» يعني الطريق.

من وحي كتاب صيني قديم؛ ترجم الأصل صاحبي محسن فرجاني إذا ما تحركت الأشكال تولد الظلال، الظلال ما نراه وليس الأصول.

إذا ما هاجت الأوتار، يتردد الصدى

الناتج إذن أصداء وليس الأصوات ذاتها

إذا ما دارت دائرة العدم، ظهر الوجود

فلا يجيء من العدم مثال ذاته

العدم لا ينجب عدمًا، إنما ينجب العدم وجودًا، والوجود يصير إلى عدم.

**الأمر نسبي:**

كل شيء يرى القيمة لنفسه ولا يراها لغيره، إن قلنا إن شيئًا عظيم؛ فلأنه هكذا من جانب بعض الأشياء، معنى ذلك أن كل شيء عظيم، وإن قلنا إن شيئًا ما صغير؛ فلأنه هكذا من طرف بعض الأشياء، معنى ذلك أن كل شيء صغير، إن قلنا عن شيء إنه صحيح؛ فلأنه كذلك عند البعض، ومن ثم كل شيء صحيح، وإن قلنا عن شيء إنه خطأ؛ فلأنه كذلك عند البعض ومن ثم كل شيء خطأ.

كل شيء هو ذلك الشيء، كل شيء هو ذاك (غير للشيء) كل شيء هو «هذا»، الأشياء لا تدري ما هو «ذاك» لأن وعيها قاصر على الـ«هذا» إن الـ«ذاك» والـ«هذا» ينتجان بعضهما، وعليه حيثما وجدت حياة يوجد موت، وحينما يوجد موت توجد حياة، حيثما يوجد «إمكان» يوجد «محال» وحيثما يوجد محال يوجد إمكان؛ ولأنه يوجد حق يوجد باطل، ولأنه يوجد باطل يوجد حق.

القيام بالإنشاء هو الهدم نفسه، بالنسبة للأشياء ككل لا وجود لإنشاء ولا هدم، كل شيء من كل شيء.

«ذات يوم، وفيما السيد هوان مستغرق يقرأ في القاعة، وبينما نجار العربات «بيان» يعمل على نجارة دولاب في أسفل الدرجات، وضع هذا الأخير مقصه ومطرقته جانبًا، صعد الدرجات، سأل السيد: ماذا تقرأ؟

أجاب السيد: إنها أقوال الحكماء...

قال النجار: أي حكماء؟.. هل يوجدون الآن؟

قال: كلا... لقد ماتوا منذ وقت طويل.

قال النجار: إن ما تقرؤه ليس إلا فضلات القدماء.

غضب السيد قائلًا: كيف يجرؤ نجار على التطاول على ما أقرأ؟

إذا أحسنت الدفاع عن نفسك وإلا فالموت لك؟

قال النجار «بيان»: يرى خادمك الأشياء من خلال تجربته المتواضعة لصنع دولاب، الضربة الخفيفة لا تقص، الضربة القوية جدًّا تنزلق عن الخشب، لا إفراط في القوة أو اللين، الضربة باليد، وردة الفعل في العقل، إن في داخل هذا مرارة تعجز الكلمات عن تجسيدها لم أستطع تعليمها لابني، كما أنه لم يستطع تعلمها مني، وهكذا، رغم أني في السبعين فلا أزال أعمل في صنع العجلات، لقد أخذ القدماء بموتهم، أخذوا معهم كل ما لم يستطيعوا نقله، وبالتالي فما تقرؤه ليس إلا فضلات القدماء...».

ثمـانيـــة



# عبود القائد

ثمانية أشـقاء، كُل منهم اسمه عبود، والدهم عبود وجدهم الأول والثاني حتى السابع عبود أيضًا، عرفت منهم ثلاثة وسمعت عن الأربعة الآخرين، خمسة منهم غابوا قبل أن أبلغ البر الغربي وأعتاد عليه حتى ترسخت إقامتي فيه، ولو ساعدتني الظـروف لانتهيـت إليـه ومـا فارقته أبـدًا، أما عبـود الغائب فتعرف إلى نمسـاوية تزوجها وصحبته إلى بلادها، انقطعت أخباره تمامًا، لا يذكر أي من أشقائه الثلاثة أي تفاصيل عنه لولا أنني علمت بأخباره من الحاج أحمد الكتبي الذي اتخذ موقعًا له أمام مقبرة سنجم رع حتى فارق إلى الأبد، وقد علمت بعد حين وحزنت عليه، إذ كان بيني وبينه سـلوان وتلطيف، وتظل طلته نادرة عند استعادتها، كذا ابتسامته التـي يقابلني بهـا، إذ أفد عليه وأحل. رحم الله الجميع، كافة من سـبقوني من كافة الملـل والأجنـاس، الحاج عبـود ترتيبـه الرابع بين أشـقائه، طويل له بسـوق نخلة ورصانة مسـلة، لملامحه بُعـد خفي كأنه يطالعنا من وجود آخـر، يؤكد ذلك صوته المصحـوب بصدى لم أعرف مثله، بيته مجـاور لمحلي الذي أمضي فيه أيامي، يمتلك عربـة أجرة رقمها سـبعة، طراز بيجو قديـم، لها لونان، أبيـض وأزرق، بيني وبينه مـودة، ينتظرني في المطار أو على محطة القطـار، يصحبني من الشرق إلى الغرب عبر الجسـر الجديد ومن قبله عبر النهـر بالمعدية، يتصل بي أو أتصل به بالهاتف، أصغي إلى صوتـه الـذي يبدو لي قادمًا من أزمنة سـحيقة البُعد، أتحـرك معه، لا يعرف كل شـبر في القرنة وما جاورها، بل يعرف الأحجار والأشـجار، الطيور والحيوانات،

كل ما يزحف أو يمشي أو يطير، يحفظ مواعيد الرياح وأنواعها، ولم يخطئ فيما تنبأ به قط، قادر على رصد العقرب مهما اختبأ كذا الحيات، ما يؤذي منها وما لا يضر، حجة في أمور الخلق، متتبع للأنساب؛ من أنجب من، من تزوج بمن، من سافر، ومن انتقل، ومن هاجر، ومن استقر بعيدًا، ومن «طفش» ولم يأت منه أو عنه خبر، اعتدت تناول إفطاري وغدائي وعشائي بالمطعم الذي مده عبود الخامس صاحب البيت في الحديقة، أرائك على الطراز القديم، مناضد من جريد النخل، مظلات من الجريد أيضًا، فاتني القول إن السرير وكل ما في الحجرة من النخيل، حتى سقف البيت مسنود، مقام بجذوعها، عبود الرابع والخامس يحترمان رغبتي.. الانفراد؛ لا يقبلان على الجلوس إلا إذا دعوتهما أو لمحا مني استعدادًا، عدا عبود السادس الذي كان يجيء من بيته القريب من النيل، يسكن قرية حسن فتحي، أبوهم عمل معه وكان خير معاون، حافظًا لسره، للسادس هذا ذكر مني ورعاية أمر، صباح باكر وكل ما يلوح ينبئ بقيظ حار، بعد تناولي الإفطار، أثناء شربي الشاي الغامق الذي اعتدت عليه، دنا عبود الرابع مبتسمًا كما يبدو دائمًا، مقدمة شعره تشبه أبي، عين درجة الخشونة، شعر يلف على بعضه.

«تفضل...».

سألني متقصيًا، نبرة هادئة ربما تبدو جديدة عليَّ.

«عندك إيه النهار ده ؟...».

قلت: إنني أنوي زيارة مرقد «مِنَى»، سمعت أن ألوان القط الذي يلهو بالسمكة تحت الكرسي بهتت، قال: إن القط والسمكة لن يذهبا بعيدًا، غير أن ما يدعوني إليه لا يمكنني بلوغه والاطلاع عليه إلا اليوم وفي وقت لا يُلم به إلا هو. لما تطلعت إليه مستفسرًا، أشار بيده.

«يلَّا معاي...».

أيقنت أن في الأمر شيئًا، تقدمني إلى السيارة التي اعتاد إيقافها في المنحدر الذي لا يكاد يُلحظ والمؤدي إلى المدخل المغطى بالأشجار والنخيل، حتى ليصعب رؤية المكان من الطريق، قدرت موضعه مكان قدس الأقداس بمعبد أمنحتب الثالث، لم يتبق منه إلا التمثالان الشهيران في مواجهة الغرفة التي أقيم بها، أخرج إليهما في أويقات مختلفة، قبل الشروق وخلاله، عند منتصف الليل وقبل وبعد انبلاج الفجر وليالٍ عشر، عند الظهر وما قبل وما بعد المغيب وما بينهما العصر إن الإنسان لفي خُسر.

اتجه صوب وادي الملكات، الطريق مرصوف إلى حافة الصحراء، إلى اليمين دير المدينة حيث أقام الفنانون، مشهورون برسم جداريات الآلهة والملوك والنبلاء ومشاهد العالم الآخر، غير أن أجمل ما أبدعوه تلك الشقف الصغيرة التي أبدعوا فوقها أجمل لوحاتهم، تحرروا من قيود المعبد وأشكال الآلهة والرموز المقررة سلفًا، محددة الألوان والأوضاع، القطع المعروفة بالأوسترايكا يرسمها كل منهم بعد فراغه من العمل في المراقد والمعابد والقصور، يشرب كل منهم البوظة وبعد أن يبدأ النشوة و«يونون» يشرع في التعبير عن ذاته، رؤيته، تنطلق رؤاه في هذا الحيز الضيق، هكذا رأيت في تورينو راقصة تشبه غوازي الصعيد، رسم للمهندس سنموت عشيق الملكة، على البردي، صورهما أحدهم في أفحش الأوضاع، من أصدق؛ الفنان الذي يقطع المسافة إلى المرقد السري معصوب العينين، يكشف بصره تحت الأرض ليصور الآلهة يقودون الملوك في الوجود الآخر؟ أم نصدق الذي انفرد بنفسه ليلًا وراح يبدع ألوانه هو وخطوطه هو؟! لكم حيرني هذا التناقض! تجاوزت العربة الطريق المرصوف، لم ألمح مدقًّا مهدته الأقدام أو العربات، غير أن الأرض الرملية صلبة ساعدت السيارة العتيقة غير المزودة بآلات الدفع التي يمكن أن تساعدها في التخلص من الغَرْز في الرمال، لم أقلق لثقتي في الحاج عبود، فاره، ثابت على المقود، كأن ملامحه قُدَّت من حجر نادر، يصعب الوصول إليه مثل

الديوريت الذي حُفر منه تمثال خفرع باني الهرم الأوسط، أعرف عشق السويدية له، جاءت من أقصى الشمال ضمن فوج، لمحت عبود الرابع عندما جاءوا لتناول العشاء في المطعم ذات ليلة، منذ أن وقع بصرها عليه حصل لها «تول»، عادت لتجلس أمامه، تنظر إليه لا غير، بدأت تتردد مرتين في السنة، أول الشتاء وآخره، دعته إلى زيارة بلدة صغيرة تعيش فيها مطلة على بحر الشمال، سألته عما إذا كان قبل الدعوة؟ أومأ، لم يفصل ولم ألح، غير أنني لا أدري كيف يمكنني تحديد من عرفت منهم أنه أمضى شهرين، وأنه عاد ليواصل حياته، يصحب أجانب من جنسيات شتى يفضلون صحبته في عربته القديمة، أحدهم كان صحفيًّا فرنسيًّا، كتب تحقيقًا صغيرًا عنها وعن عبود شبيه أجداده الفراعين من أطراف عديدة علمت أنه رفض عروضها وإلحاحها للزواج منه، حتى إنها قبلت أن تجيء وتقيم كزوجة ثانية، تساعد امرأته الأولى، تطبخ وتغسل معها، ستتقن كل شيء حتى خبيز الأرغفة الشمسي التي تحب رائحتها عند خروجها من الفرن، غير أنه اعتذر برقة شارحًا، أن أم عياله ابنة عمه ولم يعرف منها إلا كل ما هو جميل، لماذا يؤذيها؟ قالت إنها تكتفي برؤيته، تتمنى لو أنه قبل حضورها، ستقيم في البيت الذي يستضيف بعض ذوي الحساسية الخاصة والتحلق المتأني بما تركه الأجداد، بما أودعوه لرحلة الزمن، قال إنها على الرحب والسعة، أثناء إقامتها جلست إلى زوجته، تعلمت بعض الكلمات العربية غير أنهما تفاهما بدون لفظ، إحدى مرات إقامتي رأيتها، أثناء إعداد الغداء، تقشر البصل، تخرط الملوخية، توقد نيران الفرن، بعد أن تفرغ تقعد بَيْنَ النساء والأولاد صامتة، غير أن ملامحها تعكس عين الرضا، اختلف القوم في عملها هناك، قال بعضهم إنها خبيرة بنوك، وقال آخرون إنها مدرسة، لا... طبيبة شهيرة، وأكد البعض أنها تنتمي إلى العائلة المالكة، لكنها تعيش وحيدة، بمفردها، عبود الرابع لم يؤكد ولم ينف.

بعـد أن أوغلنـا في الصحراء الممتـدة، لم أعرف كم قطعنا من المسـافة والزمن؟ لم أدر... هـل ما رأيته إنسـان ما أم شُـبه لي؟ لكن كلما اقتربنا بانـت ملامحه، عندما توقفنا تمامًا وبطل محرك العربة، نفس الملامح، كأنه عبود الرابع قبل عشر سنوات، تعانقـا، قبّـل كل منهما كتف الآخر، يبتسـم الرابع، يقول إن ثمـة مفاجأة تنتظرني، وإنني سألقى كل العناية من محمود.

أيقنت أنه شقيق للثلاثة الذين أعرفهم، هل يمكن أن يكون هو السابع الغائب، مـاذا يفعـل هنا، أين نحن بالضبط؟ قال عبود الرابع إنني في عين العناية، سـيرجع ليقـضي غرضًا ويعود، اتجه إلى العربة، لم أنطق فلأر ما سـيجري، بطل مني الخوف منذ زمن بعيد، ربما منذ إقامتي قبل حوالي تسـعة وأربعين عامًا في قصر كبير هجره أهلـه على أطـراف مدينة سـمالوط، كانت صغـيرة، قليلة العـدد، الآن... امتدت، تجاوزت القصر، المباني التهمت الأراضي التي طالما تطلعت إلى خضرة النبات فيها، إلى تجاور النخيل الراسخ وأشجار أعرف قليلها وأجهل كثيرها.

«تفضل...».

تبعتـه، مسـتعيدًا بعض الأماكن التي بلغتها ودهشـت لغرابتهـا، الجلف، جبل الجلالة، أعالي البحار، الجزر غير المسكونة في البحر الأحمر، لم أسأل عن المكان، عما سـأراه، يبدو عبود كأنـه يفكر في أمر لا صلة له بي، رغـم الصحراء فإنني لم أرصد ذلـك القيـظ الذي خلفته ورائي، طقس محايد، لا بـرد، لا حر، أما الضوء فكأنه لا يصدر عن الشمس التي تزايد شعوري بنأيها السحيق، لم أحط علمًا بما سأشاهده، ما سأقف عليه، هل يصحبني إلى مرقد لم يكتشف بعد، لكنني موقن أن هذا الموضع لم يبلغـه أحد ممن أعرف، حدود الوادي أقصى حد الغرب، القرنة، دير المدينة، وادي الملكات، توقف عبود السابع، بسط يده كأنه يقول بالصمت: تفضل

توقفـت، تطلعـت، لم أسـتطع التقدم مأخوذًا بالدهشـة لأسـباب عـدة منها ما أبصرت، وحدة رؤيتي ونفاذي إلى بعيد...

# عبود المهيب

هو السادس منهم، تقلبت به الأحوال من نقيض إلى آخر، ما عرفته عنه نثار من هنا إلى هناك، لم ألم به في مكان واحد أو وقت معين، إنما من خلال ترددي وإصغائي إلى أهل الناحية عند لقائي بهم في القاهرة أو مدن أخرى، أحيانًا ترد سيرته عرضًا ومرات أقصد الاستفسار والتقصي، كان هادئًا طويل التأمل، يتوق إلى سلوك طريق الدكتور، وإذا قيل الدكتور في البر الغربي فالمقصود هنا الشيخ أحمد الطيب، لا يمكن إطلاق الصفة على غيره، الطبيب يسمونه الحكيم، بدأ سلوك طريقه، التحق بالكتاب ثم المدرسة الأزهرية بإسنا، لسبب ما لم أقف عليه لم يتم المرحلة الثانوية، عاد إلى البر ليتقلب في مهن عديدة أتقن عدة لغات بحيث يمكنه التعامل مع السائحين القادمين من جنسيات لم تكن معروفة مثل الروسية والصينية وجنوب إفريقيا وغير ذلك، عمل مع الحاج محمود في البيت الذي يؤجر غرفه للزائرين، وهذا نُزل اشتهر أمره، عمل في فندق جديد، خمس نجوم في الضبعية، هناك تعرف على تلك الإيطالية ويبدو أن وثاقًا متينًا امتد بينهما، أرسلت إليه دعوة لا يعرف أحد كيف حصل على التأشيرة الأوروبية التي يُجرى التدقيق لمنحها، خرج من البر حاملًا حقيبة ملابس لا غير، حجمها صغير، منذ ذلك الصباح الباكر الذي ودعه فيه أشقاؤه الثلاثة، أصر على ألا يصحبه أحد إلى القطار رغم إصرار عبود الرابع على مرافقته بالسيارة التي يركبها الغريب والقريب، انقطعت أخباره مدة، ثم اتصل هاتفيًّا بشقيقه عبود الخامس الذي يدير البيت والمطعم، طمأن أشقاءه على الأحوال،

ثـم غاب مـدة، تلقى بعدها عبود الرابع بطاقة بريد من دولة إسـكندنافية كما يفهم ذلـك من طابـع البريد، ما عرفته فيما بعد أثار دهشـتي، إذ إنه واظب على الاتصال بالحاج أحمد الكتبي، يتصل به عدة مرات كل أسـبوع أحيانًا لمدد طويلة، مرة أبدى الحـاج حرصه حتى لا يكلفـه، قال ضاحكًا إنه يتحدث ببطاقـات رخيصة يعرفها المصريـون المهاجرون، جرى ذلك قبل معرفة الهواتف الذكية وأسـاليب الاتصال المجانيـة، أوصاني الحاج ألا أخبر شـقيقيه فاسـتجبت لرغبتـي في معرفة المزيد عن الغائب، ولأني حريص جدًّا على ألا يقع بيني وبين القوم أدنى سوء فهم، ذلك أنهم لم يُبدوا لي إلا نقي المودة، وجميل الترحيب حتى إني صرت كأني قريب لأحدهم، أو شببت بينهم ثم عدت إليهم، علمت أنه تقلب في مهن عديدة؛ نادل في مقهى، سائق عربة أجرة، موزع إعلانات عند تقاطع الطرقات، بائع زهور في المشارب والمطاعم ليـلًا، ثم حمّال في محطة القطارات المركزية، آخر مـا أفضى به أن رجلًا إيطاليًّا افتتح مطعـمًا للبـط البكيني تعرف إليه، عندما رآه، قال إنـه يرى فيه ما طال بحثه عنه، في هـذه الفـترة كان يمر بظروف صعبة، مـارس خلالها مهنًا شـاقة، صعبة، لم يفصح عنهـا الحـاج، إنما أجملهـا في عبارته: ربنـا أمر بالسـتر، وكان باسـتطاعتي أن أفهم وأستنتج، المطعم يقدم البطة كاملة، معدة بالطريقة الصينية، غير أن لأكلها أسلوبًا مغايـرًا لمـا نعرفـه في مِصْرَ، إذ تقدم مـن خلال طقوس لا نعرفهـا، يدخل المختص بتقطيعهـا بعد اسـتقرار البطة عـلى منضدة متحركة بجـوار الزبائن، يحمل سـكينًا كبـيرًا وآخر صغـيرًا، رهيف النصل، الرجل رأى في عبـود كافة الشروط المطلوبة، أهمها المهابة والقدسية، إنه طويل، هو الوحيد بين أشقائه الذي يبدو كنخلة باسقة، ثـم إن دراسـته في المدارس الأزهرية أضفت عليه سـمتًا ورزانـة وصمتًا طويلًا في ملامحه، في حركاته وسـكناته، غير أن الصفة الأهـم ملامحه الصينية، لم يلحظ أحد ذلـك في البر قبـل هجرته، غير أن الحـاج أحمد لاحظ ذلك، وله تفسـير عجيب إذ معرفة اللغة تكسـب الإنسـان ملامح من يتكلمون بها، اسـتعدت مـا لقيته خلال

زيارتي لكلية الألسن منذ عقدين عندما كنت بحاجة إلى التعاون مع مترجمين من لغات شتى لمشروع كلفت به، عميد الكلية الذي تربطني به صلة جمع عددًا منهم، كان من بينهم صيني السمت، وجهت إليه حديثي باعتباره مستعربًا زائرًا، تبسم قائلًا: أنا مصري ... عندئذ انتبهت إلى الحاضرين، أستاذ اللغة البولندية له ملامح أهلها، أستاذ اللغة الكرواتية كأنه وُلِد في بلاد جوزيب بروز تيتو، أما المتخصص في الأمهرية فغامق اللون رغم سكندريته، قال الحاج أحمد إنه أتقن الدور، حتى صار العديد من الزبائن المقتدرين يجيئون خصيصًا لانتظار لحظة دخوله بخطى متمهلة راسخة، ناظرًا إلى حيث لا يمكن التحديد، يتوقف لحظات أمام البطة، قبل أن يرفع السكين اليمنى الكبيرة، يثبتها بها، ثم يقطع جزءًا من الجلد تحت الجناح، يقلبها بخفة وتمكن، يجتزئ قطعة مساوية من الصدر، ثم الجزء الخلفي، ثم يقلب البطة، في أقل من دقيقة يحول الجلد واللحم إلى قطع شبه مثلثة، تاركًا الرأس سليمًا والهيكل العظمي كله، يمسح السكينة الأولى على مهل في قطعة قماش بيضاء ملمومة فوق الصينية، ثم يتبع بالأخرى، بعض الزبائن يحرصون على التصوير معه قبل استدارته البطيئة ومضيه إلى حيث جاء، عندما يعود إلى بطة أخرى تتعلق به الأبصار من كافة الجالسين، منذ دخوله وأثناء تقطيعه أو وقوف البعض إلى جواره للتصوير وحتى استدارته عائدًا لا يحيد بصره عن النظر إلى بعيد...

# عبود المبدع

عرفت مثله، لا أذكره، لا يخطر على بالي، إلا ويرد الآخر، حاطون الذي اشتهر أمره وذاع بقدرته على التقليد المتقن لإحدى أثمن قطع مجموعة توت عنخ آمون، الكرسي، ورغم وجود أكثر من مقعد في المجموعة النادرة التي اكتشفها كارتر في عشرينيات القرن المنتهي فإنه معروف، مُجمع على أن لفظ الكرسي إنما يُقصد به واحد لا غير، ذلك المذهب المرسوم عليه الملك وزوجته وأشعة الشمس بادية، أوتي المعلم حاطون كما كان يُعرف في خان الخليلي قدرة نادرة على صناعة مثله بحيث يشق الأمر على أهل الاختصاص التمييز بينهما، كان ذلك زمن السياحة الثرية، في الأربعينيات والخمسينيات، أعداد القادمين قليلة، لكن معظمهم أثرياء، لوردات وبارونات وأصحاب دواوين شواهق، ازدهرت حرف التحف الثمينة، كان النقاش ينحني على الصينية شهرًا كاملًا. يوميًّا من عشر إلى خمس عشرة ساعة، المادة فضة والخيوط والرسوم ذهب، بطل ذلك مع تغير الظروف وبدء زمن السياحة البراري، أولئك القادمون على ظهورهم حقائب فيها حاجاتهم وأحيانًا تضم خيمة وأسرة يمكن فردها ونصبها في الحدائق العامة، أمثال حاطون انطوى أمرهم ومن أوتي القدرة على الاستمرار بدَّل أحواله ليساير الوقت، أما عبود السابع، أصغرهم وأكثرهم موهبة، منذ بدأت التردد على البر والإقامة فيه ألتقيه، يقيم في أحد بيوت القرنة القديمة، معظمها أزيل الآن، منذ طفولته أتقن النحت، بدأ بأواني الألباستر الشفاف، ثم بعض التماثيل الصغيرة. بلغ درجة من الإتقان

لم تُعـرف إلا عـن حاطـون، في كل مـرة يبيع الكـرسي يوقف مشـتريه في المطار، لا يســمح بسفره إلا بعد التأكد من وجود الأصل في المتحف، بعد سنوات من المشقة ومعاناة الزبائن وفوات المواعيد حصل على تصريح، بوساطة مسئول في الهيئة، كان يدخن معه النرجيلة في مقهى الفيشاوي، جمعتهما صلة، عبود ابتكر وسيلة أخرى، إذ كان يـدس عـشرة قروش فضية في تجويف داخل التمثال المقلد، يمكن الوصول إليـه بـدون خدش التمثال، لم يكن يقدم على نسـخ إلا ما يعجبـه ويتعلق به، يكفي أقل من سـاعة يتأمل فيها ويحفظ الملامح والتقاسيم، أشهر ما عُرف به نحته لرأس نفرتيتـي، ليـس ذلـك الذي تم تهريبـه إلى ألمانيا، اطلع على صور دقيقـة له، فكر في السفر لرؤيته ومعاينته، إلا أنه انتهى إلى فرادة التمثال الناقص المعروض بالقاهرة، أجرى مقارنة طويلة، صارمة، أمضى ساعات مغمض العينين لا تصدر عنه حركة، انتهـى إلى ما أكده لأجانب متمكنين، بعضهم وافقـه ومنهم هورننج الألماني الذي جـاس مراقـد البر الغـربي وأدرك الكوامن الخبيئـة، كثيرًا ما قـال إن الناقص أفتن من الكامل، كان يعني التخصيص والتعميم، فبالنسـبة للاعتبار الأول كان يقصد مؤكـدًا جمـال القاهري عـلى ذلك المعروض في برلـين، كان يـردد أن روح نفرتيتي لا تـزال في خطوطه، والفنان الذي عرف اسـمه «تحتمس» موجود باسـتمرار أمام الملامـح حتـى وإن لم يره أحد، أما الاعتبار الثاني فيتعلق بالعموم، فالعمل الناقص يتمـه كل من يـراه كما يرى، إنه مثل الكتاب المفتوح الذي لم ولن يغلق، باسـتطاعة كل ذي فهم وملكة أن يقرأه ويضيف إليه، أي يصير الطالب والمطلوب معًا، وهذا مـن الدقائق، الرقائق، التمثال الـذي تعلق بصورته غير معروض بمصر، إنه هناك في البعيد، ما يلي المحيط، حاملة القرابين، اعتبر قوامها الرشيق ذروة التكامل ونقاء التماثل، عندما سـافر صاحب له من أهل البر أوصاه أن يصور فيلمًا للتمثال بحيث يراه من كافة جهاته، أوفى المهاجر بما وعده، أرسـل إليه قرصًا عليه عشر دقائق مع أستاذ أمريكي بجامعة نيويورك، متبحر في الاقتصاد، لكن عنده هيام بمصر القديمة

حتى إنه لا يطير إلا على متن طائرات مصر للطيران، يقول إنه يشعر بالأمان مع حورس شعار الخطوط المصرية، مرة سافر إلى تايلاند، يمكن أن يقصدها مباشرة من المدن الكبرى غير أنه طار من نيويورك إلى القاهرة ثم إلى بانجوك، ضعف المسافة، غير أنه كان سعيدًا كلما نظر من النافذة ورأى حورس على الجناح، سنويًا لا بد أن يزور الأقصر، يقيم في البر الغربي ويقصد أبيدوس ليرى المعبد ثم يسافر إلى أقصى الجنوب ليحضر؛ تعامد الشمس على ملامح رمسيس الثاني، أحبه عبود وخصه بنحت تمثال، دهش الرجل عندما رآه، رأسه في وضع تأمل، قال: إنه لم يجلس أمامه وليس لديه صورة له، كيف أتقن تجسيد الملامح هكذا؟ لم يجبه عبود إلا بالصمت، التمثال الآخر الذي أتقنه الكاتب المصري في وضع التأهب محفوظ في القاهرة، عندما شاهد صورة المعروض في اللوفر أكد أن الكاتب المحفوظ في القاهرة أجمل بكثير، يكاد ينطق، أتقنه إلى درجة أن أحد مفتشي الآثار أبدى قلقه من مهارته وخشي من تبادل الأصلي والمقلد، سمعت الكثير مما يتردد حوله، رأيته يتردد على المطعم الملحق بالفندق الذي يديره شقيقه، اعتدت ورود القوم، بدءًا من رجال الآثار الذين يدخلون كسلطة وأصحاب نفوذ، أيضا رجال الشرطة المختصون بالسياحة والأمن العام، كذلك الأدلاء المتقنون لغات الأجانب، لكل منهم تخصصه في جنس معين، بعضهم يجيء بالسياح ويتقاضى عمولة، هذا سائد هنا، عالم متشابك أرقبه من بعيد، ما يعنيني يخصني، أما اتتناسي بالقوم فقد بادلوني ودًا بود، عبود الفنان لم يتحدث معي كثيرًا، يحترم صمتي وانفرادي، كنت أتمنى زيارة مكان عمله غير أنه لم يدعني، آخر مرة رأيته قبل اختفائه الغامض قبل عيد الأضحى، جاء وجلس في نفس المكان الكنبة المواجهة لي، الصف الثاني، جاء شخص لا أعرفه، طويل يمسك عصا، عمامته تدل على أنه من أبناء الناحية تحدثا متقاربين، سمعت أقوالًا متناثرة من هذا وذاك، تفاصيل علمتها في البر الشرقي، صاحب بازار اعتدت زيارته، تعرفت على والده عندما نزلت الأقصر أول مرة منذ

أربعة وخمسين عامًا، بالضبط عام سبعين، مما سمعته ونما إليَّ من الشرق والغرب أن شخصًا ذا نفوذ جاءه، التقى به في هذا الموضع الذي اعتاد الجلوس فيه، صحبه في عربة سوداء ستائرها مسدلة، بعد يومين سافر إلى القاهرة، هنا تختلف الروايات، لا شيء مؤكد، كما أن أشقاءه لا يبوحون، لم ألح، فقط سألت مستفسرًا عن أحواله، أجابني عبود الرابع: ربنا معه، لم أدقق ما قيل لي، صحبه المسئول المهيب إلى قصر بمصر الجديدة أطلعه على اثنتي عشرة صورة لقطع من المتحف المصري، عرض عليه مبلغًا فوجئ به، يُدفع نصفه مقدمًا ونقدًا، يعلم أن أهل الصعيد لا يفضلون التعامل بالشيكات، الباقي فور التسليم، مطلوب استنساخ دقيق يحير أهل الاختصاص، المجموعة كلها من توت عنخ آمون من مرحلة تل العمارنة، يُقال إن عبود الفنان آخر العنقود، لم يجب مباشرة، طلب إمهاله، عاد إلى القرنة، قال لصاحب له من البحيرات إنه غير مستريح لما طُلب منه، قلبه يحدثه بما لا يقدر على البوح به، يُقال إن صاحبه قال له: إما أن تمتثل فالرجل صاحب سطوة، وإما أن تهج إلى أي جهة؛ لأنهم لن يدعوك طاويًا ما أخبروك به، الموضوع صعب، حتى الآن لم أسمع ما يقطع بما انتهى إليه عبود السابع، هل امتثل للنصيحة واغترب طلبًا للسلامة، أم أنهم أخفوه إلى الأبد حتى لا يبوح؟

# عبود الكحّات

أول مرة سمعت اللفظ بدا لي غريبًا رغم أنني أعرفه، المعرفة الأولى تحيل إلى الطب، سمعت أبي يقول يومًا بعيدًا: ... فلان عمل عملية كحت...» لكن في البر الغربي يتعلق بالآثار «فلان عمل كحتة امبارح وربنا أكرمه ولاقى تمثال ذهب... شذر حوارات سمعتها أثناء جلوسي للإفطار أو للعشاء بالمطعم، لكثرة ترددي وطول صمتي صرت واحدًا منهم، لم ألتق عبود الأول إنما سمعت عنه، لم أستفسر، شيئًا فشيئًا صرت ألملم طرفًا من هنا وآخر من هناك حتى أستكمل وأستوفي، عبود الأول أكبر الأشقاء، وُلد عندما كانت الأسرة تعيش فوق في الجبل، في قرنة أولاد مرعي، بيت نصفه في الجبل والآخر مبني، لكن عُرف أنه يؤدي إلى ممر، في نهايته غرفة دفن يتوسطها تابوت من حجر أصفر مجهول، قيل إنه كوارتزيت وهذا لا يوجد منه إلا بقايا تمثال حار العلماء في أمره وهوية من يمثله، قيل: إنها الملكة تاي وإنها ميريت آمون وإنها مجهولة كان لها حيثية ومهابة، لم يستخدم هذا الحجر الذي يكون شفافًا إلا في هذا النحت، إنه نادر، يستقر الآن في متحف المتروبوليتان بنيويورك ويعتبر أحد مقاصدي كلما نزلت نيويورك، لكثرة ترددي أصبحت ملمًّا عارفًا بسائر المقتنيات في القسم المصري الواقع إلى يمين القادم من المدخل الرئيسي مهيب الطلعة بسلالمه العريضة والواجهة التي تستدعي إليَّ دار القضاء العالي بشارع فؤاد القاهري، أما المرجعية فالعمارة الرومانية، في المتحف عدة قطع أتجه إليها مباشرة ثم أعود من حيث بدأت لأخطو متمهلًا متأملًا مستعيدًا ما عرفت، الأثير عندي تمثال حاملة القرابين ولو كان الأمر طوعي لأفردت لهذا التمثال قسمًا

خاصًا به ولما سمحت بوضع أي شيء قربه، بعده تلك الباروكة المضفرة بتلبيسات من الذهب الخالص، الشعر هنا والقناع الذي يمثل الأصل، صاحبة الجلالة بالقطع، أو عالية السمو في القاهرة فما أغرب وما أعجب، تابوت خشبي، عادي، لا يمت إلى ملك أو وزير، لكن ألوانه طازجة، خاصة الأخضر. أما ما شدني إليه فعين واجدت، أو كما تسمى عين حورس، غطاء تابوت آخر رسم من داخله الربة نوت، تمثل السماء سقف التابوت يمثل السماء أما أرضيته فعليها الرب جب، أي الأرض، نرى نجومًا وشواهد تؤكد أن المأوى النهائي مهما ضاق فإنه كون مصغر، ثم نافذة الظهور منتزعة من معبد هابو، المكان الوحيد الذي احتفظ لنا بدورة مياه حيث كان ابن الآلهة يقضي حاجته، تصميمه كنيف عادي نصفه بالبلدي، حفرة ومسندان للقدمين إذ يتخذ الملك وضع «القعمزة» ليسهل أمره، نافذة التجلي لا يظهر من خلال زخارفها إلا مرة واحدة في السنة، عاينت مكانها الفارغ في المعبد الذي بناه رمسيس الثالث، أما نهاية المطاف ومنتهى الوصول فهاتان الشفتان، دائمًا أقول من وحيهما: إن الناقص أتم من الكامل، أخبرني الدكتور رشدي سعيد الذي زارهما بعد طول إلحاح مني: إن هذا حجر نادر جدًّا فوق الكوكب، وربما يكون من بقايا نيزك ارتطم بالأرض، دائمًا أتملاهما وأرتوي بسخائهما على البعد، فلأكف ... لو سبلت حالي لما توقفت، أعود إلى ما بدأته فأقول إنني دهشت عندما علمت بوجود تابوت من هذا الحجر النادر في بيت والد عبود الأول وأشقائه، صحبني عبود الرابع، أوقف العربة قرب الطريق، صعدنا على مهل المرتقى المؤدي، خلال تلك الفترة عظم ضغط الإدارة لإتمام نقل السكان إلى ناحية الطارف، غير أن الأهالي كانوا ما زالوا يقاومون، غير أن كافة الدلائل تشير إلى أن هذه المرة فاصلة، ما فشلت فيه الحكومة في الأربعينيات سيتم الآن، ما لم يستطع حسن فتحي إنجازه بعد بناء قريته التي صارت معلمًا معماريًّا في العالم سينفذ الآن، الأب عمل معه في بناء بيوت القرية، لم يتبق منها إلا المسجد والسوق وبيت يسكنه أحمد عبد الراضي ابن رئيس العمال الذي ساند وحمى حسن فتحي خلال إقامته وعمله، لم يكن يقيم بالبيت أحد

بعد أن هجره الأشـقاء، راح كل منهم إلى سبيله، استمر عبود الأول به، وبعد غيابه بـدأ الأمر من حريم الأم التي خلت إلى نفسـها في السـنوات السـابقة على اختفائه، غـير أنها انتبهت بعده، انتابها حال جرى لهـا مثله عندما أتى إليها عبود الثاني برأس مومياء، لشـابة فاتنـة الملامح، هذه حكاية أمرها ذائـع، أصرت على الرحيل، قالت إنها تخشى ما سيجري لها ولأبنائها من بعدها، لم يفلح معها شيء، حتى رقية الشيخ الطيب الكبير، لم يكن هناك مفر من الانتقال، استأجروا ذلك البيت الذي تحول إلى نُزل يديره عبود الخامس، وشيدوا بيتًا أصغر إلى جواره أقام فيه عبود الرابع، نزلت الممـر المؤدي إلى الغرفة حيث التابوت، فعلًا ... لم أر مثيلًا له، حتى تابوت تحتمس الثالـث الذي ما زال موجودًا بمرقـده الفريد، والذي أعده أرقى ما يوجد في وادي الملوك، بهرت به وبدقة نقوشـه وغرابة الحجر، لكنني لم أسـتطع القطع بتشـابهه مع الشفتين الغزيرتين، يقتضي هذا مقارنة من أهل الاختصاص، ربما لاختلاف الضوء أو الهيئة هناك بقايا نحت، هنا مرقد كامل، كأنه لم يمس، تعددت زيارات المسئولين إليـه، كلما جـاء أحدهم يطلع عبود الرابع ليلاقيه، بالطبـع يعطله هذا، يعوق رزقه، في تلك المرحلة كان القوم يجيئون من كل فج، من جنسـيات شـتى، كانت السياحة في أوجها، قبل اندلاع ثورة يناير وكسـاد الأحوال الذي استمر طويلًا، معروف أن هذا المرقد الملحق بالبيت أمره قديم، لم يكتشفه عبود الأول، لكنه انطوى على أسرار لا حصر لها راحت معه، سـواء كان حيًّا يسـعى أو راقدًا، ممتزجًا بالثرى متحدًا به، كان طويل الصمت، كثير التأمل، لم أعرف من شـقيقيه اللذين عاشرتهما طويلًا من لقنه أصول الكحت، كيف يستدل على وجود خبيئة ما، تميز بذلك، كافة من عرفوا الكحـت ومارسـوه توصلوا إلى مـا اكتشـفوه بالصدفة، أو بالاسـتدلال من خلال قرائن وعلامات، كلهـم بمن فيهـم عبد الرسـول الذي عثر على خبيئة الدير البحري وعـرف الطريق إليها رغم غموضه وإتقان إخفائه، كانت لديه قدرة على فهم الخط الهيروغليفـي بـدون أن يتعلمه، أكد عبود الرابع أن اللغة لم تنقطع، الحكماء القدامى وضعـوا ترتيبًـا لاسـتمرارها، بحيث يوجد أربعـة على الأقـل في كل وقت يتقنونها

ويفكون طلاسمها، لا يعرف أحدهم الآخر، وربما يولدان من بطن واحد ويجهل الأخ أن شقيقه ملم بالقلم القديم، قال: إن كل ما نعرفه من كتب لم يرد فيه إلا ذكر شخص واحد لا غير يعرف الخط العتيق، إنه سيدي ذو النون الأخميمي وأصله نوبي، من أين لمن وُلِد في أخميم تلك المعرفة؟

يمط شفتيه باسطًا يديه، عندما يوغل عبود الرابع في الإخبار عن أمور مشابهة تتخذ ملامحه بعدًا غامضًا، كأن شخصًا آخر كامن فيه، كأنه يخاطب ما لا تدركه الأبصار؛ لذلك يمضي مغربًا إلى بعيد، تتوازى نظرته مع طلة كافة التماثيل المصرية، ينظر أصحابها إلى حيث لا يمكن التحديد أو التعيين، النظرة أوضح ما نجدها في حدقتي الكاتب المصري، كافة ما وصل إلينا منه نظرة فيها شيء من شجن، ومس من أمل، وبعض انتظار، وما لا يمكن الإمساك به، يبدو عبود موازيًا لذاك الذي أعرفه، ربما هذا سر السويدية التي هامت به، وأرادت أن تقضي عمرها عند موطئ خطاه، على هيئته تلك أخطرني بما خفي عن شقيقه، لم يكن يمارس الكحت للإظهار، إنما للإخفاء.

كيف؟

راح إلى ما كان يتحدث عنه شقيقه باستمرار ناحية فيما وراء الصحراء، بعد وادي الملكات، باتجاه الغرب حيث تنزل الشمس، يمكن بلوغها في ساعة مما نعرف، لكن العودة منها تقتضي أعمارًا ولا تكفي، قال إنه توصل إلى ما يمكن أن يقلب الدنيا، كل ما عُرف من مراقد الغاربين، ما يبدو أنه نُبش منها أو المرقد الوحيد الذي وصلنا كاملًا حتى الآن، هذا كله ليس إلا تمويهًا لحفظ المراقد الأصلية.

صمت عبود الرابع، راح بعينيه إلى بعيد، اقتربت منه: هل عرف أخوك أحدها؟ هل استدل على المكان الذي يحتويها؟ تطلع إليَّ صامتًا، أمسكت بكتفيه...

أين هو؟ أين راح؟

لم يحد عن سرحته، وطال سكوته وإبهامه...

## عبود المتذوق

لا أدري من القائل: لا يغير مصير الإنسـان إلا امرأة. وفي البر الغربي تكون في الأغلب الأعم أجنبية، كثيرة الحكايات التي تروى عن نساء جئن للسياحة وتعلقن بشباب ورجال بعضهـم متزوج وله أطفال، تفاصيل ذلك بلا حصر، لو انسقت وراء الرغبة في إيراد بعض ما جرى لما توقفت، غير أني أقصر الأمر على عبود الثاني والمعروف مؤخرًا بالمتذوق، جاءت من فرنسـا، بنية ممشـوقة، سوداء العينين، تقيم بمدينـة مونبلييه المطلة عـلى البحر الأبيض، نزلت عند عبـود الخامس، الحقيقة أن معظـم نزلائه فرنسـيون، يبـدو أن ذلك بعد ظهور عدة مقالات في ملاحق السـفر بصحـف كبرى، صحفيـون جاءوا وأقامـوا، ناموا على العنقريـب، أكلوا الملوخية الخضراء والويكـة والحمام المحـشي بالفريك الأخـضر اللباني، وأعجبـوا بالعيش الشمسي والجبن المعتق لسنوات في البلاليص، النخيل والرمال والمرافد التي تحفل جدرانها بالمقدس وكل عجيب، الإقامة الطبيعية بعيدًا عن تكلف الفنادق الكبرى المتشـابهة في كل الدنيـا، إضافة إلى دماثة القوم وتهذيب عبـود، وقدرته الفائقة على إبداء المودة وإشـعار كل نزيل أنه ضيفه الشخصي، والمؤكد أن بعضهم عرض عليه فرصًـا مغرية ومنهم ذلـك الإندونيسي الذي يمتلك عدة فنادق في جزيرة بالي التي توصـف كأنها جنة، عندما عايـن موقعها على الخريطة ورأى بحارًا ومحيطات يجب أن يقطعهـا قـال: يا بوي...هو أنا اتجننت أروح آخر الدنيا. اعتذر بكياسـة، فضل أن تجيء الدنيا إليه بدلًا من ذهابه وانقطاعه عن البر والناس الطيبين، أبى رغم أنه

معروف دور سيدة هولندية تعرفت به وهامت، خلال ترددها اقترحت عليه إعداد البيت القديم المبني بالطوبة الخضراء كنُزل، المكوث فيه طبيعي، كل وسائل الراحة ميسورة، مياه ساخنة وباردة، فراش نظيف، إضاءة جيدة، أما النخيل فمحيط، مؤطر للوضع كله، استشار أشقاءه وانتهى الأمر إلى إعداد البيت بعد تخليص الأوراق من السياحة وغيرها من مصالح، مشى الحال وبقي معلـمًا في البر، غير أن عبود الثالث جاء ليرحل، مسافر من يوم خروجه من بطن أمه، في صباه أتقن عدة لغات يختلف أشقاؤه في إحصائها، خمسة، ستة، المؤكد ... بينها الإنجليزية والفرنسية. كان يرافق القادمين إلى المزارات، عنده قدرة على الشرح والتعريف بزوايا رؤية فريدة، حتى إنه كان مطلعًا على زاوية فوق الجبل يمكن من خلالها رؤية الشمس عند الغروب في مشهد مهيب، كان يردد: ليس مهمًا أن ترى، المهم كيف ترى، لا يعرف أشقاؤه أنفسهم كيف بدأت الأمور مع البنية الفرنسية، حتى إنهم اختلفوا في اسمها فمن قائل: إنها مارتين، وآخر يؤكد أنها فاليري وثالث يجزم أنه رأى جوازها وأنها كريستين. المهم أنه ذات يوم أطلع أشقاءه على موعد سفره، أتم كل شيء قبل أن يخبرهم، أصرَّ على الخروج بمفرده فجرًا رغم إلحاح عبود الرابع على توصيله بالعربة إلى المطار، فارق البر بحقيبة ملابس، ومنذ ذلك الحين لم يعرف أشقاؤه وصحبه أخباره إلا عبر الهاتف. أحيانًا كنت أتقصى أخباره وكانت إجابات عبود السائق مختصرة، غامضة، ولم ألح، حدث أنني سافرت إلى باريس وكان الوقت صيفًا، أثناء انتظاري الحقيبة أمام السير المتحرك اقترب مني رجل متوسط العمر، قال إنه يقرأ لي، ويتمنى لقائي منذ زمن ليس بالقليل، دعاني إلى زيارته، يمتلك مطعمًا في الحي الثامن مصنفًا من المطاعم الجيدة، احتفظت بالبطاقة التي قدمها لي، شغلتني أمور عن زيارته، غير أنني عدت بعد حوالي ستة شهور، عادة أحتفظ ببطاقات كل بلد في ظرف، تأملت ما لدي، توقفت أمامه، هاتفته، رحب بحرارة، مضيت إليه، مشيت من الحي اللاتيني حيث أقيم عادة، عبرت

الســان جيرمان، ثــم النهر، كان الموقع قريبًا من فندق جــورج الخامس الذي اعتاد محمــد عبد الوهاب الإقامة فيه، رحب بي الرجل، وحدثني عن مراحله، دعوته إلى زيــارتي في القاهرة، أثناء جلوســنا دخــل رجل واضح أنه مألــوف هنا، جلس على مقربــة يتطلــع إليَّ، دعــاه صاحب المطعم للســلام، رغم ما أعانيــه في تذكر الوجوه والأسماء، فإنني تعرفت عليه، قلت: إنني التقيته في البر الغربي، لم يبد عليه المفاجأة أو الجمود، تطلع إليَّ، قال: إن كثيرين يجيئون إلى البر، إنه ســعيد بلقائي، تراجعت عن حماسي خاصة عندما لاحظت أن صاحب المطعم يناديه بجودت، لم أذكر اسمه الــذي ناديتــه به مرارًا، لا أعرف تقلبات الأحوال في الغربة، لاحظت الاســم، بين بين، يمكن اعتبار صاحبه مسلمًا أو مسيحيًّا، لماذا أبدي الملاحظة؟

حدث أثناء عودتي من نيويورك في الثمانينيات أن التقيت نائب القنصل في المطار، صاحب قديم، قال: إنه جاء مع بعض المصريين، جمعوا مالًا لشحن جثمان زميل لهم، غير أن مشــكلة واجهتهم، أثناء غسله في المسجد اكتشفوا أنه وشم رسغه بصليب، البعض يغير اســمه ويعتنق المســيحية ظنًّا منهم أن ذلك سيفســح لهم ويسهل، قال صاحبي إنه حائر، هل يدعهم يخبرون أهله أم ...، قال إنهم سألوه ولا يعرف كيف يجيبهم. لم أرد برأي قاطع، في الغربة رأيت وعاينت أعاجيب وغرائب، ربما... ربما أحكــي جانبًــا منها يومًا، قدم صاحب المطعم طبقًا به صنف إليه، أمســك بملعقة، تناول ما بها بتأنٍ، حرك شــفتيه متلمسًــا المذاق من عدة جهات، ثم بدا كأنه يصغي قال: دعه يبقي الشوربة على النار خمس دقائق مع إضافة قليل من الكسبرة، ثم أتى إليه بطبق يحوي صنفًا غيره، وبعد أن تمهل وتفحص أبدى الرأي والنصح، الحق أن فضولي قوي عليَّ، لم أبد ذلك، لكنني بعد أن صرت من زبائن المطعم عند ترددي، كنت أستفسر بشكل غير مباشر، ومما عرفته أنه تنقل بين مدن عدة، من مونبلييه إلى ليون إلى سان مالو وأخيرًا باريس، لا يعرف أين يقيم، غير أنه يتردد بانتظام لتذوق مــا يقدمــه المطعم من أطباق، يبدي ملاحظاته، إنه أشــهر من يقــوم بذلك ويُعرف

بالدكتور، لا يتوقف الأمر على المطاعم التي تقدم الأصناف الشرقية، إنما يبدي ملاحظاته لأصحاب المطاعم الفرنسية والإيطالية والمغربية، بل معروف بإتقانه مذاق الأطباق الصينية، خاصة البط البكيني، إنه لا يكف عن الحركة في أحياء باريس الثمانية عشر والضواحي أيضًا، يمكنه أن يأكل في أي مطعم؛ إنه المدعو الدائم، في مرة أخرى قال صاحب المطعم مبتسمًا: إن لديه قدرة أخرى لا يمكن أن ينافسه فيها أحد، يمكنه معرفة حرارة النساء وطبائعهن بالنظر إلى ملامحهن، خاصة الفم، يؤكد الصلة بين شكل وتكوين كليهما، يستطيع أن يتعرف على حرارة الأنثى أو برودها خلال ممارسة الحب، ما ترغبه وما تطلبه، وأيسر الطرق إلى بلوغها الذروة، يقول: إن من يتقن معرفة الطعام يسهل عليه معرفة النساء، وإن حيوات كثيرة تعسرت وأصاب أطرافها ما أصاب لعدم معرفتهم ببعض، بالطبع ... ليس هنا، في الغرب يعرف كل منهم الآخر، لكن المآسي عندنا، وما أدراك ما عندنا، يقول صاحب المطعم: إن صيته ذاع حتى إن أثرياء عربًا ممن يزورون باريس يستضيفونه في الفنادق ويعرضون عليه صورًا، أو أفلامًا للشخصيات المطلوب تحري طبائعها، فقط...الإناث، الرجال مجال آخر لا يفضله ولا يتعامل معه، يفكر في وضع كتاب يقدم فيه خبرته لكنه لا يجد الوقت، يشك في وجود ناشر يجرؤ على طبعه من المحيط إلى الخليج، استوقفتني ملاحظته عن الصلة بين المداخل، بين الفتحات التسع في الجسد الإنساني، صرت كلما رأيت أنثى من أي عمر أو جنس أتأمل وأتمعن شفتيها وأستنتج، تقت إلى مصاحبته والاقتراب منه، آخر زيارة منذ عام سألت عنه، قيل لي إنه سافر إلى نيويورك، تعرف إلى سيدة أمريكية ميسورة هامت به ودعته إلى زيارة تحولت إلى رفقة وإقامة، عندما قصدت البر الغربي منذ شهرين سألت عبود الرابع عنه بعد يومين من إقامتي، قال إن أخباره انقطعت تمامًا منذ عامين، وعندما استعدت ما أطلعني عليه صاحب المطعم المصري لاحظت اقترانه بانتقاله من باريس إلى نيويورك...

# عبود العاشق

حدثني عبود الرابع على الطريق من القرنة إلى قنا حيث معبد سيدة الأنوثة والجمال، الربة حتحور، لي به هيام، وصل إلينا بمعجزة سالمًا تقريبًا، أضرب به المثل دائمًا على عمق الثقافة وقوة الروح في أرض الكنانة، من بناه أجانب غير أنهم بالمكوث تمصروا وتجدروا في أرض كيميت الخصبة، أعني البطالمة، أبناء وأحفاد الإسكندر الأكبر المقدوني، الغازي، من تجرأ على مِصْرَ، غير أن البلد الأمين، القديم أفقد الغزاة صلاتهم بأصولهم، اعتنقوا الديانة وآمنوا بالرموز، من يقدم على زيارة دندرة المكرس لحتحور المقدسة، أو معبد إدفو المشيد لحورس بن أوزير، وإيزيس زوج حتحور، لهما موعد قديم يلتقيان فيه، تتجدد من خلاله الحياة، ينتقل حورس إلى أنثاه من إدفو إلى دندرة، احتفال مهيب تتجه فيه المراكب والقوافل من بحري إلى قبلي، تفاصيل العقيدة المصرية مدونة على الجدران، أصبح البطالمة مصريين شكلًا ومضمونًا، هذا ما جرى للمماليك ومن قبلهم الفاطميون والعرب والرومان، تهضم مِصْرَ الغرباء، تفقدهم خصائصهم، يتكلمون لسانها، نأخذ منهم، نعطيهم، لكن المخ يكون أطغى، في الجمالية عرفت تجارًا للسجاد والنُّقل «المكسرات» والتنباك، جاءوا من سهوب آسيا الوسطى، الجيل الأول يتكلم العربية بتعثر، الثاني لا يمكن التنبؤ بأصوله، لا في اللسان ولا في العادات، كثيرًا ما أحاول التفرس في أصول الأشقاء عبود، لكل منهم قامة سامقة، وسمت ملامح كأنها قدت من حجر نادر مثل الديوريت الذي صيغ منه تمثال خفرع، في عيني كل منهم نفس النظرة التي

حيرتني، النظرة إلى بعيد، غير محدد، محاولة للنفاذ إلى الأبدية، لتجاوز ما لا يمكن تجاوزه، عبود الرابع يظل ساهمًا، صامتًا، قد يبدأ الحديث، يتدفق بلا انقطاع، بانفعال، يلون الأصوات، ثم يكف فجأة فكأنه لم ينطق قط، في تلك الرحلة بدأ الحديث عن أشقائه، قال إن أهل الناحية يقولون عنهم إن مسًّا لحق بهم وإن جدهم لأبيهم دعا على سلالته بالتفرق، قال إنه لم يتبق منهم إلا ثلاثة في البر، كل في حاله، رغم قربهم في المكان، فإن الواحد منهم إذا جلس إلى الآخر يروح إلى بعيد، كل منهم في بعد قصي عن الآخرين، يبدو أن الدعاء عليهم صحيح وأن مفعوله نافذ، سكت ثانية واستأنف متحدثًا عن عبود العاشق، قال إنه السادس بينهم، من يومه صامت، يفضل القعاد مع نفسه، وعندما لاحظ عبود الأول سكوته وحديثه إلى نفسه خشي أن يكون ملبوسًا من عفريت أو جان، أسرّ إلى أمه بما عاين من شقيقه، واقترح ذهابه إلى الشيخ الطيب ليرقيه ويبعد عنه المس، إلا أن أمه خشيت سريان الأمر وبدأ القوم تعاملهم معه على أنه خارج الأمر والبنية، قالت إنها ستملس على رأسه وتقرأ آية الكرسي سبع مرات لعل وعسى، تقدم الزمن وكثرت سرْحاته، يغيب باليومين والثلاثة يرفض أن يقول أو يوضح، في إحدى الليالي جاء إلى البيت بعد صلاة العشاء، يحمل لفافة حصيرة داخلها شيء ملفوف في ملاءة كشف عنه وإذا بأمه وأشقائه في مواجهة مومياء مدثرة بالكتان، قناعها سخي الألوان، واضح التقاسيم، أنثى ذات بهاء كأن وجنتيها يدفق فيهما الدم، أما شفتاها فسخيتان، ربما هما من أوحتا إلى عبود الثاني تلك الصلة بين الشفتين والعينين والفرج، أما الشعر فأسود غطيس، كأنه مصفوف منمق منذ ساعة لا غير، لم يدر أحد إذا كان باروكة أو أصليًّا، غير أن الملامح تسيل أنوثة وقدرة على الإحاطة، قال لأمه: «دي حتفضل معانا في البيت... أنا اللي حراعيها...».

خبطت صدرها بيدها جزعة، مروعة...

«يـا خـراب بيتـك يـا عبـود... رجعهـا ...رجعهـا دي أمـيرة... إزاي تهينها كده...

لطم وجهه منفعلًا:

«كلام إيه ده يا ما؟.. دي نور عيني وحبيبة قلبي...»

لطمت وجهها، تحول صراخها إلى نواح كأنها تشيع راحلا...

«حقك عليَّ يا أميرة...سامحيه يا ست الكل ... أصله...ما يعرفشي ...رجعها ...رجعها...

تجمد كل من حضر المشـهد، أحاطها عبود باللفافة، عويل أمه لم يعرفه أحدهم مـن قبل، ولا حتى يوم وفاة عبود الكبير، حملها كما جاء بها، خرج مبهوتًا، أما الأم فلم تكف حتى مطلع الشمس،«من يومها لم نعرف له أثرًا ولا بان له ظل...».

«أين راح؟»

أومأ بذقنه ناحية الغرب «هناك ...هناك»

لزم الصمت، لم ينطق حرفًا فيما تبقى من مسافة ولا عند العودة...

# عبود الفُرصي

عادي جدًّا أن يرافق أحد أهالي البر أجنبيًّا خلال إقامته، يدله على المزارات، يساعده في التعرف على الخلق، ومصادر الشراء، يعرفه بعادات القوم، للناس دراية ودربة على إتقان الضيافة وإظهار المودة للغريب، لا يعرف أحد كيف بدأت الصلة، وأين، بين الخواجة مهيب المنظر وعبود الثالث؟ كان يقطع البر يوميًّا من وادي الملوك إلى الدير البحري وربما يكمل إلى دير المدينة ثم مدينة هابو، متجولًا باستمرار حاملًا مراوح من خوص النخيل، ومنشات من السعف يتقن عملها، وأحيانًا يحمل عددًا من نسيج نقادة المعروف بالفركة ولقرون عديدة كان يصدر إلى السودان، النساء هناك يفضلنه في لباسهن الشبيه بالساري الهندي، منذ سنوات قل الطلب عليه وتوقفت أنوال عديدة عن العمل، إذا تعرف خلال سعيه بأحدهم يصحبه ويهتم به مقابل النصيب، الرجل أقام في النزل الذي يديره عبود الخامس، اعتادا الجلوس معًا في المطعم والمقهى فوق دكة واحدة، وكثيرًا ما تناولا العشاء معًا، الرجل من أيرلندا، أحواله ميسورة، قيل إنه بروفيسور في جامعة كبيرة، وأكد آخرون أنه مهندس أحيل إلى التقاعد قرر أن يزور أهم ستة مواقع في العالم، أولها البر الغربي، ثم أهرامات المكسيك، ومدينة البندقية، والمدينة المقدسة في بكين، والمعبد البوذي في كاتمندو بنيبال، وتاج محل في الهند، ربما يعد كتابًا عن هذه المزارات، أبدى عبود حماسًا للفكرة، أكد أنه سيطلعه على ما يضمه البر الغربي، فرجة خاصة جدًّا، بسط الرجل يده فوق صدره شاكرًا، استفسر عن إمكانية شرب بيرة مصرية

ستلا، قال إنها شهيرة جدًّا عند من زاروا مِصْرَ، قال عبود إن شقيقه لا يتاجر في الخمور، لا يقدمها هنا، لكنه يعرف فندقًا صغيرًا بعد معبد هابو بأمتار يمكنه أن يأخذ فيه راحته، وقف مبتهجًا.

«أدعوك إلى العشاء أيضًا...»

قطعا الطريق المترب إلى الفندق المبني بطوب أحمر، نوافذه ألومنيوم، بعد الزجاجة الثالثة بدأ الخواجة يونون وعبود يترنم، أصغى إلى تفاصيل زياراته غير أنها كانت متصلة بالعمل، سريعة، مزدحمة باللقاءات والمناقشات، مجال عمله البرمجيات البنكية، رغم ذلك عرف نساء من كل الأجناس والملل، لكنه لم يتعرف بعد على مصرية، رغم الوصول إلى الزجاجة الرابعة من البيرة الشقراء المتقنة، فإن الوصول إلى هذا الحد من الحديث أطار الخدر الذي راح يسري، وعطل الرغبة في الحديث التي بدأت تقوى، هل يطلب منه أن يكون... لا... فليتنبه، الذين يقصدون البر الغربي لا يبحثون عن هذا، وإذا جرى ذلك فيكون منهم فيهم، هذا يجيء مع صاحبة له، ذاك يقيم مع رفيقه، صحيح أنه يحدث إعجاب أنثى بذكر من أبناء الناحية، ولكنْ رجل يبحث عن امرأة هنا أو يضع عينه على إحدى بنات البر، هذا صعب، لا ... مستحيل، قبل أن يوغل، فوجئ بالخواجة يميل ناحيته، يقول:

«مستعد أدفع عشرين ألف دولار...ساعة وبس...

ضحك حتى إذا ووجه بحدة، يمكنه القول إن الأمر مزحة، غير أن عبود استفسر: «كم؟».

راح يترجم المبلغ إلى جنيهات، مائة وأربعين ألف جنيه، كم شهرًا، لا ... بل كم سنة يجب أن يقطع فيها البر من بحريه إلى قبليه حتى يحصل مثله؟، عند انصرافهما كان ذهنه متقدًا رغم سبع زجاجات ستلا دفعته إلى التردد على الحمام، كأن خطاه

وسيط بين فمه وفتحة تبوله، بعد أن صحبه حتى باب النُّزل، أكد أنه سيرد عليه غدًا، قال الخواجة بعامية واضحة: «وريني شطارتك...».

راح بسرعة يمسح البر بذاكرته، بالطبع دماغه راح إلى الحَلَب، لكن الأمر يحتاج إلى وقت، ثم إنهم دربوا نساءهم على الغواية، لا بأس من التعري إلى حد معقول، حتى إظهار الصدر للمحة، واللمس الخفيف والمعمق، لكن الإيلاج مستحيل، قبل وصوله البيت قعد على حجر قديم قريب من الساقية القديمة، صحيح أن لقرى الصعيد ونجوعه زمتة، لكن لا تخلو ناحية من بيت يمارس فيه الحرام سرًّا، الكل يعرف ويتواطأ، لو أنه مقيم لفترة، ضبط نفسه يلقي اللوم على ضيق الفرصة وليس على المبدأ، يكون أولا، يقبل أو يرفض، عندما دخل البيت لاقته امرأته، لا يغمض لها جفن إلا إذا رجع وأغمض عينيه قبلها، بعد دقائق قالت: «فيه حاجة؟»

هز رأسه نفيًا، أصرت، إنها تعرفه من دخلته عليها، لا يجيد إخفاء ما يمر به، بعد إلحاح قال مبديًا الضيق: إن زائرًا يقيم عند عبود شقيقه في النزل، طلب منه ما لم يجرؤ أحد على مجرد التلميح له طوال خدمته بالبر وسعيه هنا وهناك، حكى التفاصيل متجهًا بعينيه إليها، لم يحد عنها وكأنه يريد رؤية ردود فعلها كأنه يحاول تلمس ثغرة ما، ماذا؟ هل يريد مبادرة منها؟ عندما نطق المبلغ متمهلًا خبطت صدرها براحة يدها، هل جن؟ قال إنه ثري جدًّا يلف العالم وهذا لا يمثل بالنسبة إليه شيئًا، تقاربا، هذا حالهما عند وقوع الشدائد، غير أن كل ما مرّ بهم أمره معروف، شجار هنا، خلاف هناك، غتاتة من شرطة السياحة، لكن ما طلبه الرجل، حتى الثالثة صباحًا لم يعرف كلاهما النوم، ما جرى من حوار بينهما ناطق وصامت يطول وصفه، احتوى على تقدم وتقهقر، إقدام ونكوص، استنكار يعقبه تساؤل ثم تدبر، أخيرًا عندما لمح ما يشبه القبول، قال إنهم أولى، المبلغ سيقلب أحوالهم، بل سيمكنه من استئجار مكان قرب الدير البحري، سيدفع الرخص المطلوبة، وما يقتضيه الحال من عكمة لهذا أو ذاك، باختصار توصلا إلى اقتناع تلخص في

قوله: «مرة وتعدي». أما هي فقالت إنها من أجله يمكن أن تلقي نفسها في البحر وربنا يسامحها، هكذا... طلعت عليه شمس النهار ولم يغف إلا قليلًا، ولولا حلم خاطف أورثه أثرًا ما استطاع أن يتأكد أن عينه راحت في النوم لحيظات، قام ليتناول إفطاره، وكانت امرأته مستيقظة قبله، غير أن اتصالهما وتقاربهما قبل التوصل إلى قرار تحول تباعدًا إلى درجة أن كلًّا منهما تجاهل النظر إلى الآخر، وقبل خروجه بالولد والبنت ليتركهما عند عمهما عبود السائق، أشار إلى الجلباب فقالت وبصرها منكس إلى الأرض:

«أنا عارفه أنا حعمل إيه...».

عاد بالخواجة حوالي الحادية عشرة، جلسا في الحوش المؤدي إلى غرفتين، وفوق غرفة ثالثة تستخدم صيفًا، عندما دخلت تحمل صينية الشاي وفوقها كوبان وثالث أكبر به ماء، تطلع إليها الخواجة لافظًا بالعربية:

«الله...

راحت وجاءت ثم قام فجأة ليقول إنه نسي شيئًا، إنه مضطر للذهاب كي يحضره، قال للخواجة إنه في بيته، وعندما خرج لم يتطلع إلى امرأته، لم يذهب بعيدًا، انتحى ركنًا قريبًا من النخلات الثلاث الباسقات من جذر واحد، أخرج المظروف، راح يعد المقدم داخله، يبلل طرف أصبعه ويستأنف، تمامًا كما وعد، عشرة آلاف ورقة خضراء، بعد أن تأكد أخفى المظروف في جيب الصديري، عاد إلى العد مرة أخرى، كان يتعجل مرور الساعة الثقيلة، غير أنه بعد مرور حوالي ساعة ونصف راح يتطلع إلى الباب، لم يتفق على كل هذه المدة، وبعدين يا خواجة، ما يعرفه أن كلمتهم واحدة، عندما اكتملت ساعات ثلاث قام واقفًا، محدثًا نفسه بصوت عالٍ:

«لا... كفاية كده...»

اتجـه إلى البيت، خبط الباب ثلاثًا، لم يجبه أحد، الباب مفتوح، هل تركه هكذا؟ ماذا لو...، يجب أن يتنحنح منبهًا، غير أن صوتًا لم يجبه، ما من رد فعل.

الغرفة الأولى خالية، الثانية أيضًا، طلع السلم متمهلًا، أين ذهبا؟ ما من حِسٍّ في البيت، لحســن الحظ أنه ما من بيت إلى جوارهم من قبلي أو بحري، الباب مفتوح، توقف وانهيار داخلي يتوالى حتى إنه تداعى متهاويًا لاطمًا وجهه، رأسه، مرددًا: «يا خراب بيتك... آه يا بوي يا كسري...».

# عبود الفندقي

لا يمشي إنما يسري كطيف، لا يسمع له حس ولا يصدر عنه صخب، ينادي من يعاونه في خفوت، يسأل الزبون كأنه يهمس، طلته في شفافية الماء، عذبة، سلسبيل مطمئنة، مرحبة، خلق ليكون مضيفًا، من اللحظات التي أتوق إليها إقباله عليّ عند وصولي مصافحته الحنون، يتقدمني حاملًا مفاتيح الغرفة، لابد أن يفتحها بنفسه، سيد معاونه يتبعه حاملًا الحقيبة، لم ألمحه يحمل حقيبة أحد، لا رجل أو امرأة، يقف في مدخل الغرفة باسطًا ذراعيه، داعيًا، يتأكد أن كل ما يلزم في مكانه، إذا وصلت ليلًا يسألني عما أرغبه لإفطار الغد إلى جانب الزبادي والعسل، أنبئه بما أرغب ... إذا وصلت صبحًا يستفسر عما أرغب في الغداء، يذكر ما عنده فإذا لم يوافقني منه شيء يُعد ما أرغب، بمجرد أن أهاتفه من القاهرة يخلي الحجرة من ساكنيها إذا كانت مشغولة، أيًّا كان نزيلها، منها أرقب شروق الشمس، أستيقظ مع بدء انبلاج الضوء وتبين الأبيض من الأسود، لا أولي البصر مع ظهور حافة القرص، صعوده البطيء شتاءً، السريع صيفًا، إذ يكتمل أغمض عيني، أتم نومي أو أتقلب ذات اليمين والشمال، لا يسمح لأحد بالجلوس حيث اعتدت، عند نهاية الكنبة المستطيلة، أمامي منضدة من جريد النخل، عليها مفرش نظيف، هدوءه لا يتغير، تعدد الزبائن أم قلوا، بعد اطمئنانه إلى مضي الأمور وانصراف الحضور إلى مهاجعهم يدخل إلى الصالة، أرى أصداء ألوان التليفزيون، تتوالى المشاهد غير أنه يوليه ظهره، يجلس منحنيًا، أصابع يديه متشابكة، يحير ني سلساله الهادئ، تواليه

الناعـم، سـمعت أنه خـرج عن طوعـه بعد واقعة شـقيقه عبود الفُـرصي كما صار يُعـرف في البر والتـي مزق فيها الخواجة حضورها إلى قطـع أكبرها في حجم راحة اليد، اختفى ولم يعثر له على أثر ولم يدل أي إنسـان بما يفيد عنه، حتى سـائق العربة الـذي أتـى به اتضح أنه مـن محافظة أخرى، سُـمع صوته حادًّا، غامقًـا لأول مرة، مزيـج من نواح وعواء معًا، خشي الكل الاقـتراب منه حتى كف، ظل على وضعه بضع سـاعات ثم قام إلى صميم حاله، كأن شـيئًا لم يكن، حكايات أشقائه يتناقلها القوم خفية، يوقنون أن ثمة لعنة لحقتهم حارت في تعليلها الأسباب، منذ أن عرفته لم يتغـير لـون جلبابه، بني غامق، الصديـري أبيض، جلباب واحـد أم عدة يبدلها، يوحدها اللون، في ذلك العصر الخريفي الذي يشملني برحمته لمحته مطرقًا، حزينًا، هكـذا تفصح هيئته، حتى إنه لم يلتفت ناحيتي مومئًا أو مبتسمًا، بعد حوالي سـاعة توقف عبود القائد بعربته، نزل ملوحًا إليَّ، قمت واقفًا فأقبل، استفسرت منه.

«عبود ماله ...؟»

«عبود مين يا أستاذ...؟»

أشرت إلى المبنى، تبسم دهشًا

«عبود راح من زمان، ادعي له ربنا يرد غربته، إذا كان حي...»

«راح فين؟»

«هناك...

اتجهت يده إلى الغرب...

سديم

# تحنــــان

### ثلاث

ثـلاث لحظات غمرني خلالها حنان دافق من إنــاث لم أعرفهن ولن... مما يمثل في مخيلتـي دائـمًا، أبـدًا تلـك اللحيظات قبـل إيغالي في السُّـبات، بلغـت درجة من الاستسـلام لم أمـر بمثلها في كافة أطـواري، صرت قابلًا كل صـورة للفناء، ممددًا كنـت على سرير متحـرك، مرتديًا روبًا مفتوحًا من الخلف ولا شيء آخر، مجردًا من كل سوء، للمرة الثانية أقدم على شق صدري وتغيير صمامات رئيسية في قلبي، عند باب غرفة العمليات أوقف الممرض السرير، جاء طبيب التخدير واسـمه ستارك، أجرى وخزًا في ساقي، كنت ملمًّا، مدركًا، بعد أن فرغ أصبحت الدورة الدموية لا تخـص القلب، إنها محولة إلى جهاز يقوم بعمل القلب والكلى ويراقب المخ، تغيرت الأمـور عن المرة الأولى، ما زلت أذكر وخزًا حادًّا في الرقبة لم يحدث في المرة الثانية، يفصلهما أربعة عشر عامًا، ضاقت خلالها فتحة الصدر لمدةٍ اثنين وعشرين سنتيمترًا إلى ثلاثـة عـشر، وأخبرني من أثق بـه أنها صارت وقت تدويني هذا سـبعة لا غير، كنت في هدوء سـحيق، احتـوى كافة ما يقع عليه بصري، لفـت نظري جهاز كأنه من كريستال مبين، دققت البصر الحسير، أدركتها هنا، جاءتني من الجانب الأيسر، مالت عليَّ، قالت بدرجة من الصوت لم أعهدها من قبل.

«أكيد... إنـه شيء مخيف، لكن ما مـن بديل، نقبل المخاطرة لنتقي ما هو أفدح، هـل تحتاج إلى شـيخ؟... عرفت أنك مسـلم...» لا أدري هل اعتـذرت بالنطق أم

الإيـماءة؟ قالــت إن كل شيء سيمر بأفضل ما يمكن وإننـي في أكفأ مكان في العالم يمكـن أن تجري فيه مثـل تلك الجراحة، قالت... لا أعي مـا تحدثت به، ذلك أنني بدأت أوغل، حتى الآن لا أدري هل انبعث صوتها من إطلالتها عليَّ أم من داخلي، أحيانًا يخيل إليَّ أنها كانت ترتدي الأبيض، وأنها تقريبًا أربعينية، جميلة الملامح، لكن التدقيـق عـبر الملامح لا يبلغني أي ملامح، بل إنني أشـك فيـما عندي، هل جرى ذلـك حقيقـة؟ وإذا كانت وهمًا فلماذا يتجسـد لي صوتها خاصـة إيقاعه، ودرجته، وما يحويه من حنية صادقة، لا... لم يكن قط واجبًا وظيفيًّا، غير أنني لست موقنًا، أحيانًا يفاجئني حنانها فأتدثر به غير سليم.

اللحظـة الثانيـة جرت في نيويورك، كنـت مقيمًا لأيام عند ابنتي التي اسـتقر بها المقام، المبنى مطل على النهر الشرقي، ثمة رصيف ممهد، يقصده هواة صيد السمك والعشـاق، والأمهات بأطفالهن، وسـيدة هندية أو باكسـتانية لا أدري، تمشي بهمة ونشـاط، تروح وتجيء، تروح وتجيء، تختفي فجأة، كنت أمشي بعض الوقت قبل أن أعود إلى البيت، مرة عند المدخل المؤدي إلى الرصيف، فوجئت بدفعة مجهولة لا أدري مكمنها أو مصدرها، درت دورة غير كاملة، لم يكن قربي ما يمكن الاسـتناد إليـه، لا أدري مـن أي جهة ظهرت تلـك البنية، رمادية البنطلـون، زرقاء التنورة، ناعمة الشعر، مؤنسة الطلة، مدت يدها إليَّ لتسند، لتحول دون سقوطي.

«هل تحتاج مساعدة ؟»

راحت الدَّفْعة، كنت أخشى تكرارها...

«لا لا... شكرًا

هل تسكن قريبًا؟

أشرت إلى العـمارة الشـاهقة، أصرت عـلى مرافقتي حتى المدخـل، بضعة أمتار تمنيت لو طالت، وحتى لحظتي تلك أستعيدها بامتنان وعرفان وتوق مبين.

أمـا الثالثة فجرت في مدينة الإنتاج الإعلامي القريبة من مدخل الطريق الغربي المؤدي إلى صعيدي، إلى مسـقط رأسي والبلد الـذي جئت فيه إلى الوجود، جهينة، بعـد أن فرغـت من لقاء على الهواء، أدركني خلاله تعثر أنفاس فخشـيت أن يجري لي مـا وقع تلـك الليلة منذ سـنوات، وكان بداية الخطى المؤديـة إلى جراحة القلب الثانيـة، أثناء قطعي الممر المفروش برخام ثقيل تزايد التثاقل عليَّ حتى إنني توقفت عـن السَّـعْي، قصـدت دكة قريبة محـاذرًا الزحـف على أربـع، يبدو أن تلـك البنية لمحتني، هرعت ناحيتي جزعة.

«مال حضرتك...؟».

مغمض العينين سـألتها كوبًا من الماء، عادت بعد لحيظات، لا أدري أي مكان سعت إليه، ليس ماءً إنما محلى بالسكر.

«هل أستدعي الإسعاف...؟».

كنـت مبتعدًا إلى مكان قصي لا يمكن تعيينه، بعد رشـفات الماء والسـكر أعود متمهـلًا، أفـد من جديد، أهذا تدريب على غياب مكـين؟ لا أدري ولكن لهفة هذه البنيَّـة تعاودني، ومن أسـف أننـي لا أقدر على اسـتعادة ولو قبس مـن حضورها، لست عليَّ بمسيطر...

# بين سيدي مرزوق والشهباء

جرى ذلك عام خمسة وخمسين وتسعمائة وألف، صحبني أبي مع شقيقي إسماعيل لصلاة الجمعة في سيدي مرزوق، مسجد وضريح يقع عند مدخل الدرب، عادة يفضل أبي صحبتنا إلى مسجد مولانا وسيدنا الحسين أو الأزهر ثم يقصد فندق الكلوب العصري لمجالسة الحاج عبده النوبي، لعله يلتقي بقادم من البلدة أو أحد معارفه، رائحة الشاي الأخضر بالنعناع وما تيسر من شواء الكباب وتقلية فتة الكوارع ما تزال باقية عندي. لماذا سيدي مرزوق في ذلك اليوم؟ لأن الشيخ مصطفى إسماعيل أعظم من تلا القرآن بعد الشيخ رفعت سيقرأ، حدث لأول مرة، فلم يسبق دخوله أي مسجد داخل الجمالية، ما زلت أستعيد تلك الظهيرة وإعجاب القوم ومنهم أبي، بعد سنوات طويلة أدركت أسبابًا عديدة لإعجاب أبي، كنت شأن الكثيرين ميالًا إلى الشيخ عبد الباسط، غير أنني الآن أعي الأسباب، حدثني أبي فقال إنه اعتاد المشي حتى مسجد مصطفى فاضل قرب درب الجماميز لسماع الشيخ رفعت، قال إن ما تبثه الإذاعة من تسجيلات ليس إلا مجرد إشارة تجاه كنز لم يُعرف مثله، مَرّ بين القوم وغاب، قال أيضًا إنه لم يعرف من يدنو منه ويقترب إلا مصطفى إسماعيل وإن لم يؤت جمال الصوت. مرت الأيام، تنقلت من الشيخ البهتيمي إلى الشعشاعي وأسرني الشجن في صوت المنشاوي عند ترتيله، وفي آخر القرن نزلت حلب الشهباء، حدثني صاحبي محمد قجة عن شاب في المدينة القديمة يقتفي تسجيلات نادرة لأم كلثوم، من المعروف أنها لم تكن

تؤدي الأغنية نفسها مرتين متشابهتين، كل حفلة لها تصاريف وأداء يحير أدق وأهم المتخصصين، هذا الشاب عازف قدير للعود، صبيٌّ مدلل لا يغني إلا إذا صاحبه مع أنه صغير السن، غير أنه مقتدر، متين، عكف على الإصغاء إلى الأغنية الواحدة عدة حفلات، يختار أروعها، رق الحبيب مثلًا، آخر ما لحن محمد القصبجي، أداء أم كلثوم بلغ الذروة في حفلة يناير عام اثنين وخمسين من مسرح الأزبكية بحضور الملكة ناريمان، وهكذا... في بيت حلبي عتيق من طابقين، جلست في الطابق الأول أصغي إلى ما يقدمه الشاب، لا أعرف ما لحق به الآن بعد سنوات من العنف والتدمير المنظم وشيوع الخراب، فوجئت أن لديه تسجيلات نادرة لمطربين آخرين وحفلات خاصة لأصوات همت بها من حلب، الشيخ درويش الحريري، محمد خيري، صباح فخري وغيرهم، غير أن ما فاجأني تلك الساعات لمقرئي القرآن من المصريين، أثناء تقليب الشرائط، لمحت واحدًا كتب عليه قصار السور، الشيخ مصطفى إسماعيل، الجمعة عام خمسة وخمسين وتسعمائة وألف، فبراير، تناولته، قلبته بين يدي وعندي تهدج، إذن ... كانت القراءة في فبراير، غاب عني ذلك، والله طلبت سماعه، الوحيد الذي أصغيت إليه...

نعم ...نعم...

آل إليَّ الفضاء كله وما حوى، لم أتوقف عند قطع الشيخ وصعوده ونزوله المتمكن، إنما كنت أبحث عنًّا في الأصوات المتداخلة، في الوهم الذي لم يتبق منه إلا الأصوات والفضاءات التي لا تدرك ولا تحصل...

# مـــاء

لو رأى إنسان بداية تشكل الماء لما تخيل مساراته وتحولاته، أرق العناصر وألينها وأوهنهـا حتـى إنه لا هيئة ولا شـكل له، إنما يتخذ وضعية مـا يحتويه ويتأثر بلونه، عندما قصدت سويسـرا للمرة الثانية دعاني صاحب لي لزيارة مدينة قريبة من جنيف حيـث منزل مكثي لأيـام معدودات، مـصري، قبطي، هاجر في نهاية السـتينيات، بـدا لطيفًا، مضيافًا راغبًـا في التواصل وإبداء المعونة؛ لأن الطرق فسـيحة، ناعمة، سـهلة، محكمة، بدا لي الانتقال سـهلًا ميسـورًا، طبيعة مصقولة، لا شائبة ولا زائد أو ناقص، تحدثنا عن الأحوال، والإخوان، ولطف التدبير الذي مكنهم من الحكم حتـى يعرفهـم ويتبينهـم النـاس، أما لطـف اللطف فخروج المصريـين لإقصائهم، لم نتجـادل، رغـم لقائنا أول مـرة، حكى لي عن سـنواته الأولى ومجيء معارفه الآن وانطلاقهم معًا، خاصة في الجنس، مرة واقع ثلاث عشرة أنثى في ليلة واحدة، كان ذكـرًا طلوقًا، الآن وهنت الرغبة حتى إنـه يبدي الحجج مع بعضهن، ويتهرب من متابعـة أخريات، للعمر أحكام، قـال إن التضييق على الهجرة بدأ نهاية السـتينيات واسـتحكم في السبعينيات، يفسر هذا تقدم أعمار الزبائن في مقهى المصريين بشارع لوزان، معظمهم من النوبة، داخله يبدو مقهى في شارع البورصة أو سوق التوفيقية وسـط المدينة. بسرعة وصلنا مونترو المطلة على بحيرة فسيحة على الضفة الأخرى سلسلة مرتفعات جبلية، قال إنها فرنسـا، المدينة أنيقة، مصقولة، فيها وقع مصطفى النحاس باشـا معاهدة 1936، فندق أصفر الطلاء، أخضر النوافذ، بسرعة رأيت

من خلاله آخر أزيل وحل مكانه مبنى حديث قبيح، فندق سميراميس، جرأني على الجلوس فيه معلمي وصاحبي محمد عودة، خاصة في الشرفة الشهيرة، الفسيحة المطلة على النيل، كل جمعة يجلس فيها توفيق الحكيم بصحبة مريديه، أذكر هيئته وإلى جواره الدكتور حسين فوزي، إذن... لا بد أنني قصدتها وحضرت، متى ... بصحبة من؟ لا أدري، دخلت إحدى غرفه مرة واحدة، ربما كان ذلك عام أربعة وستين أو خمسة، ربما ستة وستين، المؤكد قبل هزيمة يونيو، كان اتحاد الصحفيين العرب، بين الضيوف غسان كنفاني، كان روائيًا شهيرًا مرموقًا، قرأت له «رجال في الشمس» و«الأدب الصهيوني». كنت أرسل إليه قصصًا ينشرها في ملحق «المحرر» الذي يرأس تحريرها وقتئذ، رأيته في غرفته، يرقد في السرير، عنده وعكة اعتذر بسببها عن حضور اجتماعات اليوم، لا أذكر ما دار بيننا إلا أنه بقي عندي بلطفه ودماثته وصوته الخفيض إلى أن قرأت نبأ استشهاده بعد أن طالته يد المخابرات الإسرائيلية كان نشطًا فعَّالا في الجبهة الشعبية، قرن القول بالفعل، ما زلت أرى تمدده في الفراش مستندًا إلى وسادة وراء ظهره، نزولي فوق السلم الرخامي العريض، وتدقيقي في السقف، المدخل، استعادة ما أعرفه أن فيلد مارشال مونتجمري أقام مع رئاسة أركان الحلفاء في إحدى الغرف بالطابق الثاني، لو تم الإبقاء على المبنى لصارت تلك الحجرات مزارًا، غير أن الرغبة في إزالة الرموز ودثر أماكن الذاكرة والعراقة وتعجل الربح دفع إلى بيع الفندق، أرضه وما قام فوقها بمليون جنيه لا غير دفعها سعودي، وجدت سميراميس في مونترو، الارتفاع، طريقة البناء، استدارات الواجهة، المدخل وحتى الشرفة الأمامية، لم أهتم بمعرفة اسمه، أطلقت عليه «سميراميس» رحنا نمشي على مهل أمامه، بحيرة منبسطة كمرآة، غير أن ثمة نهاية مجرى يجيء من الجبل القائم وراء البيوت، مغطى لا يلحظ، ينكشف عند حافة البحيرة، يتدفق الماء عفيًا قويًا إلى البحيرة، تطلعت إلى أعلى، جزء من الألب، عندما أسافر جوًّا قاصدًا الغرب، أنتظر ظهور المرتفعات

المكسوة بالثلوج البيضاء صيفًا أو شتاء، أدقق البصر إلى الوهاد، الوديان، الطرق التي تبدو كخيوط سوداء ملقاة هنا أو هناك، أحيانًا أقدر الارتفاع عن السفح بعشرات الأمتار، تشير المعلومات التي تظهر بانتظام على الشاشة أن درجة الحرارة خارج الطائرة خمسة وخمسون تحت الصفر، لا أقدر على تخيلها، أقصى ما عرفته ستة وعشرين ناقص، كان ذلك في موسكو عام سبعة وثمانين من القرن المنصرم، من الطيران رأيت ميلاد العيون والأنهار، خاصة عندما تنقلت بالهيلوكوبتر فوق الجبال والممرات والسهوب في شمال العراق وسويسرا وفراغات مِصْرَ الصحراوية، يبدأ الأمر من اللاشيء، مما لا يمكن الإمساك به أو حصره أو رؤيته، ذلك البخار الذي يتحول إلى غمام سابح ينزل قطره حيث تقتضي الأحوال والظروف، يتجمد فوق القمم، جليد أبيض ناصع نقي مثل الحقيقة ورؤية صفي القلب، عند يوم معين، لحظة ما يبدأ ذوبانه بتأثير عوامل قريبة، بعيدة، بعضها ربما يكون قادمًا من أكوان بعيدة عن الوجود الذي يحدنا، كثير لم يعرف بعد، يبدأ التفكك، يسري قطر الماء منحدرًا، ربما يمضي عبر مسالك مهدتها قطرات أخرى من ملايين السنين، ربما تكون هي نفسها أو غيرها قدمت من مواضع نائية، لا يمكن تمييز الماء من الماء، لا يشبه إلا جوهره وشكله، يتكون سرسوب جد ضئيل، يلتقي بآخر عند نقطة لم يحددها أحد، عينتها الطبيعة، ثم يمضي ليقابل آخر، يتدفق بمقدار أكبر وهكذا حتى يصير شلالًا هادرًا، أو عينًا صاخبة مثل تلك التي وقفت أنظر إليها في مونترو أمام فندق سميراميس القاهري، مياه قادمة من جبال كردستان، أو مرتفعات التبت أو كلمنجارو أو كلورادو وما خفي كان أعظم، رأيت جبال حمرين في شمال العراق الممتدة، الصلدة مقصوصة قصًّا بالماء، هكذا يسري دجلة، لا تجرؤ قوة على الصمود في وجه أضعف الموجودات، دائمة التحول، في طور تبدو جامحة، وفي آخر لا تُلحظ ولا تبين...

**قال جابر أبو حسين في الهلالية:**

وحسيت عقلي دوابه من العقل غايب

رأيت شجرة يا بنت في وسط منزل

وهجموا العدا بسلاح جابوها قضايب

كحتوا على الشجرة وقطعوها

والله خسارة مضللة ع الحبايب

**قال شاعر مجهول في عدودة:**

ما كان سلامتك يا نخل في ليفه

يا سمسم اخضر ما حل تقطيفه

ما كان سلامتك يا نخل جوه الليف

يا سمسم اخضر ما حللوش تقطيف

**نصيحة:**

لا تسلخ الأشجار

ولا تحكي الأحلام

**شعر**

قوتي غنايَ، وطِمْرِي ساتِري، ونُقى مولايَ كَنْزِي، وَوِرْدُ الموتِ موعودي

والنفسُ أمارةٌ بالسُّوءِ ما اجترمَتْ إلّا وسيء طَبْعِي قائِلٌ: عُودي

اللزوميات أبو العلاء المعري

كلُّ ذرات هذه الأرض كانت

أوجهًا كالشموس ذات بهاء

أُجْلُ عن وجهك الغبار برفقٍ

فهو خَدٌّ لكاعب حسناء

عمر الخيام

ترجمة: أحمد الصافي النجفي

تنكرَ لي دَهْرِي وَلم يدرِ أنني أعزٌّ وأحداثُ الزمانِ تهونُ

وظلَّ يُرِيني الخطْب كَيفَ اعتداؤه وَبِتُّ أُرِيه الصبرَ كَيْفَ يكونُ

الأبيورديّ

ثُمَّ انقضَتْ تِلْكَ السنونَ وأهلُهَا فَكَأنَّها وكأنَّهُم أحلامُ

أبو تمام الطائي

وأول النهار شباب وقوة، وآخره مشيب وهرم، فجواب المتعنت أنه ما أراد إلا ذات الشمس من حيث هي من غير نظر إلى ما يطرأ عليها من حركة فلكها؛ لأن هذه الحالة في الإبكار والعشي إنما هي خير وشر بالنسبة إلينا؛ لأن فلك الشمس لا يزال دائرًا، وحركة الفلك واحدة لا تتغير أبدًا إذ الكرة لا فوق لها ولا تحت، فالشمس في جرمها واحدة لم تتغير أبدًا، وهي هي أبدًا ما زالت ولا طرأ عليها شيء.

ابن أيبك الصفدي

الغيث المسجم في شرح لامية العجم

**قال حطان بن المَعلى:**

| | |
|---|---|
| أنزَلَني الدهرُ علَى حكمِهِ | مِنْ شَاهِقٍ عالٍ إلَى خَفْضِ |
| أبكاني الدهرُ بوفرِ الغِنَى | فَلَيْسَ لي مَالٌ سِوَى عِرضِ |
| لَوْلا بُنَيَّاتٌ كزغبِ القَطَا | رَدَدْنَ من بعضٍ إلَى بعض |
| لكَانَ لي مضطَرَبٌ واسِعٌ | في الأرضِ ذاتِ الطولِ والعرضِ |
| وإنَّما أوْلَادُنا بَيْننا | أَكْبَادُنَا تَمْشي عَلَى الأرْضِ |
| لَوْ هَبَّتِ الريحُ عَلَى بَعْضِهِم | لامْتَنَعَتْ عَينِي مِنَ الغَمْضِ |

«من ديوان الحماسة لأبي تمام»

أَسَـفًا، لَـنْ تَكمُـلَ رحلتُنـا يا شِـعْري
وَسَأَمضِي كَيْ أَضَعَ خيامي في أَرْضٍ أُخْرَى
لا تَـذْروني عنهـا ريحُ الزمـنِ الهوجاءْ

(صلاح عبد الصبور)

| | |
|---|---|
| هَلْ عَادَ قَلْبَكَ من ماويةَ الطربُ | بعد الهُدُوِّ فدَمْع العَيْنِ يَنْسكِبُ |
| أَمْ هيجتكَ ديارُ الحيِّ إذ ظعنُوا | عَنْهـا كأنْ بِعَمَايَا رَسْـمِها كُتُبُ |
| بلْ طائفٌ هاجَ منَّا الشوقَ فابتدرَتْ | لـهُ المدامِـعُ لا عـانٍ ولا صَقِبُ |

(امرؤ القيس)

**قال ذو النون:**

سافرت ثلاثة أسفار، وجئت بثلاثة علوم.

«ففي السفر الأول جئت بعلم قبله العوام والخواص، وفي السفر الثاني جئت بعلم قبله الخواص دون العوام، وفي السفر الثالث جئت بعلم ما قبله العوام، ولا الخواص، فبقيت شريدًا طريدًا وحيدًا

عن نفحات الأنس للجامي

**المريد والمراد**

قيل لذي النون المصري «من المريد؟ ومن المراد؟». قال: «المريد يطلب والمراد يهرب».

عن نفحات الأنس للجامي

**غريب**

وكان ذو النون - قُدِّسَ سِرُّه - سيَّاحًا، فقال:

«كنت في سفر، فرأيت شابًّا، وبه قلق واضطراب، فقلت: من أين يا غريب؟ فقال: أيكون غريبًا من كان له مع الله أنس ومودة؟ فصحت صيحة وخررت مغشيًّا عليَّ، فلما أفقت قال: ماذا حدث لك؟ قلت: وافق الدواء الألم».

**عن نفحات الأنس للجامي**

# عِـــلْـــم

توجه ذو النون المصري، قدس الله سره، إلى العزيزي بالمغرب، وكان من قدماء المشـايخ لتحقيق مسـألة، فقال العزيزي قُدِّس سرُّه: إن كنت جئت لتحصيل علوم الأولين والآخرين، فهذا محال لأن الله تعالى هو العالِمُ بعلم الأولين والآخرين، وإن كنت جئت لطلبه فقد تركته في المكان الذي خرجت منه.

**عن نفحات الأنس للجامي**

**الأعشى:**

| | |
|---|---|
| أَرِقتُ ومَا هذا السُّـهادُ المؤرِّقُ | وما بيَ منْ سـقمٍ وما بيَ معشقُ |
| وَلَكِـنْ أَرَاني لا أَزَالُ بِحَـادِثٍ | أغادي بما لمْ يُمسِ عندي وأطرقُ |
| فإنْ يُمسِ عندي الشّيبُ والهمُّ والعشى | فَقَـدْ بِنَّ مِنِّـي، وَالسَّـلامُ تُفَلَّقُ |
| بأشجعَ أخاذٍ على الدَّهرِ حكمهُ | فمِنْ أيِّ ما تَجني الحَوَادثُ أفْرَقُ |

**تساؤل:**

لماذا يرفع الناس رءوسهم إلى السماء عند دفن الميت مع أنهم يوارونه الثرى؟

لماذا يتوجه الكافة إلى السماء عند الدعاء مع أن الله موجود في كل موضع؟

### تأمل

تحوتي، أمنحتب، كونفوشيوس، لاوتسو، البوذا، سقراط، عمر الخيام، ماركس، فرويد، نيوتن، أنشتين، كل هؤلاء فاعلون أكثر من الحاضرين الآن، إذن أليس الغياب أقوى؟

### من الحكمة الصينية:

بقدر تعقيد الأشياء تعم الفوضى، بقدر كثرة القوانين وتعددها تنتشر المخالفات، بقدر ما نحكم بقوة السلاح يزداد الخصوم، من فقدوا الحكم فهذا ليس لنقص في القدرة على إحلال النظام، وإنما لأنهم عاملوا الخلق بقسوة.

### سماء.. أرض

السماء بمنزلة المظلة للعربة، تظلل كل شيء، الأرض كصندوق للعربة تحمل كل شيء، فصولها الأربعة مثل الخيول، فما من شيء إلا وهو في خدمتها.

### أعداد

للسماء فصولها الأربعة وعواملها الخمسة، وأقسامها التسعة، وأيامها الثلاثمائة والستة والستون، للإنسان أيضًا أربعة أطراف، وأحشاء خمسة وفتحات تسع ومفاصله الثلاثمائة والستة والستون، السماء تعرف الريح والمطر، البرد والحر، كذلك الإنسان يغضب ويرضى، يأخذ ويعطي، مرارته غيوم، رئتاه النفس، طحاله الريح، كليتاه المطر، كبده الرعد، مع السماء والأرض والإنسان يجيء العقل.

### سماء

السماء جسم، وهي بهذا لا تختلف عن الأرض، لكل الأجسام آذان، ما من جسم له آذان منفصلة عنه، السماء بعيدة عن البشر، مستحيل على آذان السماء سماع ما يصدر عن البشر من أصوات، عندما يكون إنسان ما في قمة برج يعجز عن رؤية أجسام النمل على الأرض، ومن باب أولى لا يستطيع سماع ما يحدثه من صخب؛ ذلك لأن النمل ضئيل جدًّا بالنسبة للإنسان، لأن النمل من دون أصوات لا يمكنه اجتياز تلك المسافات، السماء أعلى بكثير من قمة برج، والإنسان صغير جدًّا جدًّا إذا ما قورن بالسماء، إذن من الخطأ القول إن السماء ترد بما يفيد أو يضر على كلام الإنسان، سيئًا أو جيدًا.

### واحد

ما ينشئه الإنسان من صلات، ما يلاقيه من أفراح وأتراح، هذا كله من صنع القدر، واحد فقط يقرر الحياة أو الموت، طول العمر أو الموت المبكر، هناك واحد وحسب يقرر من الذي يتبوأ منصبًا رفيعًا أو منصبًا متواضعًا، ويقرر الغنى أو الفقر، بدءًا من الملوك والأمراء وصولًا إلى العوام، بدءًا من القديسين والحكماء، وصولًا إلى الحمقى والبلهاء، من الكائنات كلها التي لها رأس وعينان ودم، ما من مخلوق يمكنه الإفلات منه.

### أهلك

الذين من أمك وأبيك

يتعاركون معًا وراء أسوار البيوت

لكنهم عصبة واحدة في وجه الغريب

بينما أعز أصدقائك

مهما كانوا قبائل وعشائر

فلن يحاربوا حربك

ولن يدحروا لك عدوك.

لاوتسو: الطاو

## فـــــراغ

ثلاثون عصا خشبية، ملتفة حول استدارة مركز دائرة، تصنع عجلة دوارة.

أتعرف أنه لولا الفراغ ما كان يمتلك المكان.

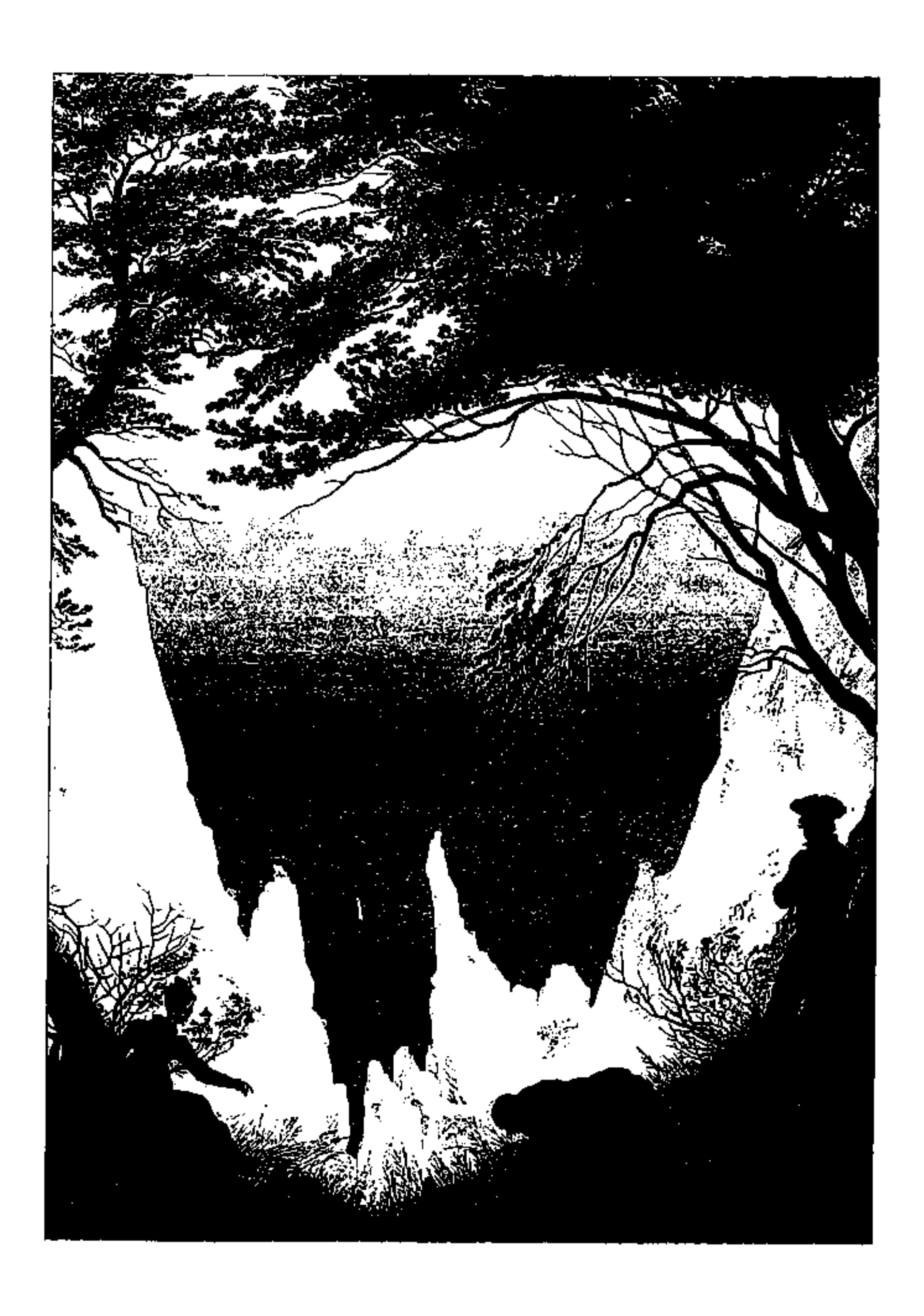
لولا فضاء حول قطب مركزي، ما التأمت هناك العصي والإطار والدوران.

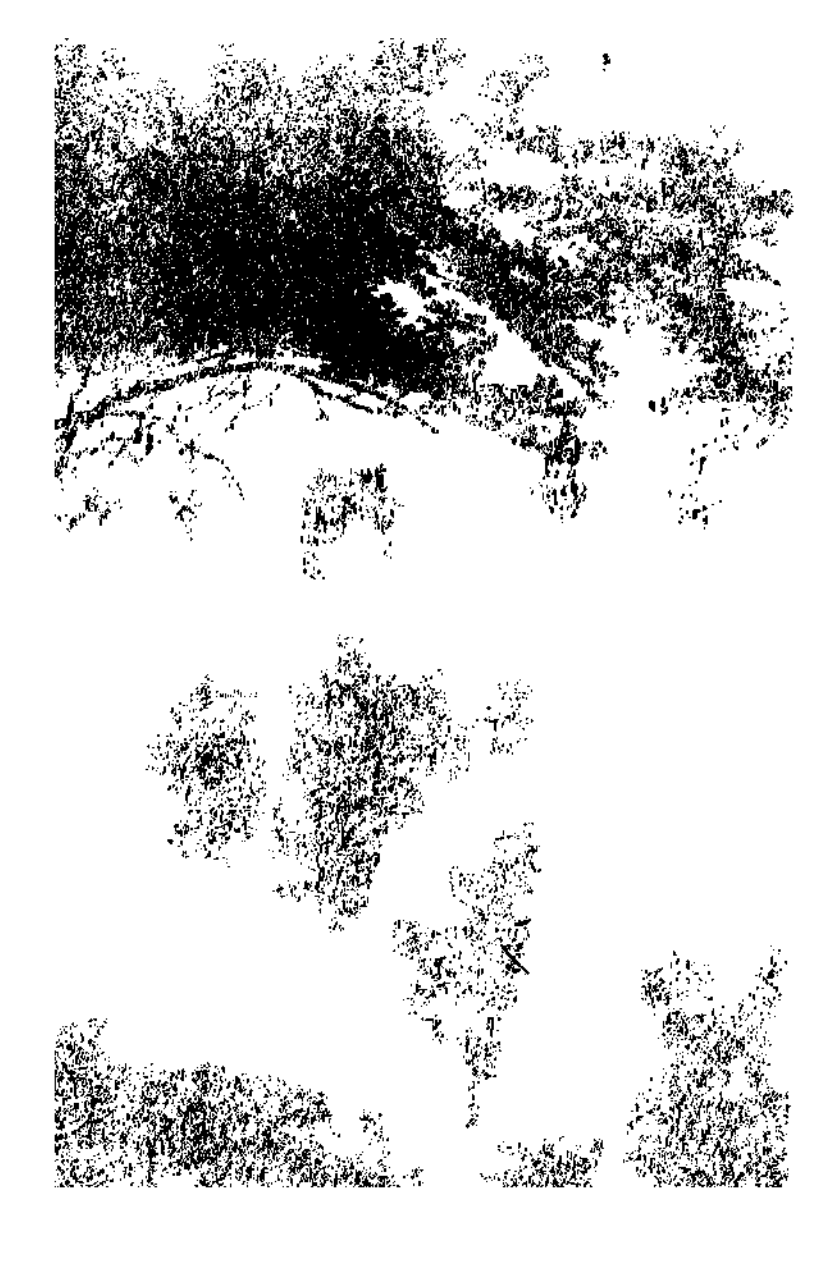
كذلـك لا تصير قطعة من صلصـال، إناء صالحا للاغتراف، إلا بقلبها الفراغي الباطن.

ولا يقـوم في جـدار باب أو تطل على الأفناء نافذة، إلا بما انتقب في الجدران من مساحات فراغية، فالخلاء العدمي شرط بدء الوجود، فلذلك، صار للموجودات، يد العطاء وللمحجوبات طي الغيب، مأمول الرجاء.

لاوتسو: الطـاو

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [سورة ق].





# حكايات الأشجار



# نخــل

له عندي صولة وجولة.

مقـدم على كافة الشـجر، حتى إنني أعده أمة قائمـة بذاتها، حتـى إذا قيل على مسمع مني، أو قرأت ذكرًا للشجر بما يحوي من أنواع شتى لا يخطر عندي بينها أو ضمنها، جنس مفرد.

رغم تشابهه فإنني أجد في كل منه انفرادًا، لا تشبه واحدة الأخرى، رغم توحد الجنس إلا أن نخيل الصعيد له عندي منزلة، حضوره، سموقه، انبثاقه، لون جذعه ودرجاتـه المشـتقة من بني فاتـح إلى غامق. أما اخضرار الجريد العالي وسـوباطات البلـح الصفـراء المتـدلي منها مـا يُعتبر أحمر أو أصفـر فلكل من هذا معـانٍ وهوى، في القاهـرة القديمـة من النادر رؤيـة نخلة، فقط داخل المسـافرخانه التي احترقت وبـادت معهـا تلك التـي تأملتهـا طويلًا، كذلـك في بيت السـحيمي، مـا تزال في الحـوش الداخلي حيث السـاقية والطاحون ومخازن الغلال والـزاد والمواعين التي كانـت، منذ خمسـين عامًـا، لا ... بل أكثر، أتقن ملاحظة ما يطـرأ من تغيرات على البيـت، بأطـواره ومراحلـه، ومجيء وذهاب، من لـه صلة، عابـرة أو مقيمة، لي في هـذا مـدارج وأحوال، أول دخـولي إليه عندمـا أقمنا في الدرب الأصفر عام سـتة وخمسين، أشرت إلى هذا من قبل، في الداخل نخلة وشجرة نبق، الأخيرة أزيلت في السـتينيات لأن ثمارها مجلبة للوطاويط التي كانت تعشـش نهارًا في مئذنتي الحاكم بأمـر الله، في الليـل تطير أسرابها بحثًا عن القوت، مقصدها تلك الشـجرة، لم يكن

في البيت إضاءة، فقط ما يلزم غرفتين يقيم فيهما مع أسرته، لما تزايد أمر الوطاويط وخشي على أطفاله منها، بعضها يلتصق بوجه الآدمي ليمتص دمه.

لسبب ما، حقيقي أو مفتعل، أزيلت شجرة النبق، بقيت النخلة، وحيدة، غير مثمرة، ذكر، أخبرني عبده الغريب حارس البيت أن حبوب اللقاح كانت تنتقل منها مع النسيم إلى أكثر من نخلة، واحدة في صحن بيت قديم بحارة برجوان، أخرى داخل مسجد الحاكم وبقيت حتى ترميمه بواسطة طائفة البهرة أحفاد الفاطميين، أما الثالثة فبعيدة نسبيًّا، بازغة، سامقة في فناء جامع الظاهر بيبرس بالظاهر، والغريب أنها لم تكن تقبل حبوب اللقاح إلا من نخلة بيت السحيمي، قال إنه أحيط علمًا بذلك من زميل له كان أبوه مختصًّا بتقليم النخل في بيوت الأكابر بالدرب الأحمر، ويعرف أحوال النخيل في المدينة القديمة، حتى إنه كان على ألفة ببعضها حتى لينحني له توددًا ومحبة عند الاقتراب والدنو، أو الارتقاء بسرعة لنقل بذور اللقاح من هذا إلى تلك، كان على دراية بكل منها حتى ليفرق عند التلقيح بردود فعل هذه من تلك. مع اجتثاث النخل بدأ تغير الأحياء وتدورها، بقيت الجدران وقامت المباني لكن بدأ غروب الروح، كان يؤكد حساسية النخل للأشخاص فيقبل هذا وينكمش عند ظهور ذاك، يبتهج لوقت ويحزن لوقت، يؤكد عبده الغريب أنه عشق نخلة في إحدى مقابر الإمام الشافعي، كان يزورها ويخلو بها، مما تردد أنه كان يلقحها منيه وتنفرد برطب جنيّ عرف طريقه إلى مائدة الملك في عابدين لفرادته وانعدام شبيه له، وهذا عجيب، غريب.

من نافذة قطار الثامنة صباحًا أتابع المرئيات المتراجعة، المطوية عبر توالي المسافات، بعد القيام من محطة الجيزة، واجتياز الصف والعياط ألحظ تكاثف النخيل، اصطفافه، ثباته، مع الوصول إلى المنيا وبعدها أسيوط يتكاثف حضوره، حتى ليبدو كتلة متصلة كجدران من جذوع وجريد وتمر مختلف أنواعه، لكنه ليس متشابهًا أبدًا، هكذا يبدو من بعيد، من مسافة، لكن عند الاقتراب يختلف الحال، عند وصولنا جهينة يقوى عليَّ حضوره، أينما وليت أطالعه، ليس عبر توجيه

بصري إلى الأعالي، إنما في كل صوب، أسقف البيوت من جذوعه، عجل السواقي من أخشابه، كذلك الجسور الممتدة فوق مجاري المياه والترع الضيقة، أما اللوف المتخذ من حراشيفه فيصحبنا داخل الحمام، أسعى بصحبة أبي، ورث مائة وخمسين نخلة متفرقة في زمام جهينة، من الغرب إلى الشرق حيث حدود الزمام المحاذي للمراغة وشندويل، بعد وصولنا إلى البلد يتجه أبي إلى الأحباب والأصحاب، ربما يمضي الليل عند أحدهم، في اليوم التالي يتجه إلى النخيل، نخيله هو، عندما بدأ يصحبني معه، يطوف بي هنا وهناك، عرفنا إلى بعضنا، كان يخبر كلًّا منها عني، ثم يقدم النخل إليَّ، عند اقترابه يلقي السلام قبل أن يلمس الجذع وكأنه يصافح، نخيله متباعد عن بعضه، يصله هو خلال الزيارة وربما ينقل رسالة من هذه إلى تلك، ما حز في روحي وآلمني تيههم مني، بعد غيابه الأتم عدت إلى البلد، والد وما ولد، جئت بعد انقطاع لم أستطع الاستدلال، تشابه عليَّ الأمر مع يقيني أن النخيل مختلف عن بعضه، لا يشبه أحدها الآخر، كأنه يعاقبني لنسياني مواضعه وإهمالي مواثيق أبي، غير أن زيارتي الأخيرة أنشأت عندي أمرًا، لم أكن مرتاح البال، شغلت بما لا أدري كنهه، بما غمض عليَّ، معالم أعرفها تغيرت، تبدلت، ما بين ترعة البير حيث محطة الحافلات والميكروباص ومنازل أقاربي لم يعد فراغًا، ظهرت بيوت شائهة، خرسانية القوام، طوب أحمر غير مطلي، عشوائية الرؤية، لم يتبق من جهينة التي أعرفها إلا مزق، شظايا متناثرة ألملمها بالذكرى والسعي الحثيث، ومحاولة خطى أبي المندثرة، لا أدري متى بدأ عندي، ذلك النبأ الغامض، ثمة نخلة تتقصى أحوالي، تدركني من مغرسها، تسمع ما أهمس به، ما أنطقه جهرًا أو سرًّا تقتفي مما يرد عليَّ من بواده وهواجم غير أنني لا أقدر على تحديد موضع لها خارج الأطر كافة، غير أنها جهينية أكاد أصغي إلى لهجتنا من خلال حفيف سعفها وأناتها النشوى عندما يلقحها النسيم، هالني الجريد الأصفر المتراكم أعالي النخل، لم يعد أحد يقلمه بعد توقف سلسال التعليم من جيل إلى آخر، سفر الرجال إلى الأقطار البعيدة أخل بالمنظومة وبدل المواعيد، باعد ما بين اللقاءات الأثيرة، غير أن ما جرى لي من نخلة القرنة بَلْبلني بقدر ما طمأنني...

# نخلة النخلات

لو أن الأمر بيدي

لو طاوعتني الأحوال، لو تناغمت الظروف لرسوت في البر الغربي، لأقمت في البيت الذي بدأت التردد عليه منذ ثمانينيات القرن الماضي، طفت البر الغربي في أول الستينيات، أكاد أستعيد كل خطوة، كنت في المقتبل والسعي غاية في حد ذاته، الشاطئ الذي فارقته ما يزال باديًا، لم يشحب، لم يختف بعد، جئت فيما تلا ذلك مرّات، غير أنني كنت من العابرين، إقامتي في البر الشرقي، بالأقصر رغم أنني قريب من الكرنك أو الأقصر، لكن شتان، منذ الثمانينيات تبدل الأمر، أقيم في الغرب وأفد إلى الشرق، في متون مِصْرَ القديمة يعني المشرق بزوغ الشمس أي الضوء، أي الميلاد أي التجدد، التبدل، يعني أيضًا وفادة الراحلين إلى عالم الغرب، غير أنهم يولدون من جديد من الشرق في الأبد الأبيد، يقال للمبرأ إنه ولد من الشرق في عالم الغرب، هذا من المعاني المحيرة، تمامًا مثل تلك العبارة.

«مات مفعمًا بالحياة..

أو تلك التي لا ينطقها إلا الكاهن مرتديًا قناعًا بمثل رأس أنوبيس، أثناء طقس فتح الفم:

«انهض... إنك لست بميت...».

لم أعرف في كافة ما اطلعت عليه تعبيرًا عن التعلق بالوجود ورفض العدم مثل الـذي أوردتـه، كثيرًا ما رغبت في سـماع نطـق الكهنة للعبارتين، باللسـان القديم، بذات النبر والإيقاع لعل ذلك يكون ممكنًا يومًا ما، رغم أن الأمر يشـغلني غير أنه ليـس موضوعي الآن، إنما هو من تداعيات البر الغربي، كم من غرب عرفته إلا أن المغْنِيَّ عندي واحد لا غير، إنه بر الناحية الأخرى من النيل حيث تغيب الشـمس وتبـدأ رحلتهـا الليلية المحفوفة بالمخاطـر، عرفت هذا النوع مـن الإقامة في بيوت صغـيرة معدة للزائرين، عاينت بعضها فيما بعد، لكن بيت الحاج محمود أقربها إليَّ، مـن ناحية يشـبه بيت خالي الذي جئـت فيه إلى الدنيا، مبنـي بالطوبة الخضراء التي نعرفها باللبن، موقعه عند نهاية المعبد الأشم لأمنحوتب الثالث، أي أنه قريب من المرحلة النهائية لقدس الأقداس، إن لم يكن موضعها تمامًا، من الطابق الثاني حيث غرفتـي التـي لم أعرف غيرها، يكفـي أن أهاتف الحاج قبل قدومـي بيومين، لو أن الغرفة مشـغولة يعمل على إخلائها وله في ذلك طرق شتى، المهم أنني أصل لأجد مكاني خاليًا، إنها الأوسـع مسـاحة، مسـتطيلة، يتصدرها سرير من جريد النخل، يُعـرف هنـا بالعنقريب، يصعب على العقارب تسـلق قوائمه وإن سـمعت بوجود بعضهـا أحيانًـا في الفـراش، لكن الحاج محمود السـائق وهو شـقيق للحاج محمود مدير النُّزُل ومدبر شئونه يؤكد لي أن ذلك يحدث عن طريق السقف المغطى بسعف النخيل وأوراقه، كل ما يحيطني من الشجرة المباركة التي ينسب إلى خير البرية قوله في وصية مدونة موثوق بها: «أكرموا عمتكم النخلة..

تقول الرواية إن مدبر الأمر كله بعد أن خلق آدم، أبا البشر أجمعين من صلصال مكين، وقيل من طين، بقيت فضلة صغيرة في حجم السمسمة، خلق منها النخلة، لذلـك اعتـبرت صنو البـشر، الحق أنني جُبلت عـلى التعلق بها والاتـكاء على ذاتي وقت الخطوب تحت ظلالها، لا أراها الآن أينما حللت إلا ويمثل سعي أبي واقترابه عـلى مهـل منها ونطقه السـلام الحميم، أخـص بالأمر نخيل الصعيـد، هذا جنس

خاص الخاص من أمة النخيل وشعوبها، حتى الواحات الداخلة والخارجة وسائر ما عرفته منها في صميم الصحراء الكبرى، بما في ذلك مطماطة في تونس التي وصلت إليها من قابس. أما نخيل غرداية الواقعة في تخوم الصحراء الكبرى جنوب الجزائر فلها شئون، خاصة أن تمر دجلة نور الكهرماني المضيء حتى إنني أستحلب الواحدة منها ولا ألتهمها مرة لا غير لإطالة أمد تسرب المذاق إلى حنايا الروح وليس إلى الحواس، أعرف مواعيد ظهوره وأسأل صحبي الحميمين جلبه لي إذا توفرت الإمكانية وساعدت الظروف، رغم هيامي به وبحثي عند من أعرفهم في باريس إذا حللت بها يظل استثناء، النخل والتمر، شجر الصعيد فيه أمر خفي لا يبين، متنوع تمره غير أن العناية به فيها تقصير، والترويج له خائب، يقلقني إهمال النخيل الباسق، وتكاثف السعف الذابل وعدم إزالته، إنه نذير، يقول القدماء إنه لا يظهر إلا في ديار الإسلام، غير أنني رأيته في بلدان أوروبية ناحية الجنوب، لكنه غير منجب للتمر، فقط زينة للطرقات، نعرفه في مِصْرَ بالإفرنجي، إنه كذلك، إنه ليس كذلك، عندما دخلت دير الآباء الدومينكان في تولوز لزيارة الأب جاك جوميه، ولي به صحبة، ومني له مودة، زرته في معزله وكان بشوشًا، عطوفًا، روى لي وأخبرني بأيام إقامته في مِصْرَ، وإذا حان الأوان وناسب المقام فسأخبر عنه، غَرُب بعد عودتي إلى دياري بشهور ثلاثة فحمدت الله على اللقاء، الذي دبره سيدي حبيب السمرقندي، ما علق بذاكرتي تلك الأعمدة في البهو الكبير للكنيسة، كلها نخيل متحجر، بيضاء تسر الناظرين، من أين جاء النخيل إلى تولوز؟

لا بد من الأندلس، من إسبانيا القريبة، شاهدته هناك، لكنه غير مثمر، عقيم، ليس مثل نخيل الصعيد، في الغرفة المألوفة لي، أتدثر به، السرير منه، كذلك السقف، الشرفة التي تتوسط الجدار الذي تتخلله أيضًا نافذتان، إحداهما محاذية لموضع رأسي على الوسادة، كلما حللت هنا، أنتظر ظهور جريد النخل العالي، لولا ملاحظتي ذلك مرة بعد أخرى لظننته وهمًا، عند وصولي تكون النافذة مؤطرة

لفـراغ يمكنني التطلـع منه ورؤية الفنـاء الخلفي للبيت المجاور، مع شقشـقة أول ضـوء أولي الوجه لأطالع ابتسـامة الجريـد وأوراقه متألقة الخضرة، تبتسـم النخلة في أول ليلـة تُغير توجهها، عادة تميل بسـعفها، بجذعها إلى بحري، مع حلولي تميل إلى قبلي حيث أشـغل موضعي، صيفًا وشـتاءً لا أغلق ضلفتي الزجاج أو الشيش، أكتفـي بحاجز السـلك الذي يمنع الناموس أترقرق مع لـواح الضوء، أولي الوجه ناحيتـه، أحيانًـا أخرج إلى ما بين الغرف، سـطح صغير، مرقـب، يشرف على تمثالي ممنـون كما يعرفان منذ العصر البطلمي، وهما لأمحتـب الثالث، أنتظر بزوغ القرص أتابـع صعوده السريع صيفًا، المتمهل شـتاءً ثم أعود إلى فراشي مفعمًا بالحياة، مقبلًا على الدنيا، راغبًا في مشاركة كافة الأحباب والأصحاب ومن يربطني بهم ود.

لا أعـرف متـى بـدأ انتباهـي إلى النخلة؟ لا أقدر عـلى التحديد، غـير أنني منذ سـنوات عديدة انتبهـت، بادلتها المحنَّـة بمثلها، ومع الوقت قـوي عليَّ حضورها عندي، حتى ليحفني جريدها ويُمسِّـدني سعفها، ويغمرني ذرورها بالنشوة، تملس عليَّ، أتنشـقها، أصير إليها وتصير إليَّ فأذوق عسـيلتها ونضار جُمَّارها، أسكن إليها وتصير إليَّ.

# شجر الأنوثة

لولا أني رأيت وعاينت ما صدقت.

تلك الكلمات وإيقاعها وجَرْسها تعيد إليّ أبياتًا من شعر الملحون، أصغيت إليها في بيت سيدي الدباغ عام تسعة وسبعين من القرن المنصرم، في بيته بفاس البالي بالمغرب الأقصى وله عندي موضع مصون، شاعر بدين قليلًا، عذب الصوت، عازف على طبلة صغيرة مصاحب له، علق بذاكرتي.

«التقيت، قبلت، حضنت، وما... فعلت»

عشقت هذا الفن فيما بعد والآن، بعد ما يقارب الأربعين حولًا عندي سائر مدوناته ومعلمته، ولي عنه حديث يطول إذ إنه مما اختص به المغرب، فهو غير معروف خارجه.

أقول إنني عرفت مرقد سنجم رع الأبدي عند زيارتي الأولى لدير المدينة، قرية الفنانين الذين رسموا مراقد الملوك في واديهم الصامت، أيضًا منازل النبلاء، بيوتهم الأزلية حفروها في مرتفع يطل على البيوت التي عاشوا فيها وتبدو معالمها خاصة عندما نرتقي المرتفع المطل عليها، عندما رأيت جمال الألوان وحيويتها وغزارة بثها وفرادة التصور الأخروي، قلت لنفسي: هذا شغل المعلم لنفسه، سنجم رع أحد هؤلاء، وُلِد وتعلم في معبد هابو، لم يعرف مكانًا آخر، إذ كان محرمًا على الفنانين مفارقة القرية، رغم أن الكهنة كانوا يعصبون عيونهم عندما يتجهون إلى مواقع

المراقد فكانوا يضعون في الاعتبار إمكانية معرفتهم لمواضعها الحاوية، في المساء يشربون الجعة، ويرسمون الملوك المقدسين في أوضاع فاحشة، كثير من تفاصيل حياتهم اليومية معروف الآن، وصاياهم، غرامياتهم السرية، الغضب، الفرح، رأيت سجلات بذلك، بمناسبة مرور قرن على اكتشاف القرية بواسطة العلماء الفرنسيين، رغم رؤيتي لكتب عديدة تحوي صورًا شتى لمرقد سنجم رع، فإنني لم أكتشف هذا المشهد إلا في زيارتي الأولى خلال الثمانينيات، ربما عام أربعة أو خمسة وثمانين، فوجئت به عندما اتجهت إلى يمين الداخل، رفعت البصر إلى زاوية صعبة قرب التقاء الجدار الشرقي بالشمالي المستطيل، إلى أعلى.

شجرة جميز تخرج منها أنثى جميلة، تفاصيلها بادية، نصفها الأسفل يتجه إلى جذع الشجرة، تقدم المدد إلى الراحل وأفراد أسرته، تبث إليه أسباب الوجود، ترتدي ثوبًا أحمر يبرز زهاء الأنثى، من صميم الشجرة، تقدم صينية عليها أرغفة ربما تحوي طعامًا ما أو شرابًا، إبريق ماء، زهور لوتس، القوام وضاح والصدر وثير واعد والكتفان مُنْحنيا هذيان ورفرفة، كل هذا يمكن أن تثيره أي أنثى لها من الجمال حظ ومن الفتنة نصيب، غير المألوف، ما يتجاوز القوانين الفاعلة ذلك الاندماج الهيِّن، اليسير، بين الجذعين المؤتلفين، المنغمين، المرأة الشجرة، الشجرة الأنثى، ما يجمعهما القدرة على الإثمار، كل منهما مصدر تكوين ومحله، لذلك كانا إلى منزلة المكون أقرب، يقول الشيخ الأكبر: كل مكان لا يؤنث لا يعول عليه، الأنثى مصدر للحياة، تحتوي وتُحتوى، من تندمج بشجرة الجميز حتحور المقدسة، أعرفها من التاج المخصص لها، قرص الشمس يحف به قرنا بقرة، ربة الخصوبة، الجمال، الطاقة الحيوية، طلعت بعد أربع ساعات من الانشداه والعجب مرَّ عليَّ خلالها عدة زائرين من أجناس شتى، نظروا وعبروا فحنقت لدخولهم المكان المقدس بغير علم، ولأنهم لم يتوقفوا أمام الشجرة الأنثى، أمام أجمل حقل قمح

يحصد سنابله سنجم رع وزوجته، هناك في اللاهناك، حيث حقول يارو، طرحت بخاطري الأسئلة على الأسئلة.

من رسم الفنان وزوجته؟

هو قبل وفاته، أم ابنه؟

غطاء التابوت الذي يخص زوجته ينضح بجمالها، عيناها المقتحمتان، الخضراوان الحييتان، النفاذتان، وجنتاها الدافئتان، لها الاكتمال والجمال وجلال الهيئة، لم أرهما على الجدران إلا معًا، هنا أورد حكاية كل ما تحويه واقعي، موثق، إذ ظل هذا المرقد في تخوم الصمت مصونًا مكتملًا، يضم الأسرة لأكثر من ثلاثة آلاف عام وخمسمائة، حتى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، عندما جاء عامل من أهالي القرنة إلى جاستون ماسبيرو وأخبر عن مرقد مكتمل ما زال بابه الخشبي المكون من مصراعين قائمًا، أرسل ماسبيرو من يحرس المدخل حتى الصباح خشية السرقة، مع شروق شمس يوم كان يخشاه سنجم دخل ماسبيرو إلى المرقد الذي حوى الفنان وزوجته «اينفرتي» وابنته «خندس» وزوجة ابنه «تامكت» وسيدة تسمى «إيزيس» ربما زوجة ابنه أو إحدى قريباته، استخرجت التوابيت وبدأ تفرق الأسرة عن بعضها بعد تضام ورقدة دامت ما يقارب ستة وثلاثين قرنًا.

سنجم رع يرقد الآن في المتحف المصري، أما زوجته إينفرتي وابنتها فنقلتا إلى متحف المتروبوليتان وقد رأيت توابيتها هناك، أما المومياوات فنقلت إلى متحف بيبو دي في كمبردج بولاية ماساشوتس. أما زوجة الابن «تامكت» فترقد الآن في متحف برلين.

من يدعو إلى جمع شملهم مرة أخرى؟ أما حتحور المقدسة فما تزال تقف مكانها، مشرقة من شجرة، تقدم أسباب الحياة للمبرأين، سنجم وامرأته، ما أغرب ذلك، لكنه ليس أعجب مما جرى في تلك المدينة من صعيد مِصْرَ.

# شجر الوقت

عندما نزلت مدينة سمالوط أقمت في قصر قديم مهجور قبلي البلد، أنشأت به مصنعًا للسجاد اليدوي يتبع المديرية العامة في المنيا، لم يكن بالمدينة فندق، ولا غرفة يمكنني استئجارها، الأهالي لا يقبلون الأعزب الفرداني، اقترح المدير إقامتي في الطابق الثاني، لنقل بدقة إنه قدر حالي والظروف التي جرى نقلي فيها بتعسف ظاهر لإبلاغي عن فساد، شرحت الأمر مفصلًا في دفاتر التدوين، فليراجعها من يرغب؛ في ذلك الوقت كان القصر منعزلًا، قائمًا بمفرده، تحيطه حقول ممتدة، إلا ناحية الباب الرئيسي المطل على الطريق السريع، احتوى على ستة وخمسين غرفة، كنت أغلق أبوابها كلها حتى أحصر المكان الذي سأنام فيه، بعد انصراف أمين المخزن والساعي والمتدربات والمتدربين أصير إلى وحدة ومعزل أشد قسوة مما عرفته في الحبس الانفرادي بعد حوالي عام، كان ذلك عام خمسة وستين من القرن الماضي، الساعي اسمه فتحي، نحيل، مطل دائمًا على شيء ما يتجاوزني حتى وهو يتحدث إليَّ، عيناه دائمًا إلى بعيد، لم يقصر في خدمتي، يشتري لي الجبن والأرغفة والبسطرمة وما يمكنني أن أسد به الرمق دون طبيخ أو إعداد ما، يحرص على نظافة المكان، يجيء يوميًا من منشأة بديني، قرية صغيرة على بعد كيلو ونصف الكيلومتر، يحكي لي أخبار المدينة، كانت تبدو هادئة، خلوًا من كل ما يمكن استثارة الفضول، غير أنني أصغيت إلى أمور غزيرة شملت كل حدب وصوب، من الشجار والتصالح إلى القتل والاغتصاب والخطوبة والطلاق واختفاء بعض. بعد انقضاء

شهرين وبضعة أيام، جاءني فتحي حوالي العاشرة صباحًا، خلا بي، ومن خلال نظرته السارحة قال: إنني محظوظ، فلما استفسرت منه عن السبب قال: إن ظهور الشجرة سيكون هذه الناحية، أشار إلى قبلي البيت، سألت: أي شجرة؟ قال: إن سمالوط تنفرد عن كافة النواحي بشجرة لا مثيل لها، لا أحد يعرف نوعها أو إلى أي جنس تنتمي، كل سنة تظهر بعد منتصف الليل لمدة دقائق خمس ويؤكد آخرون أنها سبع، رهبان جبل الطير أكدوا أنها ستبدو قبلي البلد فيما يلي قصر الشريعي، إذا رآها مريض يشفى، وإذا لمحتها عاقر تحمل بولد ذكر، وإذا اقترب ضيق الحال ينفرج أمره، وفي ظهورها أمور أخرى لا يعلمها إلا رازق الطير في السماء، حاولت معرفة تفاصيل أكثر، غير أنه لزم الصمت، لم ينطق، كأنه أمر بالكلام والسكوت، في الليلة المحددة خرجت إلى الشرفة الفسيحة المطلة على الغيطان القبلية، ملحقة بغرفة فسيحة لا يعرف أحد من كان يشغلها ولأي غرض، غير أنني قدرت أنها غرفة النوم الشتوية، على البلاط، خلو من أي أثر ولو يسير، في مواجهتها بحرية أشغلها للطف نسيمها ورحابتها، رجحت أنها الصيفية، لأول مرة أقف فيها ليلًا، السماء كثيفة النجوم، لا توجد مصادر ضوء قريبة إلا عند عبور القطارات في الاتجاهين، خاصة السياحي المتجه إلى الأقصر، خط من الضوء متصل يلغي الفوارق بين العربات، حتى قطارات البضاعة التي لا يهتم بها أحد، يهدهدني كل متجه إلى مِصْرَ، مقرب لأهلي الذين أغترب عنهم لأول مرة قسرًا، هل قال فتحي إنها تظهر عند منتصف الليل؟ ربما، لا أدري قبله أو بعده. آثرت حصار اللحظة، ما يسبقها وما يليها لعل وعسى، لم أدر ما سأفعله بالضبط، بماذا أنطق؟ أي كلمات ألفظ، هل أتمنى؟ هل أرفع الصوت أم أهمس أم أردد المعاني لذاتي؟ انتبهت إلى رحابة الليل وشموليته، ليل الصعيد في جهينة أليل، لكن هنا يبدو الفراغ أفسح من النهار، ربما لأنه ممتد بقدر التهيؤ الذي لا حدود له، رحت أستعيد ما عرفته من ليالٍ، خاصة في معسكرات الكشافة، في اصطحابي لأبي عند زيارته لأصحابه

في النجـوع القريبة، أرهفت السـمع، كنـت واثقًا من التقاط أصـوات من الفضاء السـحيق، نجوم تهسـهس وأخرى تصدر ما لا أقدر على توصيفه، أنقل البصر من أعلى إلى أسـفل، أقصد سائر الجهات بصوت قطارات إلى بحري، إلى قبلي، عربات نقل لا تسعى إلا ليلًا متقاطرة، سيارات صغيرة، لم أدر متى ساد السكون، صمت لم أعرفه كل سـكون لـه صدى وترجيع عدا هذا، لم أكـن أدري إلى أي صوب أتجه بالبصر الحسـير، غـير أنني لمحت ظـلًا قائمًا يتقدم فـوق الزروعات التـي لم أدر في العتمة، سمسـم هو أم برسـيم؟ شجيرات قصيرة لم أفكر في كل نهاراتي أن أستفسر عنهـا، رغـم عدم وضوح الملامح فإنني كنت على شـفا يقين أنها هـي، بنية، صبية، فرعـاء، ميـادة، قبابها متقنة، بالضبـط كما أهوى، كنت أقصد محطـة القطار، المكان الوحيـد الـذي يمكننـي قضاء الوقـت به وتشـييع حنينـي عند مـروق القطارات السريعـة التي لا تقف إلا بعواصم المديريات، أو وقوف الأخـرى المتمهلة، كنت أراهـا عند نزولها فأمسـك أنفـاسي حتى إذا حاذتنـي لجزء من الثانيـة أبث كافة ما لدي من شـفرات عصية الفَضِّ وأشواق حبيسـة الروح، أعرج إليها بكينونتي، لا أتبعها خشية أن ينتبه أحدهم، إنما أتنسـمها، أود لو قبلت الفراغ الذي طفت عبره، اجتازتـه قاصدة وجودي، يبدأ لحن مجهول المنشـأ ويتردد نغم لا أدري من أي آلة، أتقنـت تموجه عند نفاذه إليَّ، يسري الحنين الممض، المؤلب إليَّ فما أثرى عبير الأنثى وقوة نفاذها!

هي...هي...

تقف تحت الشرفة أرى تقاسـيم جسـدها ومقاماته، نهاوندها وصباها ومحورها وهُزامها.

هي...هي...

شفافة الرداء، أميل متجاوزًا الحافة، أسمعها، يصير حالي إلى خلق جديد، تعال ... تعال...

غير أني لا أتقدم، لا أقدر على مفارقة موضعي، الليل الأليل يوثقني، إلام تدعوني؟

كأنها فضت سؤالي الذي لم أنطقه، تمد ذراعها مشيرة إلى جهة، أتبع فأبهت مما أرى.

شجرة من ضوء ناعم، حنون، يغمرني فأتمنى الهدهدة والتدفق صوبها، لا أدري أجذعها قادم من تحت أم فوق، انتفى التحديد وراح التحديد واستبهم المعنى عليَّ.

تعال... لا تضيع الوقت...

اسكن إليَّ، أوثق حالي، أتبع بالبصر لا غير، تتجه بمفردها ويقيني مكتمل بها، أسمعها تردد ما لا أقدر على تفسيره، ما سأفترضه بكل لسان حي، وكل نطق لكائن، ومع بهتان نور الأغصان والفروع والجذع الذي لم يدم توهجه راح مني ما لا أجده حتى الآن ولا أجرؤ على افتراضه حتى.

## أصلها ثابت

قال سيد الأرضين: انظر إلى النخيل، لا شيء يمنحني معنى الديمومة مثله.

ثم قال: ثابت، باق، لا يميل مع الريح وإن اشتد.

ثم قال: النخيل وسائر الشجر يصلان الظاهر بالخفي، الغائب بالحاضر، الخفي بالماثل، لا نرى الجذوع شأن كل أصل خفي لا يحضر، نرى الابن مع غروب الأب، لا نعرف إلى متى، إلى أين تمتد الجذور، نرى الجذع وربما نتسلقه، نكمن بين الغصون لكننا لا نفكر في الخفي الذي لا يبين وهذا ما يكفل ثبات الأغصان.

ثم قال: كل الأشجار تميل مع الريح، عدا النخلة، أصلها ثابت..

أصلها ثابت...

صمت قليلًا ثم توجه إلى سيد الحكمة الذي تعلم الصمت كلما نطق السيد، سأله عما إذا كان ممكنًا إيجاد نخلة تدوم أبدًا، لا تمرض ولا تتمكن منها دابة صغرت أو كبرت.

أطرق قليلًا وطلب كعادته إمهالًا، غاب ثلاث ليال، جاء إلى القصر بعد الشروق مباشرة وكان من المسموح لهم بالدخول حتى لو كان سيد الأرضين نائمًا، قدم إليه نموذجًا للمسلة، والتي صارت فيما بعد آلاف السنين برجًا، ثم مئذنة مختلفة الأشكال، غير أن الجوهر واحد، جذع أصله ثابت، جذوره غائبة خفية، وانطلاقه إلى أعلى في إشارة خفية.

# شجرة الوحدة

حتى أبلغ تلك اللحظة التي رأيت فيها ما رأيت، لا بد من تمهيد وسياق، عندما بـدأت عملي مراسـلًا حربيًّـا في الجبهة كنـت مدفوعًا بذاتي، سـاعيًا إلى التواجد في الخـط الأمامـي لأبلـغ اتزانًا كنت تواقًا لـه بعد هزة نالت من صـميمـي بعد هزيمة يونيـو التـي لم أكن قريبًا مـن ميادينها ولا طرفًا في مجرياتها، بعـد عملي في الصحافة سافرت إلى بورسعيد. وصلنا رأس العش على الضفة الأخرى وكان لنا أمور ليس هنـا مجالها، سـمعت عن الرفاعي فتعلقت به قبل لقائـه، ويمكنني القول إن صلتي الحميمـة به بدأت بعد سـماعي النبأ العظيم يوم سـبت، مسـاء ذلـك اليوم كنت في زيـارة لابـن بلدتي بدر حميـد عندما علمت بوجـوده في القاهرة، ضابـط قديم، ذو مكانـة في المدفعيـة والمخابـرات الحربية، لـه حديث طويل، كنت أسـتفسر منه عن الأحوال بعد عبور العدو إلى الضفة الغربية، بتلقائية قال:

«بالأمس استشهد لنا ضـابط عظيـم.. أنت تعرفه..

تطلعـت إليه متسـائلًا، وعندما نطق اسـمه نزل بي كمد، لم يخفـف منه إلا بكاء مفاجـئ قادم من صميمي، يمكن القـول إن صلتي به بدأت في تلك اللحظة، منها بدأت سـعيي لاقتفاء وجمع سيرته، حتى إنني التقيت بواحد وتسعين مقاتلًا أقلهم برتبة مسـاعد، معظمهم ضباط هكـذا كان تصميم المجموعة «39 قتال» التي كان الانضـمام إليها لا يتم إلا وفقًـا لشروط صارمة أهمها التطوع الذاتي، فاتني الخروج معه في عمليات قتالية رغم استعداده وسعيي ولقاء جرى خصيصًا لترتيب الأمر،

لكـن لم يتـم ذلك، غير أننـي رافقته في طوابير سـير، هكذا كانت تُسـمى في قوات الصاعقة، نوع من التدريب الشـاق، يتم خلاله قطع مسافات طويلة في أماكن غير مطروقة، لاحظت في المرة الثانية أنه أعلن خطة السير، غير أنها لم تتفق مع ما بدأ به، كأن يقول إن المسـافة من أنشـاص إلى مرسى مطروح؛ أي حوالي خمسمائة كيلو متر، عنـد بـرج العـرب يعلن انتهـاء المهمة وتصـل المركبات التي سـنعود بهـا، في نهاية الطابور الثاني استفسرت منه عن سبب عدم الاكتمال، تطلع بوجهه الهادئ المرسل إضاءة خافتة لا أدري مصدرها، قال إنه سـيفسر لي؛ لو بدأ السـير بإعلانه مسـافة مقدارهـا مائة كيلو سـيبدأ التعب بعد تمام الخمسـين أو السـتين، عندمـا أعلن أننا سنقطع خمسـمائة كيلو متر سيبدأ الإحساس بالمشقة بعد مائتي أو ثلاثمائة كيلومتر، قال مبتسمًا: هذا لك. أومأت، تذكرت شطرًا من بيت للمتنبي: على قدر أهل العزم تأتي العزائم.

مرة أخرى قال إنه لا حدود لطاقة الإنسان إذا ما قرر وتحمل، عندما بلغنا نقطة الانطلاق في أقصى الجنوب الغربي سـألته باسـمًا عن الهدف، قال: وهل بعد الرمال إلا الرمـال؟ قلت إننا نقترب من الشَّـعْر!، قال إن الجلـف الكبير منطقة مجهولة في معظمها، موجود في عمومه على الخرائط لكن تفاصيله غير مدونة، بعض الأجانب وصلوا إلى مشارفه، أحمد حسنين باشا ذكره، لكن ليس من الثابت أنه ألمّ به، عندما بدأنـا السـير كان قد نطـق بتلقين مفصل عن ظـروف التقدم في مناطـق ربما نكون أول بشر يطؤها. استوعبت كل ما قيل، رددته بيني وبيني، رغم أنني لم أكن مكلفًا بمهمـة محددة، فإنني حرصت على إبداء المسـاهمة في كافة مـا نمر به، ألا أكون عبئًا على المكلفين باستكشـاف المنطقة وتحديد مواقع تصلح لنصب بطاريات صواريخ ضد الطيران المعادي الذي بدأ يسـلك ممرات غير معتادة للإغارة على الوادي، بدأ الانتباه بعد الهجوم على محطة كهرباء نجع حمادي، عندما التقيت الرفاعي أول مرة كان بمقر قيادة المجموعة شمال القاهرة، كان بهي الطلة، قوي الحضور، يقابل الدنيا

مفتوح الصدر، غير متوارٍ، على منضدة مستطيلة خلفه صور موصولة ببعضها، أبيض وأسود، قطاع كامل من خط بارليف، لمحت مياه قناة السويس، حرصت ألا أنظر مرة أخرى، قال بلطف هادئ إنه يسره مرافقة أديب وصحفي، سيحرص على إخطاري عند تنفيذ عملية خلف الخطوط، ستكون عبر خليج السويس، وفي الأغلب سيتم خلالها نصب كاتيوشا، فهمت أن الأمر سيقتصر على ذلك، لن تقع مهاجمة موقع ما حتى لا يحدث اشتباك، اعتبرت ذلك نوعًا من الحرص عليّ، قلت إنني على استعداد لكافة الظروف، أومأ: أفهم ذلك، لم تمض شهور إلا وبدأنا هذا السير الحثيث، الحذر في منطقة جد نائية، خلو تمامًا من أي مضارب أو أماكن إقامة عابرة حتى، وصلنا بالطائرات إلى شرق العوينات، ثم انتقلنا بعربات مجهزة لخوض الصحراء إلى نقطة متقدمة لحرس الحدود، من هناك بدأنا السير على ظهور إبل، يرافقنا جندي أصله من دارفور، عمل في الهجانة، كانوا مختصين بحراسة الحدود والنزول بمناطق الصعيد عند وقوع اضطرابات أو اختفاء بعض المطاريد المطلوبين من الحكومة، ما زلت أذكر حلولهم فجأة وسط البيوت بربع حسام الدين الذي وُلِدت به، تبرك جمالهم الميري، ينزلون من فوقها مرتدين أغطية رأس مرتفعة وقمصانًا «كاكي» وتنورة بدلًا من البنطلونات، وجوارب طويلة، لا ... ليس جوارب بالضبط، إنما قماش ملفوف حتى الركبة، البنادق على أكتافهم والعصي في أيديهم، يتكلمون لغة غريبة، وقليلًا من العربية بلهجة خاصة، تذكرت ذلك عند رؤيتي عم زروالي العجوز، على جانبي جبهته ثلاثة خطوط من كل ناحية، آثار فصد نسميه «تشريط»، قال عم زروالي إن المسار الذي نسلكه لم يدخله أحد قبلنا، لا إنس ولا وحش وربما.. ولا جن. منطقة الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود، المشكلة لا أحد يعرف أين سيخرج، قال الرفاعي: الأعمار بيد الله.

تطلع إليه صامتًا، كأنه يقول: ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، أشار الرفاعي بأصابعه الخمسة متجاورة، متلازمة.

هذه بلادنا ويجب ألا يظل فيها شبر مجهول لنا.

هكـذا بـدأ التقدم بواسـطة عربات مجهزة للسـير في أنعـم الرمال أو أخشـنها، مـع بـدء التوغـل إلى الجهة المحـددة في عمومها بـدأ الصمت في مـكان لم يتردد فيه صـوت بشر من قبـل، زروالي كان دليـلًا إلى أحوال الصحراء، وليـس إلى دروبها، كان لديه قدرة غريبة على تحديد الاتجاهات الأربعة من خلال نجوم الليل، خاصة الدب القطبي، هنا يتسـاوى مع الرفاعي، غير أن الصحراء التي عرفها الرفاعي في سـيناء واليمن مختلفة، المرتفعات الصخرية غالبة هناك، الرمال مساحاتها معروفة، الـدروب كالطـرق معروفة منذ آلاف السـنين، لكن في الغـرب يختلف الحال، تمتد الرمال الناعمة إلى اللا مدى، تمتزج أحيانًا بصخور لكنها تظهر وسرعان ما تختفي تحت الذرات الصفراء الدقيقة، ترتفع في بعض المواضع، تتجه إلى أسـفل في أماكن أخـرى، غير أن هذا كله مهما طال واتصل لا يسـتمر، ينتهي فجـأة كما بدأ، الرمال غالبـة، دائمة، الجهات متداخلة إلا لمن له دربـة وطول دراية، زروالي يمكنه تحديد الرياح من الرياح أيًا كانت، نسـمة أو عاصفة، أما النجوم فيتقن مواقعها كما يعرف خطـوط يده إلا إذا تكاثفت الغيوم، وحجبت الأضواء القادمة من أبعاد سـحيقة، عندئذ يبطئ الخطى، وقد يفضل التوقف حتى تلوح انفراجة في الأعالي، فقط يرى شـيئًا مـن الأضواء الوافـدة، عندما بدأنا قلـت: إن الجو صحو، حظنا طيب. قال حتـى الآن، لكـن ما يكون في سـاعة لا يسـتمر في أخرى، أحيانًا يتغـير الوضع في لحظـات مـن النقيض إلى النقيض، أمـا التنبؤ بالأحوال فصعـب، الحيوانات فقط، خاصـة الإبـل، ربما تستشـعر العاصفـة قبل هبوبها، غـير أن ما تبديـه لا يدركه إلا خبير.

مـع تقدم العربات المعـدة لطبيعة المكان، مـع الإيغال في المسـافات، مع امتداد الصمت صرت إلى حال مغاير لم أعرفه من قبل، الإقلال من الحديث، شـيئًا فشـيئًا يـسري صمت بـين كافة أفـراد الدورية، عنـد التوقـف لتلحق بنا سـيارة تباطأت

بعض الشيء، أو لتدقيق معلومات، أو تدوين بيانات أو ملاحظات أو غرس علامات، يعبر كل بأقل الألفاظ، شيئًا فشيئًا يطوي الصمت تفاصيل الوجود، نستدل على الفراغ التحتي بالفراغ العلوي، يبدو الرفاعي مختلفًا عمن عرفته في تدريبات القتال، أو عند أطراف المدن أو داخلها، فقط يبدو هو هو عندما يمر على العربات الأربع، يطمئن على المعدات، خاصة جهاز اللاسلكي الذي أولاه عناية خاصة، خشية الرمال الناعمة التي تسري مع الفراغ، مع الأنفاس، على المدقات التي لم يسلكها أحد منذ ملايين السنين، كان يتمهل فنبطئ من بعده، زروالي له الإحاطة بأحوال الطبيعة أما الرفاعي فله إقرار السعي، يؤكد زروالي: إننا لو اتجهنا إلى الجنوب سنجد مرتفعات صخرية داخلها كهوف فيها تصاوير عجيبة لحيوانات بعضها ما زال في الصحراء، خاصة على مقربة من الواحات القائمة أو البائدة والآبار الظاهرة أو المخفية، حيوانات أخرى لم يتعرف عليها أحد، أنواع من الطيور كانت تفد إلى المكان في تلك الأزمنة البعيدة، تمنيت لو تغير الاتجاه، كهوف ما قبل التاريخ، قرأت عنها في بعض ما كتبه الرحالة الذين بلغوها، عددهم محدود جدًّا، ثلاثة أو أربعة، بعض المصادر تقول إن المنطقة كانت مغطاة بالبحر، ثم تغير الحال إلى غابات كثيفة، ثم حلت الصحراء الممتدة، لم أعرف إلا كهوفًا في إسبانيا: عدد قليل ورسوم محدودة، مقصد للزائرين، لكن زروالي يؤكد أن الرسوم المحفورة بلا حصر، ألوان بعضها كأن الفراغ منها كان بالأمس، لم يخطر لي ذلك إلا في إطار التمني، لا يمكنني النطق حتى بها أفكر فيه، زمن حرب، والمهمة التي لا أعرف إلا عناوين مراحلها تتصل بحيوات آلاف لا نعرفهم، وقد لا نلتقي بهم، لكن ثمة ما يسري بيننا، تمامًا كالصلة بين الرمال والرمال، بين الفراغ والفراغ، قال زروالي، إننا في صميم الهضبة، تحتوي على سبعة وديان، ينطق أسماءها بسرعة حتى إنني استوقفته أكثر من مرة لأتأكد من حروفها.

وادي الأخص، اليخت، الضيق، الجزائر، مفتوح، مشي، وَسْع.

قـال: إننا مع طلوع شـمس الغد سـنبدأ السـير في منطقة الرمـال المتنقلة، تلك تتطلب يقظة وحذرًا، وانتباهًا يفوق كل ما عرفناه، منذ هذه اللحظة لزم الرفاعي، حلَّ موقع العقيد عالي نصر، وأمري معه طويل، خاصة فيما تلا زمن الحرب وتغير الأحوال، يمكن القول: إن دخولنا السـديم بدأ، منذ نطق زروالي بما سـنقدم عليه قـوي التضـام بيننـا، صرت كأني أنوب عن الجماعـة، كل منهم يعني الكل، لم يعد حولنا إلا الرمال، خلفنا، أمامنا، أحيانًا فوقنا، أدركت الشبه بين البحر والصحراء، كثـيرًا مـا ورد عليَّ مبـدأ المقارنـة، لكنني لأول مـرة أواجه الهوَّ الأصفـر، في البحر للزرقـة درجـات، لون يلـد ألوانًا، هنـا الصفرة متقاربـة، لا نهائية، تسـتدرجنا إلى صميمهـا، من الشروق والغروب، أدركت أن أربع ليالٍ انقضت ونحن نتقدم على مهـل، حتى العجلات المجهزة ومعدات مقاومـة الغرز تعمل بصعوبة، أحيانًا نمر عـلى مقربة مـن تلال ممتدة من الرمال، كل منها أشـبه بهضبة راسـخة، قال زروالي أثناء التوقف لفترة، لا تشـغلوا أنفسـكم بهذه التلال، كلها زائلة، في تنقل دائم، قد تدفن قرى وطرقًا في ترحالها، تذكرت زيارة سابقة إلى الواحات الخارجة، أول مرة أخـرج من الـوادي، إلى طبيعة مغايرة تمامًا، يومها قلت: إنها مِصْرُ التي نجهلها، في الطريـق إلى الداخلـة بداية السـبيل الوعر إلى صميم الجلف الكبـير، رأيت الطريق المرصـوف مقطوعًا بتلال ضخمة من الرمـال، تضطر العربات إلى الخروج صوب الرمـال، أحيانًا أرى طرقًا جـرى رصفها لتحيد عن مواضع التلال المتنقلة، أحدها منذ مئات السـنين طمر جيش قمبيز، ترى... ماذا تخفي الرمال تحت الرمال؟ هل تـدري الرمـال أنها ممتـدة، صنو للبحر، غير أنها أرسـخ سريانًا وأبعـد مدى؟ أهي رمـال لأنهـا رمال أم لأننـا نراها كذلك؟ على أي حال سـواء هذا أو ذاك فستظل هنـا وهنـاك في اللاهناك إلى أن تدبـر الأفلاك ظروفًـا مغايرة، عندمـا بلغت واحة الفرافـرة وتجاوزتها إلى ما بعدها، خرجت وحيدًا ذات ليلة، ابتعدت عن الأحجار عـلى جانبي مدق مهدته الأقدام، ربما تخفي تحتها عقارب حادة أو ثعابين الطريشـة

القاتلة، غير أنني لم أعبأ بهذا كله، أخذني صمت الأبدية المنهمر عليَّ، وشدة الليل العامر بالنجوم الفاترة والنشطة وسهام النار المنفلتة إلى احتراق أكيد عبر الغلاف الجوي، برق ضوء ثاقب لم أدر مصدره ولم أعرف حتى الآن ولم أنبئ بخبره أحدًا، لمحت صَدَفة، ملت لألتقطها، غير أنها كانت لصيقة بقطعة مستوية من الصخر، لم تلن لي، غير أنني تسلمت الرسالة عبرها، هنا جرى البحر ولاحق الموج بعضه منذ ملايين السنين، استغرقني الأمر حتى كدت أصغي إلى أصوات ارتطام الماء بالصخور، لكن ... من أين لي افتراض شاطئ كان هنا؟ إذن فلأهم بحثًا عنه، عند هذا الحد سمعت من ينادي عليَّ، مكرم رفيقي في الرحلة يعدو وبصحبته اثنان من أهل الواحة، قال: إن أحدهم رآني ممعنًا في الدرب، خشي عليَّ أن يأخذني الليل، كثيرون جرى لهم ذلك. أمعنوا ولم يرجعوا، للصحراء والليل نداء لا يُرد، هذا ما ظننته عندما وصلني صياح زروالي الهرم، غير أن الصوت كان قويًّا، فتيًّا، يجتاز الحدود، نزلت من العربة غير قادر على قمع فضولي، يقف الرفاعي عند حافَة منخفض، تتجه الرمال فيه إلى أسفل، إلى ما يشبه الحوض، دائرة فسيحة.

زروالي ينطلق في خطوات فسيحة أشبه بجمل أدركه هياج مفاجئ، يعدو، يعدو، غير أن ما كان يتجه إليه أذهلني.

شجرة..

وسط الأصفر السارح، الغالب حتى التقاء السماء بالحواف الأرضية، عبر هذا الهِوِّ تسمق بجذعها وأغصانها وربما تتدلى ثمارها التي لم أدقق فيها جيدًا لنأي المسافة، عند حد معين بدأ زروالي يرفع قدمًا ويخفض أخرى، ذراعاه إلى أعلى ممسكتان بالآلي، يؤدي رقصة ما، رقصة صوب الآفاق الممتدة إلا أنها متجهة إلى تلك السيسبانية الحضور، كلما دققت بدت لي بعض تفاصيلها أكثر، فراغ صحو، ضوء ناعم يخصها، طلتها كوقفة تمثال ميريت آمون في الساحة المتبقية من معبد أخميم الكبير، نصب للأنوثة، هكذا تبدو الشجرة حضورها الوحيد زادها وهجًا

وألقًا، تذكرت مرتفعًا صخريًا يمت إلى جبل الجلالة بصلة، كنت بصحبة جند من الصاعقة لفت نظري غصن نحيل ينتهي بوريقة نبات بازغ هذا كله من صلادة الصخور.

توقفت، انحنيت نحو الغصن النابت، ظهوره من الصخر أضفى معنى وهوى، لماذا أعجب مما أقدم عليه زروالي؟ ربما لأنه أظهر ما لم تجرؤ دهشتي على الجهر به، عندما دنا من الغصن المتميد كما بدا لي أطلق زخة رصاص في الهواء، التفت إلى الرفاعي، كان يلامس خصره بأصابع يديه وعلى وجهه ابتسامة ما، كدت أنقدم في الاتجاه عينه، غير أنه أشار بيده، حاشني، قال: إن زروالي مخلص لما اعتاده من أهله، عندما يرى البدوي أنثى جميلة في الصحراء لا بد أن يحييها راقصًا أو صائحًا أو ... صمت لحظة ولم يكمل، بينما الكل متجه بالأبصار إلى زروالي الذي ازداد بعدًا حتى إنه عندما دنا منها أصبح صعبًا تبينه فكأنه اتحد بها أو ذاب فيها

# شجرة الكينونة

من الشجر ما حيرني وبلبل دواخلي بدري، فمنهن تلك التي ورد ذكرها في التنزيل العزيز. ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، لم استدل على المقصود من ذلك، تعددت التفاسير عندي، وعندما تكثر الاحتمالات يبدأ التيه والفقد.

هل المقصود المعنى الخفي في الهيئة؟ الجذع متوسط بَيْنَ جذور لا تبين لا بد أن تدفن بدءًا من البذرة حتى تفجر الفروع التحتية قبل الفوقية التي تكتمل كلما اتجهت إلى أعلى، إلى فوق المتناهي واللامتناهي، غير أن ذلك لا يكون إلا بتوغل الأغصان التحتية، التي لا يبصرها نظر، ولا يلم بها بصر، هل المقصود أن الشجرة تجمع بَيْنَ المرئي واللامرئي؟

ربما يصح تفسير مغاير، أن المعنى يشير إلى شجرة كونية، لا هي شرقية ولا غربية، صعب رؤيا مرامها، وعر تتبع أصل غرسها، ومنتهى فروعها، وكنه ثمارها، شجرة تمسك المدارات كافة وتمنعها من الانفلات عن بعضها، ليس الكون إلا شجرة، ما يبسطها خفي لا يبين، لا أذكر من قال شعرًا أو نثرًا: هل عرفت سر الحياة لكي تطمح إلى الإلمام بسر الموت؟ من يدري من يلم بموضع أصلها إن امتد في مكان وزمان يمكن حصرهما و تحديدهما، إذن: هل يمكن تعيين نهاية بسوقها؟ المجرات ودورات الأفلاك جذعها، ألا تفصح الشجرة عن عمرها بمقدار ما

تحويه من دوائر، لا تتكشف إلا إذا قطعت وبان فحواها ومرساها؟الشموس ونجوم النوفا والمستعرات العظمى[1] أغصانها وفروعها، أما الكواكب والمذنبات وكلٌّ أسير في فلك يحتفظ به ويديره إلى حين، ليس هذا كله إلا ثمارها، أما ما خفي منها فأعظم قدرًا وامتدادًا، إنما نحن نولد ونسعى ونتفرق عن بعضنا في شجرة واحدة، أصلها ثابت وفرعها في السماء. هكذا يكون الأمر كله.

---

(1) المستعرات العظمى: نجوم منفجرة سحيقة البعد، شديدة التوهج.

# رُسُوٌّ في التخوم

قبل الخوض في بنيان هذا الكتاب الغريب الذي لم أعرف له مثيلًا في سائر الآداب التي ألممت منها بقبس، أتساءل هل من صلة بَيْنَ ذلك الرسم الجداري الفريد الذي لا أكف عن الإشارة إليه والتنبيه إلى وجوده وتخيل من خطه وأنشأه؟ هل من وشيجة تربطه بذلك الشكل الذي اختاره لسان الدين بن الخطيب لكتابه الذي لم أعرف له مثيلًا، عنوانه: «روضة التعريف بالحب الشريف»؟

ما زلت أذكر دهشتي المتجددة المستعادة كلما ارتقيت الصخور لأتجه إلى مرقد تحتمس الثالث، يتجاوز عمرها خمسة وثلاثين قرنًا، اللوحة تتضمن الملك، مؤسس الإمبراطورية يرضع من الشجرة، الشجرة بمنزلة الأم، تدر حليبًا صافيًا لتمد المبرَّأ بأسباب الوجود في اللاوجود، عندي هوى بعناوين ابن الخطيب، القاضي، الوزير الأندلسي، ومن قبل ومن بعد الأديب الممسك بمحاسن اللغة الخفية، لنتأمل عناوين مثل:

«كناسة الدكان بعد انتقال السكان».

«نفاضة الجراب في علالة الاغتراب».

«الإحاطة في أخبار غرناطة».

«ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب».

أمـا الكتاب الذي أتمهل عنده وأمعن فيه، فيبدو التلميح إلى معماره من عنوانه، الروضة مقصود بها الجنة، وما من جنة بدون حديقة، وما من حديقة بدون شجر، أورد قبسًا من مطلعه أو مدخله، أو افتتاحيته بما يدعم ما ذكرته من وجود مرجعية مقدسة يقول:

«وعلى ذلك ذهبت في ترتيبه أغرب المذاهب، وقرعت في التماس الإعانة باب الجوّاد الواهب، وأطلعت فصوله في ليل «الحبر» طلوع نجوم الغياهب، وعرضت كتائب العزيمة عرضًا، وأقرضت الله قرضًا، وجعلته شجرة وأرضًا، فالشجرة المحبة مناسبة وتشبيهًا، وإشارة لما في الكتب المنزلة وتنبيهًا، والأرض النفوس التي تغرس فيها، والأغصان أقسامها التي تستوفيها، والأوراق حكاياتها التي نحكيها، وأزاهير أثمارها التي نحكيها، والوصول إلى الله سبحانه وتعالى ثمرتها التي ندخرها بفضل الله ونقتنيها، شجرة لعمر الله يانعة، وعلى الزعازع متمانعة، ظلها ظليل، والطرف عن مداها كليل، والفائز بجناها قليل، رَستْ في التخوم...».

آه من «رستْ في التخوم» تلك، آه ثم آه، يمكنني الإفاضة والشرح مع التبيين صفحات لا تُعد، لكنني أوجز وأدخر فأقول: إنني أنا، أنا من رَسوْت في التخوم، قرأ ابن الخطيب كتبًا عديدة عن المحبة، أخص منها بالذكر أحدها، طالعته وأحببته، أعني «ديوان الصبابة» للفقيه الحنبلي أبي العباس أحمد بن يحيى التلمساني المعروف بابن أبي حجلة المتوفى سنة سبعمائة وست وسبعين هجرية، دافعه المعلن وضع كتاب في المحبة الإلهية، غير أن ثمة إشارات عديدة توحي بقلقلة روح متوثبة متطلعة، عندما شرع في تأليف الكتاب كان قد بلغ مرحلة الكهولة، بعد حياة طويلة تقلب فيها بَيْنَ الجاه والسلطان، بَيْنَ ارتقاء وانخفاض، من إقامة في دياره الأندلسية ونفي إلى سلا بالمغرب، كان قد بلغ مرحلة يتأمل فيها ما مضى وإدراك بقصر ما تبقى، وهذا عين حالي منذ بدئي ذلك التدوين، هذا عن خاص الخاص، أما الأحوال العامة فمضطربة، مملكة غرناطة تقترب من احتضار مؤكد، تهب عليها رياح

عاتيـة، أدرك بثاقب بصره أن الأمور ماضية إلى غايتها، لذلك كان سـلوك الطريق عونًا ومنقذًا له، من هنا خصص كتابه هذا للمحبة الإلهية، وقع خياره على الشجرة لينظم منها مكنونه، ليس مهمًّا نوعها أو جنس ثمارها، إنها شجرة المطلق، شجرة اللا وجود والوجود، السـعي والوصول، الخفاء والظهور، بل إن ما وقع عليه اختياره من أشـعار لتكني عـن أحواله وزلزلة روحه، وإدراكه اقـتراب النازلة، فلنتأمل ما اختاره من غزل قيس بن ذريح المعروف بحب لبنى...

كأن بـلاد الله مـا لم تكـن بهـا ... وإن كان فيهـا الخلق طرًّا بلاقع

أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ... ويجمعنـي والهم بالليـل جامع

نهاري نهار الناس حتى إذا دجى ... لي الليـل هزتني إليك المضاجع

لقـد ثبتت في القلـب منك محبة ... كـما ثبتت في الراحتين الأصابع

عُرِف كمؤرخ، كطبيب، كسـياسي، عالم بالموشـحات، بالطـب، بالدين، كاتب رسـائل بارع، غير أن هذا الكتاب يكشـف عن مبدع، رقراق، موسـوعي الثقافة، معمار الكتاب يكشـف عن ذلك، معرفة بالموسـيقى، بالنجوم، بالسيمياء، إحاطته بالشـعر، سي محمد الكتاني محقق الكتاب يحصي أكثر من ألف ومائة بيت، معظمها مـن أشـعار الصوفية والغزل، كثير منها غير معـروف في المصادر المتاحة، لا مبالغة إذًا عندما يقول إنه ديوان جديد في الشعر الصوفي، الحكمي.

إذن... شـيد ابـن الخطيب كتابه على هيئة شـجرة، الشـجرة لا تقـوم في فراغ، إنـما تغوص جذورها في الأرض حتى يمكنها البسـوق، يبدأ بوصف الأرض التي تغرس فيها فسـيلة المحبة، أعتبر الطبيعة الإنسـانية مثل طبقـات الأرض ومعادنها وعروقهـا، مـا تحوي وما تطـرح، ما تُظهر وما تخفـي، خصبها وجدبهـا، هنا يذكر القلب والروح وسائر القوى الروحية والحسية، في القسم الثاني يتحدث عن طبيعة

الفلاحة التي سيقوم بها غارس الشجرة، إن دفن البذرة ومتابعتها بالسقي والرعاية يستلزم مجاهدة، إلى ري مختلف أنواعه، عبر الجداول والعيون وما تيسر، هذا الماء من علوم نقلية وعقلية، تلك البذرة لن يساعدها في النمو إلا العلم بها يستلزم، وهذا يقتضي تنقية أرض المحبة من الأعشاب الضارة.

توقفت عند القسم الثالث ويخصصه للعمود المشتمل على القشر والعود والجني الموعود، لقد تمت البذرة وأينعت وخرجت الشجرة إلى الوجود، بطرق مفهوم المحبة اللغوي، ثم يفضي به الحال إلى المحبة الإلهية، محبة المخلوق لخالقه سبحانه.

أما الرابع فعنوانه «الفرع الصاعد في الهواء على خط الاستواء».

هكذا نصعد مع الشجرة إلى أعلى، ليس صعودًا سريعًاعابرًا، إنما متمهلًا، متأنيًا، متأملًا، هكذا يحدد المضمون الذي سنستوعبه شيئًا فشيئًا، يقول رحمه الله: «ويشتمل على قشر لطيف، وجرم شريف، وأفنان ذوات ألوان قنوان وغير قنوان، طلع نضيد وجني سعيد... فالقشر الحرود والرسوم، وخواص العارف الذي هو المعروف بها والموسوم، والفنون التي يقوم عليها والعلوم.

والجرم ظاهر الخلق المقسوم، وعلاجه كما تعالج الجسوم، وباطنه المجاهدات التي عليها يقوم، وقلبه الرياضة.

والغصون والمقامات فيها المقام المعلوم، ومادتها السلوك الذي بتدريج غذائه تبلغ الأفنان والورقات ما تروم.

والزهرات اللوائح والطوالع والبواده التي لها الهجوم والواردات التي تدوم أو لا تدوم.

ثم الجني وهو الولاية التي كان الفارس عليها يحوم...

لكل قسم من الكتاب...، آسف، لكل جزء من الشجرة الصاعدة، عنوان القسم الخامس جعلني أغادر طوري وأفلت مني طربًا.

«تفرع ضخام الغصون من شجر السر المصون».

من هذه الغصون تتفرع الأمور إلى وريقات، أوراق الشجر، أورد بعضًا منها.

ورقة في حب حبيب الحبيب، وعداوة عدوه.

ورقة الرضا بكل ما يفعل المحبوب.

ورقة الشوق إلى المحبوب.

ورقة الوجد.

ورقة المراقبة.

ورقة الطاعة للمحبوب.

ورقة مداومة ذكر المحبوب.

ورقة الولوع بالاسم والصفة.

ورقة الغيبة والذهول.

ورقة الغيرة.

ورقة الأنس.

ورقة الحزن

ورقة الخوف والرجاء.

هكـذا تتـوالى الوريقـات تمامًا مثل المقامـات، أما الغصن الرابـع فيختص بثمار المحبين، الساعين، أحوالهم وأخبارهـم، أصنافهـم، وأحوالهم. ثـم يصـل إلى الذروة، منتهى الشـجرة، يذكـر الصادح على أفنانها والشـادي الذي يهيج أشـجانها، ويثير شـجو الرأفة والحنان، الطائر الصادح فوق شـجرة المحبة هو ابن الخطيب نفسـه، ورغـم الأدعية التي اختتم بها صدحه، فلم يسـلم من ضيقي الأفق، هؤلاء المغلقة

قلوبهم، الصدئة أفئدتهم، ادَّعوا عليه غرابة المنزع، وأنه تكلم فيه على طريقة أصل الوحدة المطلقة، وسعوا ضده حتى مات حرقًا.

عندما نزلت فاس أول مرة قصدت مرقده مشيًا، وقفت أمام ذلك البناء المتواضع، كان الطقس قيظًا والحر في ذروته، إلا أن ظلالًا خفية رققت حالي، أغصان شجرته وأوراقها أحاطتني وخففت عني الهجير، شجرة ليس مثلها مثل، رواها بروحه وعمره عندما أريق مكنونه بسببها، واتصل بالعظام الذين لم تستوعبهم أزمنتهم بدءًا من ابن المقفع وحتى ابن الخطيب مرورًا بالتوحيدي والسَّهْرَوردي دفين حلب، وغيرهم، تلك شجرة أخرى يطول الحديث عنها... فلأقصر.

# شجر الغواية

لكـم تمنيت معرفة هـذا الفنان الذي رسـم تلك اللوحات، لا أعني شـخصه، فـلا بد أنه جاء وسـعى ومـضى قبل وفـادتي إلى الدنيا، إنما أقصد اسـمه لا غير، لو ألممت باسـمه لأضاف ذلك أشياء لا أعرفها لأنها لم تحدث. لوحات ملونة طبعت على الحجر، كان ذلك سـائدًا في القرن التاسـع عشر وحتـى بداية العشرين، كانت الصفحـة تنحت على حجر مصقول، أهداني صاحب من زملاء الطفولة صفحتين متقابلتـين مـن ألف ليلـة وليلة، أحتفظ بهما كأثـر نادر، يزنان سـتة كيلو جرامات؛ أي أن عدد صفحات الليالي يوازي بنيانًا متينًا؛ إذ يقارب الألفي صفحة، استبدل بالحجر على أيدي المهاجرين الأرمن الزنك وكانت الورش متجاورة في شارع محمد علي، وبالقرب منها مقـار الصحف الكبرى وقتئذ، ومنها المؤيد والمقطم وغيرهما، الطريـف أن الشـارع عُـرِف بالفنانين خاصـة الراقصـات اللواتي عُرفـن بالعوالم، ويجهـل الكثيرون الآن اتخاذه مقرًّا لدور الصحف، وهذا مما يطول الحديث فيه، لا بد أن هذا الفنان المجهول عاش بالقاهرة القديمة، رسم ما رسم ومضى لم يوقع ولم يذكر اسـمه، ومجهولية المبدع من خصائص الفن الإسـلامي، عدا استثناء واحدًا لم أعرف غيره في مسـجد قجماس الإسحاقي المعروف بأبي حريبة، في مركز المحراب المجاور للمنبر الفريد وقع المعلم الذي أنشأه باسمه.

تلك اللوحات أثارت مخيلتي طفلًا عندما كنت أتردد على مسجد سيدنا ومولانا الحسين، بجوار الباب الأخضر من الجهة الشرقية يجلس رجل ضرير لا يفارق مكانه

ليلًا أو نهارًا، يفرد اللوحات إلى جواره، حبل ممدود، كل واحدة معلقة بمشبك، فوق الأرض عدد مرتب، الغريب أنه يتعرف على كل منها بالإشارة إلى المعلقة أو بتحسس التي يمسك بها بعد أن يناوله الزبون، لم أكف عن تأملها وتفحصها منذ صباي، ثم مع تدرجي في المراحل حتى اختفائها تمامًا من القاهرة، من جوار أبواب المساجد في سبعينيات القرن بتأثير تيارات التشدد الديني، عندما زرت تونس عام خمسة وثمانين وأمضيت يومًا في جامع الزيتونة فرحت من قلبي عندما وجدت هذه اللوحات منسوخة بذات ألوانها، صحيح الحجم أصغر لكنها هي هي، اقتنيتها كافة فلم يحدث أن اشتريت منها واحدة، كنت أظن في طفولتي أنها من الثوابت الدائمة، ولم أستوعب بعد أنه لا شيء يبقى حتى الراسيات الرواسخ، فما البال بمطبوعات من ورق أقتني الآن المستنسخات التونسية.

البراق الذي أسرى بالحبيب ليلًا، جسد حصان ورأس إنسان متوج، وقد نشرت اللوحة غلافًا لأخبار الأدب، الجريدة التي توليت أمورها زمنًا ليس بالهين، الطريف أنني اكتشفت عند إعدادها للنشر دائرة على صدر البراق داخلها علم الخلافة التركي، من هنا حددت تقريبًا زمن الرسم والطبع، تعجبت من ذلك. غير أن دهشتي بدت عندما دخلت المتحف البريطاني - ومن بعد المتروبوليتان - أيضًا اللوفر، رأيت جداريات آشورية لرسوم أحصنة مجنحة ذات رءوس آدمية، غير أن عجبي خف عندما اطلعت على رسم أقدم بكثير من الزمن المصري القديم، لحصان مجنح ورأسه آدمي يعلوهُ تاج قريب جدًّا من اللوحة الغالبة على ذاكرتي فتلك أول ما رأيت بالرسم على شقفة فخار - أوسترايكا - من دير المدينة بالبر الغربي، حصان حول عنقه قلادة غير أن الوجه لأنثى بديعة التقاسيم، واعتبرت ذلك من الغرائب، فالأمر قديم، قادم من الحلم لكينونة المستحيل في الواقع...

صورة أخرى لسيدنا إبراهيم يتأهب لذبح سيدنا إسماعيل وفي الركن الأيسر العلوي الملاك جبرائيل يمسك بذبح عظيم، فداء إسماعيل، أطلق أبي اسمه على

شقيقي الأصغر مني، صورة لسيدي عبد القادر الجيلاني، أبيض اللحية مهيبها، يركع متوجهًا للصلاة.

صورة للمحمل، الجمل يحيط به جنود الشرطة المصريون، أخرى ما زلت أرى الماثلين فيها، أسد الله الغالب - هذا ما كتب تحته - علي بن أبي طالب، إلى يمينه سيدي الحسن، وإلى يساره سيدنا ومولانا الحسين، لم تكن الملامح بعيدة عما تصورته منذ البداية، ملامح مضيئة وحضور باهٍ، ما بيني والحسن مسافة لا أقدر على طيها، فيما بعد ترددت مرات على كربلاء، الجديد عليّ هو المكان وليس المرقد المغطى بالذهب والفضة والسقف المجوهر بالكريستال، للمشهد القاهري الأبسط في الزخرف هيبة وشفافية، ما شُغلت به في كربلاء، أن تلك الأرض آخر ما خطا فوقها الحبيب بقدميه والتلال الباقية آخر ما رآه بعينيه.

أما تلك المعنية فأستعيدها دائمًا، وكلما بدت لي عبر الذاكرة تزهو الألوان في مواضعها، خاصة خضرة الشجرة التي تلتف حولها الأفعى، ذنبها إلى أسفل ورأسها متجه إلى آدم الذي يقف إلى يسار الشجرة، أما حواء التي انسدل شعرها حتى كاد يلامس كعبيها، ورقة خضراء تداري ما يجب إخفاؤه الآن، أكاد أصغي إلى ما جرى عبر سورة الأعراف التي أحفظها وأجد راحة ومتعة في تلاوتها على إيقاع من مقام صبا.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ...﴾.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ...﴾.

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ...﴾.

شجرة لا يمكنني تحديد نوعها، يغلب عليّ عند استدعائها الأخضر مع أن الجذع المستقيم بني ولولاه ما أثمرت الهامة، لا أعرف ولا ألم بما كانا يفعلان قبل ظهور الطاووس المتحول إلى هيئة أفعى، والثعبان في أقدم تصور له بمصر القديمة

كان رمزًا للزمن، للوقت، فهل بدأ الزمن مع طردهما من النعيم الدائم، مع نزولهما إلى الأرض، لـولا الغوايـة ما جئنا وما سـعينا، لا أدري من أي نص اسـتقيت أنهما أكلا من تفاحة، هل قضم كل منهما قطعة أم استلذا طعمها معًا، الشجرة في اللوحة أقرب إلى الجميزة لكنها ليست، كان لا بد أن يمضي وقت حتى أدرك معنى التفاحة المقضومة التي تتخذها شركة آبل شعارًا ورمزًا.

لم تحـرك عنـدي إلا التسـاؤلات، ثبـت عنـدي حـيرة تتجـاوز كثافـة فروعهـا وجذورها واسـتحالة إدراك موضعها والوقت الذي كانت فيه بذرة وفي أي أرض دُفنـت وبـأي ميـاه رويت، أم أنها لا تحتـاج إلى هذا كله، بعض مـا جال عندي عبر مراحـلي وتعاقب أطواري يمكنني الجهر به ولكن معظمه يظل في أفق المسـتحيل، أضرب عليه سدًّا من صمت لا يفض، صمت سيدركه صمتي...

# شجرة لا تبلى

للجميز حلاوة ومعنى وهوى، أحد ثلاث فواكه كانت في المتناول، النبق والحرنكش ثم تلك الثمرة الطرية، لونها الخارجي وردي غامق، متفتحة، تكشف المركز منها، أسود حالك؛ لذلك طلعت من صِغري وأنا أستمع إلى سبب ذلك مما يجرى على لسان القوم، عندما تُوفي الحبيب المصطفى اشتد حُزن الموجودات كافة، غير أن تلك الشجرة امتد حزنها في أحقاب تالية واستمر إلى أواننا هذا، وسيدوم ما استمر غَرْسها وإيناعها، غير أنني منذ أمد ليس بالقليل، منذ سنوات عديدة لم أذقها، ليس عن ترفع أو إهمال إنما لأنني لا أراها في الأسواق؛ ذلك أنه ما من فاكهي يعرضها في دكانه. لم أعرفها إلا من الباعة الجائلين على عربات تدفع بالأيدي أو يجرها حمار، منذ شهور لمحت بائعًا يقف إلى جوار عربة واقفة والحمار مشغول بالتهام التبن من جوال صغير معلق في عنقه، الثمار متراكمة فوقها، خطر لي استعادة المذاق القديم غير أنني كنت مرهقًا وراغبًا في الوصول بسرعة، مازال في فمي، أما النبق فآخر مرة كنت في مولد سيدي أحمد البدوي منذ سنوات، ربما سبع، ربما أكثر أو أقل التهمت عبوة كيس، وأما الحرنكش فانقطع عهدي به، حال اسمه دونه عندي، كذلك مزازته، كنت مدعوًّا إلى عيد ميلاد ابن صاحب حميم، لمحت في منتصف كعكة الاحتفال ثمرة، خجلت أن أتناولها، سيفسد ذلك المشهد، كانت موسطنة، الغرض الزينة، تقريبًا نسيت النبق حتى إنه لا يرد على بالي عند عبوري أسيوط التي اشتهرت به؛ أما الحرنكش فراح مني ورحت عنه، عدا

الجميز، لا يمكنني تحديد السبب، لكنه على الأرجح متعلق بالشجرة، ذلك أنها طالما حيرتني وأثارت بلبالي، والسبب رسوخها الذي لا ينافسه عندي إلا ثبات النخلة وبسوقها المستمر في ذروة الأنواع، تمر بها الرياح الصرصر بالغة السرعة فلا تميل ولا تهتز وهذا من غرائب الوجود، أما الجميزة فعندي يقين أن الظاهر منها مجرد إشارة يسيرة إلى خفي عميق لا أعلم مداه، ربما لما حاولت الإلمام به عنها منذ بدأ ارتقائي المراحل لا يتعلق الأمر بحزنها الذي بدا في ثمارها، لا.. الأمر أقدم بكثير، كثيرًا ما أصغيت إلى ما يتردد على ألسنة القوم في جهينة، سواء ما تعلق بالنجوم أو الأشجار، ومن ذلك أن لكل امرئٍ ورقة تبزغ من فرع شجرة المصائر، شجرة راسخة، لا هي شرقية ولا غربية، لا فوقية ولا تحتية، سارية في كافة أنحاء الوجود تمسك بأطرافه بأقاصيه، بسائر جهاته، تبدو أحيانًا في صور كُثر منها الجميز، فوق الورقة كل ماسيجري، ما سيمر بالمخلوق منذ خروجه من الرحم حتى بلوغ اللحظة المحسومة التي لابد منها، عند التمام المكين، عندئذ تسقط الورقة، علامة فنائها ضوء ثاقب يمرق في السماء بسرعة خاطفة، حتى تلمحه العين لجزء يسير من الثانية، ويُعرف عند علماء الفلك بالشُّهب، لا يدري أحد مصير الورقة أو مآلها، غير أن المؤكد بلوغ هذا الضوء الهاوي من أعلى إلى أسفل سائر الجهات الأصلية وما تفرع عنها، بعد العشاء يتحلق القوم في الرحبة التي تطل عليها البيوت، أصغي إلى ما يتحدثون به، خاصة محمد أحمد إسماعيل وهو بمنزلة خالي، متقدم السن منذ أن عرفته، لم تتغير ملامحه حتى سقوط ورقته من الشجرة التي لا تبلى، يعرف أسماء الأرواح التي تسكن الشجر، جميزًا كان أو تينًا أو نخيلًا، ملم بأسماء الجن المؤمن الذي يطوف الدروب ليلًا، مناديًا على بعض من خصهم بالتنبيه والإفاقة، وهذا يُعرف بين القوم بالهاتف، كان ينبه إلى مواضع العفاريت الضارة، غير المؤمنة، والتي تمرح ليلًا في دور هجرها أهلها أو عند سواقٍ لم تعد تثمر قطرة مياه، أما ناحية الغرب حيث الجبانة والجبل الذي تسكنه الضباع والهوام والمطاريد وكل

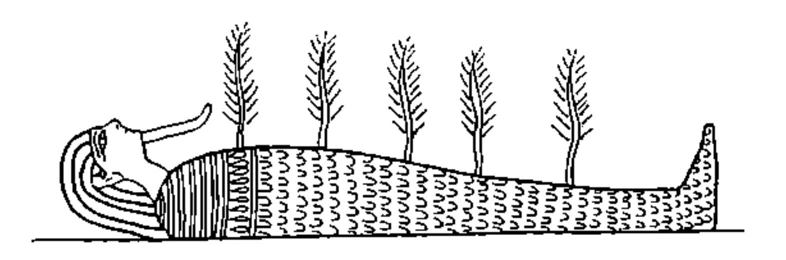
ما يصدر عنه الإيذاء فجهة غير مأمونة، أخطارها بلا حصر، لا يقصدها إلا جمل شارد غير مأمول رجوعه، أو من ضل عن عقله ونفسه فأقدم على الهيام في البرية، محمد أحمد هو من خطب أمي لأبي وسعى بعدهما سنين عديدة، غير أنه في العشر الختامية كان لا ينطق إلا جملة واحدة مع تحديقه مطولًا إلى صاحب الشأن، يقول:

«أكرمك الله بالإسلام..

ومما تردد عنه أنه كان يتقن لغة الأشجار، خاصة الجميز والنخيل، ويقسم من أثق به أنه رآه يجادل نخلة عتيقة موقوفًا تمرها على من يخرج للحج لا غير، لا يقربها أحد، وتلقى كل عناية من تقليم وتشذيب ومعالجة وتلقيح، يتنافس الحجاج على تحصيل أنصبتهم منها، لو ذاق كُل منهم ولو تمرة واحدة منها فتلك بشارة بعودته إلى أهله سالمًا بإذن الله، أقسم على مسمع مني أن الأرض تنبت أشجارًا تخجل كالنساء، ويشاء القدر أن ألتقي بها بعد أكثر من أربعين عامًا، وجرى ذلك في جنوب صقلية، وسأذكر ذلك في سياق منفصل لخشيتي البعد عما يتعلق بالجميز الذي شغلني أمره، في مرحلة متقدمة قرأت ما أذهلني، وتفصيل ما عرفته كما يلي: الشجرة يبدو أنها أقدم من وجود العالم الذي نعرفه بحواسنا المحدودة، ذلك أن عقيدة الأجداد تقول بقدسيتها، وأن روح «آتوم» أحد أقدس تجليات الإله تجسدت من خلالها، أودعها لقحة تفاعلت مع مكوناتها من جذع وأغصان، ومنها انتقلت إلى رحم السماء التي عُرفت بـ«نوت» ومنها تولد كل يوم الشمس عند الشروق، وأوضح صورها في مرقد رمسيس السادس بالبر الغربي، غير أن الأشمخ نراه في معبد دندرة المخصص لرمز الفتنة والأنوثة وحلاوة الوجود «حتحور» تلك التي تخرج من شجرة جميز في مرقد الفنان سنجم رع وسبق حكيي لذلك، «نوت» أنثى بامتداد السقف كله، من حده إلى حده، قدماها عند الحافة يعلوهما ساقاها، تنثنيان عند الركبتين، ومن ثم يبدأ جسدها الممتد بطول السقف، من بين فخذيها تنبت الشمس، تولد، تشرق، تتجدد الحياة، ينحني العنق، يتجه الرأس إلى أسفل، بينما

تمتد ذراعاها لتحاذيا قدميها...، لو شئت لفصلت أكثر غير أنني أكتفي بهذا القدر على نية ذكر مواضيع الرموز مفصلًا فيما سيجيء لو ساعدتني الحواس وأمهلني الوقت.

إذن.. وُلِد أوزير من شجرة، لكن.. فليتأهب من يقرأ تلك السطور لما سأورده، ذلك أني سمعت من صاحب حميم متخصص في المصريات عن بردية نادرة بمتحف جامعة كمبيردج، تحتوي على رسم نادر لأوزير سيد العالم الآخر ومصدر النماء في عين الوقت، مومياؤه متمددة تحت الأرض، منها.. منها تنبت الأشجار، لن أطيل، غير أنني عندما نزلت ديار الإنجليز تقصيت واتصلت وساعدني من تفهم، حتى قصدت الجامعة الرفيعة المقام، وجلست في متحفها متفحصًا الرسم وها أنذا مورد صورته لعلها أبلغ من كل ما ذكرته أو يمكن تدوينه، فتأملوا..



# شجرة التحولات

فاتنـي ذِكر ما جرى من «سـت» رمز الشر، سـأورده قبل حَكْي لقائي بشـجرة نـادرة في صقليـة، ذلك أنه بعد أن قتل شـقيقه رمـز الخير أوزير، أخفـى جثمانه في جذع جميزة بعد أن قام بتفريغه، هكذا تعتبر الشجرة أقدم تابوت في الوجود، تفرق أوزيـر داخلها، امتزج بها وأثمر، هكذا جمع بين رمزية الحياة والموت، هكذا أصبح «أوزير نب خبرو» أي سيد التحولات، أو بمعنى آخر سيد التكوينات، هو الشيء ونقيضه، أخفى جميع أشـكال الحياة في شـخصه، تجسـد في مياه الأنهار، في سـنابل القمح، في ذروة الأشـجار التي اعتبرت الجميزة أقدسها؛ لأن تحولاته بدأت منها، ولأنه وُلِد منها، هكذا حق له أن يقول:

أنا اليوم

أنا الأمس

أنا الغد

ولأنني أعاني تكرار ميلادي

فسأبقى مسلوب القوى

صغير السن

هل اقتربت الآن من أسـباب تفضيلي لشـجرة الجميز وثمارها سـوداء الجوهر؟ ربـما.. جرى ذلـك من خلال الحَكْي، نحن لا نحكي لنعبر الوقت، لنتسـلى، ولكن لنكتشف الكامن فينا، وفي الآخرين، لعل استمراري يرسيني على فهم ما لم أفهم..

# شجر الوصال

رأيتهـا، عاينتهـا، اختبرتها في جنـوب صقلية، بالتحديد في مدينة سـيراكوز كما تُعرف بالإيطالية، سراقوسة بالعربية، وناحية دمياط توجد بلدة صغيرة، وسط بين القرية والمدينة اسمها سرياقوس، لعل ثمة صلة ما.

نزلـت بالرمو في نهايـة الثمانينيات لحضور معرض للكتاب، ثلاثة أشـياء بقيت معـي، لا.. بل أربعة وشـذرات أخرى لا أدرج أيًا منها؛ أولًا شـقة في بناية عتيقة، دُعينـا إلى زيارتها، دليلتنا شـابة يمكـن اعتبارها مرجعية للأنوثـة، نحتها أعجوبة، يراودني تناسـقها المهندم ما بين صدر مجوهر وخصر هامس وردف مقبب وامتداد يتجـاوز حده المادي، أرى الرحلة من خلالها مهذبة إلى درجة رادعة، صوتها محايد يوقـف أي شروع في المقاربـة إلا مـن أوتي التجرؤ والبجاحة، وهـذا أبعد ما يكون عنـدي، صحيـح أن ذهولًا يأخذني عني عند معاينة الحُسْـن لكننـي لا أظهر تيهي وقلقلتـي، أوجههـا إلى داخلي فأنطق لي عبـارات لا رابط بينهـا، وأردد بيني وبيني ألفاظًـا لا وجـود لها في أي لغة، إذا اشـتد الأمر أسـعى إلى الانفـراد، أطلبه، إذا تم ربـما أقف عـلى يديّ، أو أخبـط دماغي في جـدار صلد، أو أحاول اتخـاذ وضع قد يُنهـي الكينونة، ليس مثـل الأنوثة باعث، ليس مثل فتنة المـرأة حاضٌ أو محرك، ما من سـاعية قبيحة، إنما توجد عين ترى وأخرى لا تبصر، من شـاهدتها ذلك النهار يمكـن إدراكها مـن الكافة حتى معدوم الحواس، عـبرت فخطرت فتركت عندي أحـوالًا لا تزال ترد عليَّ مع جهلي بمقرها ومثواها وما صارت إليه، فما أغرب وما

أعجب، رجاء.. انتباه، لم أحِدْ عن قصدي، لم أشرّق وأغرّب، أحكي عن شجرة، لا عن غصن، عن ثمار، ذلك أن كل أنثى تحوي شجرة.. هكذا! أما المعتبر الثاني فمرتفع وسط مدينة بالرمو، مهيمن، مغطى بالأشجار، فوقه ما يقارب قصرًا صغيرًا أو بيتًا كبيرًا، قيل لنا: إنه مقر زعيم المافيا الأكبر، أما الآن فيستخدم لغرض ما لم أعد أذكره، ربما مقرًّا لحاكم المدينة.

ثالث ما تبقى شاهد قبر في متحف قرب البحر، المتوفى اسمه محمد، في القرن الثالث للهجرة، أما تاريخ الرحيل فعلق عندي، الثلاثاء السابع والعشرون من رمضان، هيمن عليَّ وشمل، مجرد حروف محفورة على شاهد منتزع من موضعه..

رابع ما زال ماثلًا، تلك الشجرة، كُنت في طريقي إلى رؤيةبناء لم أعرف مثيلًا له في تجسيد تلاقح الأفكار، كنيسة من الداخل، مقاعد مصفوفة، مذبح مهندم، مرتب ، مسجد من الخارج، سأذكر المزيد عما عاينته في حكايات العمران وما أغربها!

الممر الذي خطوت فيه يؤدي إلى الكنيسة/ الجامع، ورد عليَّ فريدريك الثاني ومراسلاته مع ابن سبعين في الأندلس، أما ابن قلاقس الصقلي فشاعر مرقرق الحس، أصله سكندري، قبل بلوغنا المدخل وقف مرافقنا، يدرس الأدب العربي في بالرمو، أشار إلى مجموعة من الأشجار، ذكر اسمًا لاتينيًّا لم أدونه للأسف، هذا الشجر يشعر ويدرك ويبدي رد الفعل، استعدت ما قاله صاحبي الأبنودي المقيم قسرًا في معزله بريف الإسماعيلية، بيت صغير تحيطه أشجار زرعها ويرعاها، أكد لي أن اليوم الذي لا يقرئ فيه السلام عندما يبدأ طوافه بالحديقة يزعل منه الشجر ولا يبدي المجاوبة والود الجميل، قال إنه يبوح لشجرة معينة ويقرأ عليها ما ينشده، اشترطت ألا يكشف أمرها حتى لمن تُكِنُّ له ودًّا ورعاية وصون محبة.

كثيرًا ما استعدت حديثه وأتعجب، أيصدقني القول أم ينشدني حالًا من الشعر؟ دام عندي ذلك حتى رأيت ما رأيت في سيراكوزا ذلك الصباح.

عندمـا اقتربـت إلى حافـة الأرض المنبثقـة عنها الشـجيرات، فوجئـت بأوراق الأقرب إليَّ تنسـحب، تتلملم منطوية، ترتد مطوية، مغلقة، عندما ازداد قربي ومن معـي دنـت الأغصان من بعضها وبدت الفروع مغلقة مسـتعصية عـلى النفاذ، من رافقـوني اعتبروا الأمر طرفة، مضى أمري بخلاف ذلك لأنني رأيت حتحور تخرج من شجرة حاملة الماء والزاد الروحي للمتوفى، واطلعت على رمسيس الثاني يستمد أسـباب البقاء من شجرة الكون «أشد»، وجلسـت طويلًا في مرقد تحتمس الثالث الفريـد، الأخـاذ، أتأمل رضاعته من شـجرة، لأني مسـتوعب لهـذا وغيره أرجأت سـفري يومًا، مضيت في الصباح الباكر متمهلًا عـبر الممر، وعندما بلغت واتجهت لاحظـت مرحًا في القوام، ودندنة في الفروع، وتميُّدًا في الأغصان ونغمًا من شـجرة تتوسـط الجمع يسري إليَّ، عندئذ غاب عني الوجود عدا ما أرى وأسـمع، اتخذت أوضاعًـا ونطقت بالصمت حروفًا ثم أقدمت على ما أقدمت وحتى تدويني هذا لم أبح ولن..

# شجرة الصمت

جاء في كتاب بلوهر وبوذاسـف، أن بوذا أوتي الحكمة وسـداد الرؤية بعد مُكثه تحت شـجرة ست سنوات متصلة لم يتحرك خلالها مبتعدًا أو متجولًا، بعد انقضاء المـدة التـي يحـار القوم في تعيين من حددهـا، هل نبع ذلك من داخلـه أم نودي من مكان بعيد؟

غير أن ما لم يذكره المصدر، أو المراجع الأخرى حتى أقدم المخطوطات المقدسة المحفوظـة في أديـرة الرهبان بأعالي الجبـال في التبت وغيرها، نوع الشـجرة يمكن تحديده ، فما زال القوم يتوارثون في الهند فسـيلة من نسـل تلك الشـجرة، لغرسـها طقوس وحفاوة معلومة، مشـهودة، أما الموعد فيحين عندما تبدأ إشـارات الذبول واحتضـار الشـجرة التـي هي ابنة مـن ناحية وأم مـن وجهة أخرى، كم يسـتغرق عمرها من الميلاد إلى الاحتضار؟

لا إجابـة معروفـة، غـير أن الأمـر كله عنـد رهبان المعبـد القريب مـن موضع الشجرة.

كيف اقتات البوذا طوال مدة صمته؟

كيف بل ريقه وقضى حاجته؟

كيف استمرت هيئته؟ هل ظل على هيئة جلوسه كما عرفتها أول مرة في الحديقة اليابانية بحلوان التي زرتها طالبًا صغيرًا في المدرسـة الابتدائية ثم أقمت على مقربة

منها سـنوات عدة، هل ظل متطلعًا إلى أسـفل طوال جلوسـه أم جـال بالبصر فيما حوله؟

يقـول مـن زاروا المعابد ومكامـن الرهبان الهادئين، السـالمين إنهـم أجابوا على هذا كله بالإشـارة إلى الشـجرة التي لا تزال قائمة، ماثلة، مزارًا للسـاعين، راسخة، صامتة حتى لا يصدر عن أغصانها هسيس ولا يتخللها نسمة أو شيء من بعيد..

# شجرة الرضاعة

سطر مؤلف مجهول في بردية مفقودة، رشح بعض مضمونها في كتاب الطوّاف النيقوسي من العصر البطلمي، أن كهنة معبد آمون الأعظم أنشئوا حديقة اعتبرت من أسرارهم الدفينة، جمعوا فيها كل غريب ، أوفدوا الرُّسل على هيئة تجار وبحارة وأطباء معالجين إلى سائر أنحاء الكون المعمور، بدأ ذلك واستمر لمدة تقدر بأربعمائة فيضان، رجعوا بفسائل غريبة لم تُعرف خارج مواطنها، وأوجد الحكماء طرقًا مختلفة، عالجوا ظروف كل منها في حيز معلوم بحيث تنمو وتثمر، عدا شجرة واحدة لا يعرف أحد مصدرها، كم من الأسرار اندثرت داخل هذه المعابد! شجرة مستقيمة الفروع، تضيء أغصانها من الداخل إذا أظلمت الدنيا أو غامت بعض ساعات النهار، ضوء خافت همسي، إنها شجرة الأمومة كما ذُكرت في كتاب النيقوسي، غير أنه أوردها في بعض المواضع واصفًا إياها بمرضعة المقدسين، أحد فروعها يدر حليبًا مصفى ، نادر الطعم، لا يجمعه بآخر شبه حتى حليب النوق، والزراف وما عزَّ وجوده.

أقول أنا الساعي بعدما يقارب ثلاثة آلاف وخمسمائة عام إنني رأيتها، ذلك أن العادة جرت على دخول سيد الأرضين على الشجرة وقبل إطلاق الحمائم الأربع إلى الجهات الأصلية لإعلام القاصي والداني بتنصيبه، قبل ذلك يمثل أمام الشجرة ويبدأ الرضعة الأولى من الغصن الميّاد، في الموعد عينه من كل دورة للفلك يأتي

ويقـترب ليتحصن بحليبها النادر من الأمراض كافة والأوجاع، ما خفي منها وما ظهر، كذلك أذى الهوام ولدغ الحشرات.

عندمـا أدى تحتمس الثالث المراسـم وتناول الرضعة، طلـب من حكيم المعبد، مصمـم مرقـده الأزلي نقش وضعه راضعًا، ولأن ما ينقـش يبقى سرًّا حتى تكتمل الرحلة الأخروية، كل ما نراه الآن من نقوش ورسوم وهيئات إنما أُعد للإبحار في العالم الخفي -أمدْوات- هكذا جرى نقش الشجرة التي لا يوجد مثلها مثل، عندما رأيتهـا أول مرة ، وكانت زيارتي تلك في ذروة حر بئونة حيث يقل عدد السـائحين وأنفـرد بحيـوات الجـدران الخفيـة وأسرارها، وأسـتحضر أيام صبـاي المفتقد، إذ كان من عادة الأسرة قضاء شـهور الصيـف في جهينة ، وحتى الآن أفضل الرحيل جنوبًـا في ذروة الصيـف، لهذا تطول إقامتي في البر الغـربي حيث اعتدت، في ذلك اليـوم بداية النهـار ارتقيت المرتفع الصخري نهاية وادي الملوك، هكذا حُفر المرقد، لا بـد من صعـود ثم هبوط، كنـت راغبًا في رؤيـة المثوى الأبـدي لذلك المحارب الجســور الذي عبر سيناء سبع عشرة مرة على قدميه ليؤمن الحدود ويدفع بالأعداء إلى بعيـد، أخـبرني من أثق بعلمه أنهم عثروا عـلى لوحة عند مدخل ممر خيبر، اعتاد أسياد الأرض وضع هذه اللوحات عند النقاط القصوى التي يصلون إليها تذكيرًا وتحفيزًا، لم أكن أعلم بوجود هذه الخطوط فلما رأيتها لم أعد أرقب سواها، أخذتني عنـي ، حتـى إننـي لم أعد أرقـب الملك في موضـع الرضاعة من الغصـن، ذلك أن الغصن دنا مني، شـخصت منفرج الشـفتين مسـتقبلًا ما غيرني حتى وقت سـعيي هذا..

# خبر

جاء في الجزء المفقود من كتاب النبات للدينوري، أنه يوجد شجر في جزر الخالدات، إذا ضاجعه الإنسان يتأوه ويغنج ويُنزل، ثم يحمل ويلد.

أما من وصلوا إلى عمق ديار الهند، فقطعوا بوجود شجر إذا قُطع ثمره المستدير، والذي يشبه رأس البشر، ينبت محله على الفور، وفي أقصى بلاد ما وراء النهر شجر إذا ذبلت واحدة منها يُنكس سائر النوع أغصانه وفروعه لمدة أربعين يومًا حتى لو وُجد في الطرف الآخر من المعمور.

## شجر الكون

في موضـع ما، في اللامكان ثمة جذور لشـجرة يسـتحيل الإلمـام بها ، ذلك أنها تمتـد عـبر المـدارات، فلكية أو كونية ، ما عُـرف منها وما لم يـدرك بعدها، غصونها باتسـاع السُّدم والمجرات المتباعدة عن بعضها، متجاوزة لكل طاقة جذب، تتخلل الكواكب والشـموس، كذلك مصائرنا وأشـواقنا، تتمدد داخل المخلوقات كافة، مـا نـما منها وما دق، يشـق رؤية ولو جزءًا منها، غير أن الإحسـاس بهـا كافة رغم شساعتها ممكن إذا أطلنا التحديق إلى ما لا تدركه أبصارنا.

«من دائرة معارف الوجود - تحت الطبع»

# نخلة الرغبة

جاءني إلى حيث اعتدت الإقامة في البر الغربي فتى لم يتم العشرين بعد، سمعت عنه من الحاج محمود باعتباره أفضل من يتسلق النخيل في الناحية، إما لتقليم الجريد الزائـد، أو لتلقيح الأنثى بذور الذكر حتـى لا يكون الاعتماد على سريان الرياح لا غير، ثم إن بعضها يحتاج إلى معاملة خاصة.

سررت ودهشت!

أمـا السرور فلسـعي أمثاله الآن وإتقانهـم المهمة نقلًا عن آبائهـم أو أجدادهـم المعمرين، ذلك أن من مسـتثيرات حزني خلال تـرددي على الصعيد خلال العقود الأخـيرة كثـرة النخيل الـذي هاش جريده وحـال لونه من الأخـضر إلى الأصفر، يتكاثـف في الأعـالي، احتضار معلن وعدم مشـهود بعد هجـرة الرجال إلى الخليج وانعـدام الخبرة بشـجر يحتـاج إلى عناية دائمة طول السـنة، إنها لا تكتفي بتسـميد التربة والسـقي كبقية الأشـجار، لكنهـا تُلف في بداية انبثاقهـا إلى الوجود حماية لها مـن حرارة الجو، فهمت لماذا يلف صغارها بالحصير وأحيانًا بالقماش وفي بسـاتين الفاطميـين كان الحرير المنسـوج في أخميم يسـتخدم لذلك ، ذكـر ذلك ابن ميسر في أخبـار مـصر، قبل موسـم الطلع - في الشـتاء خاصـة - تتم عملية قص السـعف اليابس، وإزالة الليف وتنظيف جذعها المدرج وتنظيف مجاري المياه لضمان تدفقها ونقائها، في موسم الطلع تحتاج إلى التلقيح بنقل حبوب الذكر إلى الأنثى وإلا فسد ثمرهـا، حتى إذا تلون البلح وبدأ يترطب بعضـه تبدأ عملية «التدلي» أو «التغريد» وهي عملية إزالة السـعفة ليظهر السـوباط ويكون التمر في متناول من يجني التمر

الذي يجب حمايته من أمراض عديدة تذهب برونقه وليونته، خاصة إذا ظهر العنكبوت؛ لذلك يجب رش الكبريت أو مبيدات غير ضارة بالإنسان، أخبرني بذلك صاحب عزيز عراقي من البصرة لم أعرف من هو أكثر منه دراية، تذكرته عندما رأيت هذا الفتى الذي أكد لي معرفته بطرق عدة مؤدية إلى قمة النخلة، هذه المسالك تختلف من واحدة إلى أخرى، أما سرعته التي اشتهر بها في ارتقاء النخيل فمردها إلى الدراية، ليس في عمومها إنما لكل منها.

قال إن أنات النخيل لا تشبه واحدة منهن الأخرى، أكد له العارفون أن نساء البشر مثل ذلك، لا تشبه إحداهن الأخرى خاصة عند رحرحة ردود الفعل وسبل الانفعال مع التدرج في مراحل الجماع حتى الهمود بعد ارتواء.

هذا سبب دهشتي!

قال: إنه يعرف نخلة قريبة، لكنه لن يصحبني إليها، الشجر يفهم، إذا صحبني إليها ربما تدرك أنه أحالها إلى فرجة، تحدث عن أدق شئونها عندئذ لن تثمر تمرة واحدة، يحدث هذا إذا غضب النخل أو أدركه أسى، يعرف واحدة لم تثمر ثلاث سنوات متعاقبة حزنًا على ملقحها الذي وافته المنية وغير ذلك كثير..

قال إن هذه النخلة حيرته، داخ بسببها، بعد أن عرَّفه أبوه عليها، وحان موعد لقاحها لم تقبل البذور التي حملها إليها من ذكر قريب، عندما يوشك على وضعها حيث يجب أن تدس يفاجأ بإغلاق محكم، رجع إلى أبيه الذي مال به الحال ولم يعد يرى أو يسمع إلا بصعوبة، قال إنه نسي إخباره؛ هذه النخلة بالذات أنوثتها فائرة، لا ترضى إلا بالبذور القادمة من فحل النخل المواجه لمدخل معبد هابو، الحق أن والده دله على أمور لم يتصور صدورها عن شجرة، إذ بمجرد اقترابه وإحاطة خصره بحبل يقيه السقوط فوجئ بما لم يعرفه منها أو من غيرها، خلجات، اهتزازات، أما قبولها للبذور فصاحبه رجفات وأيقن من سماعه شهقات متتابعة، حتى جرى له ما تعجب منه، إذ سرت عنده حمية وزاد في إحاطتها حتى تبدل أمره، لم يعد التمسك بها خشية الإفلات إنما سعيًا إليه ودبدبة...

# حاشية

يصل غرب وشرق البلدة طريق طويل ما بين مشارف الصحراء والجسر الذي تتوقف عنده المواصلات ما بين طهطا وسوهاج، إلى الجانب الأيمن للقادم من الجسر تنتظم، مجموعات البيوت، كل منها يخص عائلة تنتظم حول رحبة يحدها سور له مدخل، إلى اليسار مسجد الناحية، بيت العمدة، وابور الطحين، نقطة الشرطة، مضيفة بيت إسماعيل أخوالي، في القرى والمدن الصغيرة لا توجد فنادق كبيرة أو صغيرة، لكل عائلة قادرة مكان لإيواء الغرباء، موظفين قدموا لمهام، رجال شرطة، مغاربة عبروا الصحراء على الأقدام في الطريق إلى الحج، زمان.. كان للضيافة تقاليد، ينزل الغريب لمدة ثلاثة أيام، تقدم إليه أصول الضيافة من مأكل ومشرب وسُبل راحة، صباح اليوم الثالث يُسأل: من أنت.. ومن أين وإلى أين؟ طبعًا كان ذلك قبل ظهور المتطرفين وشيوع القلقلة وتشدد الأمن، وتمهيد الطرق مع سرعة التنقل وظهور غرباء كثر.

أمام المضيفة يجلس الرجال منهكين بالحر وانشغال البال، فجأة اندفع حمار من بحري، أذناه مرفوعتان، مشدودتان، عضوه مشرع متصلب، انتبه القوم، حالة يعرفونها رغم ندرتها، صاح الخال محمد أحمد..

«شوفوا له حمارة.. حيخرب الدنيا..

قـام كل منهـم مسرعًـا إلى بيتـه، توزعوا هنـا هناك،بحثًا عن أنثى لـه يمكن أن تـرضى به، اليوم سـوق قريب في نزه الحاجر، تجار الغـلال وباعة الخضـار والفاكهة وسائر الأغراض مضوا إليه، لكل جهة يوم وسوق له ترتيب.

رجـع الحمار أشـد إثارة، راح الكل يتراجعون ليلتصقـوا بالجدران، خطر داهم منطلق، يمكن أن يؤذي، ينطح طفلًا، يقلب امرأة، يحطم أي شيء في المرة الرابعة، هنـاك قرب وابـور الطحين أوقفوا حمارة بدا أنها راغبة بعـد أن تمكن، بعد أن هدأ، أطلـق نهيقًا لم يسـمع القـوم مثله منذ سـنين، راح يتهارش مع الأنثـى التي لاحت راضية.

تذكرت ذلك عندما أصغيت إلى فتى النخل في البر الغربي، تعجبت مما أصغيت إليـه، ما اسـتعدته من صباي، لو مس شـخص ما أنثى ربما يقـدم رجلها على إيذاء مـن جـرؤ وربما يصل الأمر إلى حد يصعب تصوره، في الوقت عينه يسـعى لتلقيح شجرة أو تسكين نزوة حيوان أعجم..

# عشق الأشجار

ذكر كاتب مجهول في مخطوط قديم، بقيت منه شذرات في ربيع الأبرار للصويري وبغية الطلاب للمنصوري، أنه بعد دفن جميل لم تعمر بثينة طويلًا، دفنا على مقربة من بعضهما، ويبدو أن ذرات كلٍّ منهما توزعت على الموجودات في وقت متقارب، وكما يعرف خاصة الخاصة أن الإنسـان يتفرق عن بعضه بالموت، لا يفنى إنما تستحدث مكوناتـه في نشءٍ آخر. ربما هذا أو ذاك من المرئيات المعاينة أو غير المدركة بالحس، بعـد وقـت يختلف فيه الـرواة بزغت فسيلتان لم يزرعهما أحـد، الأولى قرب مرقد جميـل، والثانيـة عند بثينـة تناقل القوم أخبـار ذلك فقال أحدهم: حنَّ الأصل إلى وليفه، بعد حين، نمت الأغصان ورسـخ الجذعـان، أما الثمار فكانت زهورًا حمراء مخففـة ببيـاض، ذاع أمرهما قصدهما العشـاق من كل فج، خاصـة من يعاني الهجر، أو صعوبـة القربى، أو يرغب في بث معلـوم، دام ذلك عقودًا عديدةً ولم ينفع زجر المتشـددين وخشـية الفقهاء من إيجاد نصب يُعْبَد كما كان البعض يقدس الأصنام، قال أحدهم: أحيانًا تكون الأصنام بالمعاني والشرك بنية التوجه إلى غير الله سبحانه وتعـالى، ويبـدو أن تلك المخاوف نالت وتمكنت من شـيخ القبيلة، جمع الأشـداء، اتجهـوا إلى المراقـد الأبدية، ظهور ونماء شـجرتين في هذا القفر مـن العجائب التي يسـير بهـا الركبان، الحق أنهم وجلوا. غير أن الشـيخ الذي تملـؤه الرهبة من مخالفة الخالـق سـبحانه أقدم، ضرب المعـول الأول غير أن الأمر لم يكن سـهلًا، جذور لم يعرفـوا مثلهـا، غائرة في العمق الأجدب، وعندما أوغلوا اكتشـفوا أن الشـجرتين متصلتـان بجـذور لم يعرفوا مثلها مـن قبل، بحيث لا بد من كشـف الأرض حتى يمكن انتزاعهما معًا، قيل في ذلك الكثير، لكنه تذرَّى..

# أشجار الأشجار

**جاء في معجم الاستبصار فيما وقعت عليه الأبصار للكرمي النهرواني ويعد من النوادر المفقودة:**

ومن الموجودات شجرة إذا اقترب منها رجل يصدر عنها تأوه وتحنين، حتى إذا لمسها أو ملَّس على جذعها تميل عليه أغصانها، تمسِّده أوراقها، يصدر عنها ما يُبان من الأنثى المشتاقة، تستجيب للعناق والأشواق، يترطب منها موضع حتى يمكن الإيلاج، ويتوالى منها ارتعاش أو ارتجاف حتى بلوغ الأوج، وفي جذر سرنديب شجر إذا اكتمل الغروب يتلملم تنطوي الفروع والأوراق، مع بدء انبلاج الضوء تنتفش، تعود إلى حالتها التي كانت قبل الغروب، وفيما وراء النهر منطقة جبلية، وعرة توجد بها شجرة لا يعرف أحد من غرسها أو كيفية ظهورها إذا اقترب منها ذكر، آدمي أو حيواني، تقوى رغبته وينتصب بقسوة حتى لو كان هرمًا بطلت منه الرغبة ولم يعد يعرف معنى الشهوة، شد إليها الرحال من له حاجة بها من أقصى الأنحاء، وسائر المراتب وبعد شيوع خبرها وثبوت أثرها، أرسل ملوك وخلفاء وأباطرة وزعماء نواحي لهم صولات وجولات على مساحات شاسعة من المعمورة وأعداد غفيرة من البشر يطلبون آمر الناحية ويرجون الحصول على فسيلة من الشجرة ويعرضون ما خف حمله وغلا ثمنه، ومن ذلك جوارٍ حسان وحيوانات نادرة ذكية لم يقع بصر أحد على مثلها أحيانًا كان الآمر يرسل المطلوب، لكن ما من فسيلة وصلت حية صالحة للغرس، فشلت كافة المحاولات لزرعها

في الجهات كافة، جاء في الكتاب أيضًا أن ثمة شجرة تنمو في جهة قرب التقاء البحرين عند طنجة، العجيب أن جذعها باسق وجذورها غائرة في مياه المالح، للوصول إليها لابد من نزول مرتفع صخري منحدر إلى المحيط، عرف عنها أن العاقر إذا قصدتها وتلمست بركتها بتمرير راحة الكف على الجذع المتين، حملها محقق إذا ضاجعها زوجها في نفس الليلة.. يبتسم بعض الخبثاء، يقولون إن نفرًا من شباب فحول يختبئون قرب الشجرة ويقومون بالواجب مع العاقرات مقابل قدر معلوم، والله أعلم، وقيل أيضًا إن كافة أشجار الأرز في المعمورة تتصل ببعضها عن طريق نبضات خاصة ولا أحد يعرف مضمون ما ينقل (العلماء في العصر الحديث أكدوا ذلك، ورصدوا صلات بين أشجار الأرز في لبنان وتلك المغروسة في جبال الأطلس وجزيرة بالي وقرب بلاد التبت وفي حوض الأمازون) ثمة وشائج غير معروفة تصل بين أشجار هذا النوع وفي متون الأقدمين ما يؤكد تبادلها الإشارات والتوقيعات، وثمة من يقول لو اهتز غصن منها في أقصى المشرق تحركت سائر الأغصان في شتى الأنحاء وهذا من الغرائب التي يصعب رصدها أو ملاحظتها، ربما يكون ذلك ضربًا من المبالغات ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

# سرسوب

المؤكـد أنهـا ظلت قائمـة، فارعـة، جذعها صنديد حتـى بدأت أعـمال الترميم ودخل البيت العتيق من يجهله، غرباء عنه، لم يعرفوا خصوصية حضوره، ومعراج الأصوات والضوء فيه وتناغم الجدران وحوارات الأسقف الحاملة المؤطرة.

شـجرة صاعدة بقوامها النحيل حتى فروعها لا تمتد إلى بعيد فكأنها عصا ذات معـين، بعـد إعادة فتح البيت مكثـت أكثر من عام لا أقربـه وإذا مررت في الدرب أمامـه أولي بوجهـي، أحيد بصري بعيدًا عندما اضطـررت إلى دخوله لم أجده رغم مثولـه وقـدوم الوفود لزيارتـه، البيت الـذي كان لم يعد، حتـى الآن كلما مضيت إليـه أحـاول إدراك مكامن التغيـير، وهذا مما يطول الحديث فيـه، غير أنني أتوقف عنـد الحديقـة التي تلي المدخل، تطـل عليه غرف السـلاملك والحراملك تغير نوع الحشـائش صـارت أقصر، أما النخلات الثلاث فلم أعـرف مثلها في بر مصر كله، رغم أنني قطعت الصحاري وزرت الواحات كافة وصار بيني وبين نخيل الصعيد وشائج وصلات.

- مـا يعنيني الآن تلك الشـجرة. الفنـاء الخلفي، فيه ما فيـه، المشربية الضخمة العريضـة التـي تحف غرفة الراحة وتجـزئ الضوء الحاد العابـر إلى الداخل، تخفف من حدته وتروض طيشـه تنمنمه، تحوله إلى أطياف في ذروة القيظ، كذلك مشربية الطابـق الثـاني، غرفة الحريـم المكنونـة، المصونة، وفيهـا خزانة كافة مـا خف حمله وتعاظم ثمنه، وبسـبب تلك الخزائن الخفية التي يبسط فوقها الفراش أو الوسائد،

جاء القول الشائع «تحت البلاطة». إشارة إلى ادخار المال وإخفاء الثروة وإظهار الضعف رغم تعاظم القوة.

بعد الترميم أزيلت الحديقة الخلفية، اختفت شجرة اللبلاب، وزهر الياسمين وتكعيبة العنب، جرى تبليط الأرض بدلًا من فرشة الحشائش الخضراء الوثيرة، بدأ استخدام المكان الذي كان مكنونًا ، مستورًا للحفلات واللقاءات وعروض مختلف أنواعها، غير أن الطاحونة والساقية بقيتا في موضعهما القصي وهنا رأيت الشجرة مائلة، جذرها عند مدخل الركن المخصص للطاحونة كان يديرها بغل شديد، تطحن القمح لإعداد دقيق الخبيز، أما الساقية فتمد البيت بماء وفير. دائمًا أردد أن الباب لو أغلق على الأهل لاكتفوا عدة شهور بما لديهم من خزين، ما زلت أذكر إقبالي على الشجرة المائلة. ظننتها انفصلت عن أساسها غير أنني فوجئت بصلة لا يلحظها إلا من أوتي التمكين ومعرفة البيت ومكنونه، ثمة شجيرة، في سمك الخيط تصل الجذر الظاهر منه وما خفي بالجذع المائل المنفصل عن أصله، عبر هذا السرسوب الذي يمكن ألا يلحظ تدفق سائر عناصر الحياة والغذاء وما يكفل استمرار تلك الخضرة الباسقة عند نهاية الجذع والأغصان، صرت أتردد على فترات متقاربة لأطمئن على اتصال الأسباب، أنبه كل صاحب علاقة، أملس أحيانًا على أغصان الشجرة المائلة التي لا تزال تورق وتشعر بالضوء، أنصرف مودعًا. لا أعرف ما سألقاه عند رجعتي..

# حقول يارو

حقـول يارو، رياض يارو، جنان يارو، أو حدائق يارو، إنه أقدم تصور إنسـاني للجنـة حيـث نهايـة المطـاف للمبرئـين، بعد مثـول الإنسـان المتوفى أمـام المحكمة الأوزيريـة، بعـد أن يشـهد عليـه قلبه، بعد أن يـوزن القلب في كفة وتوضع ريشـة ماعـت في كفة الميزان الأخرى إذا ثقل الميـزان، أي إذا طبت كفة القلب فهذا يعني كثرة الذنوب، عندئذ يلقى إلى وحش أسطوري يقف إلى جوار عرش أوزير نصفه الأعلى تمساح والأسـفل أسـد، هـذا يعنـي أن المصـير إلى الجحيم حيـث العذاب المقيـم المتنـوع، أما إذا خفت الموازين، أي مالت كفة الريشـة فهـذا يعني خلو المرء مـن الذنوب، وأن مصيره إلى حقول يارو حيـث النعيم المقيم، في جنة يارو نهر، لا توجد جنة إلا وفيها ماء جارٍ، نخيل وشـجر وأعناب وخمر وكل ما يرد على خاطر المـرء المـبرأ يلاقيه أمامه، تحت اللوحات التي تمثل مشـاهد مـن رياض يارو يكتب سطر واحد:

«أرض ليس فيها أعداء».

في مرقد سـنجم رع وزوجته، مشـهد للقمـح الذي اصفرت سـنابله، رهيفٌ، منمنـم، تتـآزر السـنابل بتجاورهـا حتى تشـكل جدارًا مـن الهشاشـة لكن يمكن للمدقـق أن يرى كل سـنبلة مفردة قائمة بذاتها، اللون أصفـر يحوي اكتمال النضج وبشارة القطاف، الكل مجاور لمجرى قد يكون نهرًا وربما قناة، المهم أن الماء الصافي السلسـبيل يسـافر فيه عند طرف المشـهد، بداية الحقل ينحني سـنجم رع وزوجته

يحصدان ما لم يزرعاه، إنهما الآن مبرآن، استوقفتني كلمة «المبرأ» موازية بدرجة ما، لوصف «المرحوم»، المبرأ بعد مثوله أمام المحكمة تعني أنه حتى وقوفه في مواجهة الميزان وأوزير كان متهمًا، أمضى عمره كله تحيطه الشبهات، متهمًا بجرم يمكن أن يكون مرتكبه ويمكن أن يكون بريئًا منه، ما يظنه فعلًا خيرًا قد يحاسب عليه باعتباره خطيئة، لا شيء يتضح إلا بعد تمام الرحلة، والحواس فما أشق ذلك!

في جنان يارو هدوء مقيم، نعيم دائم، لا خشية من عدو في أي صورة كانت، أو فعل يلحق الضرر لا جوع ولا ظمأ، لا سهاد، لا أرق، لا مرض، لا وسن، كل ما يتحرك فيه المبرأ حلم يقظ، لا هم ولا غم ، ورغم ذلك توقفت طويلًا أمام سطور في كتاب برت إم هارو يبدي فيها المبرأ انزعاجه مما يعاين بالقياس إلى ما عايشه، مما عرفه، ما خبره.

ما هذا الهدوء المستديم؟!

ما هذا الصمت المقيم؟!

إنني أفتقد الأصوات، الشيء ونقيضه.

أين الشبع؟ أين الجوع؟

أين الجنس؟ أين الحياة بكل ما حوت؟

لا أستعيد تلك المعاني إلا عندما أتوقف إذا كنت سائرًا، أو أكف إذا كنت متكلمًا، أو أشخص إذا كنت غافيًا.

# مســـــار

الشجرة أتم الموجودات تجسيدًا للمسار، جذورها خفية، ممتدة حيث لا تدركها الأبصـار، إنه الأصل، ثمة شـجرة يكتمل فيها المعنى، مزروعة على شـاطئ النيل، راسـخة المشـهد، قوية الظهور، تتفرع أغصانها ثم تنحني صوب الأرض لتغوص فيهـا، تحفر طريقهـا لتعود من حيث جـاءت، تابعت ما جرى عندمـا قرر الجهلاء بهـا رصف التربة بالبلاطـات المصقولة، تأملت محاولات الأغصـان النفاذ إلى عالم الغيب والشـهادة، حالت البلاطات دونها فتمددت فوقها. شـيئًا فشيئًا اهتدت إلى الفرجـات الضيقة التي يمر بها كثيرون ولا يلحظونها لرهافتها وشـدة نحولها، من خلالهـا أدركت أن ثمة إمكانية، دأبت عـلى المحاولة، دق الغصن ورق حتى فات، تبعتـه الأغصان، صحيح أنها غلظت وانبعجت بسـبب اختـلاف الظروف وتبدل التربة، ذلك هو...

# شجر المستحيل

كافة الأشجار خارج الإحاطة، بعيدة عن التناول، الإنسان لا يعرفها إلا بالنظر، يمضي عمره متطلعًا إليها، مستظلًّا أو مستأنسًا بها في الهجير، تظل فروعها بعيدة، قصية، جذورها غائرة، منها الدفين والظاهر، كلاهما مستعص، أما المخلوقات التي أوتيت الإمكانية على التسلق أو القفز من فرع إلى آخر، فلا تلمس إلا جزءًا من كل، وسرعان ما تفارق. كذا الطيور التي تنتحي ركنًا قصيًّا في الأعالي لتبني عشًّا لا يدوم إلا قدرًا يسيرًا، أما شجرة المستحيل عينه فتلك المشتملة على المعرفة. لم ولن يوجد من يمكنه الإحاطة بمفرداتها وأجزائها وما يؤدي إلى بعضه البعض.

# سطور على شجرة

قيل إن سيدنا ذا النون، قال: وجدت على شجرة في بيت المقدس سطورًا مكتوبة لا تُفهم، قرأتها - وكان ذو النون قادرًا على قراءة كل حرف مستعصٍ - فإذا معانيها كما يلي:

كل عاصٍ مستوحش، وكل مطيع مستأنس، وكل خائف هارب، وكل راج طالب، وكل قانع غني، وكل محب ذليل.

# صَـبَـا

ليل أليل يدثرني، الحجرة فسيحة، سرير، منضدة، لا شيء آخر، دفتر اليوميات معلق عند نهاية السرير، يحوي كل التفاصيل، درجات الحرارة، سرعة النبض، الضغط، أحوال القلب الذي ما زال يحاول الالتئام، لأول مرة ينتزع جزء منه، مني، لا أعرف مستقر الصمامين الآن، ولا ما يجري في صميمي، تكيف الصمامين الجديدين المأخوذين من حيوان أجهله، أفقدوه حياته ليمتد بأنسجته وجودي، لأول مرة أعرف مدة صلاحية لأحد أجزائي الأساسية، كل شيء أوضحه لي وفصله الجراح في اليوم السابق على الجراحة، وقعت أوراقًا عديدة لا أعرف محتواها، لم أهتم بعد أن لاحظت توقيعاتي غير المكتوبة، ونبهني إلى تفحص ما أوافق عليه وأتقبله، أومأت غير عابئ، غير معني بإحصاء أنفاسي حتى توقفها غدًا إلى حين مقدر، إما أن تعود وإما أن تكف، الورقة الوحيدة التي طلبت إضافتها، في حالة الحرج أوصي ألا أوضع على ماكينة صناعية، فلأُترك لأبدأ الطريق راضيًا مرضيًّا، استجاب الطبيب متطلعًا إليَّ بدهشة، سألني عما إذا كان قراري له أسباب تتصل بدياناتي، نفيت بهدوء، أشرت إليّ، ما زلت أرى درجة الضوء الخافت البارد المنبعث من السقف المرتفع، إدراكي المتمهل للأوبة، أول ما سمعته طبيب العناية لبناني الأصل، جراحة كبرى.. ثم قال بالعربية: حمدًا لله على السلامة. لم أنطق، شيء ما مثل ماوس الحاسب الآلي محشور في فمي، ما زلت أذكر نقلي إلى سرير متحرك دفعوا به إلى تلك الحجرة وسط بين الرعاية المركزة والعادية، كنت أستيقظ

وأغفو غير مدرك أو معني إذا كان الوقت ليلًا أو نهارًا، الباب بدون قفل، يمكن أن يُفتح في أي وقت، ثمة من يراقب أحوالي عبر شاشات في الخارج، متصل بأسلاك ترسم خطوطًا متحركة وأرقامًا على شاشة معلقة فوق رأسي، يصعب عليَّ رؤيتها في وضعي المجبر على اتخاذه، هل استيقظت، هل سمعت ما سمعت في منامي، المهم أن التصفيق كان متواصلًا، صاخبًا، سميعة من قومي يصفرون ويلوحون، ثم يصغون إلى صوت تعلقت بصاحبه، أحببته وهمت به وعندما زرت حلب إنما كان مقصدي الحقيقي رؤيته، وقد كان، قام من فراش إعيائه، جاء إلى بيت سي محمد قجة ليتوسط فرقته، يقودها بإيماءاته أما الصدح والعلو ثم الخفض فكان من محمد سرميني الذي ردد على مسمعي نفس الموشحات والقدود والطقاطيق والقصائد، التصفيق يهدأ والموسيقى تبين، عزف قانون مكين، قمت من مرقدي، تطلعت حولي، حفل في المستشفى، في الطابق المخصص للمراقبة بعد الرعاية الفائقة ما هذا؟ كل ما أطربني يصلني، لكنني غير قادر على تحديد المصدر، فارقت الفراش متجهًا إلى الباب الذي لم يكن في موضعه الذي اعتدته إنما في الجهة الأخرى من الحجرة، لاحظت أن الأسلاك تسري معي، تتمدد، تتبعني، لم ينفصل أحدها، كلها طوعي، من أين الصوت؟ من أين ؟ من يصفق من ؟ يبدع صبري مدلل كما لم أعرفه من قبل، حاضر، حاضر أكثر من جلوسه نحيفًا، نحيلًا لكنه قائد، آمر، تتبعه الفرقة كما تقتفي القافلة حاديها، بعد ظهوره في بيت محمد قجة بشهرين خرج إلى النهار، رثيته دامعًا مع أنني نادر إبداء الحزن علانية فلم أدمع إلا بمفردي، من الباب خرجت إلى ممر طويل فسيح، يأتيني عبره صوت صبري مدلل[1] بنفس الدرجة من الوضوح، لا يقترب ولا يتمايل، عندما وصل صوته إلى مقامي المفضل ودندن قدري دلال أمهر من سمعت على العود بدأ ترنحي وميلي، كنت أتحرك إلى كل اتجاه، نزلت إلى هوٍّ سحيق وصعدت إلى علو سامق، يداي إلى أعلى، أستحضر

---

(1) مطرب حلبي شهير، توفي.

حركة أيدي الندابات المودعات للمسافر إلى الأبد، الرقص والندب حزنًا صنوان، يتدفق النغم مني، تتبعني الأسلاك الموصلة بمسببات الوجود، المعينة على التقصي والفحص وأسباب تعقبي الصوت الذي أشجاني فخلاني. أميل مع الصبا كما تمضي بي كل مذهب وجهة اللا جهة.

# تـحــول

أول من نبهني إلى وقوع التفرق شيخنا الأكبر، وإذا ما قيل الوصف فهو واحد لا غير. محيي الدين ابن عربي. عندما قرأت له نصًّا صار من مكوناتي:

«لما كانت الحياة جمعًا والموت تفرقة..

أمعنت وأوغلت فتوصلت بالحقائق، ليست أجسادنا إلا مجمعًا لذرات شتى قدمت من كل صوب، ما يجمعها الأنفاس. أو الروح التي رمز لها المصريون القدامى بطائر له رأس المُبرّأ الراحل أبدًا وسموها "الكا" ما هي؟ ما كنهها؟ هذا ما لم نحط به علمًا حتى الآن، أعرف أنني لن أعرف ماذا سيكون، هذا ما لا إلمام به عندي.

شغلني حال تفرقي. عندما أزور المراقد أتأمل ما بنيت فوقها وحولها من أشجار وأزهار، أتساءل: هل تحوي الأغصان والثمار والورود تلك بعضًا مما كوّن الراحلون، أم إن الصيرورة تنتقل إلى بعيد؟ لو صح احتواء تلك الأشجار على ذرات أبي أو أمي أو أي من الأحباب، ألا يقف الطائر المهاجر على طرف الغصن ويلتقط بعضًا من الثمر؟ ألا تنتقل المكونات إلى الأقاصي؟ إلى بلاد لم يطأها ولم يبلغها الراحلون إلى اللاشيء؟ أم أن التفرق يتم عبر مسارب وسبل في اللاوجود لا قبل لنا بإدراكها خلال سعينا؟ لا أذكر الأشجار النابتة من أجساد الآخرين إلا ويمثل أمامي أقدم ما عاينت، أغصان الريحان، لونه الأخضر العميم، عرفته عندما صحبني أبي لزيارة مرقد الشيخ مصطفى المراغي، كنت صبيًّا، غِرًّا بعد، غير أن

الغياب الأبدي اتصل عندي بكل ما يمت إلى الريحان وروح وجنة نعيم، لن يطول اختفائي طويلًا. بضعة أسابيع، قل شهورًا لنوعية الرمال والأرض ودرجات الجفاف والرطوبة علاقة، حتى ما نظنه سيبقى سيولي يومًا، أعني العظام الرميم، أتجاوز عن المرحلة الأولى، أعبرها إلى تفرق الذرات، مضيها إلى المسارب والسبل سربًا، لا أعرف مم وفدت ذراتي، لكن ما زال عندي القدرة على تخيل ما يمكن أن نمضي إليه ونكون عليه. تلك ذرة يمكن أن تندمج في تكوين طائر، ليس مثل الطيور مخلوقات تعلقت بها، ما أتمناه اندماج بعضي باليمام، أي جهة؟ ذلك الزغب الواقع ما بين الرقبة والصدر والممتد إلى ما تحت الجناحين يا دفء مسعاي، ويا قرة وجدي، من يدري؟ ربما ألتقي بيمامة الظهر التي آنستني فوق السطح وودعتني عند الانتقال إلى الدرب الأصفر، ثم ظهرت عندي في مستشفى كليفلاند، لعلِّي أستفسر منها عن السر، لعلِّي ألمُّ به بعيدًا عن مثول وعيي، أتمثله بشكل ما، من أين لي العلم والإلمام بأن ثمة طرقًا مؤدية يعبر خلالها المعنى مع تفرق الذرات كل إلى جهة ، لعلِّي أستقر في جذع شجرة تتشربني جذورها الدفينة التي توغل في التربة لترضع الماء والغذاء وتمد به فروعها في الضوء، سأرحل مع كل ذرة، كلٌّ منها تحتويني، هكذا أتفرق على ما لا أعرف ولا خطر على قلب بشر، لو أتيح التوجيه لناشدت عددًا من ذراتي الاندماج بشجرة سرو، رأيت ما لا يحصى من أنواع الشجر، غير أنني تعلقت بالسرو، ولذلك أسباب أولها وأهمها وأرجحها تشابهها مع محبوبة همت بها نصًّا وروحًا، شجرة سامقة، سروة ذات نهدين وخصر وصرح ممرد من قوارير شفافة كالفجر رأيتها في بلاد السرو وسط آسيا. من أراد الاستزادة فعليه برسالتي إلى صاحبي عن الصبابة والوجد، أما هنا فميراثي كثير والمتاح من الوقت قليل، السرو ملمومة مضمومة منفرجة، مشهرة، قمتها إلى تضاؤل عكس كل الأشجار. لعلي أتسرب إليها، أندمج فيها، لو أتيحت الإمكانية أخبرها، أطلعها على شبيهتها الإنسانية، ترى في أي أرض تسعى الآن؟ عشقت

السرو من هيامي بالمنمنمات الفارسية خاصة ما خطه ونمنمه بهزاد نزيل هيرات، ليت ذرة مني تتجه إلى الماء، لكم تأملت على ضفاف بحار ومحيطات تحويه. أخشاه لجهلي بالعوم لكنني أتئنس به عند جلوسي وبدء سرحاتي أو التطلع إليه من نافذة طائرة تعبر البحار وخاصة المحيط، الماء الأعظم، آه لو امتزجت بقطرة، لكم رغبت أن أسافر كالماء، إنه العنصر الوحيد المسافر إلى الأبد، المتحول في ترحاله، أتحد بقطرة ممتزجة بتربة، أصير جزءًا منها، أتبخر فأصعد، أندمج بسحابة، كل الغيوم عابرة فوق الأراضي والبحار، إذا قدر لي اختيار اللحظة التي ينزل فيها مطري أفضل المحيط، حيث يلتقي الماء بالماء، يصير منه، وعند حد معين ينفصل، ربما يتوقف إلى حين إذ يتحول إلى جليد، عندما طرت فوق القطب، داعبني بياض الثلج، مساحاته الممتدة، ما يتخلله من بحيرات ما، جد عميقة الزرقة، هل يدري الثلج أنه أبيض؟ هل يعي الماء أنه أزرق، أخضر حينًا بين بين، أعود إلى الماء من الماء. أسافر إلى حيث لا أدري، تيار بارد يحمل أسماكًا يطلقون عليها سلمون. من حفر مجرى الماء في الماء، حتى ينتهي إلى مصب نهر قادم من عمق أمريكا اللاتينية، عند التقاء النهر بالمحيط - العذب بالمالح - يضع السلمون بيضه، لكل موضعه وتدبيره، رأيت أسراب السلاحف تخرج على شاطئ جزيرة سومطرة، ربما تعود إليها إحدى ذراتي المسافرة مع اليمام، مع الماء، مع بذور اللقاح، فهل يحن القطر إلى الأثر؟ لا أدري، أين اطلعت على ذلك الجدول، يتدفق من مرتفع، على ضفتيه أعشاب دقيقة تتخللها زهور حمراء قانية منمنمة لعلها شقائق النعمان، يحيرني الاسم، هل رأيت الجدول في ممر علي بك بكردستان؟ أم في النورماندي، أم في شسوع الصين، أم لملمته من ذاكرتي، الماء من النيل، والضفتان من مور بلوس بالمكسيك والزهور من سيناء، أما الأعشاب فمن أبيدوس؟ لا أعرف، لا يمكنني الجزم، ربما أتفرق في جناح فراشة لكم تأملت رهافته ونقاء ألوانه وما يعبره من مكونات الضوء، أصير إلى قصار العمر، الفراش لا يعرف إلا فصلًا واحدًا، ذلك

الذي يولد فيه، تلك الذرة المتحركة كالغبار خشيت سحقها، بودي لو أصبحت جزءًا من آثار الأقدمين، لون، بقايا نحت، تراب عند مدخل مرقد لم يكتشف بعد، لعلي أندمج بحبة توت، عمره قصير، قصير بالقياس إلى ما أعرفه، لكن هذا الكائن الذي لا يرى إلا تحت المجهر لا بد أنه محتوٍ على توقيته، ربما تمر به الفصول الأربعة خلال ساعة مما نحصي ونعد، هل تمضي ذرة مني إلى معنى، إلى ملمح إذن.. ليتني أمثل في ابتسامة تلك العجوز التي اشتملت على كافة بهائها الأنثوي، تسعى بين المناضد ليملي عليها الزبائن ما يرغبون، تصف ما عندها وتنصح بهذا وتمتنع عن ذكر رأيها في ذاك، أحببت حضورها، لم أعرف غزارة الأنوثة ورقة الحنو كما عرفته منها حتى أنني إذ أستدعيها لا أرى سواها. أنوء بدفقها، وأتوق إلى التوحد بطلتها، بابتسامتها تلك، آه لو أمكن ذلك خلال تفرقي على عناصر الكون، لو ركنت في بقايا دمعة عند حافة عينها لهان عليّ كل ما أصير إليه، ولقبلت كل صورة متجهة إليها، منقلب إليها ومنها، داعيًا أنني في كل تغير، ومع كل ذرة سأعرف الميلاد والموت من جديد، محقق توقي إلى ترحال دائم، مهما طال التوقف فلن يكون إلا مرحلة، جزء من كل، أتفرق في كل أنحائه ربما يبلغ بعض النيازك الهائمة والأفلاك الدوارة والكويكبات المأسورة في أرجاء الكون الذي أصير إليه و...

## بـــذرة

جاء في كتاب التحولات - الصين - ما نصه:

ما هو ساكن يسهل الإمساك به

مالم يتفتح يسهل توقعه.

وما هو هش. يسهل تحطيمه.

وما هو رقيق يسهل نثره.

يكون الفعل فيما لم يحدث بعد.

يقوم النظام قبل الفوضى.

هذه الشجرة الباسقة نشأت من بذرة.

هذا البرج وطوابقه التسعة أصلها ربوة صغيرة.

رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة.

تنبه لكلمة. تنبه لبذرة أيضًا.

عندها، لن تعرف الفشل أبدًا.

وجاء فيه أيضًا.

التعاقب هو فتح ثم إغلاق. الحركة المستمرة هي، "الوصول إلى كل مكان" ما يصل إلى مكان هو مرئي، صورة، ما إن تأخذ الصورة شكلًا حتى تصبح شيئًا ملموسًا.

# أغنية النخلة

**قال الأبنودي:**

عمري ما طلعتش نخلة.

مع إني شفت ف سني

أطفال مش أكبر مني..

طالعين بطريقة سهلة.

من غير ما بتحلم زيي

إنها تبقى عصفورة

تضرب بجناحها وتعلى

وتحط على الجريد..

أنا شفت ولد صغير

طالع بطريقة تحير

بسرعة بسرعة بسرعة

زي القطر الحديد.

هـو بيطلع وأنا شـايـف

أنـا شـايف لكـن خايف

مـع إني واقــف بعيـــد.

* * *

نفسي يـا ناس أطلع نخلة

وأنـــزل بطريقـة سـهلة

زي الولـــد الصغـــير.

واحصــــــل الجـريـــد

وأجيـب البلـح الـوردي

أمـلا بـــه جيبـي ويـدِّي

آدي البلـــح في مكـانـه

وأنـــا أهُـــه في مكـــاني

لســـه.. واقــف بعيـــد

وبابنـــي حاحلـــم تـــاني

إني أبقـــى عصفـــورة

تـضرب بجناحهـا وتعلا

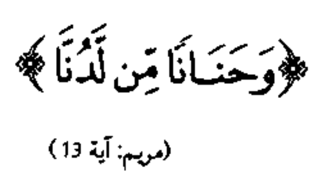
وتحـــط عـــلى الجريـــد

تحـــط عـــلى الجريـــد!

# تســـــاؤلات

هـل مـن هناك عندما أمضي إلى هناك؟ هل من جهة أسـلكها عندما يبدأ تفرقي عني أم أهيم إلى كل صوب؟ هل من مستقر أم سأتبع كل نسمة، وتحملني كل ريح وتنقلنـي كل موجـة إلى حيث لا أدري، هل سـيعي بعضي بعضه بعضًـا، أوقن أن شرط الوجود الوعي وقد عشت ترحالي في دنياي أخشى من فقدي وعيي وعندما راح لفـترة مضطـرًا لـدرء ألم ناجم، لم أعرف، إذا انتقلت مـن مرئيات إلى عتمة، لا أعـي أنها عتمة فكيف يكون الحال مـع التحول من طور إلى طور، هل سـأهيم في كون أم أكوان؟ هل أقطع المسـافة من مجرة إلى مجرة ومن سـديم إلى سديم في لحيظة أم لحظات أم أنه وقت غير الوقت؟ هل من مسـافة تتلوها أخرى ؟ أم تتضام كلها عنـدي فأصير القاصد والمقصـود. المبدأ والمعاد الوسـيلة والغاية ؟ هل من عودة؟ هل من نشـأة أخرى أم أن حظي من وجنة كاعب حسـناء مثل حظ ذرة الغبار التي تحـط هنيهة وتنفضها بأصابعهـا أو مروحتها دون أن تعرف ذلـك المتيم بالوجود، الوجـود الذي عرفه ولم يسـاعده الوقت للتملي من محاسـنه وجميـل مقاصده؟ هل يتبين الرشد من الغي ؟ هل يصير النشر إلى طي؟ كم من سؤال يعقبه سؤال، ليس لي إلا طرح الأسئلة، وما دام النطق قد وقع فربما يجيء حين لا ألم به الآن ولا أعلم عنه شـيئًا، يتحقق باعث التوق، رغم أن كافة ما قدرت على البوح به ظل وسـيظل معلقًا.

* * *


﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾
(مريم: آية 13)

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ
وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾

(سورة إبراهيم: آية 17)

القاهرة: 2008 – 2014

# الفهرس

# إصدارات المؤلف

## الأستاذ

## جمال الغيطاني

- أوراق شاب عاش منذ ألف عام.. مجموعة قصصية.
2 - أرض.. أرض.. مجموعة قصصية.
3 - الزويل.. رواية.
4 - الزيني بركات.. رواية.
5 - وقائع حارة الزعفراني.. رواية.
6 - الحصار من ثلاث جهات.. مجموعة قصصية.
7 - حكايات الغريب.. مجموعة قصصية.
8 - ذكر ما جرى.. مجموعة قصصية.
9 - الرفاعي.. رواية.
10 - خطط الغيطاني.. رواية.
11 - كتاب التجليات (السفر الأول).. رواية.
12 - كتاب التجليات (السفر الثاني).. رواية.
13 - كتاب التجليات (السفر الثالث).. رواية.
14 - إتحاف الزمان بحكاية جلبي السلطان.. مجموعة قصصية.
15 - رسالة في الصبابة والوجد.. رواية.
16 - رسالة البصائر في المصائر.. رواية.
17 - شطح المدينة.. رواية.
18 - هاتف المغيب.. رواية.
19 - ثمار الوقت.. مجموعة قصصية.
20 - أسفار المشتاق.. أدب رحلات.
21 - منتصف ليل الغربة.. مختارات قصصية.
22 - أحراش المدينة.. مختارات قصصية.
23 - المصريون والحرب من صدمة يونيو إلى يقظة أكتوبر.. دراسات ومشاهدات.
24 - حراس البوابة الشرقية (الجيش العراقي في حرب أكتوبر).. دراسات ومشاهدات.
25 - نجيب محفوظ يتذكر.
26 - مصطفى أمين يتذكر.
27 - توفيق الحكيم يتذكر.
28 - ملامح القاهرة في ألف عام.
29 - أسبلة القاهرة.
30 - مقامات بديع الزمان الهمذاني (تحقيق الإمام الشيخ محمد عبده).
31 - شطف النار.. مجموعة قصصية.
32 - مختارات أبي حيان التوحيدي.
33 - مطربة الغروب.. مجموعة قصصية.
34 - سفر البُنيان.. رواية.
35 - حكايات المؤسسة.. رواية.
36 - الخطوط الفاصلة.. ترجمة ذاتية.
37 - خلسات الكرى (دفتر التدوين الأول).
38 - دنا فتدلى (دفتر التدوين الثاني).
39 - رشحات الحمراء (دفتر التدوين الثالث).
40 - نوافذ النوافذ (دفتر التدوين الرابع).
41 - نثار المحور (دفتر التدوين الخامس).
42 - «رنّ» (دفتر التدوين السادس).
43 - دفتر الإقامة (دفتر التدوين السابع).
44 - من دفتر العشق والغربة.
45 - متون الأهرام.
46 - حكاية الخبيئة.
47 - يومياتي المعلنة.
48 - المجالس المحفوظية.
49 - يوميات الحصر.

50 - آفاق الذاكرة.
51 - قوت العيون.
52 - حمام الحمى.. يوميات الحج.
53 - الطريق إلى الجهات الأصلية.
54 - مجرات الروح.
55 - مقاربة الأبد.
56 - ملامح القاهرة في ألف سنة.
57 - مقاصد الأسفار.
58 - مدينة الغرباء.
59 - تجليات مصرية «جولات في القاهرة القديمة» قصائد الحجر.
60 - نزول النقطة - الاستمرارية والانقطاع في الثقافة المصرية.
61 - الأزرق والأبيض.
62 - يمام.

جوائز:

- جائزة الدولة التشجيعية للرواية عام 1980
- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى.
- وسام الاستحقاق الفرنسي من طبقة فارس 1987
- جائزة الصداقة العربية - الفرنسية للرواية 1992
- جائزة لوربتايون لأفضل عمل روائي مُترجم إلى الفرنسية 2002.
- جائزة سلطان العويس للرواية 1997
- جائزة الدولة للرواية 2008.
- جائزة الرواية العربية - فرنسا 2005.
- جائزة الشيخ زايد للرواية - 2010.



يُجذر شجرة أدبه في التراث العربي الثري، إنه يمر من خلال الحاضر إلى الماضي، يعيد تحديث ما فات، يلعب باللاماضي ويكشف عن قدم الجديد واستحالة استمراره.

الأديب الإسباني، خوان غويتيسولو

استطاع جمال الغيطاني، بجهده الشخصي ودأبه العبقري وثقافته الذاتية، أن يعتصر روح الوجود المقطرة في اللغة والضائعة في الذاكرة حتى ينقض عليها، يحملها في منقاره لسماء الأدب، لكنه قد يتخذ أحيانًا سمت الباحث المدقق في التراث، فيصل إلى نتائج تخيلية يأباها التاريخ الأدبي كما فعل مع كليلة ودمنة فلم ينكر أصولها فحسب، بل شكك في وجود ابن المقفع ذاته، فكأنه يريد أن يلف في إهابه حقائق التاريخ بالتأويل التخيلي، حتى يصبح الوهم قرين الواقع وتتحول شخوص التاريخ إلى دمى في يد المبدع الفذ.

الدكتور: صلاح فضل

هذه الحكايات الهائمة بالنسبة لكاتبها هي وقفات، ولكنها ليست أمام نص مكتوب، بمقدار ما هي وقفات أمام مسار الحياة على الجملة، يستقطر فيها واضع النص خبرته وحكمته وتجاربه، ويمزج فيها- على نحو مدهش- بين الفلسفة والأسطورة والواقعية والحواديتية إذا جاز التعبير.

الكاتب الدكتور: عمرو عبد السميع

6 221133 350426




دار نهضة مصر